التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين
إبن تيمية
ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨هـ
رحمه الله تعالى

الجزء السادس

تحقيق وتعليق
الدكتور
عبد الرحمن عميرة
عضو اللجنة العلمية الدائمة
بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت . لبنان

سورة الفرقان

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ :

فصـــل

الكبائر وقوى الإنسان الثلاث

أكبر الكبائر ثلاث :

الكفر ، ثم قتل النفس بغير الحق ، ثم الزنا كما رتبها الله في قوله : **﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾**[1] .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟

قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك

قلت : ثم أي ؟ .

قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

قلت : ثم أي ؟

قال : أن تزاني بحليلة جارك[2] .

ولهذا الترتيب وجه معقول ، وهو أن قوى الإنسان ثلاث : قوة العقل ،

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٦٨ .

(٢) الحديث رواه الأمام البخاري في كتاب التفسير ، ورواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ، وأبو داود في كتاب الطلاق ، والإمام الترمذي في كتاب (التفسير) والنسائي في الإيمان ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٠ (حلبي) .

وقوة الغضب وقوة الشهوة .

فأعلاها القوة العقلية ـ التي يختص بها الإنسان دون سائر الدواب ، وتشركه فيها الملائكة كما قال أبو بكر عبد العزيز من أصحابنا وغيره : خلق للملائكة عقول بلا شهوة . وخلق للبهائم شهوة بلا عقل ، وخلق للإنسان عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ـ ومن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه .

ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة ، ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة .

ومن الطبائعيين من يقول : القوة الغضبية هي الحيوانية لاختصاص الحيوان بها دون النبات ، والقوة الشهوية هي النباتية لإشتراك الحيوان والنبات فيها ، واختصاص النبات بها دون الجماد .

لكن يقال : إن أراد أن نفس الشهوة مشتركة بين النبات والحيوان فليس كذلك ، فإن النبات ليس فيه حنين ولا حركة إرادية ولا شهوة ولا غضب ، وإن أراد نفس النمو والإغتذاء فهذا تابع للشهوة وموجبها وله نظير في الغضب ، وهو أن موجب الغضب وتابعه هو الدفع والمنع ، وهذا معنى موجود في سائر الأجسام الصلبة القوية ، فذات الشهوة والغضب مختص بالحي وأما موجبها من الإعتداء والدفع فمشترك بينهما ، وبين النبات القوي ، فقوة الدفع والمنع موجود في النبات الصلب القوي دون اللين الرطب ، فتكون قوة الدفع مختصة ببعض النبات ، لكنه موجود في سائر الأجسام الصلبة فبين الشهوة والغضب عموم وخصوص .

وسبب ذلك أن قوى الأفعال في النفس إما جذب وإما دفع ، فالقوة الجاذبة الجالية للملائم هي الشهوة وجنسها من المحبة والإرادة ، ونحو ذلك .

والقـوة الـدافعـة المـانعـة للمنـافي هي الغضب وجنسهـا : من البغض والكراهة ، وهذه القوة باعتبار القدر المشترك بين الإنسـان والبهائم هي مـطلق الشهـوة والغضب وبـاعتبـار مـا يختص بـه الإنسـان العقـل والإيمـان والقـوى الروحانية المعترضة .

فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة الإيمانية ، ولهذا لا يوصف به من لا تمييز له .

والقتـل نـاشىء عن القـوة الغضبيـة وعـدوان فيهـا ، والـزنـا عن القـوة الشهوانية .

فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية والزنا اعتداء وفساد في القوى الشهوانية .

ومنـه وجه آخـر ظاهـر ، أن الخلق خلقهم الله لعبـادتـه وقـوام الشخص بجسده ، وقوام النوع بالنكاح والنسل فالكفر فساد المقصود الـذي له خلقـوا ، وقتـل النفس فساد النفـوس الموجـودة ، والزنـا فساد في المنتـظر من النـوع ، فذاك إفساد الموجود وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسـد مالاً مـوجوداً ، أو منع المنعقد أن يوجد ، وإعدام الموجود أعظم فسـاداً ، فلهذا كـان الترتيب كذلك .

ومن وجـه ثالث أن الكفـر فساد القلب والـروح الذي هـو ملك الجسـد والقتل افساد للجسد الحامل له ، واتلاف الموجـود ، وأما الـزنا فهـو فساد في صفـة الوجـود لا في أصله لكن هذا يختص بـالـزنـا ومن هنـا يتبين أن اللواط اعظم فساداً من الزنا .

فصل
في خصائص البشر

وباعتبار القوى الثلاث انقسمت الأمم التي هي أفضل الجنس الإنساني ، وهم العرب والروم والفرس فإن هذه الأمم هي التي ظهرت فيها الفضائل الإنسانية وهم سكان وسط الأرض طولاً وعرضاً ، فأما من سواهم كالسودان والترك ونحوهم فتبع .

فغلب على العرب القوة العقلية النطقية ، واشتق اسمها من وصفها ، فقيل لهم : عرب من الأعراب وهو البيان والإظهار ، وذلك خاصة القوة المنطقية . وغلب على الروم القوةُ الشهوية من الطعام والنكاح ونحوهما ، واشتق اسمها من ذلك فقيل لهم : الروم فإنه يقال : رمت هذا أرومه ، إذا طلبته واشتهيته وغلب على الفرس القوة الغضبية من الدفع والمنع والإستعلاء والرياسة ، واشتق اسمها من ذلك فقيل : فرس .

كما يقال فرسه يفرسه إذا قهره وغلبه .

ولهذا توجد هذه الصفات الثلاث غالبة على الأمم الثلاث حاضرتها وباديتها .

ولهذا كانت العرب أفضل الأمم ، وتليها الفرس لأن القوة الدفعية أرفع ، وتليها الروم .

فصــل
في أنواع الفضائل

وباعتبار هذه القوى كانت الفضائل ثلاثاً :

فضيلة العقل ، والعلم ، والإيمان التي هي كمال القوة المنطقية ، وفضيلة الشجاعة التي هي كمال القوة الغضبية ، وكمال الشجاعة هو الحلم كما قال النبي ﷺ : «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[1] .

والحلم والكرم ملزوزان في قرن ، كما أن كمال القوة الشهوية العفة ، فإذا كان الكريم عفيفاً ، والسخي حليماً اعتدل الأمر .

وفضيلة السخاء والجود التي هي كمال القوة الطلبية الحبية ، فإن السخاء يصدر عن اللين والسهولة ورطوبة الخلق ، كما تصدر الشجاعة عن القوة والصعوبة ويبس الخلق ، فالقوة الغضبية هي قوة النصر والقوة الشهوية قوة الرزق ، وهما المذكوران في قوله ﴿ **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴾[2] .

---

(١) الحديث رواه صاحب الموطأ في كتاب حسن الخلق ١٢ وحدثني عن مالك عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وذكره .
وأخرجه البخاري في ٧٨ كتاب الأدب ٧٦ باب الحذر من الغضب ومسلم في ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ٣٠ باب فضل من يمسك نفسه عند الغضب حديث ١٠٧ .

(٢) سورة قريش آية رقم ٤ .

والرزق والنصر مقترنان في الكتاب والسنة وكلام الناس كثيراً .

وأما الفضيلة الرابعة التي يقال لها العدالـة فهي صفة منتـظمة للثـلاث ، وهو الإعتدال فيها ، وهذه الثلاث الأخيرات هي الأخـلاق العملية ، كمـا جاء من حـديث سعد لمـا قال فيـه العبيسي إنه لا يقسم بـالسويـة ، ولا يعـدل في القضية ، ولا يخرج في السرية .

فصــل
في تقسيم الأمم

وبـاعتبـار القـوى الثـلاث كـانت الأمم الثـلاث : المسلمــون واليهـود والنصارى .

فـإن المسلمين فيهم العقل والعلم والإعتـدال في الأمور ، فـإن معجـزة نبيهم هي علم الله وكلامه وهم الأمة الوسط .

وأمـا اليهـود فـأضعفت القـوة الشهـويـة فيهم ، حتى حـرم عليهم من المطاعم والملابس مـا لم يحرم على غيـرهم ، وأمروا من الشـدة والقوة بمـا أمروا به ، ومعاصيهم غالبها من باب القسوة والشدة لا من باب الشهوة .

والنصـارى أضعفت فيهم القوة الغضبيـة فنهوا عن الإنتقـام والإنتصـار ، ولم تضعف فيهم القوة الشهوية ، فلم يحرم عليهم من المطاعم ما حـرم على من قبلهم ، بـل أحـل لهم بعض الذي حرم عليهم ، وظهـر فيهم من الأكـل والشرب والشهوات ما لم يظهر في اليهود ، وفيهم من الرقة والرأفة والرحمة ما ليس في اليهـود ، فغالب معـاصيهم من باب الشهـوات لا من باب الغضب . وغالب طاعاتهم من باب النصر لا من باب الرزق .

ولما كان في الصوفية والفقهاء عيسوية مشروعة أو منحرفـة كان فيهم من الشهـوات ، ووقع فيهم من ميـل إلى النساء والصبيـان والأصوات المطربة مـا يذمون به .

ولما كان في الفقهاء موسوية مشروعة أو منحرفة كان فيهم من الغضب ، ووقع فيهم من القسوة والكبر ، ونحو ذلك ما يذمون به .

فصـــل
في القوة الشهوية والغضبية

جنس القوة الشهويـة الحب ، وجنس القوة الغضبيـة البغض ، والغضب والبغض متفقـان في الإشتقـاق الأكبـر ؛ ولهـذا قـال النبي ﷺ : « أوثق عـرى الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله » فإن هاتين القوتين هما الأصل .

وقال: «من أحب الله ، وأبغض الله، وأعطى لله ومنـع لله فقد استكمـل الإيمان » .

فالحب ، والبغض هما الأصل والعطاء عن الحب وهو السخاء ، والمنع عن البغض ، وهو الشجاعة فأما الغضب فقد يقال : هو خصـوص في البغض وهـو الشـدة التي تقـوم في النفس التي يقتـرن بهـا غليـان دم القلب لـطلب الإنتقام ، وهذا هـو الغضب الخاص ، ولهـذا تعدل طـائفة من المتكلمين عن مقابلة الشهوة بالغضب إلى مقابلتها بالنفرة ، ومن قابل الشهوة بالغضب فيجب أن لا يـريد الغضب الخـاص ، فإن نسبـة هـذا إلى النفـرة نسبـة الـطمـع إلى الشهوة ، فأما الغضب العام فهو القسوة الدافعة البغضية المقابلة للقوة الجاذبـة الحبية .

فصـــل

فعل المأمور به صادر عن القوة الإرادية الحبية الشهـوية ، وتـرك المنهى عنه صادر عن القوة الكراهية البغضية الغضبية النفرية ، والأمر بالمعروف صادر عن المحبة والإرادة ، والنهي عن المنكر صادر عن البغض والكراهة ، وكذلك الترغيب في المعروف ، والترهيب عن المنكر والحض على هذا ، والزجر عن هذا .

ولهذا لا تكف النفوس عن الظلم إلا بالقـوة الغضبية الدفعية ، وبـذلك يقوم العدل والقسط في الحكم ، والقسم ، وغير ذلك .

كما أن الإحسان يقوم بالقـوة الجذبيـة الشهويـة ، فإن انـدفاع المكـروه بدون حصول المحبوب عدم ، إذ لا محبوب ولا مكروه ، وحصـول المحبوب والمكروه وجود فاسد إذ قد حصلا معاً ، وهما متقـابلان في التـرجيح ، فـربما يختار بعض النفوس ، هـذا او يختار بعضهـا هذا ، وهـذا عند التكـافؤ ، وأما المكروه اليسير مع المحبوب الكثير ، فيترجح فيه الـوجود ، كمـا أنه المكـروه الكثير مع المحبوب اليسير يترجح فيه العدم .

لكن لمـا كان المقتضى لكـل واحد من المحبـوب والمكروه الـذي هـو الخير والشر موجوداً ، وبتقدير وجودهما يحصـل النصر كـالرزق مـع الخوف ، صار يعظم في الشرع والطبـع دفع المكـروه ، اما في الشـرع فبالتقـوى ، فإن

اسمها في الكتاب والسنة والإجماع عظيم ، والعاقبة لأهلها والثواب لهم وأما في الطبع فتعظيم النفوس لمن نصرهم بدفع الضرر عنهم من عدو أو غيره ، فإن أهل الرزق معظمون لأهل النصر أكثر من تعظيم أهل النصر لأهل الرزق ، وذاك ـ والله أعلم ـ لأن النصر بلا رزق ينفع ، فإن الأسباب الجالبة للرزق موجودة تعمل عملها ، وأما الرزق بلا نصر فلا ينفع ، فإن الأسباب الناصرة تابعة ، وفي هذا نظر فقد يقال : هما متقابلان فإن أهل النصر يحبون أهل الرزق أكثر مما يحب أهل الرزق لأهل النصر فإن الرزق محبوب ، والنصر معظم .

وقد يقال : بل النصر أعظم كما تقدم ، فإن اندفاع المكروه محبوب أيضاً ، وهو لا يحصل إلا بقوة الدفع التي هي أقوى من قوة الجذب ، فاختص الناصر بالتعظيم لدفعه المعارض ، وأما الرازق فلا معارض له ، بل له موافق ، فالناصر محبوب معظم ، وقد يقابل هذا بأن يقال : وفوات المحبوب مكروه أيضاً ، والمحبوب لا يحصل إلا بقوة الجذب ، ولا نسلم أن قوة الدفع أقوى ، بل قد يكون الجذب أقوى ، بل الجذب في الأصل أقوى ؛ لأنه المقصود بالقصد الأول والدفع خادم تابع له ، وكما أن الدافع دفع المعارض فالجاذب حصل المقتضى ، وترجيح المانع على المقتضى غير حق ، بل المقتضى أقوى بالقول المطلق ، فإنه لا بد منه في الوجود .

وأما المانع فإنما يحتاج إليه عند ثبوت المعارض ، وقد لا يكون معارض ، فالمقتضى والمحبة هو الأصل والعمدة في الحق الموجود ، والحق المقصود ، وأما المانع والبغضة فهو الفرع والتابع .

ولهذا كتب الله في الكتاب الموضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي .

ولهذا كان الخير في أسماء الله وصفاته ، وأما الشر ففي الأفعال كقوله :

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيْمُ ﴾[1].

وقوله : ﴿ اعْلَمُوْا أَنَّ اللَّه شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2].

يبقى أن يقال : فلم عظمت التقوى ؟

فيقال : إنها هي تحفظ الفطرة وتمنع فسادها ، واحتاج العبد إلى رعايتها لأن المحبة الفطرية لا تحتاج إلى محرك . ولهذا كان أعظم ما دعت إليه الرسل الإخلاص والنهي عن الإشراك ؛ لأن الإقرار الفطري حاصل لوجود مقتضيه ، وإنما يحتاج إلى اخلاصه ، ودفع الشرك عنه.

ولهذا كانت حاجة الناس إلى السياسة الدافعة لظلم بعضهم عن بعض ، والجالبة لمنفعة بعضهم بعضاً كما أوجب الله الزكاة النافعة وحرم الربا الضار ، وأصل الدين هو عبادة الله الذي أصله الحب والإنابة والإعراض عما سواه ، وهو الفطرة التي فطر عليها الناس.

وهذه المحبة التي هي أصل الدين : انحرف فيها فريق من منحرفة الموسوية من الفقهاء والمتكلمين حتى أنكروها وزعموا أن محبة الله ليست إلا إرادة عبادته ، ثم كثير منهم تاركون للعمل بما أمروا به ، فيأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وهذا فاش فيهم وهو عدم المحبة والعمل .

وفريق من منحرفة العيسوية من الصوفية والمتعبدين خلطوها بمحبة ما يكرهه ، وأنكروا البغض والكراهية ، فلم ينكروا شيئاً ، ولم يكرهوه ، أو قصروا في الكراهة والإنكار ، وأدخلوا فيها الصور والأصوات ، ومحبة الأنداد .

ولهذا كان لغواة الأولين وصف الغضب واللعنة الناشىء عن البغض ،

---

(١) سورة الحجر آية ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٩٨ .

لأن فيهم البغض دون الحب ، وكان لضلال الآخـرين وصف الضلال والغلو ، لأن فيهم محبة لغير معبود صحيح ، ففيهم طلب وإرادة ومحبـة ، ولكن لا إلى مطلوب صحيح ولا مراد صحيح ، ولا محبوب صحيح ، بـل قد خلطوا وغلوا وأشركوه ، ففيهم محبة الحق والباطل وهو وجود المحبوب والمكروه ، كما في الآخرين بغض الحق والباطل ، وهو دفـع المحبوب والمكـروه ، والله سبحانـه يهدينا صراطه المستقيم .

فيحمد من هؤلاء محبة الحق والإعتراف به ، ومن هؤلاء بغض البـاطل وإنكاره .

سورة النمل

قال شيخ الإسلام :

هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ فيها .

منها قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾(١) الآية .

المشهور عن السلف أن الحسنة : لا إله إلا الله وأن السيئة الشرك .

وعن السدي قال : ذلك عند الحساب ألغى بدل كل حسنة عشر سيئات ، فإن بقيت سيئة واحدة فجزاؤه النار إلا أن يغفر الله له .

قلت : تضعيف الحسنة إلى عشر والى سبعمائة ثابت في الصحاح وأن السيئة مثلها ، وأن الهم بالحسنة حسنة ، والهم بالسيئة لا يكتب .

فأهل القول الأول قالوه لأن أعمال البر داخلة في التوحيد فإن عبادة الله بما أمر به كما قال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾(٢)الآية .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾(٣)الآية .

---

(١) سورة النمل آية رقم ٨٩ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١١٢ .

(٣) سورة إبراهيم آية رقم ٢٤ .

فالكلمة الطيبة التوحيد ، وهي كالشجرة ، والأعمال ثمارها في كل وقت ، وكذلك السيئة هي العمل لغير الله وهذا هو الشرك ، فإن الإنسان حارث همام لا بد له من عمل ، ولا بد له من مقصود يعمل لأجله ، وإن عمل لله ولغيره فهو مشرك .

والذنوب من الشرك فإنها طاعة للشيطان ، قال : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾[1] الآية .

وقال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾[2] الآية .

وفي الحديث : « وشر الشيطان وشركه » .

لكن إذا كان موحداً وفعل بعض الذنوب نقص توحيده كما قال « لا يزني الزاني » الخ .

ومن ليس بمؤمن فليس بمخلص .

وفي الحديث : تعس عبد الدينار وعبد الدرهم . الخ .

وحديث أبي بكر . . « قل : اللهم إني أعوذ بك أن اشرك بك شيئاً وأنا أعلم » . الخ .

لكن إذا لم يعدل بالله غيره فيحبه مثل حب الله .

بل الله أحب إليه ، وأخوف عنده ، وأرجى من كل مخلوق ، فقد خلص من الشرك الأكبر .

---

(١) سورة إبراهيم آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة يس آية رقم ٦٠ .

سورة الأحزاب

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ النَّبِي أَوْلَى بِالمؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمهَّاتُهُم ، وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُم أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُهَاجِرِيْنَ إلاَّ أَنْ تَفْعَلوا إلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوْفاً كَانَ ذلِك فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾[1] .

دليل على مثل معنى الحديث الصحيح : «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك كلاً أو ضياعاً فعلي »[2] .

حيث جعله الله أولى بهم من أنفسهم . ثم جعل الأقارب بعضهم أولى ببعض ؛ لأن كونه أولى بهم من أنفسهم يقتضي أن يكون أولى بهم من أولي أرحامهم وذلك لا يقتضي ملك مالهم أحياء فكذلك أمواتاً ، وإنما يقتضي حمل الكل والضياع من ماله ، وهو الخمس ، أو خمسه أو مال الفيء كله ، على الخلاف المعروف .

وفيه دليل على أن الأولوية المقتضية للميراث المذكورة في قوله ﷺ : فلأولى رجل ذكر » .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٦ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الكفالة ، ورواه الإمام مسلم في كتاب الجمعة ، ورواه أبو داود في كتاب البيوع ، والإمام الترمذي في الجنائز ، والنسائي في العيدين ، وابن ماجه في المقدمة والإمام احمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢١٨ (حلبي) .

مشروطة بالإيمان ، وهذه الآية المقيدة تقضي على تلك المطلقة في الأنفال لثلاثة أوجه :

أحدها : أن هذه في سورة الأحزاب بعد الخندق وتلك في الأنفال عقب بدر .

الثاني : أن هذا مطلق ومقيد في حكم واحد ، وسبب واحد ، والحكم هنا متضمن للإباحة والإستحقاق ، والتحريم على الغير ، وإيجاب الإعطاء .

الثالث : أن آية الأنفال ذكر فيها الأولوية بعد أن قطع الموالات بين المؤمنين والكافرين أيضاً ، فهي دليل ثان وهاتان الآيتان تفسر المطلق في آية المواريث ، ويكون هذا تفسير القرآن بالقرآن ، وإن كان قوله : « لا يرث الكافر المسلم » موافقاً له .

فأما ميراث المسلم من الكافر ففيه الخلاف الشاذ فنستفيد من الآيتين أيضاً مع الحديث ، ويدخل في الآيتين سائر الولايات من المناكح والأموال والعقل والموت .

وفي قوله : ﴿ **إلاَّ أَنْ تَفْعَلُوْا إلى أَوْليائكم معروفاً** ﴾ . دليل على الوصية كآيات النساء .

قوله : ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ** ﴾[1] الآية دليل على أن ما أبيح له كان مباحاً لأمته ؛ لأنه أخبر أن التزويج كان لمنع الحرج عن الأمة في مثل ذلك التزويج ، فلولا أن فعله المباح له يقتضي الإباحة لأمته لم يحسن التعليل ، وهذا ظاهر .

وأيضاً فإنه إذا كان ذلك في تزويجه امرأة الدعي الذي كان يعتقد أن

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٧ .

تزوجها حرام ، ففي ما لا شبهة فيه أولى وأيضاً إذا كان هـذا في النكاح الـذي خص فيـه من المباحـات بما لم تشـركه أمتـه ، كالنكـاح بـلا عـدد ، وتـزوج المـوهوبـة بلا مهـر ، وقد بين أن إبـاحة عقـدة النكاح دليـل على إباحـة ذلك لأمته ، ففيما لم يظهر خصوصية فيه كالنكاح أولى وهذا يـدل على أن سائـر ما أبيح له مباح لأمته ، إلا ما خصه الـدليل من المعـاملات والأطعمـة واللباس ، ونحو ذلك .

وأيضـاً فيدل على هـذا الأصل قـوله : في سيـاق ما أحله لـه ﴿ **وَامْـرأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إنْ أَرادَ النبيُّ أَن يَسْتَنْكِحَها خَالِصَـةً لَكَ مِنْ دُوْنِ المُؤْمِنِيْنَ قَـدْ عَلِمْنَا مَـا فَرَضْنـا عَلَيْهِمِ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُم لِكَيْلَا يَكُوْنَ عَلَيْكَ حَرَجٌ** ﴾[1]من وجهين :

أحـدهما : أنـه لما أحـل له الـواهبـة قـال : ﴿ **خـالصـة لـك من دون المؤمنين** ﴾ .

ليبين اختصـاصه بـذلك ، فعلم أنـه حيث سكت عن الإختصـاص كـان الإشتراك ثابتاً ، وإلا فلا معنى لتخصيص هذا الموضع ببيان الإختصاص .

الثاني : أنه مـا أحله من الأزواج ومن المملوكات ومن الأقـارب أطلق ، وفي الموهوبة قيدها بالخلوص له ، فعلم أن سكوته عن التقييد في أولئك دليل الإشتراك .

فإن قيل : السكوت لا يدل على واحد منهما ، والتقييـد بالخلوص ينفي الإشتراك فتكون فائدته أن لا يظن الإشتراك بدليل منفصل ، فإن التحليل له لا يـدل على الإختصاص قـطعاً ، لكن هـل يدل على الإشتـراك أم لا يـدل على واحد منهما ؟ .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٥٠ .

هذا موضع التردد ، فإذا قيد بالخلوص دل على الإختصاص .

قيل : لو لم يدل على الإشتراك لم يثبت الحكم في حق الأمة لانتفاء دليله ، كما أن ما سكت عنه من المحرمات لم يثبت الحكم لانتفاء دليله .

وهنا إما أن يقال : كانوا يستحلونه على الأصل وليس كذلك ، لأن الفروج محظورة إلا بالتحليل الشرعي فكان يكون محظوراً عليهم فلا يحتاج إلى إخلاصه له ، لو لم يكن الخطاب المطلق يقتضي الإشتراك والعموم ، وأنه من باب الخاص في اللفظ العام في الحكم .

وأصل هذا أن اللفظ في اللغة قد يصير بحسب العرف الشرعي ، أو غيره أخص أو أعم ، فالخطاب له وإن كان خاصاً في اللفظ لغة فهو عام عرفاً ، وهو مما نقل بالعرف الشرعي من الخصوص إلى العموم .

كما ينقل مثل ذلك في مخاطبات الملوك ونحو ذلك وهو كثير ، كما أن العام قد يصير بالعرف خاصاً وأيضاً فإنه يبني ذلك على أصل دليل الخطاب وأن التخصيص بالذكر مع العام المقتضي للتعميم يدل على التخصيص بالحكم ، فلما خص خطاب الموهوبة بذكر الخلوص دل على انتفاء الخلوص عن الباقي وإنما انتفاء الخلوص عن الباقي بعدم ذكر الخلوص مع إثبات التحليل للرسول ﷺ ، فعلم أن إثبات التحليل له مع عدم تخصيصه به يقتضي العموم .

وعلى هذا فالخطاب الذي مخرجه في اللغة خاص ثلاثة أقسام :

إما أن يدل على العموم ، كما في العام عرفاً ، مثل خطاب الرسول ، والواحد من الأمة ، ومثل تنبيه الخطاب كقوله : لا أشرب لك الماء من عطش ومثقال حبة ، وقنطار ، ودينار .

وإما أن يدل على اختصاص المذكور بالحكم ونفيه عما سواه ، كما في مفهوم المخالفة إذا كان المقتضي للتعميم قائماً ، وخص أحد الأقسام بالذكر

وإما أن لا يدل على واحد منها لفظاً ثم يوجد العموم من جهة المعنى ، إما من جهة قياس الأولى ، وإما من جهة سائر أنواع القياس .

ويجب الفرق بين تنبيه الخطاب ، وبين قياس الأولى فإن الحكم في ذاك مستفاد من اللفظ عمهما عرفاً [و] خطا [با] وهنا مستفاد من الحكم بحيث لو دل على الحكم فعل أو إقرار ، أو خطاب يقطع معه بأن المتكلم لم يرد إلا الصورة ، لكان ثبوت الحكم لنوع يقتضي ثبوته لما هو أحق به منه ؛ فالعموم هنا معنوي محض ، وهناك لفظي ومعنوي ، فتدبر هذا فإنه فصل بين المتنازعين من أصحابنا وغيرهم في التنبيه هل هو مستفاد من اللفظ ، أو هو قياس جلي ؟ .

لتعلم أنه قسمان :

والفرق أن المستفاد من اللفظ يريد المتكلم به العموم ويمثل بواحد تنبيهاً كقول النحوي : ضرب زيد عمراً بخلاف المستفاد من المعنى .

والآية المتقدمة وهي قوله : ﴿ زوجناكها لكي لا ﴾ تدل على أن أفعاله ﷺ تقتضي الإباحة لأمته ، مع القطع بأن الفعل في نفسه لا يعم لفظاً ووضعاً ، وإنما يعم بما ثبت من أن الأصل الإشتراك والإيتاء ، ويدل على ذلك أيضاً قوله في السورة : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُم فِي رَسُوْلِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الآية . فإن فيها التأسي فيما أصابه .

ومتى ثبت الحكم في الايتاء به في حكمه عندما أصابه كان كذلك فيما فعله ، إذا المصاب عليه فيه واجبات ومحرمات ، فدلت هذه الآية على أن الأصل مشاركته في الإيجاب والحظر ، كما دلت تلك على أن الأصل مشاركته في الإحلال .

قوله : ﴿ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ (1) الآية .

---

1 ـ سورة الأحزاب آية رقم ٥٩

دليل على أن الحجاب إنما أُمر به الحرائر دون الإماء لأنه خص أزواجه وبناته ، ولم يقل وما ملكت يمينك وإمائك وإماء أزواجك وبناتك . ثم قال : ﴿ **ونساء المؤمنين** ﴾ والإماء لم يدخلن في نساء المؤمنين ، كما لم يدخل في قوله ﴿ **نسائهن** ﴾ ما ملكت أيمانهن ، حتى عطف عليه في آيتي النور والأحزاب .

وهذا قد يقال : إنما ينبني على قول من يخص ما ملكت اليمين بالإناث .

وإلا فمن قال : هي فيهما أو في الذكور ففيه نظر وأيضاً فقوله : ﴿ **لِلَّذِيْنَ يُؤْلُوْنَ مِنْ نِسَائِهِم** ﴾ وقوله ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم** ﴾ إنما أريد به الممهورات دون المملوكات ، فكذلك هذا فآية الجلابيب في الأردية عند البروز من المساكن وآية الحجاب عند المخاطبة في المساكن ، فهذا مع ما في الصحيح من أنه لما اصطفى صفية بنت حيي ، وقالوا : إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين ، وإلا فهي مما ملكت يمينه ، دل على أن الحجاب كان مختصاً بالحرائر .

وفي الحديث دليل على أن أموة المؤمنين لأزواجه دون سراريه .

والقرآن ما يدل إلا على ذلك ، لأنه قال : ﴿ **وأزواجه أمهاتهم** ﴾ .

وقال :

﴿ **ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً** ﴾ وهذا أيضاً دليل ثالث من الآية ؛ لأن الضمير في قوله : ﴿ **وإذا سألتموهن** ﴾ عائد إلى أزواجه ، فليس للمملوكات ذكر في الخطاب ، لكن إباحة سراريه من بعده فيه نظر .

فصل

« في ألفاظ الطلاق واختلاف العلماء فيها »

من قال أن السراح والفراق صريح في الطلاق لأن القرآن ورد بذلك ، وجعل الصريح ما استعمله القرآن فيه ، كما يقوله الشافعي والقاضي وغيرهما من الأصحاب ، فقوله ضعيف لوجهين :

أحدهما : أن هذا الأصل لا دليل عليه ، بل هو فاسد فإن الواقع أن الناس ينطقون بلغاتهم التي توافق لغة العرب ، أو تخالفها من عربية أخرى عرباً مقررة أو مغيرة لفظاً أو معنى ، أو من عربية مولدة ، أو عربية معربة ، تلقيت عن العجم ، أو عن عجمية ؛ فإن الطلاق ونحوه يثبت بجميع هذه الأنواع من اللغات إذ المدار على المعنى ، ولم يحرم ذلك عليهم أو حرم عليهم فلم يلتزموه ، فإن ذلك لا يوجب وقوع ما لم يوقعوه .

وأيضاً فاستعمال القرآن لفظاً في معنى لا يقتضي أن ذلك اللفظ لا يحتمل غير ذلك المعنى .

« الوجه الثاني » وهو القاصم أن هذه الألفاظ أكثر ما جاءت في القرآن في غير الطلاق ، مثل قوله : **﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدُّونها فمتعوهن وسرحوهن ﴾**[1] .

فهذا بعد التطليق البائن الذي لا عدة فيه أمر بتسريحهن مع التمتيع ،

---

١ ـ سورة الأحزاب آية رقم ٤٩

ولم يرد به إيقاع طلاق ثان ، فإنه لا يقع ولا يؤمر به وفاقاً، وإنما أراد التخلية بالفعل وهو رفع الحبس عنها ، حيث كان النكاح فيه الجمع ملكاً وحكماً ، والجمع حساً وفعلاً بالحبس وكلاهما موجبه ، وهما متلازمان ، فإذا زال الملك أمر بإزالة اليد ، كما يقال في الأموال الملك والحيازة فالقبض في الموضعين تابع للعقد ، فإذا رفع العقد إما بإزالة اليد التي هي القبض .

وقوله : ﴿ **فتعالين امتعكن وأسرحكن** ﴾ .

لا يستدل به على أن التسريح هو التطليق ، فإنه قد يريد به التخلية الفعلية ، حيث قرنه بالمتاع لكن التخلية الفعلية مستلزمة للتطليق ، أو يريد به الأمرين ، ولم يرد به الطلاق وحده ، لأن ذلك لا يفيدهن بل يضرهن .

وكذلك قوله : ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف** ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ **أو فارقوهن بمعروف** ﴾ .

كذلك ، فإن بالرجعية إذا قاربت انقضاء العدة لا يؤمر فيها بتطليق ثان ، إذا لم يرتجعها ، وإنما يؤمر بتخلية سبيلها ، وهو التسريح والفراق بالأبدان بحيث لا يحبسهن ، ولا يستولي عليهن ، كرفع اليد عن الأموال .

قوله :

﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم** ﴾ (٢) .

نص في أنه لا حرج فيما أخطأ به من دعاء الرجل إلى غير أبيه ، أو إلى غير مولاه .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣١ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥ .

ثم قد يستدل به على رفع الجناح في جميع ما أخطأ به الإنسان من قول أو عمل .

إما بالعموم لفظاً ، ويقال : ورود اللفظ العام على سبب مقارن له في الخطاب لا يوجب قصره عليه .

وإما بالعموم المعنوي بالجامع المشترك من أن الأخطاء لا تأثير له في القلب ، فيكون عمل جارحة بلا عمد قلب ، والقلب هو الأصل ، كما قال :

« إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد » .

وإذا كان الأصل لم يعمل شيئاً لم يضر عمل الفروع دونه ، لأنه صالح لا فساد فيه ، فيكون الجسد كله صالحاً ، فلا يكون فاسداً ، فلا يكون في ذلك إثم ، إذ الإثم لا يكون إلا عن فساد في الجسد ، وتكون هذه الآية ردفاً لقوله

﴿ **لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ (١) قال : قد فعلت .

ويؤيده قوله في الأيمان ﴿ **لا يؤاخذكم اللّهُ باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾ (٢) .

﴿ **ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾ فإنه إذا كان اليمين بالله ـ وفيها ما فيها ـ لا يؤاخذ فيها إلا ما كسب القلب ، فغيرها من الأقوال كذلك وأولى .

وإذا كان ما حلف عليه من اليمين يظنه كما حلف عليه فتبين بخلافه ، هو من الخطأ الذي هو اللغو لأن قلبه لم يكسب مخالفة ، كما لو أنه أخبر

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢٥ .

بذلك من غير يمين لم يكن عليه إثم الكاذب ، كما لو دعا الرجل لغير أبيه ومولاه خطأ .

وإذا لم يكن بلا يمين عليه إثم الكاذب لم يكن مع اليمين عليه حكم الحالف المخالف ، إذ اليمين على الماضي حين يؤكد بالقسم ، فكذلك ما حلف عليه من المستقبل ، وفعل المحلوف عليه ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً جاهلاً بأنه المحلوف عليه ، لم يكسب قلبه مخالفة ولا حنثا كما أنه لو وعد بذلك من غير يمين لم يكن مخالفاً ولو أمر به فتركه كذلك لم يكن عاصياً .

وهذا دليل يتناول الطلاق وغيره ، إما من جهة العموم المعنوي ، أو المعنوي واللفظي .

وأي فرق بين أن يقارن اللغو عقد اليمين ، أو يقارن الحنث فيها .

وقوله : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾[1] أي هذا سبب المؤآخذة ؛ لا أنه موجب لها بالإتفاق فيوجد الخطأ في سببها وشرطها.

ومن قال : لا لغو في الطلاق فلا حجة معه ؛ بل عليه ، لأنه لو سبق لسانه بذكر الطلاق من غير عمد القلب ، لم يقع به وفاقاً .

وأما إذا قصد اللفظ به هازلاً فقد عمد قلبه ذكره ، كما لو عمد ذكر اليمين به .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٨٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ـ والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

« سورة الزمـر »

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيميةّ قدس الله روحه .

فصـــل

قد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُـونَ أَحْسَنَهُ ﴾[1] والمـراد بالقول القرآن ، كما فسره بذلك سلف الأمة وأئمتها ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَـا لَمْ يَأْتِ آبَـاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴾[2]واللام لتعـريف القول المعهود ، فإن السورة كلها إنما تضمنت مدح القرآن واستماعه وقد بسطنا هـذا في غيـر هذا المـوضع ، وبينـا فساد قـول من استدل بهـذه على سمـاع الغنـا وغيـره ، وجعلهـا عـامـة ، وبينـا أن تعميمهـا في كـل قـول بـاطـل بـإجمـاع المسلمين .

وهنا سؤال مشهور وهو أنه قال : ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ فقد قسم القول إلى حسن وأحسن ، والقرآن كله متبع وهذا حجتهم . فيقال : الجواب من ثلاثة أوجه : إلزام وحل .

---

(١) سورة الزمر آية رقم ١٨ .
قال ابن عباس : هـو الرجـل يسمع الحسن والقبيـح فيتحدث بـالحسن وينكف عن القبيح فـلا يتحدث به ، وقيـل يستمعون القـرآن وغيره فيتبعـون القرآن ، وقيـل يستمعون عـزماً وتـرخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص . وقال عبد الرحمن بن زيـد : نزلت في زيـد بن عمرو بن نفيـل وأبي ذر الغفـاري وسلمان الفـارسي » اجتنبوا الـطاغوت أن يعبـدوهـا في جـاهليتهم ، واتبعـوا أحسن ما صار من القول إليهم .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٦٨ .

« الأول » أن هذا مثل قوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾(1) ومثل قوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾(2) فقد أمر المؤمنين باتباع أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، وأمر بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسن التوراة ، وهذا أبلغ من تلك الآية ، فإن تلك إنما فيها مدح باتباع الأحسن ، ولا ريب أن القرآن فيه الخبر والأمر بالحسن والأحسن ، واتباع القول إنما هو العمل بمقتضاه ، ومقتضاه فيه حسن وأحسن ، ليس كله أحسن وإن كان القرآن في نفسه أحسن الحديث ، ففرق بين حسن الكلام بالنسبة إلى غيره من الكلام ، وبين حسنه بالنسبة إلى مقتضاه المأمور والمخبر عنه .

« الوجه الثاني » أن يقال : إنه قال : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾(3)والقرآن تضمن خبراً وأمراً ، فالخبر عن الأبرار والمقربين ، وعن الكفار والفجار ، فلا ريب أن اتباع الصنفين حسن ، واتباع المقربين أحسن ، والأمر يتضمن الأمر بالواجبات والمستحبات ، ولا ريب أن الاقتصار على فعل الواجبات حسن وفعل المستحبات معها أحسن ، ومن اتبع الأحسن فاقتدى بالمقربين وتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض كان أحق بالبشرى .

وعلى هذا فقوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ ﴾(4)﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾(5)هو أيضاً أمر بذلك ، لكن الأمر

---

(1) سورة الزمر آية رقم ٥٥ .

قال السدي : الأحسن ما أمر الله به في كتابه ، وقال ابن زيد : يعني المحكمات ، وكلوا علم المتشابه الى عالمه ، وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية .

(2) سورة الأعراف آية رقم ١٤٥ .

(3) سورة الزمر آية رقم ١٧ - ١٨ .

(4) سورة الزمر آية رقم ٥٥ .

(5) سورة الأعراف آية رقم ١٤٥ .

يعم أمر الإيجاب والاستحباب ، فهم مأمورون بما في ذلك من واجب أمر إيجاب ، وبما فيه من مستحب أمر استحباب ، كما هم مأمورون مثل ذلك في قوله : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل وَالإحْسَانِ ، وَإيتَاءِ ذِي القُرْبَى ﴾[1] وقوله : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ ﴾[2] والمعروف يتناول القسمين . وقوله : ﴿ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] وهو يعم القسمين : وقوله : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾[4] وأمثال ذلك .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ وتكملة الآية ﴿ وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٧٧.

(٤) سورة الحج آية رقم ٧٧ .

وقال رحمه الله

فصل

في أنواع السماع

أصل السماع الذي أمر الله به ، هو سماع ما جاء به الرسول ﷺ ، سمع فقه وقبول ، ولهذا انقسم الناس فيه أربعة أصناف : صنف معرض ممتنع عن سماعه ، وصنف سمع الصوت ولم يفقه المعنى ، وصنف فقهه ولكنه لم يقبله ، والرابع الذي سمعه سماع فقه وقبول .

فـ « الأول » كالذين قال فيهم : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾(١) .

و « الصف الثاني » من سمع الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنى ، قال تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾(٢)وقال تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ، يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا**

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٢٦ .

معنى ألغوا فيه . قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول . وقيل : إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن ، وقال مجاهد : المعنى وألغوا فيه : بالمكاء والتصفيق ، والتخليط في المنطق حتى يصير لغواً ، قال الهروي : عارضوه بكلام لا يفهم . والله أعلم .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧١

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْت تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ ؟ . وَمِنْهُم مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ؟ إنَّ الله لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَإذَا قَرأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرْآن وَحْدَهُ وَلَّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبداً ﴾[4] .

وقوله : ﴿ أن يفقهوه ﴾ يتناول من لم يفهم منه تفسير اللفظ كما يفهم بمجرد العربية ، ومن فهم ذلك لكن لم يعلم نفس المراد في الخارج ، وهو : « الأعيان » و « الأفعال » و « الصفات » المقصودة بالأمر والخبر ، بحيث يراها ولا يعلم أنها مدلول الخطاب : مثل من يعلم وصفاً مذموماً ويكون هو متصفاً به ، أو بعضاً من جنسه ولا يعلم أنه داخل فيه وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتولَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[5] قال ذلك بعد قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلاَ تَوَلَّوا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ، وَلاَ تَكُونُوا

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٢٥ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٤٢ ـ ٤٤ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٤٥ ـ ٤٧ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٥٧ .

(٥) سورة الأنفال آية رقم ٢٢ ـ ٢٣ .

﴿ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[1] فقوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾[2] لم يرد به مجرد إسماع الصوت لوجهين .

« أحدهما » أن هذا السماع لا بد منه ولا تقوم الحجة على المدعوين إلا به . كما قال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[3] وقال : ﴿ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[4] وقال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[5].

و « الثاني » أنه وحده لا ينفع ، فإنه قد حصل لجميع الكفار الذين استمعوا القرآن وكفروا به كما تقدم ، بخلاف إسماع الفقه فإن ذلك هو الذي يعطيه الله لمن فيه خير ، وهذا نظير ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[6] وهذه الآية والحديث يدلان على أن من لم يحصل له السماع الذي يفقه معه القول فإن الله لم يعلم فيه خيراً ، ولم يرد به خيراً ، وأن من علم الله فيه خيراً أو أراد به خيراً فلا بد أن يسمعه

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٦ .

(٤) سورة الانعام آية رقم ١٩ .

(٥) سورة الإسراء آية رقم ١٥ .

(٦) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٠ باب قول النبي ـ ﷺ ـ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم .
٧٣١٢ ـ حدثنا اسماعيل ، حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أخبرني حميد . قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول وذكره ، وفيه زيادة (وإنما أنا قاسم ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتي أمر الله . » ورواه الامام مسلم في كتاب الامارة ١٧٥ ، وكتاب الزكاة ٩٨ ـ ١٠٠ والامام الترمذي في كتاب العلم ٤ ، وابن ماجه في المقدمة ١٧ ، والدارمي في المقدمة ٢٤ ، ورقاق ١ ، وصاحب الموطأ في القدر ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ١ ، ٣٠٦ ، ٢ : ٢٣٤ ، ٤ : ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، (حلبي) .

ويفقهه ، إذ الحديث قد بين أن كل من يرد الله به خيراً يفقهه ، فالأول مستلزم للثاني ، والصيغة عامة ، فمن لم يفقهه لم يكن داخلاً في العموم فلا يكون الله أراد به خيراً ، وقد انتفى في حقه اللازم فينتفي الملزوم وكذلك قوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ﴾[1] بين أن الأول شرط للثاني : شرطاً نحوياً ، وهو ملزوم وسبب ، فيقتضي أن كل من علم الله فيه خيراً أسمعه هذا الإسماع ، فمن لم يسمعه إياه لم يكن قد علم فيه خيراً ، فتدبر كيف وجب هذا السماع ، وهذا الفقه ، وهذا حال المؤمنين ، بخلاف الذين يقولون بسماع لا فقه معه ، أو فقه لا سماع معه أعني هذا السماع .

وأما قوله : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُونَ ﴾[2] فقد يشكل على كثير من الناس ، لظنهم أن هذا السماع المشروط هو السماع المنفي في الجملة الأولى ، الذي كان يكون لو علم فيهم خيراً ، وليس في الآية ما يقتضي ذلك ، بل ظاهرها وباطنها ينافي ذلك فإن الضمير في قوله : ﴿ **ولو أسمعهم** ﴾ عائد إلى الضميرين في قوله : ﴿ **ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم** ﴾ وهؤلاء قد دل الكلام على ان الله لم يعلم فيهم خيراً فلم يسمعهم إذ ﴿ **لو** ﴾ يدل على عدم الشرط دائماً وإذا كان الله ما علم فيهم خيراً فلو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، بمنزلة اليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا وهم « الصنف الثالث » . ودلت الآية على أنه ليس لكل من سمع وفقه يكون فيه خير ، بل قد يفقه ولا يعمل بعلمه فلا ينتفع به ، فلا يكون فيه خير ، ودلت أيضاً على أن إسماع التفهيم إنما يطلب لمن فيه خير ، فإنه هو الذي ينتفع به ، فأما من ليس ينتفع به فلا يطلب تفهيمه .

و « الصنف الثالث » من سمع الكلام وفقهه ، لكنه لم يقبله ولم يطع

---

(١) سورة الانفال آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة الانفال آية رقم ٢٣ .

أمره : كاليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَطَعْناً فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾[2] أي تلاوة .

فهؤلاء من « الصنف الأول » الذين يسمعون ويقرأون ولا يفقهون ، ويعقلون - إلى قوله : ﴿ وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾[3] إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4] كما قال في تلك الآية : ﴿ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[5] وقال في النساء : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ، وَبِكُفْرِهِم وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾[6] إلى آخر القصة ، فأخبر

---

(١) سورة النساء آية رقم ٤٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٥ - ٧٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٨٣ - وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث جاءت (وإذا أخذ الله) .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٨٧ - ٨٨ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٤٦ .

(٦) سورة النساء آية رقم ١٥٥ - ١٥٦ .

بذنوبهم التي استحقوا بها ما استحقوه ومنها قولهم ﴿ قلوبنا غلف ﴾ .

فعلم أنهم كاذبون في هذا القول قاصدون به الامتناع من الواجب ولهذا قال: ﴿بل لعنهم الله﴾ و ﴿طبع الله عليها بكفرهم ﴾ فهي وإن سمعت الخطاب وفقهته لا تقبله ولا تؤمن به ، لا تصديقاً له ولا طاعة ، وإن عرفوه كما قال : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[1] .

فـ ﴿ غلف ﴾ جمع أغلف ، وأما ﴿ غلف ﴾ بالتحريك فجمع غلاف . والقلب الأغلف بمنزلة الأقلف ، فهم ادعوا ذلك وهم كاذبون في ذلك ، واللعنة الإبعاد عن الرحمة ، فلو عملوا به لرحموا ، ولكن لم يعملوا به ، فكانوا مغضوباً عليهم ملعونين ، وهذا جزاء من عرف الحق ولم يتبعه ، وفقه كلام الرسل ولم يكن موافقاً له بالإقرار تصديقاً وعملاً .

و « الصنف الرابع » الذين سمعوا سماع فقه وقبول ، فهذا هو السماع المأمور به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ ﴾[2]وقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنَاً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾[3]وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُنْذِرِينَ . قَالُوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابَاً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقَاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾[4]الآيات . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٦ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٨٣ .

(٣) سورة الجن آية رقم ١ ـ٢ .

(٤) سورة الأحقاف آية رقم ٢٩ ـ ٣١ .

قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً ، وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾[1]الآية ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾[2]وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[3]وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾[4]وكذلك قوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ﴾[5] ومثل قوله : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ للمتقين ﴾[6]فالبيان يعم لك من فقهه والهدى والموعظة للمتقين . وقوله : ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[7]وقوله : ﴿ الٓمٓ ، ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ، لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾[8] .

وهنا لطيفة تزيل إشكالاً يفهم هنا ، وهو أنه ليس من شرط هذا المتقي المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن فإن هذا أولاً ممتنع ، إذ لا يكون مؤمناً متقياً من لم يسمع شيئاً من القرآن ، وثانياً أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط لا يجب أن يتقدمه تقدماً زمانياً ،

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٠٧ .
(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢ .
(٣) سورة التوبة آية رقم ١٢٤ ـ ١٢٥ .
(٤) سورة الإسراء آية رقم ٨٢ .
(٥) سورة فصلت آية رقم ٤٤ .
(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٣٨ .
(٧) سورة الجاثية آية رقم ٢٠ .
(٨) سورة البقرة آية رقم ١ ، ٢ .

كاستقبال القبلة في الصلاة ، وثالثاً أن المقصود أن يبين شيئان :

« أحدهما : ـ أن الانتفاع به بالاهتداء والاتعاظ والرحمة هو وإن كان موجباً له ، لكن لا بد مع الفاعل من القابل . إذ الكلام لا يؤثر فيمن لا يكون قابلاً له ، وإن كان من شأنه أن يهدى ويعظ ويرحم وهذا حال كل كلام . ـ

« الثاني » أن يبين أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون ويستدل بعدم الإهتداء به على عدم الإيمان والتقوى ـ كما يقال المتعلمون لكتاب بقراط هم الأطباء ، وإن لم يكونوا أطباء قبل تعلمه ، بل بتعلمه ، وكما يقال : كتاب سيبويه[1] كتاب عظيم المنفعة للنحاة ، وإن كانوا إنما صاروا نحاة بتعلمه ، وكما يقال : هذا مكان موافق للرماة والركاب .

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء أبو بشر الملقب سيبويه إمام النحاة ، وأول من بسط علم النحو ، ولد في احدى قرى شيراز عام ١٤٨ هـ وقدم البصرة فلزم الخليل بن احمد ففاقه وصنف كتابه المسمى « كتاب سيبويه في النحو لم يصنع قبله ولا بعده مثله ، ورحل الى بغداد فناظر الكسائي وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم توفي عام ١٨٠ هـ راجع وفيات الاعيان ١ : ٣٨٤ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٧٨ .

قال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــل
في مصادر المياه في الأرض

قال الله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَـهُ يَنَابِيـعَ فِي الأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْـرِجُ بِهِ زَرْعـاً مُخْتَلِفاً أَلْـوَانُهُ ، ثُمَّ يَهِيـجُ فَتَـرَاهُ مُصْفَـرّاً ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ، إنَّ فِي ذَلكَ لذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الأَلْبَـابِ ﴾(1) .

فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع ، والينابيع جمـع ينبوع وهو منبع الماء ، كـالعين والبئر ، فـدل القرآن على أن مـاء السماء تنبـع منـه الأرض ، والاعتبار يـدل على ذلـك ، فـإنـه إذا كثـر مـاء السمـاء كثـرت الينابيع ، وإذا قل قلت .

وماء السماء ينزل من السحاب ، والله ينشئه من الهواء الذي في الجو ، وما يتصاعد من الأبخرة .

وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء ، ولا هذا أيضـاً معلوماً بالاعتبـار ، فإن المـاء قد ينبـع من بطون الجبـال ، ويكون فيهـا ابخرة يخلق منها الماء ، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل ، كما إذا أخـذ إناء فوضع فيه ثلج ، فإنه يبقى ما أحاط به ماء وهو هواء استحال ماء ، وليس ذلك من ماء السماء ، فعلم أنـه ممكن أن يكون في الأرض مـاء ليس من السماء ، فلا يجزم بأن جميع المياه من ماء السماء ، وإن كان غالبها من ماء السماء.

والله أعلم .

---

(1) سورة الزمر آية رقم ٢١ .

وقال شيخ الإسلام

تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني قدس الله روحه

فصل

في قبول توبة العاصين وأصحاب الذنوب

في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾[١].

وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه الآية في حق التائبين ، وأما آيتا النساء قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[٢] فلا يجوز أن تكون في حق التائبين ، كما يقوله من يقوله من المعتزلة ، فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضاً بنصوص القرآن واتفاق المسلمين ، وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد ، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق ، هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره ، وما عداه لم يجزم بمغفرته ، بل علقه بالمشيئة فقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[٣].

وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيد به من الخوارج

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٤٨ .

والمعتزلة ، فهي ترد أيضاً على المرجئة الواقفية ، الذين يقولون : يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ، ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال : ﴿ **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء ، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله : ﴿ **ويغفر ما دون ذلك** ﴾ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله : ﴿ **لمن يشاء** ﴾ فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هي لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك ، لكنها لبعض الناس ، وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ، ومن لم يغفر له عذب ، وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة ، وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضهم يغفر له ، لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أولاً اعتبار بالموازنة ؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم ، بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة والعدل ، وأيضاً فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن قوله : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً** ﴾[1] فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى ، وإن عظمت الذنوب وكثرت فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه ، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله ، قال بعض السلف إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجريهم على معاصي الله .

والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له ، إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه ، وإما بأن يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة ، بل هو مغلوب معها ، والشيطان قد استحوذ عليه فهو ييأس من توبة نفسه ، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له، وهذا يعتري كثيراً من الناس ، والقنوط يحصل

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

بهذا تارة وبهذا تارة : فالأول كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به مائه ، ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته[1] .

والحديث في الصحيحين . والثاني كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة ، ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب .

وقد تنازع الناس في العبد هل يصير في حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها ، والصواب الذي عليه أهل السنة والجمهور أن التوبة ممكنة من كل ذنب ، وممكن أن الله يغفره ، وقد فرضوا في ذلك من توسط أيضاً مغصوبة ، ومن توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم ، فقيل هذا لا طريق له إلى التوبة ، والصحيح أن هذا إذا تاب قبل الله توبته .

أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا خروجه بنية تخلية المكان وتسليمه إلى مستحقه ليس منهياً عنه ولا محرماً ، بل الفقهاء متفقون على أن من غصب داراً وترك فيها قماشه وماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقها فإنه يؤمر بالخروج منها ، وبإخراج أهله وماله منها ، وإن كان ذلك نوع تصرف فيها ، لكنه لأجل إخلائها .

والمشرك إذا دخل الحرم أمر بالخروج منه وإن كان فيه مرور فيه ، ومثل هذا حديث الأعرابي المتفق على صحته لما بال في المسجد فقام الناس إليه . فقال النبي ﷺ : « لا تزرموه » أي لا تقطعوا عليه بوله ، وأمرهم أن يصبوا على بوله دلواً من ماء ،[2] فهو لما بدأ بالبول كان إتمامه خيراً من أن

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٤ باب ٣٤٧٠ ـ حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن أبي عدي عن شعبة عن قتادة عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً وذكره .

ورواه الامام مسلم في كتاب التوبة ٤٦ ، ٤٧ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الديات باب ٢ واحمد ابن حنبل في المسند ٣ : ٢٠ ، ٤٢ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الأدب ٣٥ باب الرفق في الأمر كله ٦٠٢٥ ـ حدثنا عبد الله =

يقطعوه ، فيلوث ثيابه وبدنه ، ولو زنا رجل بامرأة ثم تاب لنزع ، ولم يكن مذنباً بالنزع ، وهل هو وطء ؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد ، فلو حلف أن لا يطأ امرأته بالطلاق الثلاث ، فالذين يقولون : إنه يقع به الطلاق الثلاث إذا وطئها تنازعوا هل يجوز له وطؤها ؟ على قولين : هما روايتان عن أحمد .

« أحدهما » يجوز كقول الشافعي - و«الثاني» لا يجوز كقول مالك ، فإنه يقول : إذا أجزت الوطء لزم أن يباشرها في حال النزع وهي محرمة ، وهذا إنما يجوز للضرورة لا يجوز ابتداء ، وذلك يقول النزع ليس بمحرم .

وكذلك الذين يقولون إذا طلع عليه الفجر وهو مولج فقد جامع ، لهم في النزع قولان : في مذهب أحمد وغيره ، وأما على ما نصرناه فلا يحتاج إلى شيء من هذه المسائل ، فإن الحالف إذا حنث يكفر يمينه ولا يلزمه الطلاق الثلاث ، وما فعله الناس حال التبين من أكل وجماع فلا بأس به . لقوله : « حتى » .

والمقصود أنه لا يجوز أن يقنط أحد ، ولا يقنط أحداً من رحمة الله ، فإن الله نهى عن ذلك ، وأخبر أنه يغفر الذنوب جميعاً .

فإن قيل قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾[1] معه عموم على وجه الإخبار ، فدل على أن الله يغفر كل ذنب ، ومعلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له ، ولا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة والتواتر والقرآن والإجماع . إذ كان الله أهلك أمماً

= ابن عبد الوهاب ، حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس بن مالك أن أعرابياً بال في المسجد وذكره وقوله (لا تزرموه) بضم أوله وسكون الزاي وكسر الراء من الازرام أي لا تقطعوا عليه بوله ، يقال : زرم البول إذا انقطع وأزرمته قطعته وكذلك يقال في الدمع .

والحديث رواه مسلم في الطهارة ٩٨ ، ١٠٠ والنسائي في الطهارة ١٤ ، والمياه ٣ وابن ماجه في الطهارة ٧٨ ، واحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٩١ ، ٢٢٦ ، (حلبي) .

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

كثيرة بذنوبها ، ومن هذه الأمة من عذب بذنوبه إما قدراً وإما شرعاً في الدنيا قبل الآخرة .

وقد قال تعالى: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾[1] وقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[2] فهذا يقتضي أن هذه الآية ليست على ظاهرها : بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعاً . أي ذلك مما قد يفعله أو أنه يغفره لكل تائب ، لكن يقال : فلم أتى بصيغة الجزم والإطلاق في موضع التردد والتقييد ؟ قيل بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب ، ولم يذكر أنه يغفر لكل مذنب ، بل قد ذكر في غير موضع أنه لا يغفر لمن مات كافراً ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾[3] .

وقال في حق المنافقين : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾[4] لكن هذا اللفظ العام في الذنوب هو مطلق في المذنبين ، فالمذنب لم يتعرض له بنفي ولا إثبات ، لكن يجوز أن يكون مغفوراً له ، ويجوز أن لا يكون مغفوراً له ، إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له ، وإن أصر على ما يناقضها لم يغفر له .

وأما جنس الذنب فإن الله يغفره في الجملة : الكفر والشرك وغيرهما ؛ يغفرها لمن تاب منها ، ليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى ، بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره في الجملة .

وهذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعاً ، وفيها رد على طوائف ، رد على من يقول إن الداعي إلى البدعة لا تقبل توبته ، ويحتجون بحديث

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ .

(٣) سورة محمد آية رقم ٣٤ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٦ .

إسرائيلي ، فيه : « أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت ؟ » وهـذا يقولـه طائفة ممن ينتسب إلى السنة والحديث وليسوا من العلماء بذلك ، كـأبي علي الأهوازي وأمثاله ممن لا يميزون بين الأحـاديث الصحيحة والمـوضوعـة ، وما يحتج به وما لا يحتج به ، بل يروون كل ما في الباب محتجين به .

وقد حكى هذا طائفة قولاً في مذهب أحمد أو رواية عنه ، وظاهر مذهبه مع مذاهب سـائر أئمـة المسلمين أنه تقبـل توبتـه كما تقبـل توبـة الداعي إلى الكفر ، وتوبة من فتن الناس عن دينهم .

وقـد تاب قـادة الأحزاب : مثـل أبي سفيان بن حـرب[١] ، والحارث بن هشـام[٢]وسهيـل بن عمـرو[٣] ،وصفـوان بن أميـة[٤] ،وعكـرمـة بن أبـي جهل[٥] ،وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل ، وكـانوا من أحسن

---

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس توفي عام ٣١ هـ . راجع الاغـاني ٦ : ٨٩ والاصابـة ت ٤٠٤١ وابن عساكر ٦ : ٣٨٨

(٢) هو الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي ابو عبد الرحمن صحابي يضرب المثل ببناته في الحسن والشرف وغلاء المهر ، مدحه كعب بن الأشرف ، وشهد بدراً مع المشركين فانهزم فعيره حسان بن ثابت فاعتذر بأبيات هي احسن ما قيل في الاعتذار من الفرار واسلم يوم فتح مكة مـات بالشـام مجاهـداً عام ١٨ هـ وهـو أخو أبي جهـل [راجـع الأصـابـة ١ :٢٩٣ والاستيعـاب ١ :٣٠٧] .

(٣) هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري . خطيب قـريش وأحد سـادتها في الجـاهلية أسره المسلمون يوم بدر وافتدي فأقام على دينه الى يوم فتح مكة فـاسلم وسكنها ثم سكن المدينة وهـو الـذي تـولى أمـر الصلح بـالحـديبيـة مـات في الـطاعـون في الشـام عـام ١٨ هـ. راجـع الاصابة ٣٥٦٦ وصفة الصفوة ١ : ٣٠٧ .

(٤) هـو صفوان بن أمية . بن خلف بن وهب الجمحي القـرشي المكي أبـو وهب صحـابي . فصيـح جواد . أسلم يوم الفتح ، وكان من المؤلفة قلوبهم وشهد اليرموك ومـات بمكة عـام ٤١ هـ له في كتب الحديث ١٣ حديثاً . راجع تهـذيب التهذيب ٤ : ٤٢٤ والاصـابة من ٤٠٦٨ وتهـذيب ابن عساكر ٦: ٤٢٧ .

(٥) هو عكرمـة بن أبي جهل عمـرو بن هشام المخـزومي القـرشي ، من صنـاديد قـريش في الجـاهليـة والإسلام ، كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأسلم عكرمـة بعد فتـح مكة وحسن اسلامه ـ فشهـد الـوقـائـع وولي الأعمـال لأبي بكـر واستشهـد في اليـرمـوك وعـمـره ٦٢ سنـة =

الناس إسلاماً وغفر الله لهم . قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[1] وعمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين ، وقد قال له النبي ﷺ لما أسلم « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله ؟؟ »[2].

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن ، فأسلم أولئك الجن والإنس يعبدونهم ، ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم ، وإن كانوا هم أضلوهم أولاً .

وأيضاً فالداعي إلى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه ، لكونه قبل من هذا واتبعه ، وهذا عليه وزره ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم ، فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ولا ما حمله هو لأجل إضلالهم ، وأما هم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد ، ولكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى ، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع ، وصاروا دعاة إلى الإسلام والسنة ، وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر ثم أسلموا وختم الله لهم بخير .

ومن ذلك توبة قاتل النفس ، والجمهور على أنها مقبولة ، وقال ابن عباس لا تقبل ، وعن أحمد روايتان ، وحديث قاتل التسعة والتسعين في

= عام ١٣ هـ ، وفي الحديث : لا تؤذوا الأحياء بسبب الموتى .قال المبرد: فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة . راجع تهذيب الأسماء ١ : ٣٣٨ والاصابة ت ٥٦٤٠ وتاريخ الإسلام للذهبي ١ : ٣٨٠ .

(١) سورة الانفال آية رقم ٣٨ .

(٢) الحديث عند الامام احمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٩٨ - ١٩٩ - حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ثنا يعقوب بن إبراهيم قال ثنا أبي عن أبي اسحاق قال حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي عن أبي حبيب بن أبي أوس قال : حدثني عمرو بن العاص من فيه وذكره وفيه زيادة (وأن الهجرة تجب ما كان قبلها) .

الصحيحين دليل على قبول توبته ، وهذه الآية تدل على ذلك ، وآية النساء إنما فيها وعيد في القرآن كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾[1]ومع هذا فهذا إذا لم يتب ، وكل وعيد في القرآن فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس ، فبأي وجه يكون وعيد القاتل لاحقاً به وإن تاب ؟ هذا في غاية الضعف ، ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل ، بل التوبة تسقط حق الله والمقتول مطالبة بحقه ، وهذا صحيح في جميع حقوق الآدميين حتى الدين ، فإن في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين »[2]لكن حق الآدمي يعطاه من حسنات القاتل .

فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول ، فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها ، وهذا الذي قاله قد يقع من بعض الناس ، فيبقى الكلام فيمن تاب وأخلص ، وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم ، هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به ؟ وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس ، لكن هذا كله لا ينافي موجب الآية ، وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب ، الشرك

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الامارة باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين .
حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث عن سعيد بن أبي سعيد عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبي قتادة انه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله ، والإيمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفرعني خطاياي .؟ فقال له رسول الله ﷺ : نعم . إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال : رسول الله ﷺ كيف قلت . . ؟ قال : أرأيت ان قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي فقال رسول الله ﷺ : نعم . وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين ، فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك .

والقتل والزنا ، وغير ذلك من حيث الجملة ، فهي عامة في الأفعال مطلقة في الأشخاص .

ومثل هذا قوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾[(١)] عام في الأشخاص مطلق في أحوال الأرجل ، إذ قد تكون مستورة بالخف واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾[(٢)] عام في الأولاد عام في الأحوال ، إذ قد يكون الولد موافقاً في الدين ومخالفاً وحراً وعبداً واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله : ﴿ يغفر الذنوب ﴾ عام في الذنوب مطلق في أحوالها ، فإن الذنب قد يكون صاحبه تائباً منه ، وقد يكون مصراً ، واللفظ لم يتعرض لذلك ، بل الكلام يبين أن الذنب يغفر في حال دون حال ، فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب ، ونهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة ، فقال : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[(٣)] فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوساً لم يغفر لها ، كالتي كذبت بآياته واستكبرت وكانت من الكافرين ، ومثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها .

فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٥ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث ذكرت (اقتلوا) بدون الفاء .

(٢) سورة النساء آية رقم ١١ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٥٤ ـ ٥٩ .

كُفْراً لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُونَ ﴾[1]وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً ، لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾[2]قيل : إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُول حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ؟ واللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .[3] وقوله : ﴿ كيف يهدي الله ؟ ﴾ أي أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين ، ولهذا قال : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً ، لا يحصل له الهدى إلى أي دين ارتد « والمقصود » أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا .

وكذلك قال في قوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾[4]ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد ، قال : ﴿ ثُمَّ

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٩٠ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٨٦ ـ ٨٩ .

قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيع البصري ، حدثنا يزيد بن زريع حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجل من الانصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة . . ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ـ إلى قوله ـ فإن الله غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم ـ وهكذا رواه النسائي ، والحاكم وابن حبان من طريق داود بن ابي هند وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٠٦ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر عن عبد الكريم =

إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1].

وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ، ثم ذكر من لا تقبل توبته ومن مات كافراً : فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[2]وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالاً : قيل لنفاقهم ، وقيل لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه ، وقيل لن تقبل توبتهم بعد الموت ، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي : لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت ، فيكون هذا كقوله : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾[3].

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً ، لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾[4]قال مجاهد وغيره من المفسرين : إزدادوا كفراً ثبتوا عليه حتى ماتوا .

= الجزري عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ كيف تجد قلبك . .؟ قال : مطمئناً بالإيمان . فقال النبي ﷺ « إن عادوا فعد » ورواه البيهقي بأبسط من ذلك وفيه أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير فشكا ذلك الى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان فقال : إن عادوا فعد . وفي ذلك أنزل الله ﴿ **الا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ .

(١)سورة النحل آية رقم ١١٠ .

(٢)سورة آل عمران آية رقم ٩٠ ـ ٩١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٨ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .

قلت : وذلك لأن التائب راجع عن الكفر ، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر ، فقوله : ﴿ ثم ازدادوا ﴾ بمنزلة قول القائل ثم أصروا على الكفر واستمروا على الكفر وداموا على الكفر ، فهم كفروا بعد إسلامهم ، ثم زاد كفرهم ما نقص ، فهؤلاء لا تقبل توبتهم وهي التوبة عند حضور الموت ، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره ، فلم يزدد بل نقص ، بخلاف المصر إلى حين المعاينة ، فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلاً عن هدمه .

وفي الآية الأخرى قال : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾[1] وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً ، قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره ، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافراً حبط إيمانه ، فعوقب بالكفر الأول والثاني كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قيل : يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر »[2] فلو قال : إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾[3] بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك ، وهو المرتد التائب ، فهذا إذا كفر وازداد كفراً لم يغفر له كفره السابق أيضاً ، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفراً فلا يدخلون في الآية .

والفقهاء إذا تنازعوا في قبول التوبة ممن تكررت ردته أو قبول توبة

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٣٧ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الإيمان باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبي ووكيع ، وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة واللفظ له : حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : قلنا يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية . . ؟ قال : من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٩٠ .

الزنديق ، فذاك إنما هو في الحكم الظاهر ، لأنه لا يوثق بتوبته ، أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله في الباطن فإنه يدخل في قوله : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾[1] .

ونحن حقيقة قولنا أن التائب لا يعذب لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لا شرعاً ولا قدراً ، والعقوبات التي تقام من حد أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأنه زنا أو سرق أو شرب ، فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها ، ولو دريء الحد بإظهار هذا لم يقم حد ، فإنه كل من تقام عليه البينة يقول قد ثبت ، وإن كان تائباً في الباطن كان الحد مكفراً وكان مأجوراً على صبره ، وأما إذا جاء هو بنفسه فاعترف وجاء تائباً ، فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد في ظاهر مذهب أحمد ، نص عليه في غير موضع . وهي من مسائل التعليق ، واحتج عليها القاضي بعدة أحاديث ، وحديث الذي قال « أصبت حداً فأقمه علي فأقيمت الصلاة » يدخل في هذا لأنه جاء تائباً ، وإن شهد على نفسه كما شهد به ماعز والغامدية واختار إقامة الحد أقيم عليه وإلا فلا ، كما في حديث ماعز « فهلا تركتوه ؟ » والغامدية ردها مرة بعد مرة . فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا ، ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذي يذنب سراً ، وليس على أحد أن يقيم عليه حداً ، لكن إذا اختار هو أن يعترف ويقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائباً ، وهذا كقتل الذي ينغمس في العدو هو مما يرفع الله به درجته كما قال النبي ﷺ : « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له .[2]وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ؟ ! » .

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الحدود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن نمير ، وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير (وتقاربا في لفظ الحديث) حدثنا أبي ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه وذكره . =

وقد قيل في ماعز إنه رجع عند الإقرار ، وهـذا هو أحـد القولين فيـه في مـذهب أحمد وغيـره ، وهـو ضعيف والأول أجـود ، وهؤلاء يقـولـون : سقط الحـد لكونـه رجع عن الإقـرار ، ويقولـون رجوعـه عن الإقـرار مقبـول ، وهـو ضعيف ، بـل فرق بين من أقـر تائبـاً ومن أقر غيـر تائب ، فـإسقـاط العقـوبـة بالتوبة ـ كما دلت عليه النصوص ـ أولى من إسقاطها بالـرجوع عن الإقـرار ، والإقرار شهادة منه على نفسه ، ولو قبل الرجوع لمـا قام حـد بإقـرار ، فإذا لم تقبل التوبة بعد الإقرار مع أنه قد يكون صادقـاً فالـرجوع الـذي هو فيـه كاذب أولى .

آخره ، والحمد لله رب العـالمين ، وصلى الله على سيدنـا محمد وآلـه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وسئـل شيخ الإسلام رحمه الله

فصل في المستثنين في قوله ﴿ إلا ما شاء الله ﴾

عن قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَصَعِقَ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلَّا مَن شَاءَ اللهُ ﴾[1] قال المفسرون : مات من الفـزع وشدة الصـوت ﴿ مَنْ فِي السَّمَـوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ﴾[2] أخبـرنا أبـو الفتح

= ورواه الترمذي في الحدود ٢٢ وأحمد بن حنبـل في المسند ٦ : ٣٩٩ (حلبي) ولفظ الحـديث كما جاء عند الامام مسلم ـ فجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني وإنه ردها فلما كان الغد قالت يا رسول الله لم تردني لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً فـوالله إني لحبلى قـال إما لا فـاذهبي حتى تلدي فلما ولدت أتتـه بالصبي في خرقة فقالت هـذا قد ولـدته قـال : اذهبي حتى تفطميه فلما فطمته جـاءت بالصبي في يده كسرة خبز فقالت هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجمـوهـا فيقبل خالد بـن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال : مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت ».

(١ ـ ٢) سورة الزمر آية رقم ٦٨ .

=

محمد بن علي الكوفي الصوفي ، أنا أبو الحسن علي بن الحسن التميمي ، ثنا محمد بن اسحاق الرملي ، ثنا هشام بن عمار ، ثنا اسماعيل بن عباس عن عمر بن محمد ، عن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، عن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية ، : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ** ﴾[1] من الذي لم يشأ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء متقلدين سيوفهم حول العرش، وهذا قول سعيد بن جبير ، وعطاء [و] ابن عباس، وقال مقاتل والسدي والكلبي : هو جبريل وميكائيل وأسرافيل ، وملك الموت ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام** ﴾ يعني الخلق كلهم قيام على أرجلهم ﴿ **ينظرون** ﴾ ما يقال لهم ، وما يؤمرون به ، هذا كلام الواحدي في « كتاب الوسيط » بينوا لنا حقيقة الصعوق ، هل يطلق على الموت في حق المذكورين ؟ وحقيقة الاستثناء ؟

« الجواب »

فأجاب : الحمد لله . الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة ، وحتى عزرائيل ملك الموت ، وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، والمسلمون واليهود والنصارى متفقون على إمكان ذلك ، وقدرة الله عليه ، وإنما يخالف في ذلك طوائف من المتفلسفة أتباع أرسطو

= قال الامام احمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم قال : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود . قال : سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - إنك تقول الساعة تقوم الى كذا وكذا قال لقد همت أن لا أحدثكم شيئاً إنما قلت سترون بعد قليل أمراً عظيماً ثم قال عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال رسول الله ﷺ يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم اربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً وأربعين ليلة فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى أن لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه » الخ .

(١) سورة الزمر آية : ٦٨ .

وأمثالهم ، ممن زعم أن الملائكة هي العقول والنفوس ، وأنه لا يمكن موتها بحال ، بل هي عندهم آلهة وأرباب هذا العالم .

والقرآن وسائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون ، كما قال سبحانه : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾(1). وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ـ سُبْحَانَهُ ـ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾(2)وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾(3)والله سبحانه وتعالى قادر على أن يميتهم ثم يحييهم ، كما هو قادر على إماتة البشر والجن ، ثم إحيائهم ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(4) وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه ومن غير واحد من أصحابه ، أنه قال : « إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة غشي » وفي رواية « إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا » وفي رواية « سمعت الملائكة كجر السلسلة على صفوان . فيصعقون ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا . قال : ربكم ؟ قالوا : الحق . فينادون : الحق ، الحق »(5) .

فقد أخبر في هذه الأحاديث الصحيحة أنهم يصعقون صعوق الغشي فإذا جاز عليهم صعوق الغشي جاز عليهم صعوق الموت ، وهؤلاء المتفلسفة لا

---

(1) سورة النساء آية رقم ١٧٢ .

(2) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ ـ ٢٨ .

(3) سورة النجم آية رقم ٢٦ .

(4) سورة الروم آية رقم ٢٧ .

(5) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٣٢ باب قول الله تعالى: ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالو الحق وهو العلي الكبير ﴾ ٧٤٨١ حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة ، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: وذكره .

يجوزون لا هذا ولا هذا ، وصعوق الغشي هو مثل صعوق موسى عليه السلام قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً** ﴾(١) .

والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات :

نفخة الفزع ، ذكرها في سورة النمل في قوله : ﴿ **وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ** ﴾(٢) ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** ﴾(٣) .

وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين ؛ فإن الجنة ليس فيها موت ، ومتناول لغيرهم ، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله ، فإن الله أطلق في كتابه .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى آخذاً بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي أم كان ممن استثناه الله ؟ »(٤) وهذه الصعقة قد قيل إنها رابعة ،

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٤٣ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٨٧ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٦٨ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٣٥ باب قول الله تعالى ١٣٩ ـ ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين ـ الى قوله ـ فمتعناهم الى حين** ﴾ .

٣٤١٤ ـ حدثنا يحيى بن بكير عن الليث عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن عبد الله بن الفضل عن الأعرج عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال « بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه فقال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه فقال : تقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، والنبي ﷺ بين أظهرنا . . ؟

فذهب إليه فقال يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً . فما بال فلان لطم وجهي . . ؟

فقال : لم لطمت وجهه فذكره . فغضب النبي ﷺ حتى رؤ ي في وجهه ثم قال : وذكره .

وقيل إنها من المذكورات في القرآن ، وبكل حال ، النبي : ﷺ قد توقف في موسى هل هو داخل في الإستثناء فيمن استثناه الله أم لا ؟ .

فإذا كان النبي ﷺ لم يجزم بكل من استثناه الله لم يمكنا أن نجزم بذلك ، وصار هذا مثل العلم بقرب الساعة ، وأعيان الأنبياء ، وأمثال ذلك مما لم يخبر به ، وهذا العلم لا ينال الا بالخبر ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

سورة الشورى

وقال الشيخ رحمه الله

قد كتبت بعض ما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبقىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوكَّلون ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[1] فمدحهم على الانتصار تارة وعلى الصبر أخرى .

و « المقصود هنا » ان الله لما حمدهم على هذه الصفات من الإيمان والتوكل ومجانبة الكبائر والإستجابة لربهم ، وإقام الصلاة ، والاشتوار في أمرهم ، وانتصارهم إذا أصابهم البغي ، والعفو والصبر ونحو ذلك : كان هذا دليلاً على أن ضد هذه الصفات ليس محموداً بل مذموماً ، فإن هذه الصفات مستلزمة لعدم ضدها ، فلو كان ضدها محموداً لكان عدم المحمود محموداً ،

---

(١) سورة الشورى الآيات من ٣٦ ـ ٤٣ .

قال الامام أحمد : حدثنا يحيى يعني ابن سعيد القطان عن ابن عجلان حدثنا سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : إن رجلاً شتم أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ والنبي ﷺ جالس فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم فلما اكثر رد عليه بعض قوله فغضب النبي ﷺ وقام فلحقه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت . قال : إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم اكن لاقعد مع الشيطان ثم قال يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها الا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح الله باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة . » وكذا رواه أبو داود عن عبد الأعلى بن حماد عن سفيان بن عيينة .

وعدم المحمود لا يكون محموداً إلا أن يخلفه ما هو محمود ، ولأن حمدها والثناء عليها طلب لها ، وأمر بها ، ولو أنه أمر استحباب ، والأمر بالشيء نهي عن ضده قصداً أو لزوماً ، وضد الانتصار العجز ، وضد الصبر الجزع ، فلا خير في العجز ولا في الجزع كما نجده في حال كثير من الناس ، حتى بعض المتدينين إذا ظلموا أو أرادوا منكراً فلا هم ينتصرون ولا يصبرون ، بل يعجزون ويجزعون .

وفي سنن أبي داود من رواية عوف بن مالك ، أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ ، فقال المقضى عليه ؛ حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل : « حسبي الله ونعم الوكيل »[1]وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن غلبك أمر فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » [2] لا تعجز عن مأمور ولا تجزع عن مقدور .

ومن الناس من يجمع كلا الشرين ـ فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والإستعانة بالله ، والأمر يقتضي الوجوب ، وإلا فالاستحباب ، ونهى عن

---

(١) الحديث رواه الامام احمد بن حنبل في المسند ٦ : ٢٤ ـ ٢٥ حدثنا عبد الله ، حدثني أبي حدثنا حيوة بن شريح وإبراهيم بن أبي العباس قالا ثنا بقية قال حدثني بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن سيف عن عوف بن مالك انه حدثهم أن النبي ﷺ وذكره . ورواه أبو داود في الأقضية ٢٨ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب القدر ٣٤ باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله تعالى وتفويضه المقادير لله حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وابن نمير قالا : حدثنا عبد الله بن إدريس عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

ورواه ابن ماجه في المقدمة ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٦٦، ٣٧٠ (حلبي) .

العجز وقال : « إن الله يلوم على العجز » والعاجز ضد الذين ينتصرون ، والأمر بالصبر والنهي عن الجزع معلوم في مواضع كثيرة .

وذلك لأن الانسان بين أمرين : أَمْر أُمِرَ بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه ، ويستعين بالله والله ينجز ، وأمر أصيب به من غير فعله فعليه أن يصبر عليه ، ولا يجزع منه ، ولهذا قال بعض العقلاء ـ ابن المقفع[1] أو غيره .« الأمر أمران ، أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه » وهذا في جميع الأمور ، لكن عند المؤمن الذي فيه حيلة هو ما أمر الله به وأحبه له ، فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له ، إذ لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وقد أمره بكل خير فيه له حيلة ، وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله .

واسم الحسنات والسيئات يتناول القسمين ، فالأفعال مثل قوله تعالى : ﴿ **مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إلَّا مِثْلَهَا** ﴾[2] ومثل قوله تعالى : ﴿ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** ﴾[3] ومثل قوله : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا** ﴾[4] ومثل قوله تعالى : ﴿ **بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ** ﴾[5] والمصائب المقدرة خيرها وشرها مثل قوله :

---

(١) هو عبد الله بن المقفع ، من أئمة الكتاب ، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق ، أصله من الفرس ، ولد في العراق مجوسياً (مزدكياً) وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي ، وترجم له « كتب ارسطوطاليس الثلاثة في المنطق وكتاب المدخل الى علم المنطق المعروف (بايساغوجي) وترجم عن الفارسية كتاب (كليلة ودمنة) وله مصنفات كثيرة اتهم بالزندقة فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي عام ١٤٢ هـ قال الخليل بن أحمد : ما رأيت مثله وعلمه اكثر من عقله ، [راجع أمراء البيان ٩٩ ـ ١٥٨ وأخبار الحكماء ١٤٨ ولسان الميزان ٣ : ٣٦٦ وفي البداية والنهاية ١٠ : ٩٦ قال المهدي : ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، قالوا : ونسي الجاحظ] .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٠ .

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٧ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٤٠ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٨١ .

﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1] إلى آيات كثيرة من هـذا الجنس .

والله أعلم .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ .

سورة الزخرف

وقــال :

فصــــل

قوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1] يشبه قوله : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[2] فيشبه والله أعلم أن يكون ضرب المثل أنهم جعلوا المسيح ابنه ، والملائكة بناته ، والولد يشبه أباه ، فجعلوه لله شبيهاً ونظيراً ، أو يكون المعنى في المسيح أنه مثل لآلهتهم ، لأنه عبد من دون الله .

فعلى الأول يكون ضاربه كضارب المثل للرحمن وهم النصارى والمشركون ، وعلى الثاني يكون ضاربه هو الذي عارض به قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[3] فلما قال ابن الزبعرى[4] : لأخصمن محمداً ، فعارضه بالمسيح وناقضه به كان قد ضربه مثلاً قال الآلهة

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٧ . ٥٨ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ـ ٩٨ .

(٤) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي القرشي أبو سعد ، شاعر قريش في الجاهلية ، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة فهرب إلى نجران . فقال فيه « حسان » أبياتاً فلما بلغته عاد الى مكة فأسلم واعتذر ، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة مات عام ١٥ هـ . راجع الأغاني ١ ، ٤ و١٤ وسمط اللآلي ٣٨٧ ، ٨٣٣ وامتاع الأسماع ١ : ٣٩١ .

عليه ، ويترجح هذا بقوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾[١] فعلم أنهم هم الذين ضربوه لا النصارى .

فإن « المثل » يقال على الأصل وعلى الفرع « والمثل » يقال على المفرد ويقال على الجملة التي هي القياس ، كما قد ذكرت فيما تقدم أن ضرب المثل هو القياس ، أما قياس التمثيل فيكون المثل هو المفرد وأما قياس الشمول فيكون تسميته ضرب مثل كتسميته قياساً ، كما بينته في غير هذا الموضع ، من جهة مطابقة المعاني الذهنية للأعيان الخارجية ومماثلتها لها ، ومن جهة مطابقة ذلك المفرد المعين للمعنى العام الشامل للأفراد ، ولسائر الأفراد ، فإن الذهن يرتسم فيه معنى عام يماثل الفرد المعين ، وكل فرد يماثل الآخر ، فصار هذا المعنى يماثل هذا ، وكل منهما يماثل المعنى العام الشامل لهما .

وبهذا والله أعلم سمي ضرب مثل وسمي قياساً ، فإن الضرب الجمع ، والجمع في القلب واللسان وهو العموم والشمول ، فالجمع والضرب والعموم والشمول في النفس معنى ولفظاً ، فإذا ضرب مثلاً فقد صيغ عموماً مطابقاً ، « أو صيغ مفرداً مشابهاً ، فتدبر هذا فإنه حسن إن شاء الله .

ولك أن تقول : كل إخبار يمثل صوره المخبر في النفس فهو ضرب مثل ، لأن المتكلم جمع مثلاً في نفسه ونفس المستمع بالخبر المطابق للمخبر ، فيكون المثل هو الخبر وهو الوصف كقوله : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾[٢] وقوله : ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾[٣].

وبسط هذا اللفظ واشتماله على محاسن الأحكام والأدلة قد ذكرته في غير هذا الموضع .

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٥٨ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٥ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٧٣ .

سورة الأحقاف

سأل رجل آخر

فصـــل

عن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾(١)فقال : ما سمعنا بنص القرآن والحديث أن ما قبل كتابنا إلا الإنجيل ، فقال : الآخر : عيسى إنما كان تبعاً لموسى ، والإنجيل إنما فيه توسع في الأحكام تيسير مما في التوراة ، فأنكر عليه رجل وقال : كان لعيسى شرع غير شرع موسى ، واحتج بقوله : لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾(٢) قال فما الحكم في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾(٣)؟ فقال : ليست هذه حجة . فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله .

قد أخبر الله في القرآن أن عيسى قال لهم : ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾(٤)فعلم أنه أحل البعض دون الجميع ، وأخبر عن المسيح أنه

---

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٢ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة الصف آية رقم ٦ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٥٠ تكملة الآية ﴿ وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ .
قال بعض العلماء فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ـ وهو الصحيح ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئاً وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ وكشف لهم عن الغطاء في ذلك .

علمه التوراة والإنجيل بعلمه : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ والتَّوْراةَ وَالإنْجِيلَ ﴾[1].

ومن المعلوم أنه لولا أنه متبع لبعض ما في التوراة لم يكن تعلمها له منه ، ألا ترى أنا نحن لم نؤمر بحفظ التوراة والإنجيل ، وإن كان كثير من شرائع الكتابين يوافق شريعة القرآن فهذا وغيره يبين ما ذكره علماء المسلمين من أن الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة وأكثر الأحكام يتبع فيها ما في التوراة ، وبهذا يحصل التغاير بين الشرعتين .

ولهذا كان النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها ، كما يحفظون الإنجيل ، ولهذا لما سمع النجاشي القرآن ، قال : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، وكذلك ورقة بن نوفل ، قال للنبي ﷺ لما ذكر له النبي ﷺ ما يأتيه قال ـ هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى .

وكذلك قالت الجن : ﴿ إنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسى ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ؟ قَالُوا : ساحران تظاهرا ﴾[3] أي موسى ومحمد ، وفي القراءة الأخرى ﴿ سحران تظاهرا ﴾ أي التوراة والقرآن .

وكذلك قال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إذْ قَالُوا : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[4] فهذا وما أشبهه مما فيه اقتران التوراة بالقرآن وتخصيصها بالذكر يبين ما ذكروه من أن

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٤٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٩١ ـ ٩٢ .

التوراة هي الأصل ، والإنجيل تبع لها في كثير من الأحكام ، وإن كان مغايراً لبعضها .

فلهذا يذكر الإنجيل مع التوراة والقرآن في مثل قوله : ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِن قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ** ﴾[1] وقال : ﴿ **وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ** ﴾[2] فيذكر الثلاثة تارة ، ويذكر القرآن مع التوراة وحدها تارة لسر : [وهو] أن الإنجيل من وجه أصل ، ومن وجه تبع ، بخلاف القرآن مع التوراة ، فإنه أصل من كل وجه ، بل هو مهيمن على ما بين يديه من الكتاب ، وإن كان موافقاً للتوراة في أصول الدين ، وكتبه من الشرائع .

والله أعلم .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣ ـ ٤ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١١١ .

سورة قٓ

سئل رحمه الله .

فصل

عن قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ ، وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[1]ما المزيد .

فأجاب :

قد قيل إنها تقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ أي ليس فيّ محتمل للزيادة ، والصحيح أنها تقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ على سبيل الطلب أي هل من زيادة تزاد فيّ ، والمزيد ما يزيده الله فيها من الجن والإنس ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه »[2]ويروى

---

(١) سورة ق آية رقم ٣٠ .

(٢) قال الامام أحمد : حدثنا عبد الوهاب عن سعيد ، عن قتادة عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها الى بعض وتقول قط قط .

ثم رواه مسلم من حديث قتادة بنحوه ، ورواه أبان العطار ، وسليمان التيمي عن قتادة بنحوه .
وقال البخاري : حدثنا محمد بن موسى القطان ، حدثنا أبو سفيان الحميري سعيد بن يحيى بن مهدي ، حدثنا عوف عن محمد ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ رفعه واكثر ما كان يوقفه أبو سفيان .

طريق أخرى : قال البخاري ، وحدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ وصدره : تحاجت الجنة والنار =

« عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط .

فإذا قالت حسبي حسبي كانت قد اكتفت بما ألقي فيها ، ولم تقل بعد ذلك هل من مزيد ، بل تمتلىء بما فيها لانزواه بعضها إلى بعض ، فإن الله يضيقها على من فيها لسعتها ، فإنه قد وعدها ليملأنها من الجنة والناس أجمعين ، وهي واسعة فلا تمتلىء حتى يضيقها على من فيها .

قال : « وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً فيدخلهم الجنة ، فبين أن الجنة لا يضيقها سبحانه ، بل ينشىء لها خلقاً فيدخلهم الجنة ، لأن الله يدخل الجنة من لم يعمل خيراً ، لأن ذلك من باب الإحسان ، وأما العذاب بالنار فلا يكون إلا لمن عصى ، فلا يعذب أحداً بغير ذنب .

والله أعلم .

= فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم . قال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فيها فتقول قط قط الخ .

سـوة المجادلـة

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :

فصـــل

قـوله تعـالى : ﴿ يَرْفَـعِ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ ، وَالَّـذِينَ أُوتُـوا العِلْمَ دَرَجَـاتٍ ﴾[١] خص سبحـانـه رفعـه بـالأقـدار والـدرجـات الـذين أوتـوا العلم والإيمان ، وهم الذين استشهد بهم في قولـه تعالى : ﴿ شَهِـدَ اللهُ أَنَّـهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَالمَلَائِكَةُ ، وَأُولُوا العِلْمِ ، قَائِماً بِالقِسْطِ ﴾[٢] .

وأخبـر أنهم هم الذين يـرون ما أنـزل إلى الرسـول ، هـو الحق بقـولـه تعـالى : ﴿ وَيَـرَى الَّـذِينَ أُوتُـوا العِلْمَ الَّـذِي أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّـكَ هُـوَ الحَقَّ ﴾[٣] فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها ، كما قال تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾[٤] .

قال زيد بن أسلم : بالعلم ، فرفع الدرجـات والأقدار على قـدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان ، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينـام الليل ، وآخـر لا يفطر ، وغيـرهم أقل عبـادة منهم ، وأرفـع قـدراً في قلوب الأمة ، فهذا كرز بن وبرة[٥]، وكهمس ، وابن طارق ، يختمون القـرآن

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ١١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

(٣) سورة سبأ آية رقم ٦ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٧٦ .

(٥) هو كرز بن وبرة الحارثي ، أبو عبد الله تابعي من أهل الكوفة ، يضرب به المثل في التعبد ، دخل =

في الشهر تسعين مرة ، وحال ابن المسيب [1] وابن سيرين[2] والحسن وغيرهم في القلوب أرفع .

وكذلك ترى كثيراً ممن لبس الصوف ، ويهجر الشهوات ، ويتقشف ، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب ، وأحلى عند النفوس ، وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة وصفائها ، وخلوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك ، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول وكمال تصديقه في قلوبهم ، ووده ومحبته ، وأن يكون الدين كله لله ، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ ، وابتهاجها وسرورها ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾[4] الآية . ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان ، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به ، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ، ووضع الفرح في غير موضعه .

فإذا استقر في القلب ، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده ، وبره به ، وإحسانه إليه على الدوام ، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه ، فلا يزال مترقياً في درجات العلو والإرتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف .

هذا في « باب معرفة الأسماء والصفات » وأما في « باب فهم القرآن »

= جرجان غازياً مع يزيد بن المهلب سنة ٩٨ هـ ثم سكنها وتوفي بها عام ١١٠ هـ . راجع تاريخ جرجان ٢٩٥ ـ ٣١٦ .

(١) سبق الترجمة له .

(٢) سبق الترجمة له .

(٣) سورة الرعد آية رقم ٣٦ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٥٨ .

فهو دائم التفكر في معانيه ، والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس ، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن ، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده ، وإن لم يشهد له بقبول ولا ردّ وقفه ، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه .

ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن ، إما بالوسوسة في خروج حروفه ، وترقيقها ، وتفخيمها ، وإمالتها ، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط ، وغير ذلك ، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه ، وكذلك شغل النطق بـ ﴿ **أأنذرتهم** ﴾ ، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو ، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك ، وكذلك مراعاة النغم ، وتحسين الصوت .

وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان . وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ، ونتائج أفكارهم .

وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه ، وكل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره .

وكذلك يظن من لم يقدر القرآن قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد ، والأسماء والصفات ، وما يجب لله وينزه عنه ، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمنهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة ، وهؤلاء أغلظ الناس حجاباً عن فهم كتاب الله تعالى .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة الطلاق

وقـال :

فصـل

في ايجاد المخارج وتوسيع الرزق بالتقوى

وأمـا قولـه : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَـهُ مَخْرَجـاً وَيَرْزُقه مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾[1] فقد بين فيها أن المتقي يـرفع الله عنـه المضرة بمـا يجعله له من المخرج ، ويجلب له من المنفعة بما ييسره له من الرزق ، والرزق اسم لكـل ما يفتدى به الإنسان ، وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة وقـد قال بعضهم : ما افتقر تقي قط ، قالوا : ولم ؟ قال : لأن الله يقول : ﴿ **ومن يتق الله يجعـل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ؟!** ﴾ .

وقول القائـل : قد نـرى من يتقي وهو محـروم ، ومن هو بخـلاف ذلك وهو مرزوق .

فجوابه : أن الآيـة اقتضت أن المتقي يرزق من حيث لا يحتسب ، ولم

---

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢ ـ ٣ .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد أنا كهمس بن الحسن ، حدثنا أبو السليل عن أبي ذر قـال : جعل رسول الله ﷺ يتلو عليَّ هذه الآية ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة . .؟ قلت الى السعة والدعة انطلق فأكون حمامة من حمام مكة قال : كيف تصنع إذا اخرجت من مكة . .؟ قال : قلت الى السعة والدعة الى الشام والأرض المقدسة قـال : وكيف تصنع إذا أخرجت من الشـام . .؟ قلت إذاً والذي بعثـك بالحق أضع سيفي على عاتقي . قال أو خير من ذلك . قلت أو خـير من ذلك ؟ قـال : تسمع وتـطيع وإن كان عبداً حبشياً . » .

تدل على أن غير المتقي لا يرزق ، بل لا بد لكل مخلوق من الرزق ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾[(1)] حتى أن ما يتناوله العبد من الحرام هو داخل في هذا الرزق ، فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة ، ويرزقون رزقاً حسناً ، وقد لا يرزقون إلا بتكلف ، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون ، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة ، ولا يكون خبيثاً ، والتقي لا يحرم ما يحتاج إليه من الرزق ، وإنما يحمى من فضول الدنيا رحمة به وإحساناً إليه ، فإن توسيع الرزق قد يكون مضرة على صاحبه ، وتقديره يكون رحمة لصاحبه .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا ﴾[(2)] أي : ليس الأمر كذلك ، فليس كل من وسع عليه رزقه يكون مكرماً ، ولا [كل] من قدر عليه رزقه يكون مهاناً ، بل قد يوسع عليه رزقه إملاء واستدراجاً ، وقد يقدر عليه رزقه حماية وصيانة له ، وضيق الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لما له من ذنوب وخطايا ، كما قال بعض السلف : إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، وفي الحديث عن النبي ﷺ « من اكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب »[(3)] .

وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات ، والإستغفار سبب للرزق والنعمة ، وأن المعاصي سبب للمصائب والشدة فقال تعالى : ﴿ آلر ،

---

(١) سورة هود آية رقم ٦ .
(٢) سورة الفجر آية رقم ١٥ ـ ١٧ .
(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأدب ٥٧ باب الاستغفار ٣٨١٩ بسنده عن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) وذكره ، ورواه أبو داود في كتاب الوتر ٢٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٤٨. (حلبي) .

كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ، إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ﴾[٧]. وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾[٨] وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ، فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٩].

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه يبتلي عباده بالحسنات والسيئات ، فالحسنات هي النعم ، والسيئات هي المصائب ، ليكون العبد صباراً

---

(١) سورة هود آية رقم ١ ـ ٣ .

(٢) سورة نوح آية رقم ١٠ ـ ١٢ .

(٣) سورة الجن آية رقم ١٦ ـ ١٧ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٩٦ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٦٦ .

(٦) سورة الشورى آية رقم ٣٠ .

(٧) سورة هود آية رقم ٩ وصدر الآية ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ .

(٨) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٩) سورة الأنعام آية رقم ٤٢ ـ ٤٣ .

شكـوراً ، وفي الصحيـح عن النبي ﷺ أنـه قـال : « والــذي نفسي بيـده ! لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »[1] .

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الزهد ١٣ باب المؤمن أمره كله خير ١٥٦٤ - ٢٩٩٩) حدثنا هداب بن خالد الأزدي وشيبان بن فروخ جميعاً عن سليمان بن المغيرة ، حدثنا سليمان ، حدثنا ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال : قال رسـول الله ﷺ وذكره ، ورواه الامـام احمد بن حنبل، في المسند ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٦ : ١٥ ، ١٦ (حلبي) .

وقـــال أيضـاً : ـ

فصـــل

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْـرَجاً ، وَيَـرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْـرِهِ ، قَدْ جَعَـلَ اللهُ لِكُـلِّ شَيْءٍ قَدَراً ﴾[1] ، قد روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال « لـو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم » وقوله : « مخرجاً » عن بعض السلف : أي من كل ما ضـاق على الناس وهـذه الآية مـطابقة لقـوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّـاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها ، وذلـك أن التقوى هي العبـادة المأمور بها ، فإن تقوى الله وعبادته وطاعته أسماء متقاربـة متكافئـة متلازمـة ، والتوكل عليـه هو الإستعـانة بـه ، فمن يتقي الله مثال : ﴿ إيـاك نعبد ﴾ : ومن يتـوكل على الله مثـال : ﴿ إيـاك نستعين ﴾ كمـا قـال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَـوَكَّـلْ عَلَيْهِ ﴾[3] وقال : ﴿ عَلَيْـكَ تَوَكَّلْنَـا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَـا ﴾[4] وقال : ﴿ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[5] . . .

ثم جعل للتقوى فائدتين : أن يجعل له مخرجاً ، وأن يرزقه من حيث لا

---

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢ ـ ٣ .

(٢) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٢٣ .

(٤) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٥) سورة هود آية رقم ٨٨ .

يحتسب ، والمخرج هو موضع الخروج ، وهو الخروج ، وإنما يطلب الخروج من الضيق والشدة ، وهذا هو الفرج والنصر والرزق فبين أن فيها النصر والرزق ، كما قال : ﴿ **أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴾[1] ولهذا قال النبي ﷺ : « وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ بدعائهم ، وصلاتهم ، واستغفارهم » هذا لجلب المنفعة ، وهذا لدفع المضرة .

وأما التوكل فبين أن الله حسبه أي كافيه ، وفي هذا بيان التوكل على الله من حيث أن الله يكفي المتوكل عليه ، كما قال : ﴿ **أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ؟** ﴾[2] خلافاً لمن قال : **ليس** في التوكل إلا التفويض والرضا ، ثم إن الله بالغ أمره ، **ليس** هو كالعاجز : ﴿ **قد جعل الله لكل شيء قدراً** ﴾ وقد فسروا الآية بالمخرج من ضيق الشبهات بالشاهد الصحيح ، والعلم الصريح ، والذوق ، كما قالوا يعلمه من غير تعليم بشر ، ويفطنه من غير تجربة ، ذكره أبو طالب المكي ،[3] كما قالوا في قوله : ﴿ **إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً** ﴾[4] إنه نور يفرق به بين الحق والباطل ، كما قالوا : بصراً ، والآية تعم المخرج من الضيق الظاهر والضيق الباطن قال تعالى : ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾[5] وتعم ذوق الأجساد وذوق القلوب ، من العلم

---

(١) سورة قريش آية رقم ٤ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٣٦ .

(٣) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي أبو طالب : واعظ زاهد فقيه من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة ، ورحل الى البصرة فاتهم بالاعتزال وسكن بغداد فوعظ فيها ، فحفظ عنه الناس أقوالاً هجروه من أجلها ، وتوفي ببغداد عام ٣٨٦ هـ له قوت القلوب في التصوف قال الخطيب البغدادي : ذكر فيه أشياء منكرة مستشنعة في الصفات ، راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٩١ وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٧ وتاريخ بغداد ٣ : ٨٩ ولسان الميزان ٥ : ٣٠٠ .

(٤) سورة الأنفال آية رقم ٢٩ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥ .

والإيمان ، كما قيل مثل ذلك في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون ﴾[1] وكما قال : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾[2] وهو القرآن والإيمان .

(١) سورة البقرة آية رقم ٣ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٢ .

سورة التحريم

وسئل رحمه الله :

عن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾[1] هل هذا اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أم لا ؟ واين معنى قوله ﴿ نصوحاً ﴾؟.

فأجاب الحمد لله ، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وغيره من الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم) : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب

---

(١) سورة التحريم آية رقم ٨ .

قال الامام احمد : ثنا سفيان عن عبد الكريم ، أخبرني زياد بن أبي مريم عن عبد الله بن مغفل . قال : دخلت مع أبي عبد الله بن مسعود . فقال : أنت سمعت النبي ﷺ يقول : الندم توبة ؟ قال : نعم . وقال مرة نعم سمعته يقول : الندم توبة ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن سفيان بن عيينة عن عبد الكريم وهو ابن مالك الجزري به .

وقال ابن أبي حاتم . ثنا الحسن بن عرفة حدثني الوليد بن بكير أبو خباب عن عبد الله بن محمد العبدي عن أبي سنان البصري عن أبي قلابة عن زر بن حبيش عن أبيّ بن كعب قال : قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة : منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ومنها نكاح المرأة المرأة ، وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله ، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً .

قال زر فقلت لابي بن كعب فما التوبة النصوح . . ؟ فقال : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك . فقال : هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبداً » .

ثم لا يعود إليه . و « نصوح » هي صفة للتوبة وهي مشتقة من النصح والنصيحة .

وأصل ذلك هو الخلوص ، يقال : فلان ينصح لفلان إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لا غش فيها ، وفلان يغشه إذا كان باطنه يريد السوء ، وهو يظهر إرادة الخير كالدرهم المغشوش ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾[1] أي أخلصوا لله ورسوله قصدهم وحبهم ، ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح « الدين النصيحة » ثلاثاً قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » .

فإن أصل الدين هو حسن النية وإخلاص القصد ، ولهذا قال ﷺ : « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمور ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم »[2] أي هذه الخصال الثلاث لا يحقد عليها قلب مسلم ، بل يحبها ويرضاها .

فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش ، وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه ، فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب ، فهذه التوبة النصوح ، وهي واجبة بما أمر الله تعالى ، ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى ، ثم إذا عاد استحق العقوبة ، فإن تاب تاب الله عليه أيضاً .

ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصر ؛ بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة ، فقد روى الإمام احمد في مسنده عن علي عن النبي ﷺ أنه قال :

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٩١ .

(٢) دوتر ٢٦ ، ت دعوات ١٠٦ .

« إن الله يحب العبد المفتن التواب »[1] .

وفي حديث آخر : « لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار » وفي حديث آخر : « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم مائة مرة »[2] ومن قال من الجهال : إن « نصوح » اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أمر الناس أن يتوبوا كتوبته : فهذا رجل مفتر كذاب ، جاهل بالحديث والتفسير ، جاهل باللغة ومعاني القرآن ، فإن هذا امرؤ لم يخلقه الله تعالى ، ولا كان في المتقدمين أحد اسمه نصوح ولا ذكر هذه القصة أحد من أهل العلم ، ولو كان كما زعم الجاهل لقيل توبوا إلى الله توبة نصوح وإنما قال : ﴿ **توبة نصوحاً** ﴾ والنصوح هو التائب . ومن قال : إن المراد بهذه الآية رجل أو امرأة اسمه « نصوح » وإن كان على عهد عيسى أو غيره فإنه كاذب ، يجب أن يتوب من هذه ، فإن لم يتب وجبت عقوبته بإجماع المسلمين .

والله أعلم .

---

(١) الحديث رواه الإمام احمد في المسند ١ : ٨٠ حدثنا عبد الله حدثني عبد الأعلى بن حماد النرسي ، ثنا داود بن عبد الرحمن ، ثنا أبو عبد الله مسلمة الرازي عن أبي عمرو البجلي عن عبد الملك بن سفيان الثقفي عن أبي جعفر محمد بن علي ، عن محمد بن الحنفية عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب الدعوات ١٠٧ باب ٣٥٥٩ حدثنا حسين بن يزيد الكوفي ، حدثنا أبو يحيى الجماني ، حدثنا عثمان بن واقد عن أبي نضيرة عن مولى لأبي بكر عن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نضيرة وليس اسناده بالقوي .

سـورة الملـك

وقال رحمه الله تعالى : ـ

فصـــل

قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ؟! ﴾[1] دلت على علمـه بالأشيـاء من وجوه تضمنت البـراهين المـذكـورة لأهـل النـظر العقلي : « أحدها » أنه خالق لها ، والخلق هـو الإبداع بتقـدير ، فتضمن تقـديرهـا في العلم قبل تكوينها .

« الثـاني » أنه مستلزم لـلإرادة والمشيئة ، فيلزم تصـور المـراد ، وهـذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام .

« الثالث » أنها صـادرة عنه ، وهـوسببها التـام ، والعلم بالأصـل يوجب العلم بالفرع ، فعلمه بنفسه يستلزم علم كل ما يصدر عنه .

« الـرابع » أنـه لطيف يـدرك الدقيق ، خبيـر يـدرك الخفي ، وهـذا هـو المقتضى للعلم بالأشياء ، فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام .

---

(١) سورة الملك آية رقم ١٤ .

سورة القلم

وقال شيخ الإسلام رحمه الله ـ :

فصل

سورة ﴿ ن ﴾ هي سورة ﴿ الخلق ﴾ الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ . قال الله تعالى فيها : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] قال ابن عباس : على دين عظيم ، وقاله ابن عيينة ، وأخذه أحمد عن ابن عيينة ، فإن الدين والعادة والخلق ألفاظ متقاربة المعنى في الذات وإن تنوعت في الصفات ، كما قيل في لفظ الدين : فهذا دينه أبداً وديني .

وجمع بعض الزنادقة بينهما في قوله :

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من مدح ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

﴿ ن ﴾ أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون ، فإن القلم به يكون الكتاب الساطر للكلام : المتضمن للأمر والنهي والإرادة ، والعلم المحيط بكل شيء ، فالأقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره ، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه .

« أحدهما » الإحاطة بالحوادث قبل كونها ، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه ، فإخباره عنه أحكم وأصدق .

---

(١) سورة القلم آية رقم ٤ .

« الثاني » أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس ، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس ، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوباً . فليس كل معلوم مقولاً ، ولا كل مقول مكتوباً ، وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتاب دون الكلام فقط أو دون العلم فقط .

والمقسم عليه ثلاث جمل : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾[1] ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾[2] ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3] سلب عنه النقص الذي يقدح فيه ، وأثبت له الكمال المطلوب في الدنيا والآخرة ، وذلك أن الذي أتى به إما أن يكون حقاً أو باطلاً ، وإذا كان باطلاً فإما أن يكون مع العقل أو عدمه ، فهذه الأقسام الممكنة في نظائر هذا .

« الأول » أن يكون باطلاً ولا عقل له فهذا مجنون لا ذم عليه ولا يتبع .

« الثاني » أن يكون باطلاً وله عقل ، فهذا يستحق الذم والعقاب .

« الثالث » أن يكون حقاً مع العقل ، فنفى عنه الجنون أولاً ، ثم أثبت له الأمر الدائم الذي هو ضد العقاب ، ثم بين أنه على خلق عظيم ،

---

(١) سورة القلم آية رقم ٢ .

(٢) سورة القلم آية رقم ٣ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٤ .

قال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبي إياس ، حدثنا أبي حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن عن سعيد بن هشام قال أتيت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فقلت لها أخبريني بخلق النبي ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن أما تقرأ ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** . . ؟ ﴾ وقد روى أبو داود ، والنسائي من حديث الحسن نحوه .

وقال ابن جرير : حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة - رضي الله عنها - فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن وهكذا رواه أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي ، ورواه النسائي في التفسير عن اسحاق بن منصور عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية ابن صالح به .

وذلك يبين عظم الحق الذي هو عليه بعد أن نفى عنه البطلان .

وأيضاً : فالناس نوعان : إما معذب ، وإما سليم منه ، والسليم ثلاثة أقسام : إما غير مكلف ، وإما مكلف قد عمل صالحاً : مقتصداً ، وإما سابق بالخيرات . فجعل القسم مرتباً على الأحوال الثلاثة ليبين أنه أفضل قسم السعداء ، وهذا غاية كمال السابقين بالخيرات ، وهذا تركيب بديع في غاية الإحكام .

ثم قال : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1]الآيات ، فتضمن أصلين :

« أحدهما » أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين فكان فيه فوائد :

« منها » أن النهي عن طاعة المرء نهي عن التشبه به بالأولى ، فلا يطاع المكذب والحلاف ، ولا يعمل بمثل عملهما كقوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾[2]وأمثاله فإن النهي عن قبول قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به .

« ومنها » أن ذلك أبلغ في الإكرام ، والإحترام ، فإن قوله : لا تكذب ، ولا تحلف ، ولا تشتم ، ولا تهمز ، : ليس هو مثل قوله لا تطع من يكون متلبساً بهذه الأخلاق ، لما فيه من تشريفه وبراءته .

« ومنها » أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة ، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم ، فليأخذ حذره ، فإنه محتاج إلى مخالفتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى .

« ومنها » أنهم يبدون مصالح فيما يأمرون به ، فلا تطع من كان هكذا ولو أبداها ، فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم ، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسداً لم يقبل من الأمر ، فإن الأمر

---

(١) سورة القلم آية رقم ٨ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٤٨ .

مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها ، فإذا كان جاهلاً لم يعلم المصلحة ، وإذا كان الخلق فاسداً لم يردها وهذا معنى بليغ .

« الأصل الثاني » أنه ذكر قسمين المكذبين وذوي الأخلاق الفاسدة وذلك لوجوه :

« أحدها » أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح فضده التكذيب والعمل الفاسد .

« والثاني » أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، فكما أنا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيصاء بها ، فقد نهينا عن قبول ضدها وهو التكذيب بالحق والترك للصبر ، فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر ، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها ، ولهذا ختم السورة به . وقال : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾[1] فكان في سورة العصر ما بين هنا ، فنهاه عن طاعة الذي في خسر ، ضد الذي للمؤمنين الآمرين بالحق والصبر ، والذي في خسر هو الكذاب المهين ، فهو تارك للحق والصبر .

« الأصل الثالث » أن صلاح الإنسان في العلم النافع والعمل الصالح ، وهو الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله ، والعمل الصالح جماع العدل ، وجماع ما نهى الله عنه الناس : هو الظلم ، كما قرر في غير هذا . قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[2] والتكذيب بالحق صادر إما عن جهل ، وإما عن ظلم وهو الجاحد المعاند ، وصاحب الأخلاق الفاسدة إنما يوقعه فيها أحد أمرين : إما الجهل بما فيها وما في ضدها فهذا جاهل ، وإما الميل والعدوان وهو الظلم ، .

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٧٢ .

فلا يفعل السيئات إلا جاهل بها ، أو محتاج إليها متلذذ بها وهو الظالم ، فنهاه عن طاعة الجاهلين والظالمين .

وقوله : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ ﴾[1] الآية أخبر أنهم يحبون إدهانه ليدهنوا ، فهم لا يأمرونه نصحاً ، بل يريدون منه الإدهان ويتوسلون بإدهانه إلى إدهانهم ، ويستعملونه لأغراضهم في صورة الناصح ، وذلك لما نشأ من تكذيبهم بالحق ، فإنه لم يبق في قلوبهم غاية ينتهون إليهامن الحق، لا في الحق المقصود ولا الحق الموجود ، لا خبراً عنه ، ولا أمراً به ، ولا اعتقاداً ، ولا اقتصاداً .

ثم قال : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾[2] الخ - ذكر أربع آيات كل آيتين جمعت نوعاً من الأخلاق الفاسدة المذمومة . وجمع في كل آية بين النوع المتشابه خبراً وطلباً ، فالحلاف مقرون بالمهين ، لأن الحلاف هو كثير الحلف ، وإنما يكون على الخبر أو الطلب ، فهو إما تصديق أو تكذيب ، أو حض أو منع ، وإنما يكثر الرجل ذلك في خبره إذا احتاج أن يصدق ويوثق بخبره ، ومن كان كثير الحلف كان كثير الكذب في العهد محتاجاً إلى الناس ، فهو من أذل الناس ﴿ حلاف مهين ﴾ حلاف في أقواله، مهين في أفعاله .

وأما الهماز المشاء بنميم :[3] فالهمز أقوى من اللمز وأشد - سواء كان همز الصوت أو همز حركة - ومنه «الهَمزةُ» وهي نبرة من الحلق مثل التهوع ،

---

(١) سورة القلم آية رقم ٩ وتكملة الآية (فيدهنون) .

(٢) سورة القلم آية رقم ١٠ .

(٣) ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد عن طاوس عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمش بالنميمة ، وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم من طرق عن مجاهد به .
وقال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن ابراهيم عن همام أن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يدخل الجنة قتات » .

ومنه الهمز بالعقب ، كما في حديث زمزم : « إنه همز جبريل بعقبه » والفعال : مبالغة في الفاعل ، فالهماز المبالغ في العيب نوعاً وقدراً ، القدرة من صورة اللفظ ، وهو الفعال ، والنوع من مادة اللفظ وهو الهمزة ، والمشاء بنميم هو من العيب ، ولكنه عيب في القفا ، فهو عيب الضعيف العاجز ، فذكر العياب بالقوة ، والعياب بالضعف ، والعياب في مشهد ، والعياب في مغيب .

وأما ﴿ **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ** ﴾(١) فإن الظلم نوعان : ترك الواجب وهو منع الخير ، وتعد على الغير وهو المعتدي ، وأما الأثيم مع المعتدي فكقوله : ﴿ **وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾(٢) .

وأما العتل الزنيم : فهو الجبار الفظ الغليظ الذي قد صار من شدة تجبره وغلظه معروفاً بالشر ، مشهوراً به ، له زنمة كزنمة الشاة . ويشبه ـ والله أعلم « أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد ، وهو في الأقوال وما يتبعها ، والمناع المعتدي الأثيم العتل الزنيم من جنس وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال ، فالأول الغالب على جانب الأعراض ، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك ، ووصفه بالظلم والبخل والكبر كما في قوله : ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُوراً ، الَّذِينَ يَبْخَلُونَ** ﴾(٣) الآية .

وقوله : ﴿ **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾(٤) فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً ، فإن الله جعل للصالحين سيما ، وجعل للفاجرين سيماً قال تعالى : ﴿ **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ** ﴾(٥) وقال يظهر :

---

(١) سورة القلم آية رقم ١٢ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ٢ .
(٣) سورة النساء آية رقم ٣٦ ـ ٣٧ .
(٤) سورة القلم آية رقم ١٦ .
(٥) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾[1] الآية ، فجعل الإرادة والتعريف بالسيما الذي يدرك بالبصر معلقاً على المشيئة ، وأقسم على التعريف في لحن القول وهو الصوت الذي يدرك بالسمع ، فدل على أنّ المنافقين لا بد أن يعرفوا في أصواتهم وكلامهم الذي يظهر فيه لحن قولهم ، وهذا ظاهر بين لمن تأمله في الناس ، من أهل الفراسة في الأقوال وغيرها مما يظهر فيها من النواقص والفحش وغير ذلك .

وأما ظهور ما في قلوبهم على وجوههم فقد يكون وقد لا يكون ، ودل على أن ظهور ما في باطن الانسان على فلتات لسانه أقوى من ظهوره على صفحات وجهه ، لأن اللسان ترجمان القلب ، فإظهاره لما أكنه أوكد، ولأن دلالة اللسان قالية ، ودلالة الوجه حالية ، والقول أجمع وأوسع للمعاني التي في القلب من الحال ، ولهذا فضل من فضل ـ كابن قتيبة [2]وغيره ـ السمع على البصر .

والتحقيق : أن السمع أوسع ، والبصر أخص وأرفع ، وإن كان إدراك السمع أكثر فإدراك البصر أكمل ، ولهذا أقسم أنه لا بد أن يدركهم بسمعه ، وأما إدراكه إياهم بالبصر بسيماهم فقد يكون وقد لا يكون ، فأخبر سبحانه أنه لا بد أن يوسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطومه ، وهو أنفه الذي هو عضوه البارز ، الذي يسبق البصر إليه عند مشاهدته ، لتكون السيما ظاهرة من أول ما يرى ، وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة ، الذين ودعهم الناس اتقاء

---

(١) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين ، ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب اليها وتوفي ببغداد عام ٢٧٦ هـ .
من كتبه تأويل مختلف الحديث ، وأدب الكاتب ، والمعارف ، وكتاب المعاني وعيون الأخبار ، والامامة والسياسة ، والرد على الشعوبية . وغير ذلك كثير .
راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٦٠ .

شرهم وفحشهم فإن لهم سيما من شر يعرفون بها ، وكذلك الفسقة وأهل الريب . وقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾[1]الخ . فيه بيان حال البخلاء ، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال ، إما إغراقاً وإما إحراقاً ، وإما فهما ، وإما مصادرة ، وإما في شهوات الغي وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء ، الذين يمنعون الحق ، وليس إقدام في صنائع المعروف ، وهو قوله : ﴿ مناع للخير ﴾ وهو أحد نوعي الظلم ، كما أخبروا به عن نفوسهم في قولهم : ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾[2]وكما قال ﷺ « مطل الغنى ظلم »[3].

وتضمن عقوبة الظالم المانع للحق ، أو متعدي الحق ، كما يعاقب الله مانع الزكاة وهو مناع الخير ، وآكل الربا والميسر : الذي هو أكل المال بالباطل ، وكل منهما أخبر الله في كتابه أنه يعاقبه بنقيض قصده ، فهنا أخبر بعقوبة تارك الحقوق ، وفي البقرة بعقوبة المرابي ، وهذه العقوبة تتناول من يترك هذا الواجب ، وفعل هذا المحرم من المحتالين ، كما أخبر في هذه السورة ، وكما هو المشاهد في أهل منع الحقوق المالية ، والحيل الربوية ، من العقوبات والمثلات .

فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل

---

(١) سورة القلم آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ .
(٢) سورة القلم آية رقم ٣١ .
(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الحوالة ١ باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة . . ؟ .
٢٢٨٧ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : وذكره . ورواه أيضاً في الاستقراض ١٢ والامام مسلم في المساقاة ٣٣ ، وأبو داود في البيوع ١٠ والامام الترمذي في البيوع ٦٨ والنسائي في البيوع ١٠٠، ١٠١ وابن ماجه في الصدقات ٨ وصاحب الموطأ في البيوع ٨٤ والدارمي في البيوع ٤٨ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٣١٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ (حلبي) .

عاقبه بباب من الشر ، يذهب فيه أضعاف ما بخل به ، وعقوبته في الآخرة مدخرة ، ثم اتبع ذلك بعقوبة المتكبر الذي هو من نوع العتل الزنيم ، الذي يدعى إلى السجود والطاعة فيأبى ، ففيها عقوبة تارك الصلاة ، وتارك الزكاة ، فتارك الصلاة هو المعتدي الأثيم ، العتل الزنيم ، وتارك الزكاة الظالم البخيل .

وختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾[1] وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية ، والصبر على الأول أشد ، وصاحب الحوت ذهب مغاضباً لربه لأجل الأمر السماوي ولهذا قال : ﴿ **وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ** ﴾[2] الخ فآخرها منعطف على أول ما في قوله : ﴿ **مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** ﴾[3] وقوله : ﴿ **ويقولون إنه لمجنون** ﴾ والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض ، والغضب ، والأذى ، فالصبر على ذلك نوع من الحلم ، وهو احتمال أذى الخلق ، وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم .

وما ذكره في قصة أهل الجنة من أمر السماء والجود ، وما ذكره هنا من الحلم والصبر : هو جماع الخلق الحسن ، كما جمع بينهما في قوله : ﴿ **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ** ﴾[4] الآية ، كما قيل .

بحلم وبذل ساد في قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

فالإحسان إلى الناس بالمال والمنفعة واحتمال أذاهم ، كالسخاء المحمود كما جمع بينهما في قوله :﴿ **خُذِ العَفْو ، وَأْمُرْ بِالعرْفِ ، وَأَعْرِضْ**

(١) سورة القلم آية رقم ٤٨ وتكملة الآية ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ .

(٢) سورة القلم آية رقم ٥١ وتكملة الآية ﴿ لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ .

(٣) سورة القلم آية رقم ٢ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٣٤ وتكملة الآية ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .

عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾(١) ففي أخذه العفو من أخلاقهم احتمال أذاهم ، وهو نوعان : ترك مالك من الحق عليهم ، فأخذ العفو أن لا تطلب ما تركوه من حقك ، وأن لا تنهاهم فيما تعدوا فيه الحد فيك ، وإذا لم تأمرهم ولم تنههم فيما يتعلق . (٢).

وقــــال :

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ [فيها] .

منها قوله : ﴿ بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ ﴾(٣) حار فيها كثير ، والصواب المأثور عن السلف . قال مجاهد : الشيطان ، وقال الحسن : هم أولى بالشيطان من نبي الله ، فبين المراد ، فإنه يتكلم على اللفظ كعادة السلف في الاختصار مع البلاغة وفهم المعنى ـ وقال الضحاك : المجنون . فإن من كان به الشيطان ففيه الجنون ، وعن الحسن : الضال ، وذلك أنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يخرق ثيابه ويهذي ، بل لأن النبي ﷺ خالف أهل العقل في نظرهم ، كما يقال ما لفلان عقل .

ومثل هذا رموا به اتباع الأنبياء كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا : : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾(٤) ومثله في هذه الأمة كثير يسخرون من المؤمنين ،

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٩٩ .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً : حدثنا يونس ، حدثنا سفيان هو ابن عيينه ـ عن أبي قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه محمداً ﷺ ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين ﴾ قال رسول الله ﷺ ما هذا يا جبريل . . ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » .

(٢) آخر ما وجد منها .

(٣) سورة القلم آية رقم ٦ .

(٤) سورة المطففين آية رقم ٣٢ .

ويرمونهم بـالجنون والعـظائم التي هم أولى بها منهم ، قـال الحسن لقد رأيت رجالاً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوكم لقالوا هؤلاء شياطين ، ولـو رأوا خيـاركم لقالـوا هؤلاء لا خلاق لهم ، ولـو رأوا شراركم لقـالـوا هؤلاء قـوم لا يؤمنون بيوم الحساب ، وهذا كثير في كلام السلف ، يصفون أهل زمانهم وما هم عليه من مخالفة من تقدم ، فما الظن بأهل زماننا .

والذين لم يفهموا هذا ، قالوا الباء زائدة ، قالـه ابن قتيبة وغيـره ، وهذا كثيـر كقولـه : ﴿ **سَيَعْلَمُونَ غَـدا مَنِ الكَذَّابُ الأَشـرُ** ﴾[1]﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ** ﴾[2]الآيات ﴿ **إنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فِإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ** ﴾[3]. الآيـة .

---

(١) سورة القمر آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ .

(٣) سورة هود آية رقم ٣٨ .

وقـــال :

فصـــل

« في هول يوم القيامة »

ولجماعة من الفضلاء كلام في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾[1] لم ابتدأ بالأخ ومن عادة العرب أن يبدأ بالأهم ؟ فلما سئلت عن هذا قلت : إن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه فتارة يقتضي الابتداء بالأعلى وتارة بالأدنى ، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء ، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائلة ، فإنه يعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد ، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة ، فابتدىء بنفي الأبعد منتقلاً منه إلى الأقرب ، فقيل أولاً ، ﴿ يفر المرء من أخيه ﴾ فعلم أن ثم شدة توجب ذلك ، وقد يجوز أن يفر من غيره ، ويجوز أن لا يفر ، فقيل ﴿ وأمه وأبيه ﴾ فعلم أن الشدة أكبر من ذلك ، بحيث توجب الفرار من الأبوين .

ثم قيل ﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيه ﴾[2] فعلم أنها طامة بحيث توجب الفرار مما لا يفر منهم إلا في غاية الشدة وهي الزوجة والبنون ، ولفظ صاحبته أحسن من زوجته .

قلت : فهذا في الخبر ونظيره في الأمر ، قوله : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ

(١) سورة عبس آية رقم ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) سورة عبس آية رقم ٣٦ .

صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾[1]وقوله : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾[2]فإن الواجبات نوعان على الترتيب ، فيقدم فيه الأعلى فالأعلى ، كما في كفارة الظهار والقتل واليمين ، وعلى التخيير فابتدأ فيها بأخفها ليبين أنه كان مجزياً لا نقص فيه وإن ذكر الأعلى بعده للترغيب فيه لا للإيجاب ، فانتقال القلب من العمل الأدنى إلى الأعلى أولى من أن يؤمر بالأعلى ثم يذكر له الأدنى فيزدريه القلب .

ولهذا لما ذكر في جزاء الصيد الأعلى ابتداء كان لنا في ترتيبه روايتان ، وإذا نصرنا المشهور قلنا قدم فيه الأعلى ، لأن الأدنى بقدرته في قوله : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً ﴾[3]. ولهذا لما ابتدأ بالأثقل في حدود المحاربين لم يكن عندنا على التخيير ، ولا على الترتيب ، بل بحسب الجرائم ، وليس في لفظ الآية ما يقتضي التخيير كما يتوهمه طائفة من الناس ، فإنه لم يقل الواجب أو الجزاء هذا أو هذا أو هذا ، كما قال ، فكفارته هذا أو هذا أو هذا وكما قال : ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ وإنما قال : إنما جزاؤهم هذا أو هذا أو هذا ، فالكلام فيه نفي وإثبات : تقديره : ما جزاؤهم إلا أحد الثلاثة كما قال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ ﴾[4]أي ما هي إلا لهؤلاء .

وقد تقرر أن مثل هذا الخطاب يثبت للمذكور ما نفاه عن غيره ، فلما نفى الجواز لغير الأصناف أثبت الجواز لا الوجوب ولا الاستحقاق ، كما فهمه من اعتقد وجوب الاستيعاب من ظاهر الخطاب ، وهنا نفى أن يكون ما سوى أحد هذه جزاء ، فأثبت أن يكون جزاء المحارب أحد هذه العقوبات ، والمحاربون جملة ليسوا واحداً ، فظهر الفرق بين هذه الآية وبين الآيتين من

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٩٦ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ٨٩ .
(٣) سورة المائدة آية رقم ٩٥ .
(٤) سورة التوبة آية رقم ٦٠ .

وجوه : « أحدها » أن المحاربين ذكروا باسم الجمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي توزيع الأفراد على الأفراد ، فلو قيل : جزاء المعتدين إما القتل ، وإما القطع ، وإما الجلد ، وإما الصلب ، وإما الحبس : لم يقتض هذا التخيير في كل معتد بين هذه العقوبات ، بل توزيع العقوبات على أنواعهم ، كذلك إذا قيل : جزاء المحاربين كذا ، أو كذا ، أو كذا ، أو كذا بخلاف قوله : ﴿ فكفارته ﴾ وقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ ﴾[1] .

« الثاني » أن المقصود نفي جواز ما سوى ، وإثبات ضده ، وهي جواز المذكور في الجملة ، وذلك أعم من أن يكون مخيراً أو معيناً ، بخلاف ما إذا لم يكن المقصود إلا مجرد الإثبات ، فإن إثباته بصيغة التخيير يدل عليه . وهذا معروف في مواد الإثبات المحضة ، أو مواد الحصر ، كما قال ﷺ للخصم المدعي : « شاهداك أو يمينه »[2] وفي لفظ : « ليس لك منه إلا ذلك » فحصر طريق الحق ، وليس الغرض التخيير .

وكذلك يقال : الواجب في القتل القصاص أو الدية ، ولا تصح الصلاة إلا بوضوء أو تيمم ، ولا بد يوم الجمعة من الظهر أو الجمعة ، ولا يترك في دار الإسلام إلا مسلم أو معاهد ، وسبب ذلك أنه إذا كان بعض المقصود

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٤ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الشهادات ٢٠ باب اليمين على المدعى عليه في الأموال والحدود . وقال النبي ﷺ (شاهداك أو يمينه) .

٢٦٦٩ - ٢٦٧٠ - حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن منصور عن ابي وائل . قال عبد الله « من حلف على يمين يستحق بها مالاً لقي الله وهو عليه غضبان ثم أنزل الله تصديق ذلك (٧٧ آل عمران)﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم - إلى - عذاب أليم ﴾ ثم ان الأشعث بن قيس خرج إلينا فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فحدثناه بما قال ، فقال : صدق ، لفيَّ انزلت كان بيني وبين رجل خصومة في شيء فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال « شاهداك أو يمينه . فقلت له : إنه إذن يحلف ولا يبالي فقال النبي ﷺ من حلف على يمين يستحق بها مالاً وهو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان فانزل الله تصديق ذلك ثم اقترأ هذه الآية .

ورواه أيضاً في الديات ٢٣ ، ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٢١ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢١١ (حلبي) .

الذي دل عليه اللفظ نفس ما سوى الأمور المذكورة ، كان مدلوله إثباتاً يقتضي النفي ، وهو الوجود المشترك من هذه الأمور ، والقدر المشترك بينها أعم من أن يكون معيناً أو مخيراً ، وأما إذا أثبتت ابتداء فلو لم تكن مخيرة بل معينة ، ولم يدل اللفظ عليه كان تلبيساً .

« الوجه الثالث » وهو لطيف أن يقال : مفهوم ، أو ، إثبات التقسيم المطلق ، كما قلنا : إن الواو مفهومها التشريك المطلق بين المعطوف والمعطوف عليه ، فأما الترتيب : فلا ينفيه ، ولا يثبته ، إذْ الدال على مجرد المشترك لا يدل على المميز ، فكذلك ﴿ أو ﴾ هي للتقسيم المطلق وهو ثبوت أحد الأمرين مطلقاً ، وذلك أعم من أن يثبت على سبيل التخيير بينه وبين الآخر ، أو على سبيل الترتيب ، أو على سبيل التوزيع ، وهو ثبوت هذا في حال ، وهذا في حال ، كما أنهم قالوا : هي هي في الطلب يراد بها الإباحة تارة ، كقولهم: تعلم النحو أو الفقه ، والتخيير أخرى ، كقولهم : كل السمك أو اللبن ، وأرادوا بالإباحة جواز الجمع ، وهي في نفسها تثبت القدر المشترك ، وهو أحد الاثنين ، إما مع إباحة الآخر أو حظره ، فلا تدل عليه بنفسها ، بل من جهة المادة الخاصة، ولهذا جمعنا بين القتل والصلب ، وبينه وبين القطع على رواية ، فإن ﴿ أو ﴾ لا تنفي ذلك ، فإذا كان حرف أو يدل على مجرد إثبات أحد المذكورات ، فهنا مسلكان :

« أحدهما » أن يقال : إذا كانت في مادة الايجاب أفادت التخيير ، وإذا كانت في مادة الجواز أفادت القدر المشترك ، كما هو مشهور عن النحاة المتكلمين في معاني الحروف أنهم يقولون : يراد بها تارة الإذن في أحد الشيئين مع حظر الآخر ، وتارة الإذن في أحدهما وإن ضم إليه الآخر ، كما ذكروه من الأمثلة .

وحينئذ فهذه الآية في مادة الجواز ، لأن المنفى هو الجواز ، فيكون المثبت هو الجواز كما ذكرناه في آية الصدقات ، بخلاف آية الكفارة فإنها في

مادة الوجوب . « المسلك الثاني » أن يقال : لا فرق بين المادتين ، الجواز والوجوب ، بل وفي الوجوب قد يباح الجمع ، كما لو كفر بالجميع مع الغنى ، لكن يقال : دلالتها في الجميع على التفريق المطلق ضد دلالة « الواو » .

ثم إن لم يدل دليل على ترتيب ولا تعيين : جاز فعل كل واحد من الخصال ، لعدم ما يدل على التعيين والترتيب، لا للدليل المنافي لذلك ، كما في قوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾(1)فإن الرقبة المعنية يجري عتقها ، كثبوت القدر المشترك فيها ، وعدم ما يوجب المعين ، لا لدليل دل على نفس المعين ، وإن دل دليل على التعيين ، والترتيب : قلنا به ، كما نقول بتقييد المطلق ، وليس تقييد المطلق رفعاً لظاهر اللفظ ، بل ضم حكم آخر إليه ، وهذا مسلك حسن في هذا الموضع ونظائره ، فإنه يجب الفرق بين ما يثبته اللفظ وبين ما ينفيه ، فإذا قلنا في المحاربين بالتعيين لدليل خبري أو قياسي كان كالقول بالترتيب في الوضوء ، والأيمان في الرقبة ونحوهما .

---

(1) سورة النساء آية رقم ٩٢ تكملة الآية ﴿ **مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدوٍ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ .
اختلف في سبب نزول هذه الآية فقال مجاهد وغير واحد نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمة وهي أسماء بنت مخرمة وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الاسلام وهو الحرث ابن يزيد الغامدي فأضمر له عياش السوء فأسلم ذلك الرجل وهاجر ، وعياش لا يشعر فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله فأنزل الله هذه الآية . قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : نزلت في أبي الدرداء لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الايمان حين رفع عليه السيف فاهوى به اليه فقال كلمته فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال : إنما قالها متعوذاً . فقال له : هل شققت عن قلبه ؟ وذكرت هذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء . والله اعلم .

سورة التكوير

وقال شيخ الإسلام

فصل

في النهي على القتل بعامة

قوله : ﴿ وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] دليل على أنه لا يجوز قتل النفس إلا بذنب منها ، فلا يجوز قتل الصبي والمجنون ، لأن القلم مرفوع عنهما ، فلا ذنب لهما ، وهذه العلة لا ينبغي أن يشك فيها في النهي عن قتل صبيان أهل الحرب ، وأما العلة المشتركة بينهم وبين النساء فكونهم ليسوا من أهل القتال على الصحيح الذي هو قول الجمهور ، أو كونهم يصيرون للمسلمين .

فأما التعليل بهذا وحده في الصبي فلا ، والآية تقتضي ذم قتل كل من لا ذنب له من صغير وكبير ، وسؤالها توبيخ قاتلها ، وقوله في السورة : ﴿ إِنَّهُ

---

(١) سورة التكوير آية رقم ٨، ٩ .
قال الامام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني أبو الأسود وهو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل عن عروة عن عائشة عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة .
قالت : حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول : لقد هممت أن أنهي عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً ثم سألوه عن العزل فقال رسول الله - ﷺ - ذلك الوأد الخفي وهو الموؤودة سئلت - ورواه مسلم من حديث أبي عبد الرحمن المقري وهو عبد الله بن يزيد عن سعيد بن أبي أيوب ، ورواه أيضاً ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن اسحاق السيلحين عن يحيى بن أيوب ، ورواه مسلم أيضاً وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث مالك بن أنس ثلاثتهم عن أبي الأسود به .

لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[1]إلى قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾[2]هو جبريل ، وهو نظير ما في سورة الشعراء أنه تنزلت به الملائكة لا الشياطين ، بخلاف الإفك ونحوه فإنه تنزل به الشياطين ، فوقع الفرق بين النبي ﷺ والافاك، والشاعر، والكاهن، وبين الملك والشيطان ، والعلماء ورثة الأنبياء .

وقال شيخ الإسلام

في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاؤُون إلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾[3]أخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته ، ومع هذا فلا يوجب ذلك وجود الفعل منهم ، إذ أكثر ما فيه أن جعلهم مشائين ، ولا يقع الفعل منهم حتى يشاؤه منهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرهُ ، وَمَا يَذْكُرُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾[4]ومع هذا فلا بد من إرادة الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم ، فهنا أربع إرادات : إرادة البيان ، وإرادة المشيئة ، وإرادة الفعل ، وإرادة الاعانة ـ والله أعلم .

---

(١) سورة التكوير آية رقم ١٩ .

(٢) سورة التكوير آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة التكوير آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة المدثر آية رقم ٥٥ ـ ٥٦ تكملة الآية ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ .

سورة الأعلى

قال الشيخ رحمه الله : -

فصل (1)

في رؤية الله تعالى يوم القيامة

قال ابن فورك(2) في كتابه الذي كتبه إلى أبي اسحاق الاسفرائيني(3) يحكي ما جرى له قال : وجرى في كلام السلطان : أليس تقول : إنه يرى لا في جهة ؟ فقلت: « نعم - يرى لا في جهة ، كما أنه لم يزل يرى نفسه لا في جهة ، ولا من جهة ، ويراه غيره على ما يرى ورأى نفسه ، والجهة ليست بشرط في الرؤية ، وقلت أيضاً : « المرئيات المعقولة فيما بيننا هكذا نراها في جهة ومحل ، والقضاء بمجرد المعهود لا يمكن دون السير والبحث ، لأنا كما لا نرى إلا في جهة ومحل كذلك لم نر إلا متلوناً ذا قدر وحجم يحتمل المساحة ، والثقل ، ولا يخلو من حرارة ورطوبة أو يبوسة إذا لم يكن عرضاً لا يقبل التثنية والتأليف وغير ذلك ، ومع هذا فلا عبرة بشيء من هذا » .

---

(1) أول الكلام محله كتاب الأسماء والصفات ولأجل تفسيره للسورة وغيره أثبتناه هنا .

(2) سبق الترجمة له في هذا الكتاب في كلمة وافية .

(3) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران أبو اسحاق ، عالم بالفقه والأصول كان يلقب بركن الدين . قال ابن تغري بردي وهو أول من لقب من الفقهاء نشأ في اسفرايين (بين نيسابور وجرجان) ثم خرج الى نيسابور وبنيت له فيها مدرسة عظيمة فدرس فيها ورحل الى خراسان وبعض أنحاء العراق فاشتهر له كتاب (الجامع) في أصول الدين خمس مجلدات ، ورسالة في أصول الفقه ، وكان ثقة في رواية الحديث وله مناظرات مع المعتزلة . مات في نيسابور عام ٤١٨ هـ .

=

قال : ثم بلغني أن السلطان ذلك اليوم والليلة وثاني يوم يكرر على نفسه في مجلسه : « كيف يعقل شيء لا في جهة ؟ » وما شغل القلب في أول الأمر وتربى عليه فإن قلعه صعب ، والله المعين ، غير أنه فرحت الكرامية بما كان منه في ذلك ، فلما رجعت إلى البيت فإذا أنا برقعة فيها مكتوب : « الأستاذ ! ـ أدام الله سلامته ـ على مذهبه أن الباري ليس في جهة ، فكيف يرى لا في جهة ؟ ».

فكتبت : « خبر الرؤية صحيح ، وهي واجبة كما بشرهم النبي ﷺ ، وفيه دلالة على أن الله يرى لا في جهة ، لأنه ﷺ قال « لا تضامون في رؤيته »[1] ومعناه : لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته ، فإنه لا في جهة » وكلاماً طويلاً من كل وجه ملأت ظهر الرقعة وبطنها منه .

فلما ردت إليه أنفذها إلى حاكم البلد ، وهو أبو محمد الناصحي ، واستفتاه فيما قلته ، فجمع قوماً من الحنفية ، والكرامية ، فكتب هو ـ أعزك الله ـ بأن من قال بأن الله لا يرى في جهة مبتدع ضال ، وكتب أبو حامد المعتزلي مثله ، وكتب إنسان بسطامي مؤدب في دار صاحب الجيش مثله ، فردوا عليه ، فأنفذ إلي ما في ذلك المحضر الذي فيه خطوطهم ، وكتب إلي رقعة وقال فيها « إنهم كتبوا هكذا ، فما تقول في هذه الفتاوى ؟ » . فقلت : إن هؤلاء القوم يجب أن يسألوا عن مسائل الفقه التي يقال فيها بتقليد العامي للعالم ، فأما معرفة الأصول والفتاوى فيها فليس من شأنهم ، وهم

= راجع وفيات الأعيان ١ : ٤ وشذرات الذهب ٣ : ٢٠٩ ، وطبقات السبكي ٣ : ١١١ .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة ١٦ باب فضل صلاة العصر .

٥٥٤ ـ حدثنا الحميدي ، قال : حدثنا مروان بن معاوية ، قال : حدثنا إسماعيل عن قيس عن جرير قال : كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر ـ يعني البدر ـ فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ قال اسماعيل : افعلوا لا تفوتنكم .

يقولون : إنا لا نحسن ذلك .

قلت : قول هؤلاء : « إن الله يرى من غير معاينة ومواجهة » قول انفردوا به دون سائر طوائف الأمة ، وجمهور العقلاء على أن فساد هذا معلوم بالضرورة .

والأخبار المتواترة عن النبي ﷺ ترد عليهم ، كقوله في الأحاديث الصحيحة : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر لا تضارون في رؤ يته »[1]وقوله لما سأله الناس : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل ترون الشمس صحوا ليس دونها سحاب ؟ » . قالوا : نعم ، « وهل ترون القمر صحوا ليس دونه سحاب ؟ قالوا : نعم . قال : « فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر »[2].

فشبه الرؤ ية بالرؤ ية ولم يشبه المرئي بالمرئي ، فإن الكاف ـ حرف التشبيه ـ دخل على الرؤ ية ، وفي لفظ للبخاري « يرونه عياناً » . ومعلوم أنا نرى الشمس والقمر عياناً مواجهة ، فيجب أن نراه كذلك ، وأما رؤ ية ما لا نعاين ولا نواجهه فهذه غير متصورة في العقل ، فضلاً عن أن تكون كرؤ ية الشمس والقمر .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٣٤ باب قول الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ .

٧٤٣٧ ـ حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا ابراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة ان الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة . . . ؟ فقال رسول الله ﷺ وذكره .

وفيه زيادة (كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها ـ شك ابراهيم ـ فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ـ فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول انا ربكم . فيقولون انت ربنا فيتبعونه ويضرب السراط بين ظهري جهنم الخ .

ولهذا صار حذاقهم إلى إنكار الرؤية ، وقالوا : قولنا هو قول المعتزلة في الباطن ، فإنهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا ننازع فيه المعتزلة .

وأما قوله : إن الخبر يدل على أنهم يرونه لا في جهة ، وقوله: « لا تضامون » معناه لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته فإنه لا في جهة فهذا تفسير للحديث بما لا يدل عليه ، ولا قاله أحد من أئمة العلم ، بل هو تفسير منكر عقلاً وشرعاً ولغة .

فإن قوله « لا تضامون » يروى بالتخفيف . أي : لا يلحقكم ضيم في رؤيته كما يلحق الناس عند رؤية الشيء الحسن كالهلال ، فإنه قد يلحقهم ضيم في طلب رؤيته حين يرى ، وهو سبحانه يتجلى تجلياً ظاهراً فيرونه كما ترى الشمس والقمر بلا ضيم يلحقكم في رؤيته وهذه الرواية المشهورة .

وقيل « لا تضامون » بالتشديد ، أي : لا ينضم بعضكم إلى بعض كما يتضام الناس عند رؤية الشيء الخفي كالهلال ، وكذلك « تضارون » و « تضارون »[1] .

فإما أن يروى بالتشديد ويقال : « لا تضامون » أي لا تضمكم جهة واحدة فهذا باطل ، لأن التضام انضمام بعضهم إلى بعض ، فهو « تفاعل » كالتماس ، والتراد ، ونحو ذلك ، وقد يروى « لا تضامون » بالضم والتشديد ، أي لا يضام بعضكم بعضاً .

وبكل حال فهو من « التضام » الذي هو مضامة بعضهم بعضاً ، ليس هو أن شيئاً آخر لا يضمكم ، فإن هذا المعنى لا يقال فيه « لا تضامون » فإن لم يقل « لا يضمكم شيء » .

ثم يقال : الراؤون كلهم في جهة واحدة لا على الأرض ، وإن قدر أن

(1) راجع ما كتبه ابن حجر العسقلاني كتابه فتح الباري ٢ : ٣٣ ، ١٣ : ٤٢٤ وما بعدها ٤٢٧ .

المرئي ليس في جهة فكيف يجوز أن يقال « لا تضمكم جهة واحدة » وهم كلهم على الأرض ـ أرض القيامة ـ أو في الجنة . وكل ذلك جهة ، ووجودهم نفسهم لا في جهة ومكان ممتنع حساً وعقلاً .

وأما قوله « هو يرى لا في جهة فكذلك يراه غيره ، فهذا تمثيل باطل ، فإن الانسان [يمكن أن يرى] بدنه ، ولا يمكن أن يرى غيره إلا أن يكون بجهة منه ، وهو أن يكون أمامه سواء كان عالياً أو سافلاً .

وقد تخرق له العادة فيرى من خلفه ، كما قال النبي ﷺ « إني لأراكم من بعدي[1]» وفي رواية « من بعد ظهري » وفي لفظ للبخاري « إني لأراكم من ورائي » وفي لفظ في الصحيحين « إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي » لكن هم بجهة منه ، وهم خلفه ، فكيف تقاس رؤية الرائي لغيره على رؤيته لنفسه ؟ .

ثم تشبيه رؤيته هو برؤيتنا نحن تشبيه باطل ، فإن بصره يحيط بما رآه بخلاف أبصارنا .

وهؤلاء القوم أثبتوا ما لا يمكن رؤيته وأحبوا نصر مذهب أهل السنة والجماعة والحديث ، فجمعوا بين أمرين متناقضين ، فإن ما لا يكون داخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه يمتنع أن يرى بالعين لو كان وجوده في الخارج

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأذان ٧١ باب تسوية الصفوف عند الاقامة بعدها .
٧١٨ ـ حدثنا أبو معمر قال : حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس أن النبي ﷺ قال : وذكره .
ورواه أيضاً ٧٢ باب إقبال الامام على الناس عند تسوية الصفوف بسنده عن أنس بن مالك .
ورواه أيضاً ٧٦ باب الزاق المنكب بالمنكب والقدم بالقدم في الصف وقال النعمان بن بشير : رأيت الرجل منا يلزق كعبه بكعب صاحبه بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أيضاً .
ورواه الامام النسائي في التطبيق ٦٠ وفي كتاب السهو ١٠٢ ورواه صاحب الموطأ في السفر ٧٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢ (حلبي) .

ممكناً ، فكيف وهو ممتنع ؟ وإنما يقدر في الأذهان من غير أن يكون له وجود في الأعيان ، فهو من باب الوهم والخيال الباطل . ولهذا فسروا الإدراك بالرؤ ية في قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾[1] كما فسرتها المعتزلة ، لكن عند المعتزلة هذا خرج مخرج المدح فلا يرى بحال ، وهؤلاء قالوا : لا يرى في الدنيا دون الآخرة .

والآية تنفي الإدراك مطلقاً [دون الرؤ ية كما قال] ابن كلاب[2] وهذا أصح ، وحينئذ فتكون الآية دالة على إثبات الرؤ ية ، وهو أنه يرى ولا يدرك ، فيرى من غير إحاطة ولا حصر ، وبهذا يحصل المدح ، فإنه وصف لعظمته أنه لا تدركه أبصار العباد وإن رأته ، وهو يدرك أبصارهم .

قال ابن عباس ، وعكرمة بحضرته ، لمن عارض بهذه الآية : « ألست ترى : السماء »؟ . قال « بلى » قال : « أفكلها ترى ؟ » .

وكذلك قال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾[3] وهؤلاء يقولون : علمه شيء واحد لا يمكن أن يحاط بشيء منه دون شيء ، فقالوا : ولا يحيطون بشيء من معلومه ، وليس الأمر كذلك ، بل نفس العلم جنس يحيطون منه بما شاء ، وسائره لا يحيطون به .

وقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾[4] والراجح من القولين أن الضمير عائد إلى ﴿ ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ وإذا لم يحيطوا بهذا علماً وهو بعض مخلوقات الرب فأن لا يحيطوا علماً بالخالق أولى وأحرى . قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[5] وقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

(٢) سبق الترجمة له في هذا الجزء بكلمة وافية .

(٣) سورةالبقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٤) سورة طه آية رقم ١١٠ .

(٥) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

وَالَّذين مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إلاَّ اللهُ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾[1]ـ الآية .

فإذا قيل : ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾[2] أي لا تحيط به ، دل على أنه يوصف بنفي الإحاطة به مع إثبات الرؤية ، وهذا ممتنع على قول هؤلاء ، فإن هذا إنما يكون بزعمهم فيما ينقسم ، فيرى بعضه من بعض ، فتكون هناك رؤية بلا إدراك وإحاطة ، وعندهم لا يتصور أن يرى إلا رؤية واحدة متماثلة ، كما يقولونه في كلامه : انه شيء واحد لا يتبعض ولا يتعدد ، وفي الايمان به : إنه شيء واحد لا يقبل الزيادة والنقصان . وأما الإدراك والإحاطة الزائدة على مطلق الرؤية فليس انتفاؤه لعظمة الرب عندهم ، بل لأن ذاته لا تقبل ذاك كما قالت المعتزلة : انها لا تقبل الرؤية .

وأيضاً فهم والمعتزلة لا يريدون أن يجعلوا للأبصار إدراكاً غير الرؤية . سواء أثبتت الرؤية أو نفيت ، فإن هذا يبطل قول المعتزلة بنفي الرؤية ، ويبطل قول هؤلاء باثبات رؤية بلا معاينة ومواجهة .

---

(١) سورةابراهيم آية رقم ٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار . . حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » وفي الكتب المتقدمة ان الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهد . . أي تدعثر وقال تعالى : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين** ﴾ .

ونفي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس وتنزه فلا تدركه الأبصار ، ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ .

فصـــل

أقوال الفرق في صفات الله تعالى

هذا مع أن ابن فورك هو ممن يثبت الصفات الخبرية كالوجه واليـدين ، وكذلك المجيء والإتيان ، موافقة لأبي الحسن ، فإن هذا قوله وقول متقـدمي أصحابه .

فقال ابن فورك فيما صنف في أصول الـدين ، فإن سـألت الجهمية عن الـدلالة على أن القـديم سميع بصير ، قيـل لهم : قـد اتفقنا على أنه من تستحيـل عليه الآفـات ، والحي إذا لم يكن مـأووفاً بـآفـات تمنعـه من إدراك المسموعات والمبصرات كان سميعاً بصيراً .

وإن سـألت فقلت : « أين هو ؟ » فجـوابنا « إنـه في السماء » كمـا أخبر في التنـزيـل عن نفسـه بـذلـك فقـال ـ عـز من قـائـل ـ ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾[1] .

وإشارة المسلمين بأيديهم عند الدعاء في رفعهـا إليه ، وأنـك لو سـألت صغيرهم وكبيرهم فقلت « أين الله ؟ » لقـالوا : « إنـه في السماء » ولم ينكـروا لفظ السؤال بـ « أين » لأن النبي ﷺ سـأل الجاريـة التي عرضت للعتق فقـال « أين الله ؟ » فقالت : « فـي السماء » مشيرة بها . فقال النبي ﷺ : « إعتقها

---

(١) سورة الملك آية رقم ١٦ تكملة الآية ﴿ أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . . ﴾ .

فإنها مؤمنة »[1] ولو كان ذلك قولاً منكراً لم يحكم بايمانها ، ولأنكره عليها ، ومعنى ذلك أنه فوق السماء ، لأني « في » بمعنى « فوق » قال الله تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[2] أي فوقها . قال : وإن سألت « كيف هو ؟ » قلنا له : « كيف » سؤال عن صفته ، وهو ذو الصفات العلى ـ هو العالم الذي له العلم ، والقادر الذي له القدرة ، والحي الذي له الحياة ، الذي لم يزل منفرداً بهذه الصفات لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء .

« قلت » فهذا الكلام هو موافق لما ذكره الأشعري[3] في كتاب « الإبانة » ولما ذكره ابن كلاب كما حكاه عنه ابن فورك ، لكن ابن كلاب يقول : إن العلو والمباينة من الصفات العقلية ، وأما هؤلاء فيقولون : كونه في السماء صفة خبريه كالمجيء والإتيان ، ويطلقون القول بأنه بذاته فوق العرش ، وذلك صفة ذاتية عندهم .

والأشعري يبطل تأويل من تأول الاستواء بمعنى الإستيلاء والقهر بأنه لم يزل مستولياً على العرش وعلى كل شيء والاستواء مختص بالعرش . فلو كان بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال « هو مستولياً على كل شيء وعلى الأرض وغيرها » كما يقال : « إنه مستول عليها » ولما اتفق المسلمون على أن الاستواء مختص بالعرش ، فهذا الاستواء الخاص ليس بمعنى الإستيلاء العام ، وأين للسلطان جعل الاستواء بمعنى الغلبة والقهر وهو الاستيلاء ؟ .

---

(١) الحديث عند مسلم في المساجد ٣٣ وأبو داود في الصلاة ٦٧ أيمان ١٦ والنسائي في السهو ٢٠ الدارمي في النذور ١٠ والموطأ : عتق ٨ ، ٩ ، واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٩١، ٣ :٤٥٢، ٤ :٢٢٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٥ :٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢ .

(٣) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق أبو الحسن من نسل الصحابي أبو موسى الأشعري توفي عام ٣٢٤ هـ سبق الترجمة له .

راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمقريزي ٢ : ٣٥٩ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧ ودائرة المعارف الاسلامية ٢ : ٢١٨ وفي اللباب ١ : ٥٢ .

فيشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون اجتهاده مختلفاً في هذه المسائل كما اختلف اجتهاد غيره ، فأبو المعالي كان يقول بالتأويل ، ثم حرمه ، وحكى اجماع السلف على تحريمه ، وابن عقيل[1] له أقوال مختلفة ، وكذلك لأبي حامد ، والرازي[2] وغيرهم .

ومما بين اختلاف كلام ابن فورك أنه في مصنف آخر قال : فإن قال قائل : « أين هو ؟ » فقيل : ليس بذي كيفية فنخبر عنها إلا أن يقول : « كيف صنعه ؟ » فمن صنعه أنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وهو الصانع للأشياء كلها .

فهنا أبطل السؤال عن الكيفية ، وهناك جوزه وقال : الكيفية هي الصفة ، وهو ذو الصفات ، وكذلك السؤال عن الماهية . قال في ذلك المصنف : وإن سألت الجهمية فقلت « ما هو ؟ » يقال لهم : « ما » يكون استفهاماً عن جنس أو صفة في ذات المستفهم ، فإن أردت بذلك سؤالاً عن صفته فهو العلم ، والقدرة ، والكلام ، والعزة والعظمة .

وقال في الآخر : فإن [قال] قائل « حدثونا عن الواحد الذي تعبدونه ما

---

(١) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري ، أبو الوفاء ويعرف بابن عقيل ، عالم العراق . وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته ، كان قوي الحجة اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته ، وكان يعظم الحلاج فأراد الحنابلة قتله فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم أظهر التوبة حتى تمكن من الظهور توفي عام ٥١٣ هـ .
راجع جلاء العينين ٩٩ وشذرات الذهب ٤ : ٣٥ .

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين البكري أبو عبد الله ، فخر الدين الرازي : الامام المفسر أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل وهو قرشي النسب أصله من طبرستان ، ومولده في الري عام ٥٤٤ هـ ويقال له ابن خطيب الري ، رحل الى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وتوفي في هراة عام ٦٠٦ هـ من كتبه (معالم أصول الدين) ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ، ومفاتيح الغيب » . وغير ذلك كثير .
راجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ والوفيات ١ : ٤٧٤ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٥ ـ ٤٥١ ولسان الميزان ٤ : ٤٢٦ .

هـو ؟ » قيل : إن أردت بقـولـك « مـا هـو ؟ » أي : أشيـروا إليـه حتى أدركـه بحواسي ، فليس بحاضـر للحواس ، وإن أردت بقـولك : « مـا هو ؟ » أي : دلوني عليه بعجائب صنعته وآثـار حكمته ، فـالدلالـة عليه قـائمة . وإن اردت بقـولك « مـا اسمـه ؟ » فنقـول : هـو الله الـرحمن الـرحيم ، القـادر السميـع البصير .

[وهو] في هذا المصنف اثبت أنه على العرش بخلاف ما كان عليه قبل العرش ، فقال : فـإن قال « فحـدثونـا عنه أين كـان قبل أن يخلق ؟ » قيـل : « أين » تقتضي مكاناً ، والأمكنة مخلوقات ، وهو سبحانـه لم يزل قبـل الخلق والأماكن لا في مكان ولا يجري عليه وقت ولا زمان .

فإن قال : « فعلى ما هو اليوم ؟ » قيل له : مستو على العـرش كما قـال سبحانه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾(1) .

وقـال : فإن قـال قـائـل : « لم يـزل البـاري قـادراً عـالمـاً حيـاً سميعـاً بصيراً ؟ » قيل : « نعم » فإن قال : « فلم أنكرتم أن يكون لم يـزل خالقـاً ؟ » قيل له : إن أردت بقولك « لم يزل خالقاً » أي لم يزل الخلق معه في قدمـه ، فهذا خطأ ، لأن معنى الخلق أنه لم يكن ثم كان ، فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً ، وإن أردت بقولك أن الخالق لم يزل وكان قادراً على أن

---

(1) سورة طه آية رقم ٥ .

يقـوم الامـام ابن كثـير : نسلك في هـذا المقـام مـذهب السلف الصـالـح مـالـك والأوزاعي ، والثـوري ، والليث بن سعـد ، والشـافعي ، وأحمد وإسحـاق بن راهـويـه وغيـرهم من أئمـة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والـظاهر المتبـادر الى أذهـان المشبهـين منفي عن الله فـإن الله لا يشبهـه شيء من خلقـه وليس كمثله شيء ﴿ وهو السميع البصير ﴾ بل الأمر كما قال الأئمـة منهم نعيم بن حمـاد الخزاعي شيـخ البخاري . قال من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيها وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلاله ، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى . والله أعلم .

يخلق الخلق ، فكذلك نقول ، لأن الخالق لم يـزل والخلق لم يكن ثم كان ، وقد كان لم يزل قادراً على أن يخلق الخلق فهذا الجواب .

قال : فإن قيـل « إذا قلتم أنه الآن خـالق فما أنكـرتم أن يكون لم يـزل خالقاً ؟ » قيل له : لا يلزم ذلك . وذلك أنه الآن مستو على عرشه ، فلا يجب أن يكون لم يزل مستوياً على عرشه ، فكذلك ما قلناه يناسبه .

فإن قيل « الاستواء منه فعل ، ويستحيل أن يكون الفعل لم يـزل » . فإن قيل : والخلق منه فعل ، ويستحيل أن يكون الخلق لم يزل .

فهذا الكلام [ليس] إلا ببيان الذين يقولون : إنـه استوى على العـرش بعد أن لم يكن ، ويقولـون بقدم صفـة التكوين والخلق ، وأنـه لم يزل خـالقاً فـألزمهم : « أنـا نقول في الخلق مـا نقولـه نحن وأنتم في الاستـواء » . وهـذا جواب ضعيف من وجوه :

« أحدها » : أنه في الحقيقة ليس عنده أنه استوى بعد أن لم يكن ، كما قد بحثه مع السلطان ، بل هو الآن كما كان ، فلا يصح القياس عليه .

« الثاني » : أنه قد سلم أنه لم يـزل قادراً على أن يخلق الخلق ، وهـذا يقتضى امكان وجود المقدور في الأزل ، فإنه إذا كان المقـدور ممتنعاً لم تكن هناك قدرة ، فكيف يجعله لم يزل قادراً مـع امتناع أن يكـون المقدور لم يـزل ممكناً ؟ بل المقدور عنده كان ممتنعاً ثم صـار ممكناً بـلا سبب حادث اقتضى ذلك .

« الثـالث » : أن قوله : « لأن معنى الخلق أنـه لم يكن ثم كان ، فكيف يكـون ما لم يكن ثم كـان لم يزل مـوجوداً ؟ » فيقـال : بـل كـل مخلوق فهـو محدث مسبوق بعدم نفسه ، وما ثم قديم أزلي إلا الله وحده .

وإذا قيل : « لم يزل خـالقاً » فـإنما يقتضي قـدم نوع الخلق ، و « دوام خـالقيتـه » لا يقتضي قـدم شيء من المخلوقـات ، فيجب الفـرق بين أعيـان

المخلوقات الحادثة بعد أن لم تكن ، فإن هذه لا يقول عاقل إن منها شيئاً أزلياً ، ومن قال بقدم شيء من العالم - كالفلك أو مادته - فإنه يجعله مخلوقاً بمعنى أنه كان بعد أن لم يكن ، ولكن إذ أوجده القديم .

ولكن لم يزل فعالاً خالقاً ، [ودوام خالقيته] من لوازم وجوده فهذا ليس قولاً بقدم شيء من المخلوقات ، بل هذا متضمن لحدوث كل ما سواه ، وهذا مقتضى سؤال السائل له .

« الوجه الرابع » أن يقال : العرش حادث كائن بعد أن لم يكن ، لم يزل مستوياً عليه بعد وجوده ، وأما الخلق فالكلام في نوعه ، ودليله على امتناع حوادث لا أول لها قد عرف ضعفه ، والله أعلم .

وكان ابن فورك في مخاطبة السلطان قصد إظهار مخالفة الكرامية ، كما قصد بنيسابور القيام على المعتزلة في استتابتهم ، وكما كفرهم عند السلطان ، ومن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد ، بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره ، فإنما هو ظلم نفسه . وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق ، يتبعون الرسول فلا يبتدعون ، ومن اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول عذروه . وأهل البدع - مثل الخوارج -[1] يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم ويستحلون دمه ، وهؤلاء كل منهم يرد بدعة الآخرين ، ولكن هو أيضاً مبتدع ، فيرد بدعة ببدعة ، وباطلاً بباطل .

---

(١) يطلق بعض المؤرخين كلمة الخوارج على أولئك الذين اعتزلوا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عندما قبل التحكيم ورضي به لأنهم في نظر هؤلاء نقضوا بيعة في أعناقهم ، وخرجوا عن إمامة مشروعة . ويطلقها فريق من المتكلمين في أصول العقائد والديانات وهم يقصدون بها الخروج من الدين استناداً الى قول الرسول ﷺ « إن ناساً من أمتي يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية » .

والفريق الثالث : يطلقها ويقصد بها الجهاد في سبيل الله استناداً الى قوله تعالى ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾ سورة النساء الآية ١٠٠ .

وكذلك ما حكاه من مناظراتهم له عند الوزير مجلساً بعد مجلس هو من هذا الباب ، فإن المعتزلة والكرامية يقولون حقاً وباطلاً وسنة وبدعة ، [كما أنه هو]. وأيضاً كذلك يقول حقاً وباطلاً [[موافقة] لأبي الحسن ، وأبو الحسن[1] سلك في مسألة الأسماء ، والأحكام ، والقدر مسلك الجهم بن صفوان[2]، مسلك المجبرة ومسلك غلاة المرجئة ـ فهؤلاء قدرية مجبرة ، والمعتزلة قدرية نافية ، فوقع بينهم غاية التضاد في مسائل التعديل والتجويز ونحوها .

والله يحب الكلام بعلم وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي ﷺ « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة ـ رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة »[3].

وقد حرم سبحانه الكلام بلا علم مطلقاً، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ، فقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ . وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[5].

وأمر بالعدل على أعداء المسلمين فقال : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ**

---

(١) يقصد علي بن اسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .
(٢) سبق الترجمة له في الجزء الأول .
(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام ٣ باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ٢٣١٥ ـ عن ابن بريدة عن ابيه عن رسول الله ﷺ وذكره ، ورواه أبو داود في كتاب الأقضية ٢ .
(٤) سورة الاسراء آية رقم ٣٦ .
(٥) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

بِـالقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْـدِلُـوا ، اعْـدِلُـوا هُـوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٣] .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٨ .

فصـــــل

في صفات الله تعالى

وهـو سبحانـه وصف نفسه بـالعلو ، وهو من صفـات المدح لـه بـذلـك والتعظيم ، لأنه من صفات الكمال ، كما مدح نفسه بأنه العظيم ، والعليم ، والقدير ، والعـزيز ، والحليم ، ونحـو ذلك ، وأنـه الحي القيوم ، ونحـو ذلك من معاني أسمائه الحسنى ، فلا يجوز أن يتصف بأضداد هذه .

فلا يجوز أن يوصف بضد الحياة والقيومية والعلم والقدرة ، مثـل الموت والنـوم والجهـل والعجـز واللغـوب ، ولا بضـد العـزة وهـو الـذل ، ولا بضـد الحكمة وهو السفه .

فكـذلك لا يـوصف بضد العلو وهـو السفـول ، ولا بضـد العـظيم وهـو الحقير ، بل هو سبحانه منزه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثـابتة له ، فثبوت صفات الكمال له ينفي اتصافه بأضدادها وهي النقائص .

وهو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من صفـات الكمال . فهـو منـزه عن النقص المضاد لكمـاله ، ومنـزه عن أن يكون لـه مثـل في شيء من صفـاته ، ومعـاني التنزيـه ترجـع إلى هذين الأصلين ، وقـد دل عليهما سورة الإخـلاص التي تعـدل ثلث القـرآن بقـولـه : ﴿ **قُلْ هُـوَ اللهُ أَحَـدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ** ﴾[1]فاسمه ﴿ **الصمد** ﴾ يجمـع معاني صفـات الكمال ، كمـا قد بسط

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ ، ٢ .

ذلك في تفسير هذه السورة وفي غير موضع ، وهو كما في تفسير أبي طلحة[1] عن ابن عباس ، أنه المستوجب لصفات السؤدد ـ العليم الذي قد كمل في علمه ـ الحكيم الذي قد كمل في حكمته ، إلى غير ذلك مما قد بين .

وقوله « الأحد » يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير ، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدُ ﴾[2] .

وقد ذكرنا في غير موضع ان ما وصف الله تعالى به نفسه من الصفات السلبية فلا بد أن يتضمن معنى ثبوتياً ، فالكمال هو في الوجود والثبوت ، والنفي مقصوده نفي ما يناقض ذلك ، فإذا نفى النقيض الذي هو العدم والسلب لزم ثبوت النقيض الآخر الذي هو الوجود والثبوت .

وبينا هذا في آية الكرسي وغيرها مما في القرآن كقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[3] . فإنه يتضمن كمال الحياة والقيومية ، وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[4] يتضمن كمال الملك ، وقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾[5] يقتضي اختصاصه بالتعليم دون ما سواه ، والوحدانية تقتضي الكمال ، والشركة تقتضي النقص ، وكذلك قوله : ﴿ وَلَا يَؤُدُه

---

(١) هو زيد بن سهل بن الأسود البخاري الأنصاري : صحابي من الشجعان الرماة المعدودين في الجاهلية والاسلام ولد في الجاهلية والاسلام مولده في المدينة ، ولما ظهر الاسلام كان من كبار أنصاره فشهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد وكان جهير الصوت ، وفي الحديث لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل ، وكان رديف رسول الله ﷺ يوم خيبر ، وتوفي بالمدينة عام ٣٤ هـ وقيل ركب البحر غازياً فمات فيه .

راجع طبقات ابن سعد٣ : ٦٤ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ١٠ وتاريخ بغداد ٨ : ٤٣٩ .

(٢) سورة الإخلاص آية رقم ٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

حِفْظُهُمَا ﴾[1]﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ﴾[2]﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ ﴾[3]﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾[4]. وأمثال ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن علوه من صفات المدح اللازمة له ، فلا يجوز اتصافه بضد العلو البتة ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيءٍ[5]ولم يقل [« تحتك »]. وقد تكلمنا على هذا الحديث في غير هذا الموضع . وإذا كان كذلك فالمخالفون للكتاب والسنة وما كان عليه السلف لا يجعلونه متصفاً بالعلو دون السفول ، بل إما أن يصفوه بالعلو والسفول أو بما يستلزم ذلك ، وإما أن ينفوا عنه العلو والسفول ، وهم نوعان .

فالجهمية القائلون بأنه بذاته في كل مكان ، أو بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ، لا يصفونه بالعلو دون السفول ، فإنه إذا كان في مكان ، فالأمكنة منها عال وسافل، فهو في العالي عال ، وفي السافل سافل. بل إذا قالوا إنه في كل مكان فجعلوا الأمكنة كلها محال له ـ ظروفاً وأوعية جعلوها في الحقيقة أعلى منه ، فإن المحل يحوي الحال ، والظرف والوعاء يحوي المظروف الذي فيه ، والحاوي فوق المحوي .

والسلف والأئمة وسائر علماء السنة إذا قالوا « إنه فوق العرش ، وإنه في

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة ق آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

(٤) سورة سبأ آية رقم ٣ .

(٥) الحديث رواه الإمام مسلم في الدعوات ٦١ ورواه أبو داود في الأدب ٩٨ ، والترمذي في الدعوات ١٩ ، ٦٢ وابن ماجه في الدعاء ٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٨١ ، ٤٠٤ ، ٥٣٦ .

السماء فوق كل شيء » لا يقولون إن هناك شيئاً يحويه أو يحصره أو يكون محلاً له أو ظرفاً ووعاء ـ سبحانه وتعالى عن ذلك بل هو فوق كل شيء ، وهو مستغن عن كل شيء ، وكل شيء مفتقر إليه ، وهو عال على كل شيء ، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته ، وكل مخلوق مفتقر إليه ، وهو غني عن العرش وعن كل مخلوق .

وما في الكتاب والسنة من قوله : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾[1] ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن ﴿ السماء ﴾ هي نفس المخلوق العالي ـ العرش فما دونه فيقولون : قوله ﴿ في السماء ﴾ بمعنى « على السماء » كما قال : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[2] أي « على جذوع النخل » وكما قال : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[3] أي « على الأرض » ولا حاجة إلى هذا ، بل « السماء » اسم جنس للعالي ، ـ لا يخص شيئاً ، فقوله : ﴿ في السماء ﴾ أي « في العلو دون السفل » وهو العلي الأعلى ، فله أعلى العلو ، وهو ما فوق العرش ، وليس هناك غيره ـ العلي الأعلى سبحانه وتعالى .

والقائلون بأنه في كل مكان هو عندهم في المخلوقات السفلية القذرة الخبيثة ، كما هو في المخلوقات العالية ، وغلاة هؤلاء الاتحادية الذين يقولون « الوجود واحد » كابن عربي الطائي[4] صاحب « فصوص الحكم »

---

(١) سورة الملك آية رقم ١٦ .

(٢) سورة طه آية رقم ٧١ وتكملة الآية ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن العربي أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر : فيلسوف ولد في مرسيه عام ٥٦٠ هـ قام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز وأنكر عليه أهل الديار المصرية شطحات صدرت عنه ، فعمل بعضهم على إراقة دمه ، كما أريق دم الحجاج وأشباهه توفي عام ٦٣٨ هـ .

راجع فوات الوفيات ٢ : ٢٤١ ومرآة الجنان ٤ : ٢٠١ وجذوة الاقتباس ١٧٥ ومفتاح السعادة ١ : ١٨٧ وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٨ وعنوان الدراية ٩٧ ولسان الميزان ٥ : ٣١١ وجامع كرامات =

و« الفتوحات المكية » يقولون « الموجود الواجب القديم هو الموجود المحدث الممكن ».

ولهذا قال ابن عربي في « فصوص الحكم »:

« ومن أسمائه الحسنى « العلي » على من ، وما ثم إلا هو ؟، وعن ماذا ، وما هو إلا هو ؟ فعلوه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات ، فالمسمى « محدثات » هي العلية لذاتها وليست إلا هو .

إلى أن قال :

« فالعلي لنفسه هو الذي يكون له جميع الأوصاف الوجودية والنسب العدمية ، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، وليس ذلك إلا المسمى الله ».

فهو عنده الموصوف بكل ذم ، كما هو الموصوف بكل مدح .

وهؤلاء يفضلون عليه بعض المخلوقات ، فإن من المخلوقات ما يوصف بالعلو دون السفول كالسماوات ، وما كان موصوفاً بالعلو دون السفول كان أفضل مما لا يوصف بالعلو ، أو يوصف بالعلو والسفول .

وقد قال فرعون : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ** ﴾[1]قال ابن عربي : « ولما كان فرعون في منصب التحكم والخليفة بالسيف جاز في العرف الناموسي أن قال ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ أي ، وإن كان أن الكل أرباباً بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته من الحكم فيكم ، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه ،بل أقروا له بذلك ، وقالوا له : ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي**

= الأولياء ١ :١١٨ ونفح الطيب ١ :٤٠٤ وشذرات الذهب ٥ :١٩٠ ودائرة المعارف الاسلامية ١ :٢٣١ .

(١) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

﴿هَـذِهِ الحَيَاةَ الـدُّنْيَا﴾[1] فـالـدولـة لـك . فصـح قـول فـرعـون : **﴿ أنـا ربكم الأعلى ﴾** .

فبهذا وأمثاله يصححون قول فرعـون : **﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾** وينكـرون أن يكـون الله عاليـاً ، فضلاً عن أن يكـون هـو الأعلى ، ويقـولـون « على من يكون أعلى » أو عماذا يكون أعلى ؟ » .

وهكذا سائر الجهمية يصفون بالعلو ـ على وجه المدح ـ مـا هو عـال من المخلوقـات ، كالسمـاء ، والجنة ، والكـواكب ، ونحو ذلـك ، ويعلمـون أن العالي أفضل من السـافل ، وهم لا يصفـون ربهم بأنـه الأعلى ، ولا العلي ، بل يجعلونه في السافلات كما هو في العاليات .

والجهمية الذين يقولون « ليس هو داخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليـه البتـة ، هم أقرب إلى التعـطيل والعـدم ، كمـا أن أولئـك أقـرب إلى الحلول والاتحاد بالمخلوقـات ، فهؤلاء يثبتون مـوجوداً لكنـه في الحقيقة المخلوق لا الخـالق ، وأولئـك ينفـون فـلا يثبتـون وجـوداً البتــة ، لكنهم يثبتـون وجــود المخلوقات ويقولون إنهم يثبتون وجود الخالق .

وإذا قالوا : نحن نقول : « هو عال بالقدرة أو بالقـدر » قيل : هـذا فرع ثبـوت ذاته وأنتم لم تثبتـوا موجـوداً يعرف وجـوده فضلاً عن أن يكـون قادراً أو عظيم القدر .

وإذا قالوا : كان الله قبل خلق الأمكنة والمخلوقات مـوجوداً ، وهـو الآن على مـا عليه كـان لم يتغير ، ولم يكن هنـاك فوق شيء ولا عـاليـاً على شيء فكذلك هو الآن ، قيل : هذا غلط ، ويظهر فساده بالمعارضة ثم بالحل وبيان فساده .

أما « الأول » فيلزمهم أن لا يكون الآن عالياً بالقدرة ولا بالقدر كمـا كان

---

(١) سورة طه آية رقم ٧٢ .

في الأزل ، فإنه إذا قدر وجوده وحده فليس هناك موجود يكون قادراً عليه ولا قاهراً له ولا مستولياً عليه ، ولا موجوداً يكون هو أعظم قدراً منه .

فإن كان مع وجود المخلوقات لم يتجدد له علو عليها كما زعموا ، فيجب أن يكون بعدها ليس قاهراً لشيء ولا مستولياً عليه ، ولا قاهراً لعباده ، ولا قدره أعظم من قدرها ، وإذا كانوا يقولون هم وجميع العقلاء إنه مع وجود المخلوق يوصف بأمور إضافية لا يوصف بها إذا قدر موجوداً وحده علم أن التسوية بين الحالين خطأ منهم .

وقد اتفق العقلاء على جواز تجدد النسب والإضافات مثل المعية ، وإنما النزاع في تجدد ما يقوم بذاته من الأمور الاختيارية ، وقد بين في غير هذا الموضع أن النسب والإضافات مستلزمة لأمور ثبوتية ، وأن وجودها بدون الأمور الثبوتية ممتنع .

والإنسان إذا كان جالساً فتحول المتحول عن يمينه بعد أن كان عن شماله قيل « إنه عن شماله » فقد تجدد من هذا فعل به تغيرت النسبة والإضافة ، وكذلك من كان تحت السطح فصار فوقه فإن النسبة بالتحتية والفوقية تجدد لما تجدد فعل هذا .

وإذا قيل « نفس السقف لم يتغير » قيل قد يمنع هذا ويقال : ليس حكمه إذا لم يكن فوقه شيء كحكمه إذا كان فوقه شيء ، وإذا قيل عن الجالس « إنه لم يتغير ». قيل : قد يمنع هذا ويقال : ليس حكمه إذا كان الشخص عن يساره كحكمه إذا كان عن يمينه ، فإنه يحجب هذا الجانب ويوجب من التفات الشخص وغير ذلك ما لم يكن قبل ذلك .

وكذلك من تجدد له أخ أو ابن أخ بإيلاء أبيه أو أخيه قد وجد هنا أمور ثبوتية ، وهذا الشخص يصير فيه من العطف والحنو على هذا الولد المتجدد ما لم يكن قبل ذلك ، وهي الرحم والقرابة . وبهذا يظهر الجواب الثاني ، وهو أن يقال :

العلو والسفول ونحو ذلك من الصفات المستلزمة للإضافة ، وكذلك الاستواء ، والربوبية ، والخالقية ، ونحو ذلك ، فإذا كان غيره موجوداً فإما أن يكون عالياً عليه وإما أن لا يكون ، كما يقولون هم : إما أن يكون عالياً عليه بالقهر أو بالقدر أو لا يكون ، خلاف ما إذا قدر وحده ، فإنهم لا يقولون إنه حينئذ قاهر ، [أو قادر ،] أو مستول عليه ، فلا يقال إنه عال عليه ، وإن قالوا : « إنه قادر وقاهر » كان ذلك مشروطاً بالغير ، وكذلك علو القدر ، قيل : وكذلك علو ذاته ما زال عالياً بذاته لكن ظهور ذلك مشروط بوجود الغير ، والإلزامات مفحمة لهم .

وحقيقة قولهم إنه لم يكن قادراً في الأزل ثم صار قادراً ، يقولون لم يزل قادراً مع امتناع المقدور ، وإنه لم يكن الفعل ممكناً فصار ممكناً فيجمعون بين النقيضين .

فصـــل

وأما الذين يصفونه بالعلو والسفول فالذين يقولون : هو فوق العرش وهو أيضاً في كل مكان ، والذين يقولون : إذا نزل كل ليلة فإنه يخلو منه العرش ، أو غيره من المخلوقات أكبر منه ، ويقولون : لا يمتنع أن يكون الخالق أصغر المخلوق ، كما يقول شيوخهم : إنه لا يمتنع أن يكون الخالق أسفل من المخلوق ، فهؤلاء لا يصفونه بأنه أكبر من كل شيء ، بل ولا هو على - قولهم - الكبير المتعال ، ولا هو العلي العظيم .

وقد بسط الرد على هؤلاء في مسألة النزول « لما ذكر قول أئمة السنة مثل حماد بن زيد[1] واسحاق بن راهويه ، وغيرهما : « إنه ينزل ولا يخلو منه العرش » ذكر قول من أنكر ذلك من المتأخرين المنتسبين إلى الحديث والسنة ، وبين فساد قولهم شرعاً وعقلاً . وهؤلاء في مقابلة الذين ينفون النزول .

وإذا قيل : حديث النزول ونحوه ظاهر ليس [يحتمل التأويل] فهذا

---

(١) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي ، مولاهم البصري أبو اسماعيل : شيخ العراق في عصره ، من حفاظ الحديث المجودين يعرف بالأزرق أصله من سبي سجستان، مولده ووفاته في البصرة وكان ضريراً طرأ عليه العمى ، يحفظ أربعة آلاف حديث . خرج حديثه الأئمة الستة .
راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢١١ وتهذيب التهذيب ٣ : ٩ وحلية الأولياء ٦ : ٢٥٧ والمناوي ١ : ١٠١ وتهذيب الأسماء ١ : ١٦٧ واللباب ١ : ٣٦ ونكت الهيمان ١٤٧ .

صحيح إذا أريد بالظاهر ما يظهر لهؤلاء ونحوهم [من أنه ينزل إلى أسفل] فيصير تحت العرش كما ينزل الإنسان من سطح داره إلى أسفل ، وعلى قول هؤلاء ولا يبقى حينئذ العلي ولا الأعلى ، بل يكون تارة أعلى وتارة أسفل ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً » .

وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام ، ومن نزوله إلى الأرض لما خلقها ، ومن نزوله لتكليم موسى ، وغير ذلك ، كله من باب واحد ، كقوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ** ﴾[1]وقوله : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً** ﴾[2]وقوله : ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ** ﴾[3] .

والنفاة المعطلة ينفون المجيء والإتيان بالكلية ويقولون : ما ثم إلا ما يحدث في المخلوقات ، والحيلولية يقولون : إنه يأتي ويجيء بحيث يخلو منه مكان ويشغل آخر ، فيخلو منه ما فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه ، فإذا أتى وجاء لم يصر على قولهم العلي الأعلى ، ولا كان هو العلي العظيم ، لا سيما إذا قالوا : إنه يحويه بعض المخلوقات فتكون أكبر منه ـ سبحانه وتعالى على ما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً عظيماً .

وكذلك قوله : ﴿ **أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ** ﴾[4]إن كان قد قال أحد : إنه في جوف السماء فهو شر قولاً من هؤلاء ، ولكن هذا ما علمت به قائلاً معيناً منسوباً إلى علم حتى أحيكه قولاً .

ومن قال : « إنه في السماء » فمراده أنه في العلو ، ليس مراده أنه في جوف الأفلاك ، إلا أن [بعض] الجهال يتوهم ذلك ، وقد ظن طائفة أن هذا

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .
(٢) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥٨ .
(٤) سورة الملك آية رقم ١٦ وتكملة الآية ﴿ **فإذا هي تمور** ﴾ .

ظاهر اللفظ .

« الظاهر » ولا ريب أنه محمول على خلاف هذا بالاتفاق ، لكن هذا هو الذي يظهر لعامة المسلمين الذين يطلقون هذا القول ويسمعونه ، أو هو مدلول اللفظ في اللغة ، هو مما لا يسلم لهم كما قد يبسط في مواضع .

وقد قال تعالى : ﴿ **قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ** ﴾[1]فاستثنى نفسه ، والعالم ﴿ **مَن في السموات والأرض** ﴾ ولا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع ، لأن المستثنى مرفوع ، ولو كان منقطعاً لكان منصوباً ، والمرفوع على البدل ، والعامل فيه هو العامل في المبدل منه ، وهو بمنزلة المفرغ ، كأنه قال « لا يعلم الغيب إلا الله » فيلزم أنه داخل في ﴿ **من في السموات والأرض** ﴾ .

وقد قدمنا أن لفظ « السماء » يتناول كل ما سما ، ويدخل فيه السموات والكرسي ، والعرش ، وما فوق ذلك ، لأن هذا في جانب النفي ، وهو لم يقل هنا « السموات السبع » بل عم بلفظ ﴿ **السموات** ﴾ .

وإذا كان لفظ « السماء » قد يراد به السحاب ، ويراد به الفلك ، ويراد به ما فوق العالم ، ويراد به العلو مطلقاً ، فـ ﴿ **السموات** ﴾ جمع « سماء » وكل من فيها يسمى « سماء » وكل من فيها يسمى « أرضاً » لا يعلم الغيب إلا الله .

وهو سبحانه قال ﴿ **قل لا يعلم من** ﴾ ولم يقل « ما » فإنه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه بـ ﴿ **من** ﴾ لتكون « أبلغ ، فإنهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلا الله .

وهذا هو الغيب المطلق عن [جميع المخلوقين] الذي قال فيه ﴿ **فَلاَ**

---

(١) سورة النمل آية رقم ٦٥ .

يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ﴾[1] . [والغيب المقيد ما علمه] بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه ، فإنما هو غيب عمن غاب عنه ، ليس هو غيباً عمن شهده ، والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا ، فيكون غيباً مقيداً ، أي غيباً عمن غاب عنه من المخلوقين ، لا عمن شهده ، ليس غيباً مطلقاً غاب عن المخلوقين قاطبة .

وقوله : ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[2] أي عالم ما غاب عن العباد مطلقاً ومعيناً وما شهدوه ، فهو سبحانه يعلم ذلك كله .

والنفاة للعلو ونحوه من الصفات معترفون بأنه ليس مستندهم خبر الأنبياء - لا الكتاب ، ولا السنة ، ولا أقوال السلف - ولا مستندهم فطرة العقل وضرورته ، ولكن يقولون : معنا النظر العقلي ، وأما أهل السنة المثبتون للعلو فيقولون : إن ذلك ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ، مع فطرة الله التي فطر العباد عليها وضرورة العقل ، ومع نظر العقل واستدلاله .

لكن الذين يقولون بأنه ينزل ولا يبقى فوق العرش ، وأنه يكون في جوف المخلوقات ، ونحو هؤلاء ، قد يقولون إن مستندهم في ذلك السمع ، وهو ما فهموه من القرآن أو من الأحاديث الصحيحة أو غير الصحيحة ، أو من أقوال السلف وهم أخطأوا من حيث نظروا - اقتصروا على فهمه من نص واحد ، كفهمهم من حديث النزول ، - ولم يتدبروا ما في الكتاب والسنة مما يصفه بالعلو والعظمة ونحو ذلك مما ينافي أن يكون شيء أعلى منه أو أكبر منه .

ويتدبروا أيضاً دلالة النص ، مثل نزوله إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر[3] بأن الليل يختلف ، فيكون ليل أهل المشرق ونصفه وثلثه الآخر

---

(1) سورة الجن آية رقم ٢٦ .

(2) سورة الأنعام آية رقم ٧٣ وتكملة الآية ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ .

(3) أورد البخاري في كتاب التهجد ١٤ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل بسنده عن أبي هريرة =

قبل ذلك في المغرب بقريب من يوم ، فيلزم على قولهم أنه لا يزال تحت العرش ، وهو قد أخبر أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض ، وما ذكروه ينافي استواءه على العرش، وأنه ليس فوق العرش ، كما قد بسط في مواضع .

= ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فاستجيب له ، من يسألني فاعطيه من يستغفرني فاغفر له » .

ورواه عن ابي هريرة أيضاً سعيد بن مرجانة ، وأبو صالح عن مسلم وسعيد المقبري ، وعطاء مولى أم صبية بالمهملة مصغراً ـ وأبو جعفر المدني ، ونافع بن جبير بن مطعم كلهم عند النسائي . وفي الباب عن علي وابن مسعود ، وعثمان بن أبي العاص ، وعمرو بن عبسة عند أحمد ، وعن جبير بن مطعم ورفاعة الجهني عند النسائي وعن أبي الدرداء ، وعبادة بن الصامت وابن الخطاب غير منسوب عند الطبراني وعن عقبة بن عامر ، وجابر ، وجد عبد الحميد بن سلمة عند الدارقطني في كتاب السنة .

فصـــــل
في الأعلى والعظيم

« الأعلى » على وزن أفعـل التفضيـل ، مثـل الأكـرم ، والأكبـر ، والأجمل ، ولهذا قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان « أعل هبـل ، أعل هبـل »! فقال النبي ﷺ « ألا تجيبونـه ؟ » قالـوا : وما نقـول ؟ قال : قـولوا : الله أعلى وأجـل ؟(١)» وهو مـذكور بـأداة التعريف « الأعلى » مثـل ﴿ وربـك الأكـرم ﴾ بخلاف ما إذا قيل « الله أكبر » فإنه منكّر .

ولهذا معنى يخصه يتميز به ، ولهـذا معنى يخصه يتميـز به ، كما بين العلو والكبـرياء ، والعـظمة ، فـإن هـذه الصفـات وإن كـانت متقـاربـة ، بـل

---

(١) قال ابن سعد في طبقاته : أخبرنا الحسن بن مـوسى الأشيب ، وعمرو بن خـالد المصـري قالا : أخبرنا زهير بن معاوية ، أخبرنا أبو اسحاق عن البراء بن عـازب قال : . . . فـأقبل أبـو سفيان فقـال : أفي القوم محمـد . . . ؟ ثلاث مـرات ، قال : فنهـاهم رسول الله ـ ﷺ ـ أن يجيبـوه ثم قال : أفي القوم ابن ابي قحافة . . ؟ أفي القـوم ابن الخطاب . . ؟ أفي القـوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب . قال أبو اسحاق : اتهم ، قال الحسن بن موسى أي ليس فوقهم أحد . ثم أقبل أبو سفيان على أصحابـه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم. فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الـذين عددت لأحيـاء كلهم ، وقد بقي لـك ما يسـوءك قال : فقال يوم بيـوم بدر ، والحـرب سجال ثم إنكم ستجـدون في القوم مُثله لم آمـر بها ولم تسؤني ثم جعل يرتجز ويقول أعلُ هُبَل ، أعلُ هُبَل فقال رسول الله ﷺ : ألا تجيبونه . . ؟ .
قالوا يا رسول الله بماذا نجيبه . . ؟ قال : قولوا الله أعلى وأجـل قال ابـو سفيان : لنـا العزى ولا عُزى لكم فقال رسـول الله ﷺ : الا تجيبونـه . . ؟ قالـوا : وبماذا نجيبـه يا رسـول الله ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم .

متلازمة ، فبينها فروق لطيفة ، ولهذا قال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى « العظمة إزاري والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما عذبته »[1]فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء وهو أعلى من الإزار . ولهذا كان شعائر الصلاة ، والأذان ، والأعياد والأماكن العالية ، هو التكبير ، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ .

ولم يجيء في شيء من الأثر بدل قول « الله أكبر » « الله أعظم » ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير ، فلو قال : « الله أعظم » لم تنعقد به الصلاة لقول النبي ﷺ « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم »[2]وهذا قول مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأبي يوسف ، وداود ، وغيرهم ، ولو أتى بغير ذلك من الأذكار ـ مثل سبحان الله ، والحمد لله ـ لم تنعقد به الصلاة .

ولأن التكبير مختص بالذكر في حال الارتفاع ، كما أن التسبيح مختص بحال الانخفاض ، كما في السنن عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبرنا ، وإذا هبطنا سبحنا ، فوضعت الصلاة على ذلك .

ولما نزل قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[3]قال :«اجعلوها في

الطبقات الكبرى ٢ : ٤٧ ـ ٤٨ .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ١٦ باب البراءة من الكبر والتواضع ٤١٧٤ بسنده عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ وذكره مع تغير في بعض الألفاظ بدلاً من عذبته (القيته في جهنم) وفي لفظ (القيته في النار)، ورواه أبو داود في اللباس ٢٥ واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الطهارة ٣١ والصلاة ٧٣ ، والترمذي في الطهارة ٣ ، والمواقيت ٦٢ ، وابن ماجه في الطهارة ٣٢ والدارمي في الوضوء ٢٢ واحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٢٣ ، ١٢٩ (حلبي) .

(٣) سورة الواقعة آية رقم ٧٤ .

ركوعكم» ولما نـزل ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى ﴾[1] قـال : « اجعلوها في سجودكم »[2] وثبت عنه أنه كان يقول في ركوعـه « سبحان ربي العـظيم » وفي سجوده « سبحان ربي الأعلى » ولم يكن يكبر في الركوع والسجود ، لكن قـد كان يقرن بـالتسبيح التحميـد والتهليل ، كمـا ثبت في الصحيحين عن عائشـة أنه ﷺ كان يقول في ركوعـه وسجوده « سبحـانك اللهم ربنا وبحمـدك ، اللهم اغفر لي » يتأول القرآن ـ أي يتأول قوله : ﴿ **فسبـح بحمد ربـك واستغفره إنـه كان تواباً** ﴾ فكان يجمع بين التسبيح والتحميد .

وكذلك قد كان يقرن بالتسبيـح في الركـوع والسجود التهليـل ، كما في صحيـح مسلم عن عائشـة قالت : افتقـدت النبي ﷺ ذات ليلة ، فـظننت أنـه ذهب إلى بعض نسائه ، فتحسست ثم رجعت ، فإذا هو راكـع أو ساجـد يقول « سبحـانك وبحمـدك ، لا إلـه إلا أنت » فقلت : بـأبي أنت وأمي ! إني لفي شأن وإنك لفي شأن[3]» فعن هذه الأحـاديث كلها أنـه كان يسبـح في الركـوع والسجود ، لكن قد يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل ، وقد يقـرن به الـدعاء ، ولم ينقل أنه كبر في الركوع والسجود .

وأما قراءة القرآن فيهما فقد ثبت عنه أنـه قال « إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً وساجداً »[4] رواه مسلم من حديث علي ، ومن حديث ابن عباس . وذلك

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ١ .

(٢) قال الامام احمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى يعني ابن أيوب الغـافقي ، حدثنـا عمي اياس بن عامـر : سمعت عقبة بن عامر الجهني لما نزلت ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال لنـا رسول الله ﷺ : اجعلوها في ركوعكم » فلما نزلت ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قال : « اجعلوها في سجودكم » ورواه ابو داود ، وابن ماجـه من حديث ابن المبارك عن موسى بن أيوب به .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود : حدثني حسن بن علي الحلواني ، ومحمد بن رافع قالا : حدثنا عبد الرزاق اخبرنا ابن جريج . قـال : قلت لعطاء كيف تقول أنت في الركوع قال : أما سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت فأخبرني ابن ابي مليكة عن عائشة رضي الله عنها وذكره .

(٤) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الصلاة باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود . =

أن القرآن كلام الله فلا يتلى إلا في حال الارتفـاع ، والتكبير أيضـاً محله حال الارتفاع .

وجمهور العلماء على أنـه يشرع التسبيـح في الركـوع والسجود ، وروي عن مـالك أنـه كره المـداومة على ذلـك لئلا يـظن وجـوبـه ، ثم اختلفـوا في وجوبه ، فالمشهور عن أحمد ، واسحاق ، وداود ، وغيرهم وجوبه ، وعن أبي حنيفة ، والشافعي ، استحبابه .

والقائلون بالـوجوب ، منهم من يقـول : يتعين « سبحان ربي العـظيم » و « سبحان ربي الأعلى » للأمر بهما ، وهو قول كثير من أصحاب أحمد ومنهم من يقول : بل يذكر بعض الأذكار المأثورة .

والأقوى أنه يتعين التسبيح ، إما بلفظ « سبحان » وإما بلفظ « سبحانك » ونحو ذلك، وذلك أن القرآن سماها «تسبيحاً» فدل على وجوب التسبيح فيهـا، وقد بينت السنة أن محل ذلك الركوع والسجود ، كما سماها الله « قرآناً » وقـد بينت السنة أن محل ذلك القيام ، وسماها « قيـاماً » و « سجـوداً » و « ركوعـاً » وبينت السنة علة ذلك ومحله .

وكذلك التسبيح - يسبح في الـركوع والسجـود ، وقد نقـل عن النبي ﷺ أنه كان يقول « سبحان ربي العظيم » و « سبحان ربي الأعلى » وأنه كان يقـول « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي » و « سبحـانك وبحمـدك . لا إله إلا أنت » وفي بعض روايـات أبي داود « سبحان ربي العـظيم وبحمـده » وفي استحباب هذه الزيادة عن أحمد روايتان .

= حدثنا سعيد بن منصور وأبو بكر بن أبي شيبة ، وزهير بن حرب قالـوا : حدثنـا سفيان بن عيينـه أخبـرني سليمان بن سحيم عن ابـراهيم بن عبـد الله بن معبـد عن أبيـه عن ابن عبـاس قـال : كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف ابي بكر . فقال : ايهـا الناس إنـه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤ يا الصالحة يراها المسلم أو تـرى له ألا وأني نهيت أن أقـرأ القرآن راكعـاً أو ساجداً فـاما الـركوع فعـظموا فيـه الرب عـز وجل وأمـا السجود فـاجتهدوا في الـدعاء فقمن أن يستجاب لكم » .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده « سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح »[1] وفي السنن أنه كان يقول « سبحان ذي الجبروت ، والملكوت ، والكبرياء ، والعظمة »[2] فهذه كلها تسبيحات .

والمنقول عن مالك أنه [كان يكره المداومة على ذلك . فإن] كان كراهة المداومة على « سبحان ربي الأعلى والعظيم » فله وجه ، وإن كان كراهة المداومة على جنس التسبيح فلا وجه له ، وأظنه الأول ، وكذلك المنقول عنه إنما هو كراهة المداومة على « سبحان ربي العظيم » لئلا يظن أنها فرض ، وهذا يقتضي أن مالكاً أنكر أن تكون فرضاً واجباً .

وهذا قوي ظاهر ، بخلاف جنس التسبيح ، فإن أدلة وجوبه في الكتاب . والسنة كثيرة جداً ، وقد علم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنوعة .

وقوله : « اجعلوها في ركوعكم وفي سجودكم » يقتضي أن هذا محل لامتثال هذا الأمر ، لا يقتضي أنه لا يقال إلا هي مع ما قد ثبت إنه كان يقول غيرها .

والجمع بين صيغتي تسبيح بعيد ، بخلاف الجمع بين التسبيح ، والتحميد ، والتهليل والدعاء ، فإن هذه أنواع ، والتسبيح نوع واحد فلا يجمع فيه بين صيغتين .

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود .
حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن بشر العبدي ، حدثنا سعيد بن ابي عروبة عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير ان عائشة نبأته أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » .

(٢) الحديث رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة ١٤٧ ورواه النسائي في كتاب التطبيق ١٢ ، ٢٥ ، ٧٣ ، ٨٦ ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٨٨ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٦ : ٢٤ .

وأيضاً قد ثبت في الصحيح أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن ـ سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر »[1] فهذا يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها ، فإن جعل التسبيح نوعاً واحداً فـ « سبحان الله » و « سبحان ربي الأعلى » سواء ، وإن جعل متفاضلاً فـ « سبحان الله » أفضل بهذا الحديث .

وأيضاً فقوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أمر بتسبيح ربه ، ليس أمراً بصيغة معينة . فإذا قال « سبحان الله وبحمده » « سبحانك اللهم وبحمدك فقد سبح ربه الأعلى والعظيم ، فإن الله هو الأعلى ، وهو العظيم ، واسمه « الله » يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن ، وإن كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه ، ففي اسمه « الله » التصريح بالإلهية ، واسمه « الله » أعظم من اسمه « الرب » وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل : أي الكلام أفضل ؟ فقال : ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده ـ سبحان الله وبحمده »[2] .

فالقيام ، فيه التحميد [و] في الإعتدال من الركوع ، وفي الركوع والسجود التسبيح ، وفي الانتقال التكبير، وفي القعود التشهد وفيه التوحيد ، فصارت الأنواع الأربعة في الصلاة .

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الايمان والنذور ١٩ باب اذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى ، أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته . وقال النبي ﷺ أفضل الكلام أربع وذكره .
قال ابن حجر : هذا من الأحاديث التي لم يصلها البخاري في موضع آخر وقد وصله النسائي من طريق ضرار بن مرة عن ابي صالح عن ابي سعيد وابي هريرة مرفوعاً بلفظه ، واخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب لكن بلفظ (أحب) بدل (افضل) وأخرجه ابن حبان من هذا الطريق بلفظ (أفضل) ولحديث أبي هريرة طريق أخرى أخرجها النسائي وصححها ابن حبان من طريق ابي حمزة السكري عن الأعمش عن ابي صالح عنه بلفظ (خير الكلام أربع لا يضرك بأيهن بدأت فذكره وأخرجه أحمد عن وكيع عن الأعمش فأبهم الصحابي .وأخرجه النسائي من طريق سهيل بن ابي صالح عن أبيه عن السلولي عن كعب الأحبار .

(٢) الحديث رواه احمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٦ .

والفاتحة أيضاً فيها التحميد والتوحيد ، فالتحميد والتوحيد ركن يجب في القراءة ، والتكبير ركن في الافتتاح ، والتشهد الآخر ركن في [القعود كما هو] المشهور عن أحمد ، وهو مذهب الشافعي ، وفيه التشهد المتضمن للتوحيد .

يبقى التسبيح ، و « احمد يوجبه في الركوع والسجود ، وروي عنه أنه ركن ، وهو قوي لثبوت الأمر به في القرآن والسنة ، فكيف يوجب الصلاة على النبي ﷺ ولم يجىء أمر بها في الصلاة خصوصاً ولا يوجب التسبيح مع الأمر به في الصلاة ، ومع كون الصلاة تسمى « تسبيحاً » وكل ما سميت به الصلاة من أبعاضها فهو ركن فيها ، كما سميت « قياماً » و « ركوعاً » و « سجوداً » و « قراءة » وسميت أيضاً « تسبيحاً » ولم يأت عن النبي ﷺ ما ينفي وجوبه في حال السهو كما ورد في التشهد الأول أنه لما تركه سجد للسهو ، لكن قد يقال : لما لم يأمر به المسيء في صلاته دل على أنه واجب ليس بركن ، وبسط هذه المسائل له موضع آخر .

والمقصود هنا أن التسبيح قد خص به حال الانخفاض ، كما خص حال الارتفاع بالتكبير ، فذكر العبد في حال انخفاضه وذله ما يتصف به الرب [مقابل] ذلك ، فيقول في السجود « سبحان ربي الأعلى » وفي الركوع « سبحان ربي العظيم ».

و « الأعلى » يجمع معاني العلو جميعها ، وأنه الأعلى : بجميع معاني العلو ، وقد اتفق الناس على أنه علا على كل شيء بمعنى أنه قاهر له ، قادر عليه ، متصرف فيه ، كما قال : ﴿ **إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾(١) .

وعلى أنه عال عن كل عيب ونقص فهو عال عن ذلك ، منزه عنه ، كما

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ .

قـال تعالـى : ﴿وَلاَ تَجْعَـلْ مَعَ اللهِ إِلَهـاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومـاً مَـدْحُـوراً ، أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلاَئِكَةِ إِنَاثاً ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ، وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ، قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي العَرْشِ سَبِيلاً ، سُبْحَـانَهُ وَتَعَـالَىٰ عَمَّا يَقُـولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾[1]فقرن تعاليه عن ذلك بالتسبيح .

وقال تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَـلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّـا يَصِفُـونَ ، عَـالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] .

وقالت الجن : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾[3] .

وفي دعـاء الاستفتاح : « سبحـانـك اللهم وبحمـدك ، وتبـارك اسمـك وتعالى جدك » وفي الصحيحين أنه كان يقـول في آخر استفتـاحه : « تبـاركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك »[4] .

فقـد بين سبحانـه أنه تعـالى عما يقـول المبطلون وعمـا يشركـون ، فهو متعال عن الشركاء والأولاد ، كما أنه سبح عن ذلك .

وتعاليه سبحانه عن الشريك هو تعاليه عن السمي ، والند ، والمثـل فلا يكون شيء مثله .

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٣٩ ـ ٤٣ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ ـ ٩٢ .

(٣) سورة الجن آية رقم ٣ .

(٤) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المسافرين ٢٠١ ، وأبو داود في الصلاة ١١٩ ، ١٢٠ والوتر ورواه الترمذي في الوتر ١٠ والنسائي في الافتتاح ١٧ ، وقيام الليل ٥١ ، وابن ماجه اقامة ١١٧ والدارمي في الصلاة ٣٣ ، ٢١٤ والامام احمد بن حنبل في المسند ١ : ١٩٩ ، ٢٠٠ (حلبي) .

وقد ذكروا من معاني العلو الفضيلة ، كما يقال : الذهب أعلى من الفضة . ونفي المثل عنه يقتضي أنه أعلى من كل شيء فلا شيء مثله ، وهو يتضمن أنه أفضل وخير من كل شيء ، كما أنه أكبر من كل شيء وفي القرآن : ﴿ قُلْ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] ويقول : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] ويقول : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ ﴾[3] وقالت السحرة : ﴿ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[4] .

وهو سبحانه يبين ان المعبودين دونه ليسوا مثله في مواضع كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ . فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ، فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ؟ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِيَ إِلَى الحَقِّ . قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ ، فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنَّاً ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا

---

(١) سورة النمل آية رقم ٥٩ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٧ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٣٥ .

(٤) سورة طه آية رقم ٧٣ .

(٥) سورة يونس آية رقم ٣١ ـ ٣٦ .

تُعْلِنُونَ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾(١).

وكذلك قوله في أثناء السورة :

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سراً وَجَهْرَا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ، وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٢) فهو سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه وأنه لا مثل له ، ويبين ما اختص به من صفات الكمال وانتفائها عما يعبد من دونه ، ويبين أنه يتعالى عما يشركون وعما يقولون من إثبات الأولاد والشركاء له .

وقال : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لاَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي العَرْشِ سَبِيلاً ﴾(٣)وهم كانوا يقولون إنهم يشفعون لهم ، ويتقربون بهم . لكن كانوا يثبتون الشفاعة بدون إذنه ، فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة ، وهذا نوع من الشرك ، فلهذا قال تعالى · ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٧ ـ ٢١ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٧٥ ـ ٧٦ .

قال ابن جرير : حدثنا الحسن بن الصباح البزار ، حدثنا يحيى بن اسحاق الكسحيين ، حدثنا حماد ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن ابراهيم عن عكرمة عن يعلى بن أمية عن ابن عباس في قوله ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ قال نزلت في رجل من قريش وعبا.ه يعني قوله ﴿ عبداً مملوكاً ﴾ وفي قولة ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين احدهما أبكم ـ الى قوله ـ وهو على صراط مستقيم ﴾ قال : هو عثمان بن عفان ، قال والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير : قال : مولى لعثمان بن عفا ن.

(٣) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .

الشَّفَاعَةَ ﴾[1]فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله .

كما روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ إذاً لابْتَغُوا إلَىٰ ذِي العَرْشِ سَبِيلاً ﴾[2]. يقول : لابتغت الحوائج من الله ، وعن معمر ، عن قتادة : ﴿ لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ لابتغوا التقرب إليه مع أنه ليس كما يقولون ، وعن سعيد ، عن قتادة : « لو كان معه آلهة كما يقولون » يقول : لو كان معه آلهة إذاً لعرفوا له فضله ومزيته عليهم ولابتغوا إليه ما يقربهم إليه ، وروي عن سفيان الثوري : لتعاطوا سلطانه .

وعن أبي بكر الهذلي ، عن سعيد بن جبير :[3]سبيلاً إلى أن يزيلوا ملكه ، والهذلي ضعيف .

فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء والأولاد ، فليس كمثله شيء ، وهذا يقتضي ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه .

وأنه لا يماثله غيره في شيء من صفات الكمال ، بل هو متعال عن أن يماثله شيء ، وتضمن أنه عال على كل ما سواه ، قاهر له ، قادر عليه ، نافذة مشيئته فيه ، وأنه عال على الجميع فوق عرشه ، فهذه ثلاثة أمور في اسمه « العلي » .

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .

(٣) هو سعيد بن جبير الأسدي بالولاء الكوفي أبو عبد الله : تابعي كان أعلمهم على الاطلاق ، وهو حبشي لأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر ثم كان ابن عباس ، إذ أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء ؟ يعني سعيداً ، ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على عبد الملك بن مروان ، كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن فذهب سعيد الى مكة فقبض عليه واليها (خالد القسري) وارسله الى الحجاج فقتله بواسط عام ٩٥ هـ .

راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٠٤ وطبقات ابن سعد ٦ : ١٧٨ وتهذيب التهذيب ٤ : ١١ وحلية الأولياء ٤ : ٢٧٢ والمعارف ١٩٧ .

واثبات علوه ـ علوه على ما سواه ، وقدرته عليه وقهره ـ يقتضي ربوبيته له ، وخلقه له ، وذلك يستلزم ثبوت الكمال ، وعلوه عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال .

وهذا وهذا يقتضي جميع ما يوصف به في الإثبات والنفي ، ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال ، وفي النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال ، وينزه عن أن يكون له مثل في صفات الكمال ، كما قد دلت على هذا سورة الإخلاص ـ ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ـ اللهُ الصَّمَدُ** ﴾[1] .

وتعاليه عن الشركاء يقتضي اختصاصه بالإلهية ، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده ، كما قال : ﴿ **قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لابْتَغَوا إلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً** ﴾[2]أي وإن كانوا ـ كما يقولون ـ يشفعون عنده بغير إذنه ويقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب والإله دونهم ، وكانوا يبتغون إليه سبيلاً بالعبادة له والتقرب إليه . هذا أصح القولين ، كما قال : ﴿ **إنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلاً وَمَا تَشَاءُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ** ﴾[3]: وقال : ﴿ **إنَّهُ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ** ﴾[4]وقال : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبِّهِمْ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** ﴾[5] .

ثم قال : ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً** ﴾[6]فتعالى عن أن يكون معه إله غيره ، أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه ، فهذا هو الذي كانوا يقولون .

---

(١) سورة الإخلاص آية رقم ١ ، ٢ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة الانسان آية رقم ٢٩ ـ ٣٠ .

(٤) سورة المدثر آية رقم ٥٤ ـ ٥٥ وقد جاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (إنها) بدلاً من (إنه) .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ٥٧ .

(٦) سورة الاسراء آية رقم ٤٣ .

ولم يكونوا يقولون إن آلهتهم تقدر أن تمانعه أو تغالبه ، بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق ، وإن كانوا هم لم يقولوا ذلك ، كما قال : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[1] .

فقد تبين ان اسمه « الأعلى » يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص ، وعن أن يكون له مثل ، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ .
أي لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع ـ وهو انه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزا ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكنا لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً .

فصـــــل

والأمر بتسبيحه يقتضي أيضاً تنزيهه عن كل عيب وسوء ، وإثبات صفات الكمال له ، فإن [التسبيح] يقتضي التنزيه والتعظيم ، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها ، فيقتضي ذلك تنزيهه ، وتحميده ، وتكبيره ، وتوحيده .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، ثنا ابن نفيل الحراني ، ثنا النضر بن عربي قال : سأل رجل ميمون بن مهران[1] عن « سبحان الله » فقال : « اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء » .

وقال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا حفص بن غياث ، عن حجاج عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قال « سبحان » قال : تنزيه الله نفسه من

---

(١) هو ميمون بن مهران الرقي ، أبو أيوب ، فقيه من القضاة كان مولى لامرأة بالكوفة واعتقته فنشأ فيها ثم استوطن الرقة من بلاد الجزيرة الفراتية ، فكان عالم الجزيرة وسيدها واستعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها ، وكان على مقدمة الجند الشامي ، مع معاوية بن هشام بن عبد الملك لما عبر البحر غازياً الى قبرص سنة ١٠٨ هـ وكان ثقة في الحديث كثير العبادة توفي عام ١١٧ هـ .
راجع تذكرة الحفاظ ١ :٩٣ وحلية الأولياء ٤ :٨٢ والكامل لابن الأثير ٥ :٥٢ وتاريخ الاسلام للذهبي ٥ :٨ وفي المحبر ٤٧٨ من أشراف المعلمين وفقهائهم « ميمون بن مهران مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز » .

السوء ، وعن الضحاك عن ابن عباس في قوله : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا** ﴾[1] قال : عجب . وعن أبي الأشهب ، عن الحسن قال : « سبحان » اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه .

وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس : أنه تنزيه نفسه من السوء » وروي في ذلك حديث مرسل ، وهو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات ، كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة . ونفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال ، وفيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران « اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء » وروى عبد بن حميد[2]: حدثنا أبو نعيم ، ثنا سفيان ، عن عثمان بن عبد الله بن موهب ، عن موسى بن طلحة قال : سئل النبي ﷺ عن التسبيح ، فقال : « إنزاهه عن السوء ». وقال حدثنا الضحاك بن مخلد ، عن شبيب عن عكرمة ، عن ابن عباس : « سبحان الله » قال : تنزيهه .

حدثنا كثير بن هشام ، ثنا جعفر بن برقان ، ثنا يزيد بن الأصم قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : « لا إله إلا الله » نعرفها أنه لا إله غيره ، و « الحمد لله » نعرفها أن النعم كلها منه وهو المحمود عليها ، و « الله أكبر » نعرفها أنه لا شيء أكبر منه ، فما « سبحان الله »؟ فقال ابن عباس : وما ينكر منها ؟ هي كلمة رضيها الله لنفسه ، وأمر بها ملائكته ، وفزع إليها الأخيار من خلقه .

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١ .

(٢) هو عبد بن حميد بن نصر الكسي أبو محمد : من حفاظ الحديث قيل اسمه عبد الحميد ، وخفف نسبته الى كيس (من بلاد السند) من كتبه تفسير للقرآن الكريم ، ومسند في سفر ضخم يوجد في مكتبة الفاتيكان (٥٠٢ عربي) مخطوطة باسم (المنتخب من مسند عبد بن حميد الكشي ومصنفها لعله يوسف بن حسن بن المبرد توفي عام ٢٤٩ هـ .
راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٠٤ والمستطرفة ٥٠ والتبيان ومعجم البلدان ٧ : ٢٥١ وبرنامج القرويين ٥٧ وتذكرة النوادر ٣٧

فصـــل

قـوله : ﴿ الَّـذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ، وَالَّـذِي قَدَّرَ فَهَـدَىٰ ﴾[1] العطف يقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فيمـا ذكر وأن بينهمـا مغايـرة إما في الـذات وإما في الصفات .

وهـو في الـذات كثيـر ، كقـولـه : ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَالَّـذِينَ هَـادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾[2] .

وأما في الصفات فمثل هذه الآية ، فإن الذي خلق فسوى هو الذي قـدر فهدى ، لكن هذا الاسم والصفة ليس هو ذاك الاسم والصفـة ، ومثله قولـه : ﴿ هُـوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالـظَّاهِرُ وَالبَـاطِنُ ﴾[3] ومثله قـولـه : ﴿ الَّـذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِـالغَيْبِ ـ إلى قـولـه ـ وَالَّـذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـا أُنْـزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[4] وقـوله : ﴿ لَكِنِ الـرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنُـونَ يُؤْمِنُونَ بِمَـا أُنـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـا أُنـزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالمُقِيمِينَ الصَّـلاَةَ وَالمُؤْتُـونَ الـزَّكَـاةَ

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الحج آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد ﴾ .

(٣) سورة الحديد آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ .

(٤) سورة البقرة الآيات رقم ٣، ٤ .

وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[1]وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[2]وقوله : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾[3]الآيات .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ[4] ﴾ الآيات فإنه [من صدق و] صبر ولم يسلم ولم يؤمن لم يكن ممن أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً .

وكثيراً ما تأتي الصفات بلا عطف ، كقوله : ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، الْمَلِكُ ، الْقُدُّوسُ ، السَّلَامُ ، الْمُؤْمِنُ ، الْمُهَيْمِنُ ﴾[5]وقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾[6]. وقد تجيء خبراً بعد خبر ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾[7]ولو كان ﴿ فعال ﴾ صفة لكان معرفاً بل هو خبر بعد خبر ، وقوله : ﴿ هو الأول والآخر ﴾ خبر بعد خبر . لكن بالعطف بكل من الصفات .

وأخبار المبتدأ قد تجيء بعطف وبغير عطف ، وإذا ذكر بالعطف كان كل اسم مستقلاً بالذكر ، وبلا عطف يكون الثاني من تمام الأول بمعنى ومع العطف لا تكون الصفات إلا للمدح والثناء أو للمدح ، وأما بلا عطف فهو في النكرات للتمييز ، وفي المعارف قد يكون للتوضيح . و﴿ الذي خلق فسوى ،

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٢ .
(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١ - ٣ .
(٣) سورة المعارج آية رقم ٢٢ - ٢٤ .
(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٣٥ .
(٥) سورة الحشر آية رقم ٢٣ .
(٦) سورة الناس آية رقم ١ - ٣ .
(٧) سورة البروج آية رقم ١٤ - ١٦ .

والـذي قدر فهـدى ، والـذي أخـرج المـرعى ﴾ وصف بكـل صفـة من هـذه الصفات ، ومدح بهـا ، وأثنى عليه بهـا ، وكانت كـل صفة من هـذه الصفات مستوجبة لذلك .

فصـــل

قال تعالى :﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾[1] فأطلق الخلق والتسوية ولم يخص بذلك الإنسان ، كما أطلق قوله بعد ﴿ والذي قدر فهدى ﴾ لم يقيده ، فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات ، وقد بين موسى عليه السلام شموله في قوله : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2] .

وقد ذكر المقيد بالإنسان في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾[3] .

وقد ذكر المطلق والمقيد في أول ما نزل من القرآن ، وهو قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[4] وفي جميع هذه الآيات ـ مطلقها ومقيدها والجامع بين المطلق والمقيد ـ قد ذكر خلقه ، وذكر هدايته وتعليمه بعد الخلق ، كما قال في هذه السورة : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ، وَالَّذِي قَدَّرَ

(١) سورة الأعلى آية رقم ٢ .

(٢) سورة طه آية رقم ٥٠ .

(٣) سورة الانفطار آية رقم ٦ ـ ٧ .

(٤) سورة العلق الآيات رقم ١ ـ ٥ .

فَهَدَىٰ ﴾(1) .

لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها ، فـلا بد أن تهـدي إلى تلك الغـاية التي خلقت لهـا ، فلا تتم مصلحتهـا وما أريـدت له إلا بهـدايتهـا لغاياتها .

وهذا مما يبين أن الله خلق الأشياء لحكمة وغاية تصـل إليها ، كمـا قال ذلك السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء .

وقـالت طائفـة ـ كجهم وأتباعـه ـ إنه لم يخلق شيئاً لشيء ، ووافقه أبـو الحسن الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء ـ أتباع الأئمـة وهم يثبتون أنـه مريـد ، وينكرون أن تكون له حكمة يريدها .

وطائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته وحكمته ، وينكرون إرادته ، وكلاهما تناقض ، وقد بسط الكـلام على فساد قـول هؤلاء في غير هـذا الموضـع وأن منتهاهم جحد الحقائق .

فإن هذا يقول : « لو كان له حكمة يفعل لأجلها لكان يجب [أن يريد] الحكمة وينتفع بها ، وهو منزه عن ذلك » وذاك يقول : « لو كان له إرادة لكان يفعل لجر منفعة ، فإن الإرادة لا تعقل إلا كذلك » وأرسطو(2) وأتباعه يقولون : « لو فعل شيئاً لكان الفعل لفرض ، وهو منزه عن ذلك » .

فيقال لهؤلاء : هذه الحوادث المشهودة ألهـا محدث أم لا ؟ فـإن قالـوا

---

(1) سورة الأعلى آية رقم ٢ ـ ٣ .

(2) هو أشهر فلاسفة اليونان الأقدمين . دعاه الفلاسفة عن جدارة بأمير الفلسفة ، وهو يعتبر مع هذا اكبر عقل ظهـر في السابقـين ولد في اسـطاغيرا من مقـدونيا سنـة ٣٨٤ ق . م وتوفي سنـة ٣٢٢ ق . م تعاطى في بدايتـه صناعـة الطب طلبـاً للعيش والف فيه كتـاباً اسمـه الصحة والمرض ثم شخص الى أتينا في عصر ازدهار الفلسفة وكان شيخها افلاطون فالتحق به نحواً من عشرين سنة ثم اعتزله . يلقب ارسطو بالمعلم الأول ، لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية .
راجع دائرة معارف القرن العشرين ١ : ١٦٤ ، ١٦٥ .

« لا » فهو غاية المكابرة ، وإذا جوزوا حدوث الحوادث بلا محدث فتجويزها بمحدث لا إرادة له أولى .

وإن قالوا « لها محدث » ثبت الفاعل ، وإذا ثبت الخالق المحدث فإما أن يفعل بإرادة أو بغير إرادة . فإن قالوا « يفعل بغير إرادة » كان ذلك أيضاً مكابرة فإن كل حركة في العالم إنما صدرت عن إرادة .

فإن الحركات إما طبعية ، وإما قسرية ، وإما إرادية ، لأن مبدأ الحركة ، إما أن يكون من المتحرك ، أو من سبب خارج ، وما كان منها فإما أن يكون مع الشعور ، أو بدون الشعور ، ممّا كان سببه من خارج فهو القسري ، وما كان سببه منها بلا شعور فهو الطبعي ، وما كان مع الشعور فهو الإرادي ، فالقسري تابع للقاسر ، والذي يتحرك بطبعه ، كالماء والهواء والأرض ، هو ساكن في مركزه ، لكن إذا خرج عن مركزه قسراً طلب العود إلى مركزه ، فأصل حركته القسر ، ولم تبق حركة أصلية إلا الإرادية ، فكل حركة في العالم فهي عن إرادة .

فكيف تكون جميع الحوادث والحركات بلا إرادة؟

وأيضاً ، فإذا جوزوا أن تحدث الحوادث العظيمة عن فاعل غير مريد فجواز ذلك عن فاعل مريد أولى .

وإذا ثبت أنه مريد قيل : إما أن يكون أرادها لحكمة ، وأما أن يكون أرادها لغير حكمة . [فإن قالوا « لغير حكمة » كان] مكابرة . فإن الإرادة لا تعقل . لا تعقل إلا إذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل .

وأيضاً ، فإذا جوزوا أن يكون فاعلاً مريدا بلا حكمة فكونه فاعلاً مريداً لحكمة أولى بالجواز .

وأما قولهم : « هذا لا يعقل إلا في حق من ينتفع ، وذلك يوجب الحاجة ، والله منزه عن ذلك » .

فإن أرادوا أنه يوجب احتياجه إلى غيره أو شيء من مخلوقاته ، فهو ممنوع وباطل ، فإن كل ما سواه محتاج إليه من كل وجه ، وهو الصمد الغني عن كل ما سواه ، وكل سواه محتاج إليه ، وهو القيوم القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه ، فكيف يكون محتاجاً إلى غيره ؟ .

وإن أرادوا أنه تحصل له بالخلق حكمة هي أيضاً حاصلة بمشيئته فهذا لا محذور فيه ، بل هو الحق .

وإذا قالوا « الحكمة هي اللذة » قيل : لفظ « اللذة » لم يرد به الشرع ، وهو موهم ومجمل ، لكن جاء الشرع بأنه « يحب » و « يرضى » و « يفرح بتوبة التائبين » ونحو ذلك ، فإذا أريد ما دل عليه الشرع والعقل فهو حق . وإن قالوا : « الحكمة إما أن تراد لنفسها أو لحكمة ». قيل : المرادات نوعان ـ ما يراد لنفسه ، وما يراد لغيره ، وقد يكون الشيء غاية وحكمة بالنسبة إلى مخلوق وهو مخلوق لحكمة أخرى فلا بد أن ينتهي الأمر إلى حكمة يريدها الفاعل لذاتها .

والمعتزلة ومن وافقهم ، كابن عقيل[(١)] وغيره ، تثبت حكمة لا تعود إلى ذاته ، وأما السلف فإنهم يثبتون حكمة تعود إليه ، كما قد بين في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا ذكر قوله تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾[(٢)] والتسوية : جعل الشيء سواء كما قال : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ** ﴾[(٣)] وقوله تعالى : ﴿ **تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ﴾[(٤)] و ﴿**سواء**﴾ وسط ، لأنه معتدل بين الجوانب .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .
(٢) سورة الأعلى آية رقم ٢ ـ ٣ .
(٣) سورة فاطر آية رقم ١٩ .
(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ .

وذلك أنه لا بـد في الخلق والأمر من العـدل ، فلا بـد من التسويـة بين المتماثلين ، فإذا فضل أحدهما فسد المصنوع ، كما في مصنوعات العبـاد إذا بنوا بنياناً فلا بد من التسوية بين الحيطان ، إذ لـو رفع حـائط على حائط رفعـاً كثيراً فسد . ولا بـد من التسويـة بين جذوع السقف ، فلو كـان بعض الجذوع قصيراً عن الغاية وبعضها فوق الغاية فسد . وكـذلك إذا بنى صف فـوق صف لا بد من التسوية بين الصفوف ، وكـذلك الـدرج المبنية ، وكـذلك إذا صنـع لسقي الماء جداول ومسـاكب فلا بـد من العدل والتسـوية فيهـا ، وكذلـك إذا صنعت ملابس للآدميين فلا بد من أن تكـون مقدرة على أبـدانهم لا تزيـد ولا تنقص ، وكـذلك مـا يصنع من الـطعـام لا بـد أن تكـون أخـلاطـه على وجـه الاعتدال ، والنار التي تطبخه كذلك ، وكذلك السفن المصنوعة .

ولهـذا قـال الله لـداود : ﴿ وَقَـدِّرْ فِي السَّـرْدِ ﴾[1]أي لا تـدق المسمـار فيقلق ، ولا تغلظه فيقصم ، واجعله بقدر .

فـإذا كـان هـذا في مصنـوعـات العبـاد ـ وهي جـزء من مصنـوعـات الرب ـ فكيف بمخلوقاتـه العظيمـة التي لا صنع فيهـا للعباد ، كخلق الإنسـان وسائر البهائم ، وخلق النبات ، وخلق السموات والأرض والملائكة .

فالفلك الذي خلقه وجعله مستديراً ما له من فروج ، كمـا قال تعـالى : ﴿ **الَّـذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـوَاتٍ طِبَاقـاً ، مَـا تَـرَىٰ فِي خَلْقِ الـرَّحْمَنِ مِنْ تَفَـاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ** ﴾[2] .

---

(١) سورة سبأ آية رقم ١١ وتكملة الآية ﴿ واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾ .

وعن ابن عباس السرد : هو حلق الحديد ، وقال بعضهم يقال : درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق واستشهد بقول الشاعر :

وعليهـا مسـرودتـان مضـاهـا ... داود أو صـنـع السـوابـغ تـبـع

(٢) سورة الملك آية رقم ٣ ـ ٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ ﴾[1] وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[2] .

فهو سبحانه سواها كما سوى الشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات ، فعدل بين أجزائها ، ولو كان أحد جانبي السماء داخلاً أو خارجاً لكان فيها فروج ، وهي الفتوق والشقوق ، ولم يكن سواها ، كمن بنى قبة ولم يسوها ، وكذلك لو جعل أحد جانبيها أطول أو أنقص ، ونحو ذلك .

فالعدل والتسوية لازم لجميع المخلوقات والمصنوعات ، فمتى لم تصنع بالعدل والتسوية بين المتماثلين وقع فيها الفساد .

وهو سبحانه ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ قال أبو العالية في قوله ﴿ خلق فسوى ﴾ قال سوى خلقهن ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾[3] .

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٧ .
قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن ابراهيم ، حدثنا ابن علية ، حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه قال : إن من ورائكم الكذاب المضل وإن رأسه من ورائه حبكاً حبكاً » . يعني بالحبك الجعودة ، وعن أبي صالح (ذات الحبك) الشدة وقال خصيف : ذات الحبك ذات الصفاقة » .

(٢) سورة ق آية رقم ٦ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ١٢ وقد جاءت هذه الآية في المطبوعة محرفة حيث قال (فسواهن) بدلاً من (فقضاهن) .

فصـــل

هداية الله الى خلقه

ثم إذا خلق المخلوق فسوى ، فإن لم يهده إلى تمام الحكمة التي خلق لها فسد ، فلا بد أن يهدي بعد ذلك إلى ما خلق له .

وتلك الغـاية لا بد أنها معلومة للخالق، فإن العلة الغـائية هي أول في العلم والإرادة ، وهي آخر في الوجود والحصول .

ولهذا كان الخالق لا بد أن يعلم ما خلق ، فإنـه قد أراده ، وأراد الغـاية التي خلقه لها ، والإرادة مستلزمة للعلم ، فيمتنع أن يريد الحي ما لا شعور له به .

والصـانع إذا أراد أن يصنـع شيئاً فقـد علمه وأراده ، وقـدر في نفسه مـا يصنعه ، والغايـة التي ينتهي إليها ، ومـا الذي يـوصله إلى تلك الغايـة ، والله سبحـانه قـدر وكتب مقادير الخلائق قبـل أن يخلقهم ، كما ثبت في صحيـح مسلم عن عبـد الله بن عمـرو ، عن النبي ﷺ أنـه قـال : « قـدر الله مقـاديـر الخـلائق قبل أن يخلق السمـوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكـان عرشـه على الماء »(١).

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في القدر باب حجاج موسى وآدم عليهما السلام حـدثني أبو الطاهر احمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن سرح حدثنا ابن وهب أخبرني أبو هاني الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمـرو بن العـاص قـال سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : وذكره .

وفي البخاري عن عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض » - وفي رواية « ثم خلق السموات والأرض »[1]

فقد قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء إلى يوم القيامة ، كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « أول ما خلق الله القلم ، فقال : اكتب . فقال ما أكتب ؟ فقال : أكتب ما يكون إلى يوم القيامة »[2] .

وأحاديث تقديره سبحانه وكتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جداً .

روى ابن [أبي] حاتم عن الضحاك أنه سئل عن قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[3] فقال : قال ابن عباس : إن الله قدر المقادير بقدرته ودبر الأمور بحكمته ، وعلم ما العباد صائرون إليه ، وما هو خالق وكائن من خلقه ، فخلق الله لذلك جنة وناراً ، فجعل الجنة لأوليائه وعرفهم وأحبهم وتولاهم ووفقهم وعصمهم ، وترك أهل النار استحوذ عليهم إبليس وأضلهم وأزلهم .

فخلق لكل شيء ما يشاكله في خلقه - ما يصلحه من رزقه في بر أو في بحر ، فجعل للبعير خلقاً لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب ،

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ١ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ . ٣١٩١ - بسنده عن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - قال : دخلت على النبي ﷺ وعلقت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا قد بشرتنا فأعطنا (مرتين) ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم قالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا جئنا نسألك عن هذا الأمر قال : وذكره . ورواه الترمذي في التفسير سورة ، ٣ ، ١١ ، ٩ واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٣ ، ٥٠١ ، ٤ : ٤٣١ .

(٢) الحديث رواه الترمذي في التفسير سورة ٦٨ .

(٣) سورة القمر آية رقم ٤٩ .

وكذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها في خلقها ، فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف .

قال ابن أبي حاتم : ثنا أبي ، ثنا يحيى بن زكريا بن مهران القزاز نا حبان بن عبيد قال : سألت الضحاك عن هذه الآية : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾[1]. قال الضحاك ، قال ابن عباس ، فذكره .

وقال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا طلحة بن سنان ، عن عاصم ، عن الحسن قال : من كذب بالقدر فقد كذب بالحق ، خلق الله خلقاً، وأجل أجلاً ، وقدر رزقاً ، وقدر معصية ، وقدر بلاء ، وقدر عافية ، فمن كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن .

وقد حدثنا الحسن بن عرفة ، ثنا مروان بن شجاع الجزري ، عن عبد الملك بن جريج ، عن عطاء بن أبي رباح قال « أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه . فقلت له : قد تكلم في القدر . فقال : أو [قد] فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : فالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم : ﴿**ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾[2]أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم ، إن رأيت أحداً فقأت عينيه بأصبعي هاتين .

وقال أيضاً : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا سهل الخياط ، ثنا أبو صالح الحداني ، نا حبان بن عبيد الله قال : سألت الضحاك عن قوله : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا** ﴾[3]قال : قال ابن عباس : إن الله خلق العرش فاستوى عليه ، ثم خلق القلم فأمره ليجري بإذنه ـ وعظم القلم كقدر ما بين السماء والأرض ـ

---

(١) سورة القمر آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة القمر آية رقم ٤٨ ـ ٤٩ .

(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٢ .

فقال القلم : بما ، يا رب أجري ؟ فقال : « بما أنا خالق وكائن في خلقي من قطر أو نبات أو نفس أو أثر - يعني به العمل - أو رزق أو أجل » فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأثبته الله في الكتاب المكنون عنده تحت العرش .

فصـــل

الله تعالى قدَّر المقادير لخلقه

فقوله سبحـانه : ﴿ وَالَّـذِي قَدَّرَ فَهَـدَىٰ ﴾[1] يتضمن أنه قـدر ما سيكـون للمخلوقـات ، وهداهـا إليه ، علم مـا يحتاج إليـه الناس والـدواب من الرزق فخلق ذلـك الرزق وسـواه ، وخلق الحيوان وسـواه وهداه إلى ذلـك الـرزق ، وهدى غيره من الأحياء أن يسوق إليه ذلك الرزق .

وخلق الأرض ، وقـدر حاجتهـا إلى المطر ، وقـدر السحاب ومـا يحمله من المـطر ، وخلق ملائكـة هداهم ليسـوقوا ذلـك السحـاب إلى تلك الأرض فيمطر المطر الذي قدره ، وقدر ما نبت بها من الرزق ، وقدر حاجة العباد إلى ذلك الرزق ، وهداهم إلى ذلك الرزق ، وهدى من يسوق ذلك الرزق إليهم .

وقد ذكر المفسرون أنواعاً من تقريره وهدايته ، فروى ابن جـرير ، وابن أبي حاتم ، وغيرهما ، بالإسناد الثابت عن مجاهد في قوله : ﴿ قدر فهدى ﴾ قال : الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها ، وكـذلك رواه عبـد ابن حميد في تفسيره ، قال : هدى الإنسان للسعادة والشقاوة ، وهدى الأنعـام لمراتعها .

وقال حدثنا يونس ، عن شيبان عن قتادة : ﴿ الذي قدر فهـدى ﴾ قال : « لا والله . ما أكره الله عبداً على معصية قط ولا على ضـلالة ، ولا رضيهـا له

(١) سورة الأعلى آية رقم ٣ .

ولا أمره ، ولكن رضي لكم الطاعة فأمركم بها ، ونهاكم عن معصيته .

(قلت) : قتادة ذكر هـذا عند هـذه الآية ليبين أن الله قـدر ما قـدره من السعـادة والشقاوة ، كمـا قال الحسن وقتـادة ، وغيرهمـا من أئمة المسلمين ، فـإنهم لم يكونـوا متنازعين ، فمـا سبق من سبق تقديـر الله ، وإنما كـان نـزاع بعضهم في الإرادة وخلق الأفعال .

وإنما نازع في التقدير السابق والكتاب أولئك الذين تبـرأ منهم الصحابـة كابن عمر وابن عباس وغيرهما .

وذكر قتادة أن الله لم يكره أحداً على معصيته وهذا صحيـح ، فإن أهـل السنة المثبتين للقدر متفقون على أن الله لا يكره أحـداً على معصيتـه كمـا يكره الـوالي والقاضي وغيـرهما للمخلوق على خـلاف مراده . يكـرهونـه بالعقـوبة والوعيد ، بل هو سبحانه يخلق إرادة العبد للعمل وقدرته وعمله وهو خالق كل شيء .

وهذا الذي قاله قتادة قد يظن فيه أنه من قول القدرية ، وأنـه لسبب مثل هذا اتهم قتادة بالقدر ، حتى قيل : إن مالكاً كره لمعمر أن يروي عنـه التفسير لكونه اتهم بالقدر .

وهذا القول حق ، ولم يعـرف أحد من السلف قـال « إن الله أكره أحـداً على معصيته » .

بـل أبلغ من ذلـك أن لفظ « الجبـر » منعـوا من إطـلاقـه ، كـالأوزاعي والثوري ، والزبيدي ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وأحمد بن حنبل وغيـرهم . نهوا عن أن يقال « إن الله جبر العباد » وقالوا : إن هذا بدعة في الشرع ، وهـو مفهم للمعنى الفاسد .

قال الأوزاعي وغيره : إن السنـة جاءت بـ « جبـل » ولـم تأت بـ « جبـر » فـإن النبي ﷺ قال لأشـج عبـد القيس « إن فيـك لخلقين يحبهمـا الله ـ الحلم

والأنـاة » فقال : أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما ؟ فقـال : « بـل خلقين جبلت عليهمـا » قـال : الحمـد لله الـذي جبلني على خلقين يحبهمـا الله(١) .

وقال الزبيدي وغيره : إنما يجبر العـاجز - يعني الجبـر الذي هـو بمعنى الاكراه - كما تجبر المرأة على النكاح ! والله أجل وأعـظم من أن يجبر أحـداً - يعني أنه يخلق إرادة العبد فلا يحتاج إلى إجباره .

فالزبيدي وطائفة نفوا « الجبر » وكان مفهومه عندهم هذا .

وأما الأوزاعي ، وأحمد بن حنبـل ، وغيرهمـا فكرهـوا أن يقال « جبـر » وأن يقال « لم يجبر » لأن « الجبر » قد يراد به الإكراه والله لا يكره أحداً . وقد يراد به أنه خالق الإرادة ، كما قال محمد بن كعب ، « الجبار هـو الذي جبـر العباد على ما أراد » . و « الجبر » بهذا المعنى صحيح .

وقول مجاهد في قوله : ﴿ قدر فهدى ﴾ : « الإنسان للسعـادة والشقاوة » يبين أن هذا عنده مما دخل في قوله : ﴿ قـدر فهدى ﴾ أي هـدى السعداء إلى السعادة التي قدرها ، وهدى الأشقياء إلى الشقاء الذي قدره .

---

(١) الحديث رواه ابن سعد في طبقاته قال أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي حدثني قدامة بن موسى عن عبد العزيز بن رمانة عن عروة بن الـزبير قـال : وحدثني عبـد الحميد بن جعفـر عن أبيه قـالا : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليـه عشرون رجـلاً منهم ، فقدم عليـه عشرون رجـلاً رأسهم عبد الله بن عـوف الأشج وفيهم الجـارود ومنقذ بن حيـان وهو ابن أخت الأشـج وكان قدومهم عام الفتح فقيل يا رسول الله هؤلاء وفد عبد القيس قال مرحباً بهم نعم القوم عبد القيس قال : ونظر رسول الله ﷺ الى الأفق صبيحة ليلة قدموا وقال : ليأتين ركب من المشركـين لم يكرهوا على الإسلام قد انضوا الركاب وأفنوا الزاد بصاحبهم علامة . اللهم اغفر لعبد القيس اتوني لا يسألوني مالاً هم خير اهل المشرق . قال : فجاؤ وا في ثيابهم ورسول الله ﷺ في المسجد فسلموا عليه ، وسألهم رسول الله ﷺ أيكم عبد الله الأشج ؟ . قال : أنا يـا رسول الله - وكـان رجلاً دميماً - فنظر اليه رسول الله ﷺ فقال : انه لا يستسقى في مسوك الرجال إنما يحتـاج من الرجل الى أصغريه لسانه وقلبه فقال رسول الله ﷺ وذكره

وهكذا قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾[1] قال : السعادة والشقاوة .

وقال عكرمة : سبيل الهدى ، رواهما عبد بن حميد .

وكذلك روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[2] قال : الشقاوة والسعادة .

وقد قال هو وجماهير السلف : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ : أي الخير والشر . رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود . ثم قال : وروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس في إحدى[3] ، [رواياته]، وشقيق بن سلمة، وأبي صالح ، ومجاهد ، والحسن ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وشرحبيل بن سعيد ، وابن سنان الرازي ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وعمر بن قيس الملائي ، نحو ذلك .

وروي عن محمد بن كعب القرظي قال : الحق والباطل .

وهذا كلام مجمل فيه ما هو متفق عليه ، وهو أنه يبين للناس ما أرسله من الرسل ، ونصبه من الدلائل والآيات ، وأعطاهم من العقول ـ طريق الخير والشر ـ كما في قوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾[4].

وأما إدخال الهدى الذي هو الإلهام في ذلك ، بمعنى أنه هدى المؤمن إلى أن يؤمن ويعمل صالحاً إلى أن يسعد بذلك ، وهدى الكافر إلى ما يعمله إلى أن يشقى بذلك ، فهذا منهم من يدخله في الآية ، كمجاهد وغيره ويدخله في قوله : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ وعكرمة وغيره يخرجون ذلك عن معنى هذه الآية وإن كانوا مقربين بالقدر .

---

(١) سورة الانسان آية رقم ٣ .

(٢) سورة البلد آية رقم ١٠ .

(٣) سقط من الأصل لفظ [رواياته] .

(٤) سورة فصلت آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ **فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾ .

ومن قال : ﴿ هدى ﴾ بمعنى بين فقط ، فقد هدى كل عبد إلى نجد الخير والشر جميعاً ، أي بين له طريق الخير والشر .

ومن أدخل في ذلك السعادة والشقاوة يقول : في هذا تقسيم ، أي هذه الهداية عامة مشتركة ، وخص المؤمن بهداية إلى نجد الخير ، وخص الكافر بهداية إلى نجد الشر .

ومن لم يدخل ذلك في الآية قد يحتجون بحديث من مراسيل الحسن قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا أيها الناس : إنما هما النجدان ـ نجد الخير ، ونجد الشر ، فما يجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ؟» .

ويحتجون بأن إلهام الفاجر طريق الفجور لم يسمه هدى ، بل سماه ضلالاً ، والله امتن بأنه هدى .

وقد يجيب الآخر بأن يقول : هو لا يدخل في الهدى المطلق ، لكن يدخل في الهدى المقيد ،كقوله: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾[١]وكما في لفظ البشارة ، قال : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٢]ولفظ الإيمان فقال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾[٣] .

وهذان القولان في قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[٤]قيل : هو البيان العام ، وقيل : بل ألهم الفاجر الفجور والتقي التقوى .

وهذا في تلك الآية أظهر ، لأن الإلهام استعماله مشهور في إلهام القلوب ، لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة .

---

(١) سورة الصافات آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٥١ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ٨ .

وقد علم النبي ﷺ حصيناً الخزاعي[1] لما أسلم أن يقول « اللهم ! ألهمني رشدي وقني شر نفسي » ولو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلاً للمسلم والكافر .

قال ابن عطية : و ﴿ سوى ﴾ معناه عدل وأتقن حتى صارت الأمور مستوية ، دالة على قدرته ووحدانيته .

وقرأ جمهور القراء ﴿ قدر ﴾ بتشديد الدال ، فيحتمل أن يكون من القدر والقضاء ، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء .

قلت : هما متلازمان ، لأن التقدير الأول يسمى تقديراً ، لأن ما يجري بعد ذلك يجري على قدره ، فهو موازن له ومعادل له .

قال : وقرأ الكسائي[2] وحده بتخفيف الدال ، فيحتمل أن يكون بمعنى القدرة ، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة .

قلت : وهذا قول الأكثرين أنهما بمعنى واحد .

قال ابن عطية : وقوله ﴿ فهدى ﴾ عام لوجوه الهدايات في الإنسان والحيوان ، وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات ، فقال الفراء : معناه هدى وأضل ، واكتفى بالواحد لدلالتها على الأخرى ، قال ، وقال مقاتل والكلبي : هدى إلى وطء الذكور للإناث . وقيل هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي . وقال مجاهد : هدى الناس للخير والشر ، والبهائم للمراتع .

قال ابن عطية : « وهذه الأقوال مثالات ، والعموم في الآية أصوب في

---

(١) هو حصين بن عبيد ، والد عمران بن حصين الخزاعي ، روى عنه ابنه عمران بن حصين حديثاً مرفوعاً في إسلامه ، وفي الدعاء .
راجع الاستيعاب ١ : ٣٥٣ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية . وراجع غاية النهاية ١ : ٥٣٥ وابن خلكان ١ : ٣٣٠ وتاريخ بغداد ١١ : ٤٠٣ وأنباء الرواة ٢ : ٢٥٦ .

كل تقدير وفي كل هداية ».

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي[1]هذه الأقوال وغيرها ، فذكر سبعة أقوال : قدر السعادة والشقاوة ، وهدى للرشد والضلالة ، قاله مجاهد ، وقيل : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها إليه ، قاله عطاء ، وقيل : قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج ، قاله السدي ، وقيل : قدرهم ذكراناً وإناثاً وهدى الذكور لإتيان الإناث ، قاله مقاتل ، وقيل : قدر فهدى وأضل ، فحذف « وأضل » لأن في الكلام ما يدل عليه ، حكاه الزجاج ، وقيل : قدر الأرزاق وهدى إلى طلبها ، وقيل ، قدر الذنوب فهدى إلى التوبة ، حكاهما الثعلبي .

قلت : القول الذي حكاه الزجاج هو قول الفراء ، وهو من جنس قوله : ﴿ **إن نفعت وإن لم تنفع** ﴾ ومن جنس قوله : ﴿ **سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ** ﴾[2] وقد تقدم ضعف مثل هذا ، ولهذا لم يقله أحد من المفسرين .

والأقوال الصحيحة هي من باب المثالات ، كما قال ابن عطية .

وهكذا كثير من تفسير السلف ـ يذكرون من النوع مثالاً لينبهوا به على غيره ، أو لحاجة المستمع إلى معرفته ، أو لكونه هو الذي يعرفه ، كما يذكرونه مثل ذلك في مواضع كثيرة ، كقوله : ﴿ **سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** ﴾[3]وقوله : ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ** ﴾[4] وقوله : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾[5]وقوله : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ**

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية . وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ٣٠٧ وذيل الروضتين ٢١ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٨١ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (والبرد) بدلاً من (وسرابيل تقيكم بأسكم) .

(٣) سورة الفتح آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الجمعة آية رقم ٣ وتكملة الآية ﴿ **لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٥٤ .

﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾[1] .

وكذلك تفسير : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾[2]﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾[3]وغير ذلك ، وقوله : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[4]وأمثال ذلك كثير من تفسيرهم هو من باب المثال .

ومن ذلك قولهم : إن هذه الآية نزلت في فلان وفلان » فبهذا يمثل بمن نزلت فيه ـ نزلت فيه أولاً وكان سبب نزولها ـ لا يريدون به أنها آية مختصة به ، كآية اللعان ، وآية القذف ، وآية المحاربة ، ونحو ذلك . لا يقول مسلم إنها مختصة بمن كان نزولها بسببه .

واللفظ العام وإن قال طائفة إنه يقصر على سببه فمرادهم على النوع الذي هو سببه ـ لم يريدوا بذلك أنه يقتصر على شخص واحد من ذلك النوع .

فلا يقول مسلم إن آية الظهار لم يدخل فيها إلا أوس بن الصامت[5]،وآية اللعان لم يدخل فيها إلا عاصم بن عدي ، أو هلال بن أمية[6]:وأن ذم الكفار لم يدخل فيه إلا كفار قريش ، ونحو ذلك ، مما لا

---

(١) سورة فاطر آية رقم ٣٢ .

(٢) سورة الفجر آية رقم ٣ .

(٣) سورة البروج آية رقم ٣ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ٢١ .

(٥) هو أوس بن الصامت بن قيس بن أصرم الأنصاري ، شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وبقي الى زمن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ، وهو الذي ظاهر من امرأته فوطئها قبل أن يكفِّر . فأمره رسول الله ﷺ أن يكفر بخمسة عشر صاعاً من شعير على ستين مسكيناً .
روى عنه حسان بن عطية وهو أخو عبادة بن الصامت .
راجع الاستيعاب ١ : ١١٨ .

(٦) هو هلال بن أمية الأنصاري الواقفي من بني واقف ، شهد بدراً ، وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا =

يقوله مسلم ولا عاقل .

فإن محمداً ﷺ قد عرف بالاضطرار من دينه أنه مبعوث إلى جميع الإنس والجن ، والله تعالى خاطب بالقرآن جميع الثقلين ، كما قال : ﴿ لِأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[1] فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني فقد أنذره الرسول به ، والإنذار هو الإعلام بالمخوف ، والمخوف ـ هو العذاب ـ ينزل بمن عصى أمره ونهيه .

فقد أعلم كل من وصل إليه القرآن أنه إن لم يطعه وإلا عذبه الله تعالى ، وأنه إن أطاعه أكرمه الله تعالى .

وهو قد مات ، فإنما طاعته باتباع ما في القرآن مما أوجبه الله وحرمه ، وكذلك ما أوجبه الرسول وحرمه بسنته ، فإن القرآن قد بين وجوب طاعته ، وبين أن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وقال لأزواج نبيه : ﴿ وَاذْكُرْنَ ما يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُن مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ ﴾[2] .

= عن غزوة تبوك ، فنزل فيهم القرآن ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وهو الذي قذف امرأته بشريك بن السحماء . روى ابن وهب قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب قال الثلاثة الذين خلفوا كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .
راجع الاستيعاب ٤ : ١٥٤٢ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٤ .

فصـــل

في تقدير أرزاق البهائم والحيوانات

ثم قال : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَىٰ . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾[1] هو سبحانه لما ذكر قوله : ﴿ قدر فهدى ﴾ دخل في ذلك ما قدره من أرزاق العباد [والبهائم] وهداهم إليها ، فهدى من يأتي بها إليهم ، وذلك من تمام إنعامه على عباده ، كما جاء في الأثر : إن الله يقول : « إني والجن والإنس لفي نبأ عظيم ـ أخلق ويعبدون غيري ، وأرزق ويشكرون سواي » .

وهذا المعنى قد روي في قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[2] أي تجعلون شكركم وشكر ربكم التكذيب بإنعام الله ، وإضافة الرزق إلى غيره كالأنواء ، كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: « أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر ـ قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا »[3] قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ـ حتى بلغ ـ

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ٤ ـ ٥ .

(٢) سورة الواقعة آية رقم ٨٢ .

(٣) الحديث رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مخول بن ابراهيم النهدي وابن جرير عن محمد بن المثنى عن عبد الله بن موسى ، وعن يعقوب بن ابراهيم عن يحيى بن أبي بكير ثلاثتهم عن اسرائيل به مرفوعاً ، وكذا رواه الترمذي عن احمد بن منيع عن حسين بن محمد وهو المروزي به وقال حسن غريب . وقد رواه سفيان الثوري عن عبد الأعلى ولم يرفعه . =

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ـ ينزل الله الغيث فيقولون : الكواكب كذا وكذا ـ وفي رواية « بكواكب كذا وكذا »[2].

وروى ابن المنذر في تفسيره : ثنا محمد بن علي ـ يعني الصائغ ، ثنا سعيد هو ابن منصور ، ثنا هشيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وتجعلون ﴾ شكركم ﴿ أنكم تكذبون ﴾ يعني الأنواء ، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً وكانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا . فأنزل الله ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم ، عن عطاء الخراساني ، عن عكرمة ، في قول الله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : تجعلون رزقكم من عند غير الله تكذيباً ، وشكراً [لغيره] .

لكن قوله : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾[3] خص به إخراج المرعى ، وهو ما ترعاه الدواب ، وذكر أنه جعله غثاء أحوى ، وهذا فيه ذكر أقوات البهائم ، لكن أقوات الآدميين أجل من ذلك ، وقدرها هي وأقوات البهائم في قوله ﴿ قدر فهدى ﴾ .

وأيضاً ، فالذي يصير غثاء أحوى لم تقتت به البهائم ، وإنما تقتات به قبل ذلك .

= ورواه ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن ابي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وذكره . ورواه صاحب الموطأ عن صالح بن كيسان عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن زيد بن خالد الجني وذكره .

(١) سورة الواقعة آية رقم ٧٥ ـ ٨٢ .

(٢) قال الامام مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادي وعمرو بن سواد ، حدثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث أن أبا يونس حدثه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ وذكره .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ٤ .

فهو ـ والله أعلم ـ خص هذا بالذكر لأنه مثل الحياة الدنيا .

إذا كانت هذه السورة تضمنت أصول الإيمان ـ الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإيمان بالرسل والكتب التي جاؤوا بها ، وذلك يتضمن الإيمان بالملائكة ، وفيها العمل الصالح الذي ينفع في الآخرة والفاسد الذي يضر فيها .

فذكر سبحانه المرعى عقب ما ذكره من الخلق والهدى ليبين مآل بعض المخلوقات ، وأن الدنيا هذا مثلها .

وقد ذكر الله ذلك في الكهف ، ويونس ، والحديد ، قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ . وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَاللهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾[3] .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٢٤ ـ ٢٥ .

(٣) سورة الحديد آية رقم ٢٠ .

وقد جعل إهلاك المهلكين حصاداً لهم ، فقال : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[1].

وقال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[2].

فقوله : ﴿ والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ﴾ هو مثل للحياة الدنيا ، وعاقبة الكفار ، ومن اغتر بالدنيا ، فإنهم يكونون في نعيم وزينة وسعادة ، ثم يصيرون إلى شقاء في الدنيا والآخرة ، كالمرعى الذي جعله غثاء أحوى .

---

(١) سورة هود آية رقم ١٠٠ .

(٢) سورة التين آية رقم ٤ ـ ٦ . وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث قال (في رددناه) بدلاً من (ثم رددناه) .

فصـــل

قـوله : ﴿ فَـذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الـذِّكْرَىٰ ، سَيَـذَّكَّـرُ مَنْ يَخْشَىٰ ، وَيَتَجَنَّبُهَـا الأَشْقَىٰ ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَىٰ ﴾[1].

فقـولـه ؛ ﴿ إن نفعت الـذكـرى ﴾ كقــولـه : ﴿ فَـإِنَّ الـذِّكْـرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾[2]وقوله : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ و﴿ إن ﴾ هي للشرطية .

وحكى الماوردي[3]أنها بمعنى « ما » وهذه تكون « ما » المصـدرية وهي بمعنى الـظرف ، أي : ذكر مـا نفعت ، ما دامت تنفـع ، ومعناهـا قـريب من معنى الشرطية .

وأما إن ظن ظان أنها نافية فهذا غلط بين ، فإن الله لا ينفي نفع الذكرى

(١) سورة الأعلى الآيات من ٩ ـ ١٢ .

(٢) سـورة الذاريـات آية رقم ٥٥ وقـد جاءت الآيـة محرفـة في المطبـوعة حيث قـال (إن) بـدلاً من (فإن) .

(٣) هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي أقضى قضاة عصره من العلماء الباحثين أصحاب الـتصانيف الـكثيرة النـافعة . ولد بالبصرة عام ٣٦٤ هـ وانتقل الى بغـداد ، وولي القضاء في أيام القائم بأمر الله العباسي وكان يميل الى مذهب الاعتزال ، وله المكانة الرفيعة عنـد الخلفاء نسبته الى بيع مـاء الورد ووفـاته ببغـداد عام ٤٥٠ هـ من كتبـه أدب الدنيـا والدين ، والأحكـام السلطانية ، والنكت والعيون والحاوي في فقه الشافعية وغير ذلك كثير .

راجع السبكي ٣ : ٣٠٣ والوفيات ١ : ٣٢٦ والشذرات ٣ : ٢٨٥ وآداب اللغة ٢ : ٣٣٣ .

مطلقاً وهو القائل : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ، وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ ﴾(١) ثم قال : ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) .

وعن [مجاهد] ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ إن قبلت الذكرى .

وعن مقاتل : فذكر وقد نفعت الذكرى .

وقيل : ذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع . قاله طائفة ، أولهم الفراء ، واتبعه جماعة ، منهم النحاس ، والزهراوي ، والواحدي ، والبغوي ، ولم يذكر غيره . قالوا : وإنما لم يذكر الحال الثانية كقوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ وأراد الحر والبرد .

وإنما قالوا هذا لأنهم قد علموا أنه يجب عليه تبليغ جميع الخلق وتذكيرهم سواء آمنوا أو كفروا . فلم يكن وجوب التذكير مختصاً بمن تنفعه الذكرى ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾(٣) وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾(٤) وقال : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ، وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾(٥) وقال : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾(٦) .

وهذا الذي قالوه [له] معنى صحيح ، وهو قول الفراء وأمثاله ، [لكن] لم يقله أحد من مفسري السلف ، ولهذا كان أحمد بن حنبل ينكر على الفراء وأمثاله ما ينكره ، ويقول : كنت أحسب الفراء رجلاً صالحاً حتى رأيت كتابه في معاني القرآن .

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٤ ـ ٥٥ .

(٣) سورة الغاشية آية رقم ٢١ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٤٤ .

(٥) سورة القلم آية رقم ٥١ ـ ٥٢ .

(٦) سورة الفرقان آية رقم ١ .

وهذا المعنى الذي قالوه مدلول عليه بآيات أخر ، وهو معلوم بالإضطرار من أمر الرسول ، فإن الله بعثه مبلغاً ومذكراً لجميع الثقلين الإنس والجن ، لكن ليس هو معنى هذه الآية .

بل معنى هذه يشبه قوله : ﴿ **فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾[1]وقوله : ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا** ﴾[2]وقوله : ﴿ **إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغَيْبِ** ﴾[3]وقوله : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** ﴾[4].

فالقرآن جاء بالعام والخاص ، وهذا كقوله : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ ونحو ذلك . وسبب ذلك أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل ، وله قابل ، فالمعلم المذكر يعلم غيره ، ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر ، وقد لا يتعلم ولا يتذكر ، فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير ، وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل ، دون المحل القابل ، فيقال في مثل هذا : علمته فما تعلم ، وذكرته فما تذكر ، وأمرته فما أطاع .

وقد يقال « ما علمته وما ذكرته » لأنه لم يحصل تاماً ، ولم يحصل مقصوده ، فينفي لانتفاء كماله وتمامه ، وانتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب .

فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به ، وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا .

---

(١) سورة ق آية رقم ٤٥ .
(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .
(٣) سورة يس آية رقم ١١ .
(٤) سورة التكوير آية رقم ٢٧ ـ ٢٨ .

وهذا هو الهدى المذكور في قوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾[1] فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك ، وهو كالإنذار العام والتذكير العام . وهنا قد هدى المتقين وغيرهم ، كما قال : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[2].

وأما قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الاهتداء ، كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[4] وقوله : ﴿ فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾[5] وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾[6] وقوله : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾[7] وهذا كثير في القرآن .

وكذلك الإنذار ، قد قال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[9] . وقال في الخاص : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾[10] ، ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾[11] فهذا الإنذار الخاص، وهو التام النافع الذي انتفع به المنذر ،

---

(١) سورة فصلت آية رقم ١٧ .
(٢) سورة الرعد آية رقم ٧ .
(٣) سورة الفاتحة آية رقم ٦ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٢ .
(٥) سورة الأعراف آية رقم ٣٠ .
(٦) سورة النحل آية رقم ٣٧ .
(٧) سورة المائدة آية رقم ١٦ .
(٨) سورة مريم آية رقم ٩٧ .
(٩) سورة يونس آية رقم ٢ .
(١٠) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .
(١١) سورة يس آية رقم ١١ .

والإنذار هو الإعلام بالمخوف ، فعلم المخوف فخاف ، فآمن وأطاع .

وكذلك التذكير عام وخاص ، فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد ، وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ : إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** ﴾[1]وقال تعالى : ﴿ **وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ** ﴾[2]وقال تعالى : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** ﴾[3]ثم قال : ﴿ **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** ﴾[4]فذكر العام والخاص .

والتذكر هو الذكر التام الذي يذكره المذكر به وينتفع به .

وغير هؤلاء قال تعالى فيهم : ﴿ **مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ** ﴾[5]وقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ** ﴾[6]فقد أتاهم وقامت به الحجة ، ولكنهم لم يصغوا إليه بقلوبهم فلم يفهموه ، أو فهموه فلم يعملوا به ، كما قال : ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ** ﴾[7] .

والخاص هو التام النافع ، وهو الذي حصل معه تذكر لمذكر ، فإن هذا ذكرى كما قال : ﴿ **فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ، سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى** ﴾[8]أي يجنب الذكرى ، وهو إنما جنب الذكرى الخاصة .

---

(١) سورة ص آية رقم ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٤ وسورة ص آية رقم ٨٧ .

(٤) سورة التكوير آية رقم ٢٨ .

(٥) سورة الأنبياء آية رقم ٢ ـ ٣ .

(٦) سورة الشعراء آية رقم ٥ .

(٧) سورة الأنفال آية رقم ٢٣ .

(٨) سورة الأعلى آية رقم ٩ ـ ١١ .

وأما المشترك الذي تقوم به الحجة فقد ذكر هو وغيره بذلك وقامت الحجة عليهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[1]وقال : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[2]وقال عن اهل النار : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾[3]وقال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ﴾[4].

وأما تمثيلهم ذلك بقوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ ﴾[5]أي وتقيكم البرد ، فعنه جوابان : ـ

أحدهما : أنه ليس هناك حرف شرط علق به الحكم بخلاف هذا الموضع فإنه إذا علق الأمر بشرط وكان مأموراً به في حال وجود الشرط كما هو مأمور به في حال عدمه كان ذكر الشرط تطويلاً للكلام تقليلاً للفائدة وإضلالاً للسامع .

وجمهور الناس على أن مفهوم الشرط حجة ، ومن نازع فيه يقول : سكت عن غير المعلق ، لا يقول : إن اللفظ دل على المسكوت كما دل على المنطوق ، فهذا لا يقوله أحد .

الثاني : أن قوله ﴿ تقيكم الحر ﴾ على بابه ، وليس في الآية ذكر البرد ، وإنما يقول « إن المعطوف محذوف » هو الفراء وأمثاله ممن أنكر عليهم الأئمة حيث يفسرون القرآن بمجرد ظنهم وفهمهم لنوع من علم العربية

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٥ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٦٥ .

(٣) سورة الملك آية رقم ٨ ـ ٩ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٨١ .

عندهم ، وكثيراً لا يكون ما فسروا به مطابقاً . وليس في الكلام ما يدل على ذكر البرد ، ولكن الله ذكر في هذه السورة إنعامه على عباده ، وتسمى « سورة النعم » فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها ولا تقوم الحياة إلا بها ، وذكر في أثنائها تمام النعم .

وكان ما يقي البرد من أصول النعم ، فذكر في أول السورة في قوله : ﴿ **وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ** ﴾(١) . فالدفء ما يدفىء ويدفع البرد .

والبرد الشديد يوجب الموت بخلاف الحر ، فقد مات خلق من البرد بخلاف الحر ، فإن الموت منه غير معتاد ، ولهذا قال بعض العرب البرد بؤس ، والحر أذى .

فلما ذكر في أثنائها تمام النعم ذكر الظلال وما يقي الحر ، وذكر الأسلحة وما يقي القتل ، فقال : ﴿ **والله جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُون** ﴾(٢) .

فذكر أنه يتم نعمته كما بين ذلك في هذه الآيات فقال : « **كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾(٣) .

وفرق بين الظلال والأكنان ، فإن الظلال يكون بالشجر ونحوه مما يظل ولا يكن ، بخلاف ما في الجبال من الغيران فإنه يظل ويكن . فهذا في الأمكنة ، ثم قال في اللباس : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ** ﴾(٤)فهذا في اللباس ، واللباس والمساكن كلاهما تقي الناس ما

---

(١) سورة النحل آية رقم ٥ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٨١ .

يؤذيهم من حر وبرد وعدو ، وكلاهما تسترهم عن أعين الناظرين .

وفي البيوت خاصة يسكنون ، كما قال : ﴿ **وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ** ﴾[1] فلما ذكر البيوت المسكونة أمتن بكونه جعلها سكناً يسكنون فيها من تعب الحركات ، وذكر أنه جعل لهم بيوتاً أخرى يحملونها معهم ويستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم ، فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل والخفيفة التي تحمل .

فتبين أن ما مثلوا به حجة عليهم .

فقوله : ﴿ **إن نفعت الذكرى** ﴾ ـ كما قال مفسروا السلف والجمهور ـ على بابها ، قال الحسن البصري : تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ **إن نفعت الذكرى** ﴾ لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجوه .

أحدها : أنه لم يخص قوماً دون قوم لكن قال : ﴿ **فذكر** ﴾ وهذا مطلق بتذكير كل أحد ، وقوله : ﴿ **إن نفعت الذكرى** ﴾ لم يقل « إن نفعت كل أحد » بل أطلق النفع . فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع . والتذكر المطلق العام ينفع . فإن من الناس من يتذكر فينتفع به ، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك ، فيكون غيره لغيره ، فيحصل بتذكيره نفع أيضاً ، ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة ، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره ، فتحصل بالذكرى منفعة .

فكل تذكير ذكر به النبي ﷺ للمشركين حصل به نفع في الجملة ، وإن كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٨٠ .

فإن قيل : فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع ، فأي فائدة في التقييد ؟ .

قيل : بل منه ما لم ينفع أصلاً ، وهو ما لم يؤمر به ، وذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن ، كأبي لهب[1]، فإنه بعد أن أنزل الله قوله : ﴿ **سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ** ﴾[2]فإنه لا يخص بتذكير أحد بل يعرض عنه . وكذلك كل من لم يصغ إليه ولم يستمع لقوله فإنه يعرض عنه ، كما قال : ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ، فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ** ﴾[3]، ثم قال : ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[4]فهو إذا بلغ قوماً الرسالة فقامت الحجة عليهم ، ثم امتنعوا من سماع كلامه أعرض عنهم ، فإن الذكرى حينئذ لا تنفع أحداً .

وكذلك من أظهر أن الحجة قامت عليه وأنه لا يهتدى فإنه لا يكرر التبليغ عليه .

الوجه الثاني : أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع ، كما هو أمر بالتذكير المشترك .

وهذا التام النافع يخص به المؤمنين المنتفعين ، فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل ، وكلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به ويذكرهم بمعانيه ، ويذكرهم [بما] نزل قبل ذلك .

---

(١) هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من قريش عم النبي ﷺ وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية ومن أشد الناس عداوة للمسلمين في الإسلام ، كان غنياً عتياً ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه ، فآذى انصاره وحرض عليهم وقاتلهم وفيه نزل قول الله تعالى ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ مات بعد وقعة بدر عام ٢ هـ .
راجع ابن الأثير ٢ : ٢٥ وتاريخ الاسلام للذهبي ١ : ٨٤ و ١٦٩ والروض الآنف ١ : ٢٦٥ ثم ٧٨ و ٧٩ .

(٢) سورة المسد آية رقم ٣ .

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٥٤ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

بخلاف الذين قال فيهم : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾(١)فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت عليهم وهم معرضون عن التذكرة لا يسمعون . ولهذا قال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ، وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ، وَهُوَ يَخْشَىٰ ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾(٢)فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر .

وقال : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ - إلى قوله - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾(٣)فذكر التذكر والتزكي ، كما ذكرهما هناك ، وأمره أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض عنه ، فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك . فيكون مأموراً أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيراً يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة ، كما قال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ . فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ، وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤) .

وقال : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ

---

(١) سورة المدثر الآيات من ٤٩ - ٥١ .

(٢) سورة عبس الآيات من ١ - ١٠ .

قال أبو يعلى وابن جرير : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي حدثني أبي قال : هذا ما عرضنا على هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة قالت أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ من ابن أم مكتوم الأعمى أتى الى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني قالت وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين قالت فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول « أترى بما أقول بأساً » ؟ فيقول : لا ، ففي هذا أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ وقد روى الترمذي هذا الحديث عن سعيد بن يحيى الأموي باسناده مثله ثم قال : وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة عن أبيه قال : أنزلت عبس وتولى في ابن ام مكتوم ولم يذكر فيه عائشة.

(٣) سورة الأعلى آية رقم ١٠ - ١٤ .

(٤) سورة الذرايات آية رقم ٥٤ - ٥٥ .

سَبِيلاً ﴾[1] وفي الصحيحين عن ابن عباس : قال : « كان رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسبوا القرآن ومن أنزل عليه ومن جاء به ، فقال الله له : ﴿ **ولا تجهر به فيسمعه المشركون ، ولا تخافت به عن أصحابك** ﴾[2] فنهى عن أن يسمعهم إسماعاً يكون ضرره أعظم من نفعه .

وهكذا كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته ، والمصلحة هي المنفعة ، والمفسدة هي المضرة ، فهو إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت المصلحة راجحة ، وهو أن تحصل به منفعة راجحة على المضرة ، وهذا يدل على الوجه الأول والثاني ، فحيث كان الضرر راجحاً فهو منهي عما يجلب ضرراً راجحاً .

والنفع أعم في قبول جميعهم ، فقبول بعضهم نفع ، وقيام الحجة على من لم يقبل نفع ، وظهور كلامه حتى يبلغ البعيد نفع ، وبقاؤه عند من سمعه حتى بلغه إلى من لم يسمعه نفع ، فهو ﷺ ما ذكر قط إلا ذكرى نافعة ، لم يذكر ذكرى قط يكون ضررها راجحاً .

وهذا مذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف أن ما أمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة ومنفعته راجحة ، وأما ما كانت مضرته راجحة فإن الله لا يأمر به .

وأما جهم ومن وافقه من الجبرية فيقولون : إن الله قد يأمر بما ليس فيه منفعة ولا مصلحة البتة ، بل يكون ضرراً محضاً إذا فعله المأمور به ، وقد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة ممن سلك مسلك

(١) سورة الإسراء آية رقم ١١٠ .

(٢) قال الامام احمد : حدثنا هشيم ، حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة » . وأخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس به ، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس وزاد فلما هاجر الى المدينة سقط ذلك يفعل أيّ ذلك شاء .

المتكلمين - أبي الحسن [الأشعري وغيره - في] مسائل القدر ، فنصر مذهب جهم والجبرية .

الوجه الثالث : أن قوله : ﴿ الذكرى ﴾ يتناول التذكر والتذكير ، فإنه قال : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾[1] فلا بدّ أن يتناول ذلك تذكيره .

ثم قال : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ، وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾[2]. والذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى ، وهو التذكر ، فضمير الذكرى هنا يتناول التذكر ، وإلا فمجرد التذكير الذي قامت به الحجة لم يتجنبه أحد .

لكن قد يراد بتجنبها أنه لم يستمع إليها ولم يصغ ، كما قال : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾[3] والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ ، وتمكنهم من الاستماع والتدبر ، لا بنفس الاستماع ، ففي الكفار من تجنب سماع القرآن واختار غيره ، كما يتجنب كثير من المسلمين سماع أقوال أهل الكتاب وغيرهم ، وإنما ينتفعون إذا ذكروا فتذكروا ، كما قال : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ﴾[4] .

فلما قال : ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ فقد يراد بالذكرى نفس تذكيره - تذكر أو لم يتذكر - ، وتذكيره نافع لا محالة كما تقدم وهذا يناسب الوجه الأول .

وقد ذكر بعضهم أن هذا يراد به توبيخ من لم يتذكر من قريش ، قال ابن عطية : اختلف الناس في معنى قوله : ﴿ فذكر ان نفعت الذكرى ﴾ فقال الفراء والنحاس والزهراوي : معناه « وإن لم تنفع » فاقتصر على الاسم الواحد لدلالته على الثاني .

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ٩ .
(٢) سورة الأعلى آية رقم ١٠ - ١١ .
(٣) سورة فصلت آية رقم ٢٦ .
(٤) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .

قال : وقال بعض الحذاق : قوله ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ اعتراض بين الكلامين على وجه التوبيخ لقريش . أي . إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة ، وهذا كنحو قول الشاعر : ـ

لقد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادي

وهذا كله كما تقول لرجل : « قل لفلان واعذله إن سمعك »، إنما هو توبيخ للمشار إليه .

«قلت » : هذا القائل هو الزمخشري وهذا القول فيه بعض الحق ، لكنه أضعف من ذاك القول من وجه آخر ، فإن مضمون هذا القول أنه مأمور بتذكير من لا يقبل ولا ينتفع بالذكرى دون من يقبل ، كما قال : « إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة » وكما أنشده في البيت .

ثم البيت الذي أنشده خبر عن شخص خاطب آخر فيقول : ـ لقد أسمعت لو كان من تناديه حياً ، وهذا كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]وقوله : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾[2] وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾[3]فهذا يناسب معنى البيت ، وهو خبر خاص .

وأما الأمر بالانذار فهو مطلق عام ، وإن كان مخصوصاً فالمؤمنون أحق بالتخصيص ، كما قال : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[4]وقال : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[5]ليس الأمر مختصاً بمن لا يسمع .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٦ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٨٠ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة ق آية رقم ٤٥ .

(٥) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

كيف وقد قال بعد ذلك : ﴿ **سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى** ﴾ فهذا الذي يخشى هو ممن أمره بتذكيره ، وهو ينتفع بالذكرى . فكيف لا يكون لهذا الشرط فائدة إذا ذم من لم يسمع ؟ .

وأما قول القائل « قل لفلان واعذله إن سمعك » فهذا وأمثاله يقوله الناس لمن يظنون أنه لا يقبل ولكن يرجون قبوله ، فهم يقصدون توبيخه على تقدير الرد ، لا على تقدير القبول ، فيقولون : « قل له إن كان يسمع منك » و « قل له إن كان يقبل » و « انصحه إن كان يقبل النصيحة » . وهو كله من هذا الباب ، فهو أمر بالنصيحة التامة المقبولة إن كان يقبلها ، وأمر بأصل النصح وإن رده وذم له على هذا التقدير .

وكذلك قوله : ﴿ **فذكر إن نفعت الذكرى** ﴾ أمر بتذكير كل أحد ، فإن انتفع كان تذكره تاماً نافعاً ، وإلا حصل أصل التذكير الذي قامت به الحجة ، ودل ذلك على ذمه واستحقاقه التوبيخ .

مع أنه سبحانه إنما قال : ﴿ **إن نفعت الذكرى** ﴾ ولم يقل : ذكر من تنفعه الذكرى فقط . كما في قوله : ﴿ **فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعيد** ﴾[1] فهناك الأمر بالتذكير خاص .

وقد جاء عاماً وخاصاً كخطاب القرآن بـ ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ وهو عام وبـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ خاص لمن آمن بالقرآن .

فهناك قال : ﴿ **فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ** ﴾[2] وهنا قال : ﴿ **سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ، ويتجنبها الأشْقى** ﴾[3] ولم يقل « سينتفع من يخشى » فإن النفع الحاصل بالتذكير أعم من تذكر من يَخشى .

فإنه إذا ذكر قامت الحجة على الجميع ، والأشقى الذي تجنبها حصل

---

(١) سورة ق آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ١٠ ـ ١١ .

بتذكيره قيام الحجة عليه واستحقاقه لعذاب الدنيا والآخرة ، وفي ذلك لله حكم ومنافع هي نعم على عباده ، فكل ما يقضيه الله تعالى هو من نعمته على عباده ولهذا يقول عقب تعديد ما يذكره : ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾(١) .

ولما ذكر ما ذكره في سورة النجم وذكر إهلاك مكذبي الرسل قال : ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ** ﴾(٢) فإهلاكهم من آلاء ربنا . والآلاؤه نعمه التي تدل على رحمته ، وعلى حكمته ، وعلى مشيئته ، وقدرته وربوبيته سبحانه وتعالى .

ومن نفع تذكير الذي يتجنبها أنه لما قامت عليه الحجة واستحق العذاب خف بذلك شر عن المؤمنين ، فإن الله يهلكهم بعذاب من عنده أو بأيديهم ، وبهلاكه ينتصر الإيمان وينتشر ، ويعتبر به غيره ، وذلك نفع عظيم .

وهو أيضاً يتعجل موته فيكون أقل لكفره ، فإن الله أرسل محمداً رحمة للعالمين ، فبه تصل الرحمة إلى كل أحد بحسب الإمكان . وأيضاً ، فإن الذي يتجنبها بتجنبه استحق هذا الوعيد المذكور ، فصار ذلك تحذيراً لغيره من أن يفعل مثل فعله ، قال تعالى : ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا** ﴾(٣)وقال تعالى عن فرعون : ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ** ﴾(٤)وقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾(٥) .

---

(١) سورة الرحمن الآيات ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ .

(٢) سورة النجم آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٦٦ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٥٦ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

فصـــل

وقـولـه : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ﴾[1] يقتضي أن كل من يخشى يتذكـر ، والخشيـة قد تحصـل عقب الذكـر ، وقـد تحصـل قبـل الـذكـر وقـولـه ﴿ من يخشى ﴾ مطلق . ومن الناس من يظن أن ذلك يقتضي أنـه لا بد أن يكـون قد خشي أولاً حتى يذكر ، وليس كذلك ، بـل هذا كقـوله : ﴿ هـدى للمتقين ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾[2] وقوله : ﴿ فَذَكِّر بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَـافُ وَعِيدِ ﴾[3] وقوله : ﴿ إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ ﴾[4] .

وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه ، لم يكن وعيد قبـل سماع القـرآن وكذلك قوله : ﴿ إِنَّمَـا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَـعَ الذِّكْـرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِـالغَيْبِ ﴾[5] وهو إنما اتبع الذكر وخشي الرحمن بعد أن أنذره الرسول .

وقد لا يكونون خافوها قبل الإنذار ولا كانوا متقين قبـل سماع القـرآن ، بل به صاروا متقين .

---

(1) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .
(2) سورة النازعات آية رقم ٤٥ .
(3) سورة ق آية رقم ٤٥ .
(4) سورة يس آية رقم ١١ .
(5) سورة يس آية رقم ١١ .

وهذا كما يقول القائل : ما يسمع هذا إلا سعيد ، وإلا مفلح ، وإلا من رضي الله عنه ، وما يدخل في الإسلام إلا من هداه الله ، ونحو ذلك ، وإن كانت هذه الحسنات والنعم تحصل بعد الإسلام وسماع القرآن .

ومثل هذا قوله : ﴿ **هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يوقِنُونَ** ﴾ (١) وقد قال في نظيره ﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى** ﴾(٢)وإنما يشقى بتجنبها وهذا كما يقال : إنما يحذر من يقبل ، وإنما ينتفع بالعلم من عمل به . فمن استمع القرآن فآمن به وعمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم ، ومن لم يؤمن به ولم يعمل به لم يكن من المتقين، ولم يكن ممن اهتدى به . بل هو كما قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً** ﴾(٣)ولم يرد أنهم كانوا مؤمنين ، فلما سمعوه صار هدى وشفاء ، بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار في حقه هدى وشفاء ، وكان من المؤمنين به بعد سماعه .

وهذا كقوله في النوع المذموم : ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ** ﴾(٤)ولا يجب أن يكونوا فاسقين قبل ضلالهم ، بل من سمعه فكذب به صار فاسقاً وضل .

وسعد بن وقاص وغيره أدخلوا في هذه الآية أهل الأهواء كالخوارج . وكان سعد يقول : هم من ﴿ **الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ ولم يكن علي وسعد ،وغيرهما من الصحابة يكفرونهم .

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢٠ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ١١ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٤٤ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٦ ـ ٢٧ .

وسعد أدخلهم في هذه الآية لقوله : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ وهم ضلوا بـه بسبب تحريفهم الكلم عن مـواضعه وتـأويله على غيـر مـا أراد الله ، فتمسكوا بمتشابهه ، وأعرضوا عن محكمه وعن السنة الثابتة التي تبين مراد الله بكتابه ، فخالفوا السنة وإجماع الصحـابة مـع ما خـالفوه من محكم كتـاب الله تعالى .

ولهذا أدخلهم كثير من السلف في الذين ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَـهَ مِنْهُ ابْتِغَـاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾[١]﴿ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعـاً ﴾[٢]وبسط هذا لـه موضع آخر .

والمقصود الآية ، وقد دلت على أن كل من يخشى فـلا بد أن يتـذكر ، فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية ، وقد يخشى فتدعوه الخشية إلى التذكر .

وهـذا المعنى ذكـره قتـادة . فقـال : والله ! مـا خشي الله عبـد قط إلا ذكره .

﴿ ويتجنبها الأشقى ﴾ قال قتادة : فلا والله ! لا يتنكب عبـد هذا الـذكر زهداً فيه وبغضاً له ولأهله إلا شقياً بين الشقاء .

والخشيـة في القرآن مـطلقة تتنـاول خشية الله وخشيـة عذابـه في الدنيـا والآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ يَسْـأَلُونَـكَ عَنِ السَّاعَـةِ أَيَّانَ مُـرْسَاهَـا ، فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ، إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَـا ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْـذِرُ مَنْ يَخْشَاهَـا ﴾[٣]وقال تعـالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[٤].

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .
(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥٩ .
(٣) سورة النازعات الآيات رقم ٤٢ ـ ٤٥ .
(٤) سورة ق آية رقم ٤٥ .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ وَالمِيـزَانَ ، وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّاعَـةَ قَـرِيبٌ ، يَسْتَعْجِـلُ بِهَا الَّـذِينَ لاَ يُؤْمِنُـونَ بِهَـا ، وَالَّـذِينَ آمَنُـوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحَقُّ ﴾[1].

وقـال : ﴿ قَالُـوا إِنَّا كُنَّـا قَبْلُ فِي أَهْلِنَـا مُشْفِقِين ، فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَـانَا عَذَابَ السُّمُومِ ﴾[2].

---

(١) سورة الشورى آية رقم ١٧ ـ ١٨ .

(٢) سورة الطور آية رقم ٢٦ ـ ٢٧ .

فصل

ـ الكلام على قوله : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾[1]وفي هذه الآية قال : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ﴾[2].

وقال في قصة فرعون : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[3]فعطف الخشية على التذكر .

وقال : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾[4].

وفي قصة الرجل الصالح المؤمن الأعمى قال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾[5].

وقال في ﴿ حمٓ ﴾ المؤمن : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا . فَالحُكْمُ لِلَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ . هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ

(1) سورة ق آية رقم ٣٣ .
(2) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .
(3) سورة طه آية رقم ٤٤ .
(4) سورة الفرقان آية رقم ٦٢ .
(5) سورة عبس الآيات رقم ٣ ـ ٤ .

وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً . وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾[1] فقال : **﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾** .

والإنابة جعلها مع الخشية في قوله : **﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ ﴾**[2] .

وذلك لأن الذي يخشى الله لا بد أن يرجوه ويطمع في رحمته ، فينيب إليه ويحبه ، ويحب عبادته وطاعته ، فإن ذلك هو الذي ينجيه مما يخشاه ، ويحصل به ما يحبه .

والخشية لا تكون ممن قطع بأنه معذب ، فإن هذا قطع بالعذاب ـ يكون معه القنوط ، واليأس ، والإبلاس ، ليس هذا خشية وخوفاً ، وإنما يكون الخشية والخوف مع رجاء السلامة ولهذا قال : **﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾**[3] .

فصاحب الخشية لله ينيب إلى الله ، كما قال : **﴿ وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ ﴾**[4] وهذا يكون مع تمام الخشية والخوف .

فأما في مباديها فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب والذنب الذي يقتضيه ، فيشتغل بطلب النجاة والسلام ، ويعرض عن طلب الرحمة والجنة .

---

(١) سورة غافر الآيات رقم ١٢ ـ ١٣ .
(٢) سورة ق آية رقم ٣٢ ـ ٣٤ .
(٣) سورة الشورى آية رقم ٢٢ .
(٤) سورة ق الآيات من ٣١ ـ ٣٤ .

وقد يفعل مع سيئاته حسنات توازيها وتقابلها ، فينجو بذلك من النار ولا يستحق الجنة ، بل يكـون من أصحاب الأعـراف ، وإن كان مـآلهم إلى الجنة فليسـوا ممن أزلفت لهم الجنة ـ أي قـربت لهم ـ إذ كانـوا لـم يأتـوا بخشية الله والإنابة إليه واستجمل بعد ذلك .

فصـــل

في الخشية والتذكر

وأما قوله في قصة فرعون : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[1] وقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾[2] فلا يناقض هـذه الآية ، لأنـه لم يقل في هذه الآيـة ﴿ سيخشى من يذكـر ﴾ بل ذكـر أن كل من خشي فـإنه يتـذكر - إمـا أن يتذكـر فيخشى ، وإن كان غيـره يتذكـر فلا يخشى ، وإمـا أن تدعوه الخشية إلى التذكر ، فالخشية مستلزمة للتذكر ، فكل خاش متذكر .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ[3] ﴾ فلا يخشاه إلا عالم ، فكل خاش لله فهو عالم ، هذا منطوق الآية .

وقال السلف وأكثر العلماء إنها تدل على أن كل عالم فإنـه يخشى الله ، كما دل غيرها على أن كل من عصى الله فهو جاهل .

كما قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد عن قوله : ﴿ إِنَّمَـا التَّوْبَـةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّـوءَ بِجَهَالَـةٍ ﴾[4] فقالـوا لي : « كـل من عصى الله فهو جاهل » وكذلـك قال مجـاهد ، والحسن البصـري ، وغيرهم من العلمـاء

---

(١) سورة طه آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة عبس آية رقم ٣ - ٤ .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٧ .

التابعين ومن بعدهم .

وذلك أن الحصر في معنى الاستثناء ، والاستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء ، فنفى الخشية عمن ليس من العلماء ، وهم العلماء به الذين يؤمنون بما جاءت به الرسل ، يخافونه .

قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(1)] وأثبتها للعلماء .

فكل عالم يخشاه ، فمن لم يخش الله فليس من العلماء ، بل من الجهال ، كما قال عبد الله بن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً » وقال رجل للشعبي : « أيها العالم » فقال : « إنما العالم من يخشى الله ! » .

فكذلك قوله : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ﴾[(2)] يقتضي أن كل من يخشاه فلا بد أن يكون ممن تذكر .

وقد ذكر أن الأشقى يتجنب الذكرى، فصار الذي يخشى ضد الأشقى ، فلذلك يقال « من تذكر خشي » .

والتحقيق أن التذكر سبب الخشية ، فإن كان تاماً أوجب الخشية كما أن العلم سبب الخشية ، وعلى هذا فقوله في قصة فرعون ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [(3)] جعل ذلك نوعية لما في ذلك من الفوائد .

---

(1) سورة الزمر آية رقم ٩ .
(2) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .
(3) سورة طه آية رقم ٤٤ .

أحدها : أنه إذا تذكر أنه مخلوق وأن الله خالقه ، وليس هو إلهاً ورباً كما ذكر ، وذكر إحسان الله إليه ، فهذا التذكر يدعوه إلى اعترافه بربوبية الله وتوحيده وإنعامه عليه ، فيقتضي الإيمان والشكر وإن قدر أن الله لا يعذبه .

فإن مجرد كون الشيء حقاً ونافعاً يقتضي طلبه وإن لم يخف ضرراً بعدمه ، كما يسارع المؤمنون إلى فعل التطوعات والنوافل لما فيها من النفع وإن كان لا عقوبة على تركها ، كما يحب الإنسان علوماً نافعة وإن لم يتضرر بتركها ، وكما قد يحب محاسن الأخلاق ومعالي الأمور لما فيها من المنفعة واللذة في الدنيا والآخرة ، وإن لم يخف ضرراً بتركها . فهو إذا تذكر آلاء الله وتذكر إحسانه إليه ، فهذا قد يوجب اعترافه بحق الله وتوحيده وإحسانه إليه ويقتضي شكره لله وتسليم قوم موسى إليه ، وإن لم يخف عذاباً ، فهذا قد حصل بمجرد التذكر .

قال : ﴿ أو يخشى ﴾ ونفس الخشية إذا ذكر له موسى ما توعده الله به من عذاب الدنيا والآخرة فإن هذا الخوف قد يحمله على الطاعة والانقياد ولو لم يتذكر .

وقد يحصل تذكر بلا خشية ، وقد يحصل خشية بلا تذكر ، وقد يحصلان جميعاً ، وهو الأغلب . قال تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[1]وأيضاً فذكر الإنسان يحصل بما عرفه من العلوم قبل هذا فيحصل بمجرد عقله ، وخشيته تكون بما سمعه من الوعيد ، فبالأول يكون ممن له قلب يعقل به ، والثاني يكون ممن له أذن يسمع بها .

وقد تحصل الذكرى الموجبة للخير بهذا وبهذا ، كما قال تعالى :
﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ

(١) سورة طه آية رقم ٤٤ .

مَحِيصٍ ، إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1].

الفائدة الثانية : أن التذكر سبب الخشية، والخشية حاصلة عن التذكر، فذكر التذكر الذي هو السبب ، وذكر الخشية التي هي النتيجة ـ وإن كان أحدهما مستلزماً للآخر ـ كما قال ـ : ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2]وكما قال أهل النار ـ : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ ﴾[3]وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[4]فكل من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر .

فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعاً يعقل به ما قالوه ينجو ، وإلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه ، كما قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ ، حَتَّىٰ إذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ : آنِفاً ، أُولَئِكَ الَّذِين طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾[5]وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾[6]وقال : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ ﴾[7].

وكذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع ، وقد اعترف أهل النار بمجيء الرسل فقالوا : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ

---

(1) سورة ق آية رقم ٣٦ .
(2) سورة ق آية رقم ٣٧ .
(3) سورة الملك آية رقم ١٠ .
(4) سورة الحج آية رقم ٤٦ .
(5) سورة محمد آية رقم ١٦ .
(6) سورة يونس آية رقم ٤٢ .
(7) سورة يوسف آية رقم ٢ .

شَيْءٍ ﴾[1] وكذلك المعتبرين بآثار المعذبين الذين قال فيهم : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[2] إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل والناجين الذين صدقوهم ، فسمعوا قول الرسل وصدقوهم .

الفائدة الثالثة : أن الخشية أيضاً سبب للتذكر كما تقدم ، فكل منهما قد يكون سبباً للآخر ، فقد يخاف الإنسان فيتذكر ، وقد يتذكر الأمور المخوفة فيطلب النجاة منها ، ويتذكر ما يرجو به النجاة منها فيفعله .

فإن قيل : مجرد ظن المخوف قد يوجب الخوف ، فكيف قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[3]؟

قيل : النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن ، وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة ، وأما من كان يظن أن العذاب يقع ولا يوقن بذلك فلا يترك هواه ، ولهذا قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾[4].

وقال تعالى في ذم الكفار : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[5] ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون . ولهذا أقسم الرب على وقوع العذاب والساعة .

وأمر نبيه أن يقسم على وقوع الساعة وعلى أن القرآن حق فقال :

---

(١) سورة الملك آية رقم ٩ .
(٢) سورة الحج آية رقم ٤٦ .
(٣) سورة فاطر آية رقم ٢٨ .
(٤) سورة النازعات آية رقم ٤٠ .
(٥) سورة الجاثية آية رقم ٣٢ .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾[1] وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[2]وقال : ﴿ وَيَسْتَنْبِؤُنَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾[3].

---

(١) سورة التغابن آية رقم ٧ .

(٢) سورة سبأ آية رقم ٣ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٥٣ .

فصــل

في الإنابة والتذكر

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾[1] فهو حق كما قال . فإن المتذكر إما أن يتذكر ما يدعو إلى الرحمة والنعمة والثواب كما يتذكر الإنسان ما يدعوه إلى السؤال - فينيب ، وإما أن يتذكر ما يقتضي الخوف والخشية فلا بد له من الإنابة حينئذ لينجو مما يخاف ، ولهذا قيل في فرعون ﴿ لعله يتذكر ﴾ فينيب ، ﴿ أو يخشى ﴾ وكذلك قال له موسى ﴿ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ، وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[2] فجمع موسى : بين الأمرين لتلازمهما .

وقال في حق الأعمى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾[3] فذكر الانتفاع بالذكرى ، كما قال : ﴿ وَذَكِّرْ ، فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] والنفع نوعان : حصول النعمة ، واندفاع النقمة ، ونفس اندفاع النقمة نفع وإن لم يحصل معه نفع آخر ، ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع ، وكلاهما نفع ، فالنفع تدخل فيه الثلاثة ، والثلاثة تحصل بالذكرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَذكر ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾، وقال :

---

(١) سورة غافر آية رقم ١٣ .

(٢) سورة النازعات آية رقم ١٨ - ١٩ .

(٣) سورة عبس آية رقم ٣ - ٤ .

(٤) سورة الذاريات آية رقم ٥٥ .

﴿ وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ .

وأما ذكر التزكي مع التذكر فهو كما ذكر في قصة فرعون الخشية مع التذكر .

وذلك أن التزكي هو الإيمان والعمل الصالح الذي تصير به نفس الإنسان زكية ، كما قال في هذه السورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تزكَّىٰ ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾[1] : وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[2]. وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[3]وقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾[4]وقال موسى لفرعون : ﴿ هَل لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ، وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشىٰ ﴾[5]. وعطف عليه ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾[6]لوجوه :

أحدها : أن التزكي يحصل بامتثال أمر الرسول وإن كان صاحبه لا يتذكر علوماً عنه ، كما قال : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[7]ثم قال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾[8]فالتلاوة عليهم والتزكية عام لجميع المؤمنين ، وتعليم الكتاب والحكمة خاص ببعضهم ، وكذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول ، وأما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها ! فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه .

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ١٤ ـ ١٥ .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٩ ـ ١٠ .

(٣) سورة الجمعة آية رقم ٢ .

(٤) سورة فصلت آية رقم ٦ ـ ٧ .

(٥) سورة النازعات آية رقم ١٨ ـ ١٩ .

(٦) سورة عبس آية رقم ٤ .

(٧) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

(٨) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

الوجه الثاني : أن قوله : ﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ يدخل فيه النفع قليله وكثيره ، والتزكي أخص من ذلك .

الثالث : أن التذكر سبب التزكي ، فإنه إذا تذكر خاف ورجا فتزكى ، فذكر الحكم وذكر سببه ، ذكر العمل وذكر العلم ، وكل منهما مستلزم للآخر .

فإنه لا يتزكى حتى يتذكر ما يسمعه من الرسول ، كما قال : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ﴾[1]فلا بد لكل مؤمن من خشية وتذكر .

وهو إذا تذكر فإنه ينتفع ، وقد تتم المنفعة فيتزكى .

وقوله : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾[2]فيه أيضاً نحو هذه الوجوه :

فإن الشاكر قد يشكر الله على نعمه وإن لم يخف ، والتذكر قد يقتضي الخشية .

وأيضاً فإن التذكر يقتضي الخوف من العقاب وطلب الثواب فيعمل للمستقبل ، والشكر على النعم الماضية .

وأيضاً فالتذكر تذكر علوم سابقة ، ومنها تذكر نعم الله عليه ، فهو سبب للشكر ، تذكر السبب والمسبب .

وأيضاً فإن الشكر يقتضي المزيد من النعم، والتذكر قد يكون لهذا ، وقد يكون خوفاً من العذاب .

وقد يكون الأمر بالعكس ، فالشاكر قد يشكر الشكر الواجب لئلا يكون كفوراً فيعاقب على ترك الشكر بسلب النعمة وعقوبات أخرى ، والمتذكر قد

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ١٠ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦٢ .

يتذكر ما أعده الله لمن أطاعه فيطيعه طلباً لرحمته .

وأيضاً فالتذكر قد يكون لفعل الواجبات التي يدفع بها العقاب ، والشكور يكون للمزيد من فضله ، كما في الصحيحين أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه ، فقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ »[1] .

وقال ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت : إما محسن فيزداد إحساناً ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب »[2] فالمؤمن دائماً في نعمة من ربه تقتضي شكراً ، وفي ذنب يحتاج إلى استغفار . وهو في سيد الاستغفار يقول : « أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[3] .

وقد علم تحقيق قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾[4] فما أصابه من الحسنات هي نعم الله فتقتضي شكراً ، وما أصابه من المصائب فبذنوبه تقتضي تذكراً لذنوبه يوجب توبة واستغفاراً .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتابة إقامة الصلاة ٢٠٠ باب ما جاء في طول القيام في الصلوات ١٤٢٠ بسنده عن أبي هريرة . قال كان رسول الله ﷺ وذكره .
وفي الزوائد : اسناد حديث أبي هريرة قوي ، احتج مسلم بجميع رواته ورواه أصحاب الكتب الستة سوى ابي داود من حديث المغيرة والترمذي من حديث جابر .

(٢) هذا جزء من حديث رواه البخاري في كتاب المرض ١٩ باب تمني الموت ٥٦٧٣ بسنده عن عبد الرحمن بن عوف أنّ أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لن يُدخل أحداً عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا وذكره .
ورواه النسائي في الجنائز ١ والدارمي في الرقاق ٤٥ واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٣ ، ٣٠٩ (حلبي) .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

وقد جعل الله ﴿ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾[1] فيتوب ويستغفر من ذنوبه، ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ لربه على نعمه ، وكل ما يفعله الله بالعبد من نعمة ، وكل ما يخلفه الله ، فهو نعمة الله عليه ، فكلما نظر إلى ما فعله ربه شكر ، وإذا نظر إلى نفسه استغفر .

والتذكير قد يكون تذكر ذنوبه وعقاب ربه ، وقد يدخل فيه تذكر آلائه ونعمه ، فإن ذلك يدعو إلى الشكر قال تعالى : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَاللهِ عَلَيْكُمْ ﴾[2] في غير موضع ، فقد أمر بذكر نعمه ، فالمتذكر يتذكر نعم ربه ، ويتذكر ذنوبه .

وأيضاً فهو ذكر الشكور لأنه مقصود لنفسه ، فإن الشكر ثابت في الدنيا والآخرة ، وذكر التذكر لأنه أصل للاستغفار ، والشكر ، وغير ذلك ، فذكر المبدأ وذكر النهاية ، وهذا المعنى يجمع ما قيل ، والله سبحانه أعلم .

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٦٢ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٩ وتكملة الآية ﴿ إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ .

فصـــل

والتذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره ، كما قـال : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَـذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾[1]أي قامت الحجة عليكم بالنذير الذي جاءكم ، وبتعميركم عمراً يتسع للتذكر .

وقد أمر سبحانه بذكر نعمه في غير موضع ، كقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ ﴾[2] .

والمطلوب بذكرها شكرها ، كما قال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُم الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ يتناول كل من خوطب

---

(١) سورة فاطر آية رقم ٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٣١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٥٠ ـ ١٥٢ .

بالقرآن . وكذلك قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1]. فالرسول من أنفس من خوطب بهذا الكلام ، إذ هي كاف الخطاب .

ولما خوطب به أولاً قريش ، ثم العرب ، ثم سائر الأمم ، صار يخص ويعم بحسب ذلك .

وفيه ما يخص قريشاً كقوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾[2]وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[3].

وفيه ما يعم العرب ويخصهم كقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾[4]والأميون يتناول العرب قاطبة دون أهل الكتاب . ثم قال : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾[5]فهذا يتناول كل من دخل في الإسلام بعد دخول العرب فيه إلى يوم القيامة ، كما قال ذلك مقاتل ابن حيان[6]، وعبد الرحمن بن زيد وغيرهما .

فإن قوله ﴿ وآخرين منهم ﴾ أي في الدين دون النسب ، إذ لو كانوا منهم في النسب لكانوا من الأميين .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٢٨ .

(٢) سورة قريش آية رقم ١ ، ٢ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٤٤ .

(٤) سورة الجمعة آية رقم ٢ .

(٥) سورة الجمعة آية رقم ٣ .

(٦) هو مقاتل بن حيان النبطي أبو بسطام البلخي الخراز مولى بكر بن وائل . روى عن عمته عمرة ، وسعيد بن المسيب ، وأبي بردة بن أبي موسى وعكرمة وسالم بن عبد الله وغيرهم ، وعنه أخوه مصعب بن حيان وعلقمة بن مرثد وعبد الله بن المبارك وغيرهم . قال اسحاق بن منصور عن يحيى بن معين ثقة ، وقال أبو داود ثقة ، وقال النسائي ليس به بأس مات قبل الخمسين ومائة تقريباً .

راجع تهذيب التهذيب ١٠ : ٢٧٩ .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾(1).

وقد ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت سئل النبي ﷺ عنهم فقال : « لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس »(2) فهذا يدل على دخول هؤلاء - لا يمنع دخول غيرهم من الأمم .

وإذا كانوا هم منهم فقد دخلوا في قوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾(3) فالمنة على جميع المؤمنين - عربهم وعجمهم ، سابقهم ولاحقهم ، والرسول منهم لأنه إنسي مؤمن ، وهو من العرب أخص لكونه عربياً جاء بلسانهم ، وهو من قريش أخص .

والخصوص يوجب قيام الحجة ، لا يوجب الفضل ، إلا بالإيمان والتقوى لقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(4).

ولهذا كان الأنصار أفضل من الطلقاء من قريش ، وهم ليسوا من ربيعة ولا مضر ، بل من قحطان .

وأكثر الناس على أنهم من ولد هود ، ليسوا من ولد إبراهيم . وقيل إنهم من ولد إسماعيل لحديث أسلم لما قال : « ارموا ، فإن أباكم كان رامياً »(5) وأسلم من خزاعة ، وخزاعة من ولد إبراهيم .

---

(1) سورة الأنفال آية رقم ٧٥ .

(2) سبق تخريج هذا الحديث .

(3) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

(4) سورة الحجرات آية رقم ١٣ .

(5) الحديث رواه البخاري ٧٨ باب التحريض على الرمي ٣٨٩٩ حدثنا عبد الله بن مسلمة ، حدثنا حاتم بن اسماعيل عن يزيد بن أبي عبيد قال سمعت سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون فقال النبي ﷺ ارموا بني اسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا =

وفي هذا كلام ليس هذا موضعه ، إذ المقصود أن الأنصار أبعد نسباً من كل ربيعة ومضر مع كثرة هذه القبائل . و[مع هذا هم أفضل] من جمهور قريش ، إلا من السابقين الأولين من المهاجرين ـ وفيهم قرشي وغير قرشي .

ومجموع السابقين ألف وأربعمائة غير مهاجري الحبشة .

فقوله : « لقد جاءكم » يخص قريشاً ، والعرب ، ثم يعم سائر البشر لأن القرآن خطاب لهم ، والرسول من أنفسهم ، والمعنى ليس بملك لا يطيقون الأخذ منه ، ولا جني .

ثم يعم الجن لأن الرسول أرسل إلى الإنس والجن ، والقرآن خطاب للثقلين ، والرسول منهم جميعاً ، كما قال : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾[1] فجعل الرسل التي أرسلها من النوعين مع أنهم من الإنس .

فإن الانس والجن مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين . فإنهم يأكلون ويشربون ، وينكحون وينسلون ، ويغتذون وينمون بالأكل والشرب . وهذه الأمور مشتركة بينهم ، وهم يتميزون بها عن الملائكة ، ! فإن الملائكة لا تأكل ولا تشرب ، ولا تنكح ولا تنسل .

فصار الرسول من أنفس الثقلين باعتبار القدر المشترك بينهم الذين تميزوا به عن الملائكة ، حتى كان الرسول مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة .

وكذلك قوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾[2] هو كقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ

= وأنا مع بني فلان . قال : فامسك أحد الفريقين بأيديهم فقال رسول الله ﷺ ما لكم لا ترمون . . ؟ قالوا : كيف نرمي وأنت معهم . . ؟ فقال النبي ﷺ « ارموا فأنا معكم كلكم » .
ورواه ابن ماجه في الجهاد ١٩ واحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٦٤ ، ٤ : ٥٠ (حلبي) .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ ﴾[1] وقوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

ثم قال : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾[3] والمقصود أنه أمر بذكر النعم وشكرها .

وقال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[4] في غير موضع . وقال للمؤمنين : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾[5] فذكر النعم من الذكر الذي أمروا به .

ومما أمروا به تذكرة قصص الأنبياء المتقدمين ، كما قال : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾[6]، ﴿ وَاذْكُرْ في الكِتابِ مُوسَىٰ ﴾[7] ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾[8] ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾[9] وقال : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ ﴾[10]، ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[11] ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ ﴾[12].

---

(١) سورةالبقرة آية رقم ٢٣١ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٥١ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ١٥٢ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٤٧ .
(٥) سورة الأعراف آية رقم ٨٦ .
(٦) سورة مريم آية رقم ٤١ .
(٧) سورة مريم آية رقم ٥١ .
(٨) سورة مريم آية رقم ٥٤ .
(٩) سورة مريم آية رقم ٥٦ .
(١٠) سورة ص آية رقم ١٧ .
(١١) سورة ص آية رقم ٤٥ .
(١٢) سورة ص آية رقم ٤٨ .

ومما أمروا بـه تذكـرة ما وعـدوا به من الثـواب والعقاب . قـال تعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾[1] .

ومما أمروا بتذكره آيات الله التي يستدلون بها على قدرته وعلى المعاد ، كقوله : ﴿ وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ، أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾[2]وقـد قـال لمـوسى : ﴿ وَذَكِّـرْهُمْ بِـأَيَّـامِ اللهِ ﴾[3]. وهي تتناول أيام نعمه ، وأيام نقمه ليشكروا ويعتبروا .

ولهـذا قال : ﴿ إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لآيَـاتٍ لِكُلِّ صَبَّـارٍ شَكُورٍ ﴾[4]فإن ذكر النعم يـدعو إلى الشكـر ، وذكر النقم يقتضي الصبـر على فعـل المـأمـور وإن كرهته النفس ، وعن المحظور وإن أحبته النفس ، لئلا يصيبه مـا أصاب غيـره من النقمة .

---

(١) سورة ص آية رقم ٤٦ .
(٢) سورة مريم آية رقم ٦٦ - ٦٧ .
(٣) سورة ابراهيم آية رقم ٥ .
(٤) سورة ابراهيم آية رقم ٥ .

فصــــل

أهل النار لا يموتون ولا يحيون

وقوله : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَىٰ ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[1]وقد ذكر في سورة الليل قوله : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ ، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[2]وهذا الصلى قد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال : بخطاياهم ـ فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة ! أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل »[3]فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية . وفي رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال : ذكر عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، ثنا أبي ، ثنا سليمان التيمي ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ،

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ١١ ـ ١٣ .

(٢) سورة الليل آية رقم ١٤ ـ ١٦ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان باب اثبات الشفاعة واخراج الموحدين من النار .
حدثني نصر بن علي الجهضمي حدثنا بشر يعني ابن المفضل عن ابي مسلمة عن ابي نضرة عن ابي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .
وأخرجه ابن ماجه في الزهد ٣٧ والدارمي في الرقاق ٩٦ واحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١١ ، ٢٥ ، ٧٩ (حلبي) .

أن رسول الله ﷺ خطب ، فأتى على هذه ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[1] فقال النبي ﷺ « أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون » وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم ، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم فيشفعون ، فيؤتى بهم إلى نهر يقال له الحياة ، أو الحيوان فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل »[2].

فقد بين النبي ﷺ « [أن] هذا المصلى لأهل النار الذين هم أهلها ، وأن الذين ليسوا عن أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحماً ، ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل .

وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ - بل متواتر - في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وغيرهما .

وفيها الرد على طائفتين . على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون : « إن أهل التوحيد يخلدون فيها » وهذه الآية حجة عليهم ، وعلى من حكى عنه من غلاة المرجئة « أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد » فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك .

وفيه رد على من يقول « يجوز ان لا يدخل الله من أهل التوحيد أحداً النار » كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة ، ومرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة - وهم الواقفة من أصحاب أبي الحسن وغيرهم ، كالقاضي[3] أبي

---

(١) سورة طه آية رقم ٧٤ - سورة الأعلى آية رقم ١٣ .

(٢) قال الامام أحمد بن حنبل : حدثنا اسماعيل أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

وقال ابن أبي حاتم ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال : حدثنا أبي حدثنا حبان سمعت سليمان التميمي عن أبي نضرة عن ابي سعيد ان رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وذكره .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع : وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ - ٤٠

بكر وغيره ، فإن النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد وخروجهم .

والقول بـ « أن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد » ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه ، لكن حكى عن مقاتل بن سليمان وقال : احتج من قال ذلك بهذه الآية .

وقد اجيبوا بجوابين : -

أحدهما : جواب طائفة ، منهم الزجاج[1]، قالوا : هذه نار مخصوصة . لكن قوله بعدها ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾[2]لا يبقى فيه كبير وعد ، فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها .

وجواب آخرين قالوا : لا يصلونها صلى خلود ، وهذا أقرب : وتحقيقه أن المصلى هنا هو الصلى المطلق ، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائماً .

فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلى ، ليس هو الصلى المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله كله ، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود ، والله أعلم .

= وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ .

(١) هو ابراهيم بن السري بن سهل ابو اسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد عام ٢٤١ هـ ومات في بغداد عام ٣٣١ هـ كان في فتوته يخرط الزجاج ومال الى النحو فعلمه المبرد وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدباً لابنه القاسم ، فدله المبرد على الزجاج ، فطلبه الوزير فأدب له ابنه الى ان ولي الوزارة مكان أبيه ، فجعله القاسم من كتابه فأصاب في أيامه ثروة كبيرة وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره . من كتبه (معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (خلق الإنسان) والأمالي في الأدب واللغة وغير ذلك كثير .

راجع معجم الأدباء ١ : ٤٧ وآداب اللغة ٢ : ١٨١ وتاريخ بغداد ٦ : ٨٩ وابن خلكان ١ : ١١ .

(٢) سورة الليل آية رقم ١٧ .

فصـــل
التزكية ذكرت في كتب الله السابقة

جمع الله سبحانه بين إبراهيم وموسى - ﷺ وعلى سائر المرسلين - في أمور، مثل قوله: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[1].

وفي حديث أبي ذر الطويل قلت: يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله ؟. قال: « مائة كتاب وأربعة كتب: ثلاثين صحيفة على شيت، وخمسين على إدريس، وعشر على إبراهيم، وعشر على موسى قبل التوراة، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان » وقال في الحديث: فهل عندنا شيء مما في صحف إبراهيم؟ فقال: « نعم » وقرأ قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[2].

فإن التزكي هو التطهر والتبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس، كما قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[3] ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإماطة، والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين - إزالة الشر،

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ١٨ - ١٩ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ١٤ - ١٩ .

(٣) سورة الشمس آية رقم ٩ .

وزيادة الخير ، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان . وذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله ، وعبادته وحده لا شريك له ، الذي هو أصل الإيمان ، وهو قوله : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾(1)فهذه الثلاث ـ قد يقال ـ تشبه الثلاث التي يجمع الله بينها في القرآن في مواضع ، مثل قوله في أول البقرة ﴿ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ ﴾(2)ومثل قوله : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾(3)﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾(4) .

وقد يقال : تشبه الثنتين المذكورتين في قوله ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾(5)ـ الآية ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾(6) .

لكن هنا التزكي في الآية أعم من الانفاق ، فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك .

فأول التزكي التزكي من الشرك ، كما قال : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾(7) وقال : ﴿ يَتْلوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾(8) . والتزكي من الكبائر ، الذي هو تمام التقوى ، كما قال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾(9) . وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ

---

(1) سورة الأعلى آية رقم ١٥ .
(2) سورة البقرة آية رقم ٢ ـ ٣ .
(3) سورة التوبة آية رقم ٥ .
(4) سورة التوبة آية رقم ١١ .
(5) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .
(6) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .
(7) سورة فصلت آية رقم ٦ ـ ٧ .
(8) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .
(9) سورة النجم آية رقم ٣٢ .

اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[1] فعلم أن التزكية هو الإخبار بالتقوى .

ومنه التزكي بالطهارة ، وبالصدقة والإحسان ، كما قال : **﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾**[2] .

و **﴿ ذكر اسم ربه ﴾** قد يعني به الإيمان بالله ، و « الصلاة »: العمل ، فقد يذكر اسم ربه من لا يصلي .

ومن الفقهاء من يقول : هو ذكر اسمه في أول الصلاة ، ولهذا ـ والله أعلم ـ قدم التزكي في هذه الآية .

وكان طائفة من السلف إذا أدوا صدقة الفطر قبل صلاة العيد يتأولون بهذه الآية ، وكان بعض السلف ـ أظنه يزيد بن أبي حبيب[3] يستحب أن يتصدق أمام كل صلاة لهذا المعنى .

ولما قدم الله الصلاة على النحر في قوله : **﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾**[4] وقدم التزكي على الصلاة في قوله : **﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾**[5] كانت السنة أن الصدقة قبل الصلاة في عيد الفطر ، وان الذبح بعد الصلاة في عيد النحر .

ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون الصوم من التزكي المذكور في الآية . فإن

---

(١) سورة النساء آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .

(٣) هو يزيد بن سويد الأزدي بالولاء المصري أبو رجاء مفتي أهل مصر في صدر الاسلام ، وأول من أظهر علوم الدين والفقه بها قال الليث : يزيد عالمنا وسيدنا ، كان نوبياً أسود ، أصله من دنقله وفي ولاته للأزد ونسبته اليهم أقوال وكان حجة حافظاً للحديث توفي عام ١٢٨ هـ .
راجع تذكرة ١ : ١٢١ وتهذيب ١١ : ٣١٨ وتاريخ الاسلام للذهبي ٥ : ١٨٤ .

(٤) سورة الكوثر آية رقم ٢ .

(٥) سورة الأعلى آية رقم ١٤ ـ ١٥ .

الله يقــول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّـذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١) فمقصود الصوم التقوى ، وهو من معنى التزكي .

وفي حـديث ابن عباس : « فـرض رسول الله ﷺ صـدقـة الفـطر طهـرة للصـائم من اللغو والـرفث وطعمة للمسـاكين »(٢) فـالصـدقـة من تمـام طهـرة الصوم ، وكلاهما متقدم على صلاة العيد . فجمعت هاتان الكلمتـان الترغيب فيما أمر الله به من الإيمان والعمل الصالـح وفي قولـه : ﴿ بَلْ تُؤْثِـرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٣) الإيمان باليوم الآخر .

وهـذه الأصول المـذكورة في قـوله : ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُوا وَالَّـذِينَ هَـادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٤) .

وقـال : ﴿ إِنَّ هَـذَا لَـفِي الـصُّـحُـفِ الأُولَـىٰ ، صُـحُـفِ إِبْـرَاهِيـمَ وَمُـوسَىٰ ﴾(٥) وقال أيضـاً : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّـذِي تَوَلَّىٰ ، وَأَعْـطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْـدَىٰ ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَـرَىٰ ، أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَـا فِي صُحُفِ مُـوسَىٰ ، وَإِبْـرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴾(٦) .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٨٣ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزكاة ٢١ باب صدقة الفطر ١٨٢٧ حدثنا عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان ، واحمد بن الأزهر قالا : ثنا مروان بن محمد ، ثنا أبو يزيد الخولاني عن سيار بن عبـد الرحمن الصـدفي عن عكرمـة عن ابن عباس قـال : وذكره ، وفيـه زيادة (فمن أداهـا قبـل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات) .

(٣) سورة الأعلى آية رقم ١٦ ـ ١٧ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٦٢ .

(٥) سورة الأعلى آية رقم ١٨ ـ ١٩ .

(٦) سورة النجم آية رقم ٣٣ ـ ٤١ .

وأيضاً ، فإن إبراهيم صاحب الملة وإمام الأمة قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] وقال : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾[2] وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾[3] وقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ﴾[4] وقال : ـ ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾[5] .

وموسى صاحب الكتاب والكلام والشريعة ، الذي لم ينزل من السماء كتاب أهدى منه ومن القرآن .

ولهذا قرن بينهما في مواضع ، كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً ـ إلى قوله ـ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾[6] وقوله : ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ ـ إلى قوله ـ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾[7] وقول الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[8] وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾[9] وقول النجاشي : ـ « إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٣ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٠ .
(٣) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .
(٤) سورة النحل آية رقم ١٢٠ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ١٢٤ .
(٦) سورة الأنعام آية رقم ٩١ ـ ٩٢ .
(٧) سورة القصص آية رقم ٤٨ ـ ٤٩ .
(٨) سورة الأحقاف آية رقم ٣٠ .
(٩) سورة الأحقاف آية رقم ١٠ .

وقيل في موسى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾[1] وفي إبراهيم ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[2] وأصل الخلة عبادة الله وحده ، والعبادة غاية الحب والذل وموسى صاحب الكتاب والكلام .

ولهذا كان الكفار بالرسل ينكرون حقيقة خلة إبراهيم وتكليم موسى : ولما نبغت البدع الشركية في هذه الأمة أنكر ذلك الجعد بن درهم[3] فقتله المسلمون لما ضحى به أمير العراق خالد بن عبد الله[4] وقال : « ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم - إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً » ثم نزل فذبحه .

ولما بعث الله نبيه ﷺ بعثه إلى أهل الأرض وهم في الأصل صنفان - أميون وكتابيون ، والأميون كانوا ينتسبون إلى إبراهيم ، فإنهم ذريته ، وخزان بيته ، وعلى بقايا من شعائره ، والكتابيون أصلهم كتاب موسى ، وكلا الطائفتين قد بدلت وغيرت . فأقام ملة إبراهيم بعد اعوجاجها ، وجاء بالكتاب المهيمن ، المصدق لما بين يديه ، المبين لما اختلف فيه وما حرف وكتم من الكتاب الأول .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٥ .

(٣) سبق الترجمة له وراجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ والتاج ٢ : ٣٢١ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥ واللباب ١ : ٢٣٠ والنجوم الزاهرة ١ : ٣٢٢ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٢٢ .

(٤) سبق الترجمة له وراجع الأغاني ١٩ : ٥٣ - ٦٤ وتهذيب ابن عساكر ٥ : ٦٧ - ٨٠ والوفيات ١ : ١٦٩ وابن خلدون ٣ : ١٠٥ وابن الأثير ٤ : ٢٠٥ ثم ٥ : ١٠١ .

فصـــل

أصل الدين بين ابراهيم وموسى عليهما السلام

وإبراهيم وموسى قـاما بـأصل الـدين ـ الذي هـو الإقرار بـالله ، وعبادتـه وحده لا شريك له ، ومخاصمة من كفر بالله .

فأما إبراهيم فقال الله فيه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْـرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَـاهُ اللهُ المُلْكَ ، إذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّـذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَـالَ أَنَـا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَـالَ : إِبْرَاهِيمُ فَـإِنَّ اللهَ يَـأْتِي بِـالشَّمْسِ مِنَ المَشْـرِقِ فَـأْتِ بِهَـا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

وذكر الله عنه أنه طلب منه إرادة إحيـاء الموتى ، فـأمره الله بـأخذ أربعـة من الطير .

فقرر امر الخلق والبعث ـ المبدأ والمعاد ـ الايمان بالله واليوم الآخر .

وهمـا اللذان يكفر بهمـا ـ أو بأحـدهما ـ كفـار الصابئـة والمشـركين من الفلاسفة ونحوهم الذين بعث الخليل إلى نوعهم .

فإن منهم من ينكر وجـود الصانـع ، ومنهم من ينكر صفـاته ، وفيهم من ينكر خلقه ويقول : إنه علة ، وأكثرهم ينكرون إحياء الموتى ، وهم مشـركون

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .

يعبدون الكواكب العلوية والأصنام السفلية .

والخليل صلوات الله عليه رد هذا جميعه ، فقرر ربوبية ربه كما في هذه الآية ، وقرر الإخلاص له ونفي الشرك كما في سورة الأنعام وغيرها . وقرر البعث بعد الموت .

واستقر في ملته محبته لله ومحبة الله له، باتخاذ الله له خليلاً. ثم إنه ناظر المشركين بعبادة من لا يوصف بصفات الكمال . فقال لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾[1] وقال : لأبيه وقومه : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ : قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ - إلى قوله - فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾[2] إلى آخر الكلام .

وقال : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[3] وقال : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4] .

فإبراهيم دعا إلى الفطرة ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو الإسلام العام ، والإقرار بصفات الكمال لله ، والرد على من سلبها .

فلما عابهم بعبادة من لا علم له ولا يسمع ولا يبصر قال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ ، إِنَّ رَبِّي

(١) سورة مريم آية رقم ٤٢ .
(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٠ - ٨١ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ٧٩ .
(٤) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ - ٢٨ .

لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[١] .

ولما عابهم بعبادة من لا يغني شيئاً فلا ينفع ولا يضر قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾[٢] .

فإن الإنسان يحتاج إلى جلب المنفعة لقلبه وجسمه ، ودفع المضرة عن ذلك ، وهو أمر الدين والدنيا .

فمنفعة الدين الهدى ، ومضرته الذنوب ، ودفع المضرة المغفرة ، ولهذا جمع بين التوحيد والإستغفار في مواضع متعددة .

ومنفعة الجسد الطعام والشراب ، ومضرته المرض ، ودفع المضرة الشفاء وأخبر أن ربه يحيي ويميت ، وأنه فطر السموات والأرض وإحياؤه فوق كماله بأنه حيٌّ . وأنه فطر السموات والأرض يقتضي إمساكها وقيامها الذي هو فوق كماله بأنه قائم بنفسه ، حيث قال عن النجوم : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾[٣] فإن الآفل هو الذي يغيب تارة ويظهر تارة ، فليس هو قائماً على عبده في كل وقت ، والذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب ونحوها ويتخذونها أوثاناً يكونون في وقت البزوغ طالبين سائلين ، وفي وقت الأفول لا يحصل مقصودهم ولا مرادهم، فلا يجتلبون منفعة ولا يدفعون مضرة ، ولا ينتفعون إذ ذاك بعبادة .

---

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٨ ـ ٨٢ .

أسند المرض الى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه الى نفسه أدباً كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الى آخر السورة فأسند الانعام والهداية الى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدباً وأسند الضلال الى العبيد كما قالت الجن ﴿ وانا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ .

(٣) سورة الأنعام الآيات ٧٦ .

فبين ما في الآلهة التي تعبد من دون الله من النقص ، وبين ما لربه فاطر السموات والأرض من الكمال بأنه الخالق ، الفاطر ، العليم ، السميع ، البصير ، الهادي ، الرازق ، المحيي ، المميت .

وسمى ربه بالأسماء الحسنى الدالة على نعوت كماله ، فقال : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾(1) وقال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(2) وقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾(3) فوصف ربه بالحكمة والرحمة المناسب لمعنى الخلة ، كما قال ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ .

وموسى عليه السلام خاصم فرعون الذي جحد الربوبية والرسالة وقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾(4) و ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾(5) وقصته في القرآن مثناة مبسوطة لا يحتاج هذا الموضع إلى بسطها .

وقرر أيضاً أمر الربوبية وصفات الكمال لله ونفي الشرك ولما اتخذ قومه العجل بين الله لهم صفات النقص التي تنافي الألوهية فقال : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾(6) وقال : ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ

---

(1) سورة البقرة آية رقم ١٢٩ قال الامام أحمد : أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية . قال : قال رسول الله ﷺ إني عند الله لخاتم النبيين وان آدم لمنبجل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي ابراهيم ، وبشارة عيسى عليه السلام بي ورؤيا امي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين . « وفي رواية أخرى (ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » .

(2) سورة ابراهيم آية رقم ٣٦ .

(3) سورة مريم آية رقم ٤٧ .

(4) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

(5) سورة القصص آية رقم ٣٨ .

(6) سورة الأعراف آية رقم ١٤٨ .

مُوسَىٰ فَنَسِيَ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ ﴾(١) .

فوصفه بأنه وإن كان قد صوت صوتاً هو خوار فإنه لا يكلمهم ولا يرجع إليهم قولاً ، وأنه لا يهديهم سبيلاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . وكذلك ذكر الله سبحانه على لسان محمد في الشرك عموماً وخصوصاً ، فقال : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴾(٢)واستفهم استفهام إنكار وجحود لطرق الإدراك التام وهو السمع والبصر ، والعمل التام وهو اليد والرجل ، كما أنه سبحانه لما أخبر فيما روى عنه رسوله عن أحبابه المتقربين إليه بالنوافل فقال : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها »(٣) .

---

(١) سورة طه آية رقم ٨٨ ـ ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف الآيات من ١٩١ ـ ١٩٥ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الرقاق ٣٨ باب التواضع ٦٥٠٢ ـ حدثني محمد بن عثمان ابن كرامة ، حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني شريك بن عبد الله بن ابي نمر عن عطاء عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب اليّ مما افترضته عليه . وذكره .

فصـــل

أهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبته الله لنفسه

وأهل السنة والجماعة المتبعون لإبراهيم وموسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - يثبتون ما أثبتوه من تكليم الله ، ومحبته ، ورحمته ، وسائر ماله من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى .

وينزهونه عن مشابهة الأجساد التي لا حياة فيها ، فإن الله قال : ﴿ **وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** ﴾[1] وقال : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ** ﴾[2] وقال : ﴿ **عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ** ﴾[3] فوصف الجسد بعدم الحياة ، فإن الموات لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يغني شيئاً .

وأما أهل البدع والضلالة من الجهمية ونحوهم ، فإنهم سلكوا سبيل أعداء إبراهيم وموسى ومحمد ، الذين أنكروا أن يكون الله كلم موسى تكليماً واتخذ إبراهيم خليلاً ، وقد كلم الله محمداً ، واتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ورفعه فوق ذلك درجات .

وتابعوا فرعون الذي قال : ﴿ **يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ**

---

(١) سورة ص آية رقم ٣٤ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٨ .

(٣) سورة طه آية رقم ٨٨ .

الأسبَابَ . أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾[1] وتابعوا المشركين الذين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَـٰنُ ، أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾[2] واتبعوا الذين ألحدوا في أسماء الله .

فهم يجحدون حقيقة كونه الرحمن ، أو أنه يرحم ، أو يكلم ، أو يود عباده أو يودونه ، أو أنه فوق السموات ، ويزعمون أنه من أثبت له هذه الصفات فقد شبهه بالأجسام الحسية ، وهي الحيوان كالإنسان وأن هذا تشبيه لله بخلقه .

فهم قد شبهوه بالأجساد الميتة فيما هو نقص وعيب ، وتشبيه دلت الكتب الإلهية والفطرة العقلية أنه عيب ونقص ـ بل يقتضي عدمه .

وأما أهل الإثبات فلو فرض أن فيما قالوه تشبيهاً ما فليس هو تشبيهاً بمنقوص معيب ، ولا هو في صفة نقص أو عيب ، بل في غاية ما يعلم أنه الكمال ، وأن لصاحبه الجلال والإكرام .

فصار أهل السنة يصفونه بالوجود وكمال الوجود ، وأولئك يصفونه بعدم كمال الوجود ، أو بعدم الوجود بالكلية ، فهم ممثلة معطلة ـ ممثلة في العقل والشرع ، معطلة في العقل والشرع .

أما في العقل فلأنهم مثلوه بالعدم والأجساد الموات .

وأما في الشرع فإنهم مثلوا ما جاءت به الرسل من صفاته بنفس صفات المخلوقات ، وإن كان هذا التمثيل الذي ادعوا أنه معنى النصوص أقل تمثيلاً

---

(١) سورة غافر آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦٠ .

قال ابن كثير : معنى هذا الكلام : أي لا نعرف الرحمن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ولهذا أنزل الله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

من تمثيلهم الذي ادعوه .

وأما تعطيلهم في العقل فإنه تعطيل للصفات ـ تعطيل مستلزم لعدم الذات ، ولهذا ألجىء كثير منهم الى نفي الذات بالكلية ، وصاروا على طريقة فرعون ـ لا يقرون إلا بوجود المخلوقات ، وإن كانوا قد ينافقون فيقرون بألفاظ لا معنى لها ، أو بعبادات لا معبود لها .

وأما تعطيلهم للشرع فإنهم جحدوا ما في كتب الله من المعاني وحرفوا الكلم عن مواضعه ، أو قالوا : نحن كالأميين لا نعلم الكتاب إلا أماني ، أو قالوا : قلوبنا غلف .

وقالوا لما جاء به الرسول من الكتاب والسنة نظير ما قالته الكفار ﴿ **قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** ﴾[(١)]و﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ** ﴾[(٢)] .

وهكذا قال هؤلاء : لا نفقه كثيراً مما يقول الرسول ، وقالوا كما قال الذين يستمعون للرسول ، فإذا خرجوا من عنده ﴿ **قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً** ﴾[(٣)] .

وصاروا كالذين قيل فيهم : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٥ .

(٢) سورة هود آية رقم ٩١ .

(٣) سورة محمد آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٤٥ ـ ٤٦ .

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم حدثنا سفيان عن =

فتدبر ما ذكره الله عن أعداء الرسل من نفي فقههم وتكذيبهم تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله وعن تدبر كتابه ، واتبع ما تتلوه الشياطين وما توحيه إلى أوليائها ، والله يهدينا صراطاً مستقيماً .

ولهذا كانت هذه الجهمية المعطلة المشابهون للكفار والمشركين من الصابئة وغيرهم ، الجاحدة لوجود الصانع أو صفاته ، ترمي أهل العلم والإيمان والكتاب والسنة ، تارة بأنهم يشبهون اليهود لما في التوراة وكتب الأنبياء من الصفات ، ولما ابتدعه بعض اليهود من التشبيه المنفي عن الله ، وتارة بأنهم يشبهون النصارى لما أثبتته النصارى من صفة الحياة والعلم ، ولما ابتدعته من أن الأقانيم جواهر ، وأن أقنوم الكلمة اتحد بالناسوت .

وهذا الرمي موجود في كلامهم قبل الإمام أحمد بن حنبل وفي زمنه ، وهو موجود في كلامه وكلام أصحابه - حكاية ذلك ، ذكره في كتاب « الرد على الجهمية والزنادقة »، وأنهم قالوا « إذا أثبتم الصفات فقد قلتم بقول النصارى » ورد ذلك . وفي مسائله : أن طائفة قالوا له : من قال « القرآن غير مخلوق أو هو في الصدور » فقد قال بقول النصارى .

وهكذا الجهمية ترى الصفاتية بأنهم يهود هذه الأمة ، وهذا موجود في كلام متقدمي الجهمية ومتأخريهم ، مثل ما ذكره أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الجهمي[1] الجبري ، وإن كان قد يخرج إلى حقيقة الشرك وعبادة

= الوليد بن كثير عن يزيد بن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله تعالى عنها - قالت لما نزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ جاءت العوراء ام جميل ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول : مذمما أتينا ودينه قلينا ، وأمره عصينا ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر الى جنبه فقال أبو بكر - رضي الله عنه - لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال : إنها لن تراني » وقرأ قرآنا اعتصم به منها ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ قال : فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ .

(١) سبق الترجمة له . وراجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ والوفيات ١ : ٤٧٤ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٥ - ٤٥١ .

الكواكب والأوثان في بعض الأوقات ، وصنف في ذلك كتابه المعروف في السحر وعبادة الكواكب والأوثان . مع أنه كثيراً ما يحرم ذلك وينهى عنه متبعاً للمسلمين وأهل الكتب والرسالة .

وينصر الإسلام وأهله في مواضع كثيرة ، كما يشكك أهله ويشكك غير أهله في أكثر المواضع ، وقد ينصر غير أهله في بعض المواضع ، فإن الغالب عليه التشكيك والحيرة ، أكثر من الجزم والبيان .

وهؤلاء لهم أجوبة .

أحدها : أن مشابهة اليهود والنصارى ليست محذوراً إلا فيما خالف دين الإسلام ، ونصوص الكتاب والسنة والإجماع ، وإلا فمعلوم أن دين المرسلين واحد ، وأن التوراة والقرآن خرجا من مشكاة واحدة .

وقد استشهد الله بأهل الكتاب في غير موضع ، حتى قال :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾(١) .

فإذا أشهد أهل الكتاب على مثل قول المسلمين كان هذا حجة ودليلاً ، وهو من حكمة إقرارهم بالجزية ، فيفرح بموافقة المقالة المأخوذة من الكتاب والسنة لما يأثره أهل الكتاب عن المرسلين قبلهم ، ويكون هذا من أعلام النبوة ، ومن حجج الرسالة ، ومن الدليل على اتفاق الرسل .

---

(١) سورة الأحقاف الآية رقم ١٠ .

قال مالك عن أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ قال وفيه نزلت ﴿ وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله ﴾ رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث مالك به وكذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ويوسف ابن عبد الله بن سلام ، وهلال بن يساف والسدي والثوري ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا انه عبد الله بن سلام .

الثاني : أن المشابهة التي يدعونها ليست صحيحة ، فإن أهل السنة لا يوافقون اليهود والنصارى فيما ابتدعوه من الدين والإعتقاد ، ولهذا قلت في بيان فساد قول ابن الخطيب[1] : إنه لم يفهم مقالة أهل الحديث والسنة من الحنبلية وغيرهم ، ولم يفهم مقالة النصارى وأوضحت ذلك في موضعه ، كما بين الإمام أحمد الفرق بين مقالة أهل السنة وبين مقالة النصارى المبتدعة ، وكما يبين الفرق بين مقالة أهل السنة ومقالة اليهود المبتدعة .

الثالث : أنه إذا فرض مشابهة أهل الإثبات لليهود أو النصارى فأهل النفي والتعطيل مشابهون للكفار والمشركين من النصارى وغيرهم ، ومعلوم قطعاً أن مشابهة أهل الكتابين خير من مشابهة من ليس من أهل الكتاب ـ من الكفار بالربوبية والنبوات ونحوهم ، ولهذا قيل : المشبه أعشى ، والمعطل أعمى .

ولهذا فرح المؤمنون على عهد نبي الله ﷺ بانتصار النصارى على المجوس ، كما فرح المشركون بانتصار المجوس على النصارى فتدبر هذا ، فإنه نافع في مواضع . والله أعلم .

ولهذا كانت المعتزلة ونحوهم من القدرية مجوس هذه الأمة .

وهم يجعلون الصفاتية[2] نصارى الأمة ويميلون إلى اليهود لموافقتهم لهم في أمور كثيرة أكثر من النصارى ، كما يميل طائفة من المتصوفة والمتفقرة إلى النصارى أكثر من اليهود .

فإذا كان الصفاتية إلى النصارى أقرب وضدهم إلى المجوس والمشركين أقرب تبين أن الصفاتية أتباع النبي ﷺ وأصحابه الذين فرحوا بانتصار

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي توفي عام ٦٠٦ هـ وسبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) الصفاتية : الذين يثبتون الصفات لله تعالى (راجع كتاب بهذا الاسم (الصفاتية) للامام ابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم) .

الـروم[1] ـ النصـارى ـ عـلى فـارس المجـوس ـ وأن المعـطلة هم إلى المشـركـين أقرب ـ الذين فرحوا بانتصار المجوس على النصارى .

---

(١) روى الامام أحمد بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى ﴿ **الم غلبت الروم في أدنى الأرض** ﴾ قال غُلبت وغلبت قـال : كان المشـركون يحبـون أن تظهـر فارس على الروم لأنهم أصحـاب أوثان وكـان المسلمون يحبـون أن تـظهـر الروم عـلى فارس لأنهم أهـل الكتاب فذكر ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : أما إنهم سيغلبون . فذكره أبـو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك اجلاً فإن ظهرنا كـان لنا كـذا وكذا وان ظهـرتم كان لكم كـذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : الا جعلتهـا الى دون قال ـ لعشـر . قال سعيد بن جبير : البضع ثم ظهرت الروم بعد ذلك فـذلك قـوله ﴿ **الم غلبت الروم** ﴾ .
هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو عن أبي اسحاق الفزاري عن سفيان الثوري به وقال الترمذي حديث حسن غريب إنما نعـرفه منْ حـديث سفيان عن حبيب

سورة الغاشيــة

وقال شيــخ الإســلام

فصـــل

قـولـه : ﴿ هَـلْ أَتَاكَ حَـدِيثُ الغَاشِيَـةِ ؟ وُجُوهٌ يَـوْمَئِذٍ خَـاشِعَـةٌ ، عَـامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ، تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً ، تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾(١) .

فيها قولان :ـ

أحـدهما : أن المعنى وجـوه في الدنيـا خاشعـة عاملة نـاصبة ، تصـلى يوم القيامة نـاراً حاميـة ، ويعني بها عبـاد الكفار كـالرهبـان ، وعباد اليهـود ، وربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج .

و « القـول الثـاني » أن المعنى أنها يـوم القيـامـة تخشـع أي تـذل وتعمـل وتنصب ، قلت هذا هو الحق لوجوه ـ :

« أحدها » : أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه ، أي : وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية ، وعلى الأول لا يتعلق إلا بقوله ﴿ تصـلى ﴾

(١) سورة الغاشية الآيات من ١ ـ ٥ .

قـال الحافظ أبـو بكر البـرقاني : حـدثنا ابـراهيم بن محمد المـزكي ، حـدثنـا محمـد بن اسحـاق السراج ، حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنـا سيار ، حـدثنا جعفـر ، قال : سمعت أبـا عمران الجوني يقول مر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدار راهب قال : فناداه يا راهب فأشـرف قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكي فقيل له يا أمير المؤمنين مـا يبكيك من هـذا ؟ قال : ذكـرت قول الله تعالى ﴿ عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ﴾ فذاك الذي ابكاني .

ويكون قوله ﴿ **خاشعة** ﴾ صفة للوجوه قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى متأخرة ، والتقدير . وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذٍ تصلى ناراً حامية ، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه .

ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة أما مع اللبس فلا يجوز ، لأنه يلتبس على المخاطب ، ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير ، بل القرينة تدل على خلاف ذلك ، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان ، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق .

« الوجه الثاني » أن الله قد ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة ، فقال بعد ذلك : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** ﴾[1] ومعلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا . إذ هذا ليس بمدح ، فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين لا اختلافهما ، وحينئذ فيكون الأشقياء وصفت وجوههم بحالها في الآخرة .

« الثالث » أن نظير هذا التقسيم قوله : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ** ﴾[2] وقوله : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ** ﴾[3] وهذا كله وصف للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا .

« الرابع » أن وصف الوجوه بالأعمال ليس في القرآن وإنما في القرآن ذكر العلامة ، كقوله : ﴿ **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ** ﴾[4] وقوله : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ**

---

(١) سورة الغاشية الآيات من ٨ ـ ١٠ .

(٢) سورة القيامة الآيات ٢٢ ـ ٢٥ .

(٣) سورة عبس الآيات من ٣٨ ـ ٤٢ .

(٤) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

لأَرَيْنَاكَهُمْ ، فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾[1]وقوله : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾[2]وذلك لأن العمل والنصب ليس قائماً بالوجود فقط ، بخلاف السيما والعلامة .

« الخامس » أن قوله : ﴿ خاشعة عاملة ناصبة ﴾ لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم ، فإن هذا إلى المدح أقرب ، وغايته أنه وصف مشترك بين عباد المؤمنين وعباد الكفار ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ، ولو أريد المختص لقيل خاشعة للأوثان مثلا ، عاملة لغير الله ، ناصبة في طاعة الشيطان ، وليس في الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصاً بالكفار ، ولا كونه مذموماً ، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً ، ولا عيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن .

« السادس » أن هذا الوصف مختص ببعض الكفار ولا موجب للتخصيص ، فإن الذين لا يتعبدون من الكفار أكثر ، وعقوبة فساقهم في دينهم أشد في الدنيا والآخرة ، فإن من كف منهم عن المحرمات المتفق عليها ، وأدى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع الله إلهاً آخر ، ويقتلون النفس التي حرم الله [إلا] بالحق ويزنون .

فإذا كان الكفر والعذاب على هذا التقدير في القسم المتروك أكثر وأكبر

---

(١) سورة محمد آية رقم ٣٠ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٢ .

قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه وفي الحديث « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيراً فخير وإن شراً فشر » قال الامام أحمد حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن سلمة عن عياض بن عياض عن ابيه عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين فمن سميت فليقم ثم قال ـ قم يافلان قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال : إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله » .

كان هذا التخصيص عكس الواجب .

« السابع » أن هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة والنسك ابتـداء ، ثم إذا قيـد ذلك بعبـادة الكفار والمبتـدعة وليس في الخـطاب تقييد كـان هـذا سعيـاً في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه .

والله أعلـم .

سورة البلد
قال شيخ الإسلام رحمه الله

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟﴾[1] الهداية محلها القلب ، وهذه الأعضاء الثلاثة التي هي دائمة الحركة والكسب ، إما للإنسان وإما عليه ، بخلاف ما يتحرك من داخل فإنه لا يتعلق به ثواب ولا عقاب ، وبخلاف بقية الأعضاء الظاهرة ، فإن السكون أغلب ، وحركتها قليلة بالنسبة إلى هذه ، وهذه الثلاثة التي يروى عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال : من كان صمته فكراً ، ونطقه ذكراً ، ونظره عبرةً ـ وفي حديث عند ابن أبي حاتم في صفة النبي ﷺ أنه كان كثير الصمت ، دائم الفكر ، متواصل الأحزان فالصمت والفكر للسان والقلب ، وأما الحزن فليس المراد به الحزن الذي هو الألم على فوت مطلوب أو حصول مكروه فإن ذلك منهي عنه ولم يكن من حاله ، وإنما أراد به الاهتمام والتيقظ لما يستقبله من الأمور ، وهذا مشترك بين القلب والعين .

وفيه أيضاً في الصحيحين حديث ابن عباس أنه كان إذا قام من الليل

---

(١) سورة البلد آية رقم ٨ ـ ١٠ .
قال سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله هو ابن مسعود ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال الخير والشر وكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي وائل وابي صالح ، ومحمد بن كعب ، والضحاك وعطاء الخراساني في آخرين .

يصلي ينظر إلى السماء ، ويقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران[1] . فيجمع بين الذكر والنظر والفكر ، فالنظر أي نظر القلب ونظر العين والذكر ايضاً لا بد مع ذكر اللسان من ذكر القلب .

ولما كان النظر مبدأ والذكر منتهى ، لأن النظر يتقدم الإدراك ، والعلم والذكر يتأخر عن الإدراك والعلم ، ولهذا كان المتكلمة في النظر المقتضى للعلم ، وكان المتصوفة في الذكر المقرر للعلم قدم آلة النظر على آلة الذكر ، وختم بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاكر .

وذكر سبحانه اللسان والشفتين ، لأنهما العضوان الناطقان ، فأما الهواء والحلق والنطع واللهوات والأسنان فمتصلة حركة بعضها مرتبطة بحركة البعض بمنزلة غيرها من أجزاء الحنك ، فأما اللسان والشفتان فمنفصلة ، ثم الشفتان لما كانا النهاية حملا الحروف الجوامع : الباء ، والفاء ، والميم ، والواو .

---

(١) قال البخاري رحمه الله : حدثنا سعيد بن مريم ، حدثنا محمد بن جعفر أخبرني شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن كريب عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد . فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر الى السماء فقال : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾ الآيات ثم قام فتوضأ واستن ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح .

وهكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن إسحاق الصنعاني عن أبي مريم به ، ثم رواه البخاري من طرق عن مالك عن مخرمة بن سليمان عن كريب ان ابن عباس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالته قال : فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ من منامه فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده » ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت الى جنبه فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم اوتر ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح » . وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن مالك به . ورواه مسلم أيضاً وأبو داود من وجوه أخر عن مخرمة بن سليمان به .

فأما الباء والفاء فهما الحرفان السببيان ، فإن الباء أبداً تفيد الإلصاق والسبب . وكذلك الفاء تفيد التعقيب والسبب ، وبالأسباب تجتمع الأمور بعضها ببعض .

وأما الميم والواو فلهما الجمع والإحاطة ، ألا ترى أن الميم ضمير لجمع المخاطبين في الأنواع الخمسة : ضميري الرفع والنصب المتصلين والمنفصلين ، وضمير الخفض في مثل قوله : « أنتم » و « علمتم » و « إياكم » و « علمكم » و « ربكم » وضمير لجمع الغائبين في الأنواع الخمسة أيضاً والمضمر أياً كان ، إما متكلم أو مخاطب أو غائب ، واحد أو اثنان أو جمع ، مرفوع أو منصوب ، أو مجرور ، فقد أحاطت بالجميع مطلقاً ، أما الجمع المطلق فبنفسها ، وأما الجمع المقدر باثنين فبزيادة علم التثنية ، وهو الألف في مثل أنتما وعلمتما ، وكذلك الباقي .

ولهذا زيدت الواو في الجمع المطلق فقيل عليهموا ، وأنتموا ، كما زيدت الألف في التثنية ، ومن حذفها حذفها تخفيفاً ، ولأن ترك العلامة علامة ، فصارت الميم مشتركة ، ثم الفارق الألف أو عدمها مع الواو .

وأما الواو فلها جموع الضمائر الغائبة في مثل قالوا ونحوها ، وأما المتصلة مثل إياكم وهم ، فعلى اللغتين ، فلما صارت الواو تمام المضمر المرفوع المنفصل ، والياء تمام المؤنث : صارت للمؤنث مطلقاً في جميع أحواله ، لأنه تلو المذكر ، والمفرد مذكره ومؤنثه قبل المثنى والمجموع فإن المفرد قبل المركب ، ثم الألف صارت علم التثنية مطلقاً في المظهر والمضمر كما أن الواو علم لجمع المذكر ، وجعل الياء علمي النصب والجر في المظهر من المثنى والمجموع، لأن المظهر قبل المضمر وأقوى منه ، فكانت أحق أن تكون فيه من الألف ، فحين ما كان أقوى كانت الواو وحين ما كان أوسط كان الياء .

وأما الجموع الظاهرة فالواو هي علم الجمع المذكر الصحيح ، كما أن

الألف علم التثنية ، ولهذا ينطق بها حيث لا إعراب ، لكن في حال النصب والخفض قلبتا يائين لأجل الفرق ، وذلك لأن الأسماء الظاهرة لها الغيبة دون الخطاب في جميع العربية ، وذلك لأن الواو أقوى حروف العلة ، والضمة بعضها ، وهي أقوى الحركات ، لما فيها من الجمع ، وكونها آخراً ، فجعلت للجمع والألف أخف حروف العلة ، فجعلت للإثنين لأن الياء كانت قد صارت للمؤنث في المفرد المرفوع الذي هو الأصل في قولك :[1] وجاءت الميم في مثل اللهم إشعار بجميع الأسماء ، وذلك لأن حرف الشفة لما كان جامعاً للقوة من مبدأ مخارج الحروف إلى منتهاها بمنزلة الخاتم الآخر ، الذي حوى ما في المتقدم وزيادة كان جامعاً لقوى الحروف فجعل جامعاً للأسماء مظهرها ومضمرها وجامعاً بين المفردات والجمل ، فالواو والفاء عاطفان ، والفاء رابطة جملة بجملة .

ولما كانت النون قريبة من الفيهة فهي أنفية جعلت لجمع المؤنث ، لأن دون جمع المذكر ، وثنى العينين والشفتين لأن العينين هما ربيئة القلب ، وليس من الأعضاء أشد ارتباطاً بالقلب من العينين ، ولهذا جمع بينهما في قوله : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ** ﴾[2] ﴿ **تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾[3] ﴿ **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** ﴾[4] ﴿ **قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** ﴾[5] ولأن كليهما له النظر ، فنظر القلب الظاهر بالعينين ، والباطن به وحده ، وكذلك اللسان هو الذكر والشفتان أنثاه .

---

(١) بياض بالأصل .
(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٠ .
(٣) سورة النور آية رقم ٣٧ .
(٤) سورة الأحزاب آية رقم ١٠ .
(٥) سورة النازعات آية رقم ٩ .

سورة الشمس
قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
قدس الله روحه
فصل

في قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾[1]. وضمير التأنيث في « جلاها » و « يغشاها » لم يتقدم ما يعود عليه إلا الشمس ، فيقتضي أن النهار يجلي الشمس ، وأن الليل يغشاها ، و « التجلية » الكشف والإظهار ، و « الغشيان » التغطية واللبس ، ومعلوم أن الليل والنهار ظرفاً الزمان ، والفعل إذا أضيف إلى الزمان فقيل هذا الزمان أو هذا اليوم يبرد ، أو يبرد أو ينبت الأرض ، ونحو ذلك ، فالمقصود أن ذلك يكون فيه ، لما يوصف الزمان بأنه عصيب ، وشديد ، ونحس ، وبارد ، وحار ، ورطب ومكروه - والمراد وصف ما فيه ، فكون الشيء فاعلاً وموصوفاً هو بحسب ما يليق به - كل شيء بحسبه .

فالنهار يجلي الشمس ، والليل يغشاها ، وإن كان ظهور الشمس هو سبب النهار ، ومغيبها سبب الليل ، وقد ذكر ذلك بقوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ فأضاف الضحى إليها ، والضحى يعم النهار كله ، كما قال ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾[2] وقال : ﴿ وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[3].

---

(١) سورة الشمس الآيات رقم ١ - ٤ .

(٢) سورة النازعات الآيات من ٢٧ - ٢٩ .

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[1].

فقد قيل : إن « ما » مصدرية ، والتقدير : والسماء وبناء الله إياها ، والأرض وطحو الله إياها ، ونفس وتسوية الله إياها ، لا بد من ذكر الفاعل في [الجملة]، لا يصلح أن يقدر المصدر هنا مضافاً إلى الفعل فقط ، فيقال « وبنائها » لأن الفاعل مذكور في الجملة في قوله ﴿ وما بناها ﴾ ﴿ وما طحاها ﴾ فإن الفعل لا بد له من فاعل في الجملة ، ومفعول أيضاً . فلا بد أن يكون في التقدير الفاعل والمفعول ، لكن إذا كانت مصدرية كانت ﴿ ما ﴾ حرفاً ليس فيها ضمير ، فيكون ضمير الفاعل في ﴿ بناها ﴾ عائداً على غير مذكور بل إلى معلوم ، والتقدير : والسماء وما بناها الله وهذا خلاف الأصل ؛ وخلاف الظاهر .

والقول الثاني : إنها موصولة ، والتقدير : الذي بناها ، والذي طحاها . و ﴿ ما ﴾ فيها عموم واجمال - يصلح لما لا يعلم ، ولصفات من يعلم ، كقوله تعالى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾[2]وقوله ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ ﴾[3].

وهذا المعنى يجيء في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾[4].

وهذا المعنى كما أنه ظاهر الكلام وأصله هو أكمل في المعنى أيضاً ، فإن القسم بالفاعل يتضمن الاقسام بفعله ، بخلاف الإقسام بمجرد الفعل ، وأيضاً فالاقسام التي في القرآن عامتها بالذوات الفاعلة وغير الفاعلة ، يقسم

= (٣) سورة الضحى آية رقم ١ - ٢ .

(١) سورة الشمس آية رقم ٥ - ٨ .

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٢ - ٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٣ .

(٤) سورة الليل آية رقم ٣ .

بنفس الفعل ، كقوله : ﴿ **وَالصَّافَّاتِ صَفّاً ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً** ﴾[1]وكقوله : ﴿ **والنازعات** ﴾ ، ﴿ **والمرسلات** ﴾ ونحو ذلك .

وهو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات ، وتارة بربها وخالقها ، كقوله ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾[2]وكقوله : ﴿ **وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ** ﴾[3] وتارة يقسم بها وبربها .

وفي هذه السورة أقسم بمخلوق وبفعله ، وأقسم بمخلوق دون فعله ، فأقسم بفاعله .

فإنه قال : ﴿ **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَالقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا ، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾[4]فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار ، وآثارها وأفعالها ، كما فرق بينهما في قوله : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ** ﴾[5] . وقال : ﴿ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾[6]فإن بأفعال هذه الأمور وآثارها تقوم مصالح بني آدم وسائر الحيوان .

وقال : ﴿ **والشمس وضحاها** ﴾ ولم يقل : « ونهارها » ولا « ضياءها » لأن « الضحى » يدل على النور والحرارة جميعاً ، وبالأنوار والحرارة تقوم مصالح العباد .

ثم أقسم بالسماء والأرض ، وبالنفس ، ولم يذكر معها فعلاً ، فذكر فاعلها ، فقال : ﴿ **وما بناها** ﴾ ، ﴿ **وما طحاها** ﴾ و﴿ **ونفس وما سواها** ﴾ .

فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس ، لأنها تفعل البر والفجور ، وهو

---

(١) سورة الصافات الآيات رقم ١ ـ ٣ .
(٢) سورة الذاريات آية رقم ٢٣ .
(٣) سورة الليل آية رقم ٣ .
(٤) سورة الشمس الآيات ١ ـ ٤ .
(٥) سورة فصلت آية رقم ٣٧ .
(٦) سورة الأنبياء آية رقم ٣٣ .

سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته . لكن ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله : ﴿ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾(١) فإذا كان قد بين أنه خالق فعل العبد الذي [هو] أظهر الأشياء فعلاً واختياراً وقدرة فلأن يكون خالق فعل الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، بطريق الأولى والأخرى .

وأما السماء والأرض فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بها إلا ما يظهر من الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار .

والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار ، والنفس أشرف الحيوان المخلوق ، فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسباً ، وكان إقسامه بصانعها تنبيهاً على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار .

فتضمن الكلام الإقسام بصانع هذه المخلوقات ، وبأعيانها ، وما فيها من الآثار والمنافع لبني آدم .

وختم القسم بالنفس التي هي آخر المخلوقات ، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات ، وبيّن أنه خالق جميع أفعالها ، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها .

---

(١) سورة الشمس آية رقم ٧ ـ ٨ .

قال الامام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا عاصم الأحول عن عبد الله ابن الحارث عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله ﷺ يقول :

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر ، اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها انت وليها ومولاها . اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن » .

رواه مسلم من حديث أبي معاوية عن عاصم الأحول عن عبد الله بن الحارث ، وأبي عثمان النهدي ، عن زيد بن أرقم به .

وهو سبحانه مع ما ذكر من عموم خلقه لجميع الموجودات على مراتبها حتى أفعال العبد المنقسمة إلى التقوى والفجور [و] بين انقسام الأفعال إلى الخير والشر ، وانقسام الفاعلين إلى مفلح وخائب ، سعيد وشقي ، وهذا يتضمن الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، فكان في ذلك رد على القدرية المجوسية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه وإلهامه ، وعلى القدرية المشركية الذين يبطلون أمره ونهيه ووعده ووعيده ، إحتجاجاً بقضائه وقدره .

وقد قيل في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[1] : إن الضمير عائد إلى « الله » أي « قد أفلح من زكاها الله ، وقد خاب من دساها الله » وهذا مخالف للظاهر ، بعيد عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن ، إذ كان الأحسن « قد أفلحت من زكاها الله ، وقد خابت من دساها ، وهذا ضعيف .

وأيضاً فقوله ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ بيان للقدر ، فلا حاجة إلى ذكره مرة ثانية عقب ذلك في مثل هذه السورة القصيرة .

ولهذا لم يذكر عن النبي ﷺ في إثبات القدر إلا هذه الآية دون الثانية ، كما في صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال ، قال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم . قال . فقال : [أ] فلا يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعاً شديداً وقلت : [كل شيء] خلق الله وملك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فقال لي : يرحمك الله : إني لم أرد بما سألتك إلا لأحرز عقلك . فإن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله ؟ أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم [من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به

(١) سورة الشمس آية رقم ٩ ـ ١٠ .

مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ .

فقال : « لا » بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم]، وتصديق ذلك في كتاب الله [عز وجل] ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[1] فبين النبي ﷺ أن تصديق ما أخبر به من القضاء قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[2] .

والذي في الحديث هو القدر السابق من علم الله وكتابه وكلامه ، وهذا إنما تنكره غالية القدرية ، وأما [الذي] في القرآن فهو خلق الله أفعال العباد وهذا أبلغ ، فإن القدرية المجوسية تنكره .

فالذي في القرآن يدل على ما في الحديث وزيادة ، ولهذا جعله النبي ﷺ مصدقاً له ، وذلك من وجوه .

أحدها : أنه إذا علم أن الله هو الملهم للفجور والتقوى - ولم يكن في ذلك ظلم كما تقوله القدرية الإبليسية ، ولا مخالفة للأمر والنهي والوعد والوعيد كما تقوله القدرية المشركية - [فـ] الإقرار بأن الله كتب ذلك وقدره قبل وجوده مما لا نزاع فيه عند الإنسان من جهة القدر ، ولهذا قد أقر بالقدر السابق جمهور القدرية الذين ينكرون خلق الأفعال ، ولم يثبت أحد من القدرية أن الله خالق أفعال العباد وينكره من جهة القدر أن الله خالق ذلك .

الوجه الثاني : أنه إذا ثبت أن الله خالق فعل العبد ، وأنه الملهم الفجور والتقوى ، كان ذلك من جملة مصنوعاته ، والشبهة التي عرضت للقدرية - التي سأل المزنيان للنبي ﷺ - إنما هي في أعمال العباد التي عليها

---

(١) الحديث عند مسلم في كتاب القدر - حدثنا اسحاق بن ابراهيم الحنظلي ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا عزرة بن ثابت عن يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر عن ابي الأسود الدؤلي قال : قال لي عمران بن الحصين وذكره .
ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٤٣٨ (حلبي) .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٨ .

الثواب والعقاب خاصة ، ولم ينكروا من جهة القدر أن الله قدر ما يخلقه هو قبل وجوده ، وإنما أنكر من أنكر منهم إذا اشتبه أمر أفعال العباد .

وهؤلاء يقولون إن الله يقدر الأمور قبل وجودها إلا أفعال العباد والسعادة والشقاوة ، فإن ذلك لا ينبغي أن يعلمه حتى يكون ، لأن أمر الأمير بما يعلم أن المكلف لا يطيعه فيه ، بل يكون ضرراً عليه ، مستقبح عندهم ، وقد حكى طوائف من المصنفين في أصول الفقه وغيرهم الخلاف في ذلك عن المعتزلة ، وقالوا : يجوز أن الله يأمر العبد بما يعلم أنه لا يفعله ، خلافاً للمعتزلة ، لأن في جنس المعتزلة من يخالف في ذلك وأكثرهم لا يخالف في ذلك ، وإنما يخالف فيه طائفة منهم .

فإذا كان القرآن قد أثبت أنه الملهم للنفس فجورها وتقواها كان ذلك من جملة مفعولاته ، فلا تبقى شبهة القدرية أنه قدر ذلك قبل وجوده ، كما لا شبهة عندهم في تقديره لما يخلقه من الأعيان والصفات .

وأما من أنكر تقديره العلم من منكرة الصفات أو بعضها فأولئك لهم مأخذ آخر ، ليس مأخذهم أمر الصفات .

الوجه الثالث : أنه قد كان ألهم الفجور والتقوى ، وهو خالق فعل العبد ، فلا بد أن يعلم ما خلقه قبل أن يخلقه ، كما قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] لأن الفاعل المختار يريد ما يفعله ، والإرادة مستلزمة لتصور المراد وذلك هو العلم بالمراد المفعول .

وإذا كان خلقه للشيء مستلزماً لعلمه به فذلك أصل القدر السابق وما علمه الله سبحانه بقوله وبكتبه فلا نزاع فيه ، وهذا بين في جميع الأشياء - في هذا وغيره .

فإنه سبحانه إذا ألهم الفجور والتقوى فالملهم إن [لم] يميز بين

(١) سورة الملك آية رقم ١٤ تكملة الآية ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ .

الفجور والتقوى ويعلم أن هذا الفعل الذي يريد أن يفعله هذا فجـور . والذي يريد أن يفعله هذا تقوى ، لم يصح منه إلهـام الفجور والتقـوى ، فتظهـر بهذا حسن مـا ذكره النبي ﷺ من تصـديق الآيـة لمـا أخبـر بـه النبي ﷺ من القـدر السابق .

وقوله سبحانه : ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ كما يدل على القدر فيدل على الشرع ، فإنه لو قال « فألهمهـا أفعالهـا » كما يقـول الناس « خـالق أفعال العبـاد » لم يكن في ذلك تمييـز بين الخيـر والشـر ، والمحبـوب والمكـروه ، والمـأمور بـه والمنهى عنه ، بـل كـان فيـه حجـة للمشـركين ، ـ من المباحيـة والجبرية ـ الـذين يدفعـون الأمر والنهي ، والحسن والقبـح ، فإنـه خلق أفعال العباد ، فلما قال ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ كان الكلام تفريقاً بين الحسن المأمور به والقبيح المنهى عنـه ، وأن الأفعال منقسمـة إلى حسن وسيء ، مع كونه تعالى خالق الصنفين .

وهذه طريقـة القرآن في غيـر موضـع ـ يذكـر المؤمن والكافـر وأفعالهمـا الحسنـة والسيئة [و] وعـده ووعيـده ، ويـذكـر أنـه خـالق الصنفين ، كقـولـه ﴿ **يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾[1] ونحو ذلك .

وهذا الأصل ضلت فيه الجبرية والقدرية .

فـإن القدريـة المجـوسيـة قـالـوا : إن الأفعـال تنقسم إلى حسن وقبيـح

---

(1) سـورة فـاطـر آيـة رقم ٨ تكملة الآيـة ﴿ **فـلا تـذهب نفسـك عليهم حسـرات ان الله عليم بمـا يصنعون** ﴾ .

قال ابن أبي حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبي حدثنـا محمد بن عـوف الحمصي ، حدثنـا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني أو ربيعة عن عبد الله بن الديـلي قال : أتيت عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهـا ـ وهو في حـائط بالـطائف يقال لـه الوهط . قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نـوره يومئـذ فقد اهتـدى ومن أخطأ منـه ضل فلـذلك أقـول : جف القلم على مـا علم الله عـز وجل » .

لصفات قائمة بها ، والعبد هو المحدث لها بدون قدرة الله وبدون خلقه .

فقالت الجبرية : بل العبد مجبور على فعله ، والجبر حق يوجب وجود أفعاله عند وجود الأسباب التي يخلقها الله ، وامتناع وجودها عند عدم شيء من الأسباب وإذا كان مجبوراً يمتنع أن يكون الفعل حسناً أو قبيحاً لمعنى يقوم به .

وهذه طريقة أبي عبد الله الرازي ونحوه من الجبرية النافين لانقسام الفعل في نفسه إلى حسن وقبيح ، والأولى طريقة أبي الحسين البصري(1)ونحوه من القدرية القائلين بأن فعل العبد لم يحدثه إلا هو ، والعلم بذلك ضروري أو نظري ، وأن الفعل ينقسم في نفسه إلى حسن وقبيح ، والعلم بذلك ضروري .

وأبو الحسين هو إمام المتأخرين من المعتزلة ، وله من العقل والفضل ما ليس لأكثر نظرائه ، لكن هو قليل المعرفة بالسنن ، ومعاني القرآن ، وطريقة السلف .

وهو وأبو عبد الله الرازي في هذا الباب في طرفي نقيض ، ومع كل منهما من الحق ما ليس مع الآخر ، فأبو الحسين يدعي أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري ، والرازي يدعي [أن العلم] بأن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ، ويمتنع عند عدمه ضروري كذلك ، بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري .

ثم يعتقد كل فريق أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من

---

(1) هو محمد بن علي الطيب ، أبو الحسين البصري ، أحد أئمة المعتزلة ولد في البصرة ، وسكن بغداد وتوفي بها عام ٤٣٦ هـ قال الخطيب البغدادي له تصانيف وشهرة . من كتبه : المعتمد في أصول الفقه ، وتصفح الأدلة ، وغرر الأدلة ، وشرح الأصول الخمسة كلها في الأصول وكتاب في الإمامة ، وشرح أسماء الطبيعي » .
راجع وفيات الأعيان ١ :٤٨٢ وتاريخ بغداد ٣ : ١٠٠ ولسان الميزان ٥ :٢٩٨ وكشف الظنون ١٢٠٠ و ١٧٣٢ .

الضـرورة ، وليس الأمر كـذلـك ، بـل كـلاهمـا صـادق فيمـا ذكـره من العلم الضـروري ومصيب في ذلك ، وإنمـا وقع غلطه في إنكـاره ما مـع الآخـر من الحق ، فـإنه لا منـافـاة بين كـون العبـد محـدثـاً لفعله وكـون هـذا الإحـداث ممكن الوجود بمشيئة الله تعالى .

ولهـذا كان مـذهب أهل السنـة المحضة أن العبـد فاعـل لفعله حقيقة ، كمـا أدعاه أبـو الحسين من الضرورة ؟ لا يقـولون : ليس بفـاعـل حقيقـة ، أو ليس بفـاعـل ، كمـا يقـولـه المـائلون إلى الجبـر مثـل طـائفـة أبي عبـد الله الرازي[1] ، يقولون مع ذلـك : إن الله هو الخـالق لهذا الفـاعل ولفعله ، وهـو الذي جعله فاعلاً حقيقة ، وهو خالق أفعـال العباد ، كمـا يقولـه أهل الإثبـات من الأشعـرية ـ طـائفة الـرازي وغيرهم ، لا كمـا يقـولـه القـدريـة ـ مثـل أبي الحسين وطائفته : إن الله لم يخلق أفعال العباد .

ولـهـذا نص الأئـمـة ـ كـالإمـام أحـمـد ومـن قـبـله مـن الأئـمـة كالأوزاعي[2] وغيره ـ على انكـار اطلاق القـول بالجبـر نفياً وإثبـاتاً ، فـلا يقال « إن الله جبر العباد » ولا يقـال « لم يجبرهم » فـإن لفظ « الجبر » فيـه اشتراك وإجمـال ، فـإذا قيل « جبرهم » [أشعـر بـأن الله يجبـرهم على فعـل الخيـر والشـر بغيـر اختيـارهم ، وإذا قيـل « لم يجبـرهم »] أشعـر بـأنهم يفعلون مـا يشاؤون بغير اختيـاره ، وكلاهمـا خطأ ، وقـد بسطنـا القول في هـذا في غيـر هذا الموضع .

والمقصـود هنا أن هـذين الفريقين اعتقـدوا تنافي القـدر والشرع ، كمـا اعتقد ذلك المجـوس والمشركـون . فقالـوا : إذا كان خـالقاً للفعـل امتنع أن يكـون الفعل في نفسـه حسنـاً لـه ثـواب ، أو قبيحـاً عليـه عقـاب ، ثم قـالت

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية . وراجع ابن النـديم ١ : ٢٢٧ والوفيـات ١ : ٢٧٥ وتاريـخ بيروت ١٥ وحلية الأولياء ٦ : ١٣٥ والمعارف ٢١٧ ، والشذرات ١ : ٢٤١ .

القدرية : لكن الفعل منقسم ، فليس خالقاً للفعل ، وقالت الجبرية : لكنه خالق ، فليس الفعل منقسماً .

ولكن الجبرية المقرون بالرسل يقرون بالانقسام من جهة أمر الشارع ونهيه فقط ، ويقولون : له أن يأمر بما شاء لا لمعنى فيه ، وينهى عما يشاء لا لأجل معنى فيه ، ويقولون في خلقه وفي أمره جميعاً : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأما من غلب عليه رأي أو هوى فإنه ينحل عن ربقة الشارع إذا عاين الجبر ، ويقولون ما يقوله المشركون ﴿ **لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ** ﴾[(١)] .

ومن أقر بالشرع ، والأمر والنهي ، والحسن والقبح دون القدر وخلق الأفعال ـ كما عليه المعتزلة ـ فهو من القدرية المجوسية الذين شابهوا المجوس ، وللمعتزلة من مشابهة المجوس واليهود نصيب وافر .

ومن أقر بالقضاء والقدر وخلق الأفعال وعموم الربوبية ، وأنكر المعروف والمنكر ، والهدى والضلال ، والحسنات والسيئات ، ففيه شبه من المشركين والصابئة .

وكان الجهم بن صفوان[(٢)] ومن اتبعه كذلك لما ناظر أهل الهند ، كما كان المعتزلة كذلك لما ناظروا المجوس ـ الفرس ـ والمجوس أرجح من المشركين .

فإن من أنكر الأمر والنهي ، أو لم يقر بذلك ، فهو مشرك صريح

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ وتكملة الآية ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وإن أنتم الا تخرصون** ﴾ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وراجع ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ ، والكامل لابن الأثير حوادث سنة ١٢٨ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ وخطط المقريزي ٢ : ٣٤٩ و ٣٥١ والحور العين ٢٥٥ وفيه : قتل بمرو قتله سلم بن أحوز على شط نهر بلخ » .

كافر ـ أكفر من اليهود والنصارى والمجوس ـ كما يوجد ذلك في كثير من المتكلمة والمتصوفة ـ أهل الإباحة ونحوهم .

ولهذا لم يظهر هؤلاء ونحوهم في عصر الصحابة والتابعين لقرب عهدهم بالنبوة ، وإنما ظهر أولئك القدرية المجوسية لأن مذهبهم فيه تعظيم للأمر والنهي والثواب والعقاب ، فهم أقرب إلى الكتاب والسنة والرسول والدين من هؤلاء المعطلة للأمر والنهي ، فإن هؤلاء من شر الخلق .

وأما القدرية الإبليسية فهم الذين يقرون بوجود الأمر والنهي من الله ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه ، لكن يقولون : هذا فيه جهل وظلم ، فإنه بتناقضه يكون جهلاً وسفهاً ، وبما فيه من عقوبة العبد بما خلق فيه يكون ظلماً .

وهذا حال إبليس ، فإنه قال ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1] فأقر بأن الله أغواه ، ثم جعل ذلك عنده داعياً يقتضي أن يغوي هو ذرية آدم .

وإبليس هو أول من عادى الله ، وطغى في خلقه وأمره ، وعارض النص بالقياس ولهذا يقول بعض السلف : أول من قاس إبليس ، فإن الله أمره بالسجود لآدم ، فاعترض على هذا الأمر بأني خير منه ، وامتنع من السجود ، فهو أول من عادى الله ، وهو الجاهل الظالم ـ الجاهل بما في أمر الله من الحكمة ، الظالم باستكباره الذي جمع فيه بين بطر الحق وغمط الناس .

ثم قوله لربه ﴿ فبما أغويتني لأفعلن ﴾ جعل فعل الله ـ الذي هو إغواؤه له ـ حجة له ، وداعياً إلى أن يغوي ابن آدم ، وهذا طعن منه في فعل الله وأمره ، وزعم منه أنه قبيح ، فأنا أفعل القبيح أيضاً ، فقاس نفسه

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٣٩ .

على ربه ، ومثل نفسه بربه .

ولهذا كان مضاهياً للربوبية ، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ : « إن إبليس ينصب عرشه على البحر ، ثم يبعث سراياه ، فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة ، فيجيء الرجل فيقول : ما زلت به حتى فعل كذا ، ثم يجيء الآخر فيقول : ما زلت به حتى فرقت بينه وبين زوجته فيلتزمه ويدنيه منه ويقول : أنت أنت[1] .

والقدرية قصدوا تنزيه الله عن السفه ، وأحسنوا في هذا القصد ، فإنه سبحانه مقدس عما يقول الظالمون ـ من إبليس وجنوده ـ علواً كبيراً ، حكم ، عدل ، لكن ضاق ذرعهم وحصل عندهم نوع جهل اعتقدوا معه أن هذا التنزيه لا يتم إلا بأن يسلبوه قدرته على أفعال العباد ، وخلقه لها ، وشمول إرادته لكل شيء ، فناظروا إبليس وحزبه في شيء ، واستحوذ عليهم إبليس من ناحية أخرى .

وهذا من أعظم آفات الجدال في الدين بغير علم أو بغير الحق ، وهو الكلام الذي ذمه السلف ، فإن صاحبه يرد باطلاً بباطل وبدعة ببدعة .

فجاء طوائف ممن ناظرهم من أهل الإثبات فقرروا أن الله خالق كل شيء ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير ، فضاق ذرعهم وعلمهم ، واعتقدوا أن هذا لا يتم إن لم ننكر محبة الله ، ورضاه ، وما خص به بعض الأفعال دون بعض من الصفات الحسنة والسيئة ، وننكر حكمته ، ورحمته ـ فيجوز عليه كل فعل ، لا ينزه عن ظلم ولا غيره من الأفعال . وزاد قوم في ذلك حتى عطلوا الأمر والنهي والوعد

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المنافقون ٦٦ باب حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء واسحاق ابن ابراهيم (واللفظ لأبي كريب) قالا اخبرنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

وروله الامام احمد في المسند ٣ : ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ (حلبي) .

والوعيد رأساً ، ومال هؤلاء إلى الإرجاء ، كما مال الأولون إلى الوعيد ، فقالت الوعيدية : كل فاسق خالد في النار ، لا يخرج منها أبداً ، وقالت الخوارج : هو كافر . وغالية المرجئة أنكرت عقاب أحد من أهل القبلة ، ومن صرح بالكفر أنكر الوعيد في الآخرة رأساً ، كما يفعله طوائف من الاتحادية ، والمتفلسفة ، والقرامطة[1] ، والباطنية ، وكان هؤلاء الجبرية المرجئة أكفر بالأمر والنهي والوعد والوعيد من المعتزلة الوعيدية القدرية .

وأما مقتصدة المرجئة الجبرية الذين يقرون بالأمر والنهي والوعد والوعيد ، وأن من أهل القبلة من يدخل النار ، فهؤلاء أقرب الناس إلى أهل السنة ، وقد روى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال « لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً أنا آخرهم »[2] .

لكن المعتزلة من القدرية أصلح من الجبرية والمرجئة ونحوهم في الشريعة ـ علمها وعملها ، فكلامهم في أصول الفقه وفي اتباع الأمر والنهي خير من كلام المرجئة من الأشعرية وغيرهم ، فإن كلام هؤلاء في أصول الفقه قاصر جداً ، وكذلك هم مقصرون في تعظيم الطاعات والمعاصي . ولكن هم

---

(١) القرامطة : دعوة اسماعيلية متطرفة جداً ، ظهرت سنة ٩٠٠ م في واسط بين الكوفة والبصرة ، وكان زعيمها حمدان القرميطي ، وقد اعتنق الفكرة بعض الأعراب والأنباط والزنج المستعبدين وانتهى الأمر بهؤلاء ان جعلوا كل شيء مشاعاً بين الجميع إلا السيوف .
مبادئهم : قالوا الصلاة مولاة اعمالهم ، وأن الحج زيارته وخدمته ، أما الصوم فهو الامساك عن إفشاء سره وقالوا من عرف معنى العبادة سقط عنه فرائضها ، فهذه الأفكار تتنافى تماماً مع مبادىء الاسلام ، فهذه الفرقة لم يبق لها أثر في العالم الاسلامي .

(٢) هناك حديث ذكره ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٩٢ بسنده عن جابر بن عبد الله . قال رسول الله ﷺ : إن مجوس هذه الأمة المكذبون باقدار الله ، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم » .
والحديث المذكور فيه زيادة (وإذا كان يوم القيامة وجمع الناس في صعيد واحد نادى منادي يسمع الأولين والآخرين اين خصماء الله فيقوم القدرية) .
رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن الفضل بن عطية وهو متروك ورواه أبو يعلى في الكبير باختصار في رواية بقية بن الوليد عن حبيب بن عمرو وبقية مدلس وحبيب مجهول .

في أصـول الدين أصلح من أولئـك ، فإنهم يؤمنـون من صفـات الله وقـدرتـه وخلقه بما لا يؤمن به أولئك ، وهذا الصنف أعلى .

فلهـذا كانت المـرجئة في الجملة خيـراً من القدريـة ، حتى إن الإرجاء دخل فيه الفقهاء من أهل الكوفة وغيـرهـم ، بخلاف الاعتـزال ، فإن ليس فيـه أحد من فقهاء السلف وأئمتهم .

فصــــل

في الرد على المكذبين بالقدر

فإذا كان الضلال في القدر حصل تارة بالتكذيب بالقدر والخلق ، وتـارة بالتكذيب بالشرع والوعيد ، وتارة بتظلم الرب ، كان في هذه السورة رداً على هذه الطوائف كلها .

فقـوله تعـالى : ﴿ **فَأَلْهَمَهَـا فُجُورَهَـا وَتَقْوَاهَـا** ﴾[1] إثبات للقـدر بقـولـه ﴿ **ألهمها** ﴾ ، وإثبات لفعـل العبد . بـإضافـة الفجور والتقـوى إلى نفسه ليعلم أنهـا هي الفاجـرة والمتقيـة ، وإثبـات للتفـريق بين الحسن والقبيـح ، والأمـر والنهي ، بقوله ﴿ **فجورها وتقواها** ﴾ .

وقوله بعد ذلك ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَـا** ﴾[2] إثبات لفعل العبد ، والوعد والوعيد بفلاح من زكى نفسه ، وخيبة من دساهـا ، وهذا صـريح في الـرد على القدريـة المجوسيـة ، وعلى الجبـريـة للشـرع أو لفعـل العبد ـ وهم المكذبون بالحق .

وأمـا المظلمـون للخالق فـإنه قـد دل على عدلـه بقـولـه ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَـا سَوَّاهَا** ﴾[3] والتسوية : التعديل . فبين أنه عادل في تسوية النفس التي ألهمهـا

(۱) سورة الشمس آية رقم ٨ .

(۲) سورة الشمس آية رقم٩ ـ ١٠ .

(۳) سورة الشمس آية رقم ٧ .

فجورها وتقواها .

وذكر بعد ذلك عقوبة من كذب رسله وطغى ، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله ، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا فإن الله ينتقم منه ، ولا يخاف عاقبة انتقامه ، كما انتقم من إبليس وجنوده ، وأن تظلمه من ربه وتسفيهه له إنما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئاً .

« فإن العباد لن يبلغوا ضر الله فيضروه ، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه ، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً ، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً »(١) .

ولهذا لما سأل عمران بن حصين(٢) أبا الأسود(٣) الدؤلي عن ذلك ليحزر عقله « هل يكون ذلك ظلماً »؟ فذكر أن ذلك ليس منه ظلماً ، وخاف من قوله ﴿ **سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً** ﴾ وذكر حديث النبي ﷺ ، واستشهاده بهذه الآية .

وقد تبين أن القدرية الخائضين بالباطل إما أن يكونوا مكذبين لما أخبر به الرب من خلقه أو أمره ، وإما أن يكونوا مظلمين له في حكمه ، وهو

---

(١) هذا جزء من حديث رواه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٥ باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧) عن ربيعة بن يزيد ، عن أبي ادريس الخولاني ، عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : وذكره .

(٢) هو عمران بن حصين بن عبيد ، أبو نجيد الخزاعي من علماء الصحابة ، اسلم عام خيبر سنة ٧ هـ وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة وبعثه عمر بن الخطاب الى أهل البصرة ليفقههم ، وولاه زياد قضاءها وتوفي بها عام ٥٢ هـ وهو ممن اعتزل حرب صفين ، له في كتب الحديث ١٣٠ حديثاً .
راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٨ ، وتهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ وصفة الصفوة ١ : ٢٨٣ وطبقات ابن سعد ٧ : ٤ وفي المدهش لابن الجوزي : عمران بنُ الحصين .

(٣) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني واضع علم النحو ، كان معدوداً من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب من التابعين . رسم له علي بن =

سبحانه الصادق العدل ، كما قال تعالى : ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ** ﴾[1] فإن الكلام إما إنشاء وإما إخبار ، فالإخبار صدق ، لا كذب ـ والإنشاء ـ أمر التكوين ، وأمر التشريع ـ عدل ، لا ظلم ، والقدرية المجوسية كذبوا بما أخبر به عن خلقه وشرعه من أمر الدين ، والأبليسية جعلوه ظالماً في مجموعهما ، أو في كل منهما .

وقد ظهر بذلك أن المفترقين المختلفين من الأمة إنما ذلك بتركهم بعض الحق الذي بعث الله به نبيه وأخذهم باطلاً يخالفه ، واشتراكهم في باطل يخالف ما جاء به الرسول ، وهو من جنس مخالفة الكفار للمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ـ إلى قوله ـ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[2] .

فإذا اشتركوا في باطل خالفوا به المؤمنين المتبعين للرسل نسوا حظاً مما ذكروا به فألقى بينهم العداوة والبغضاء ، واختلفوا فيما بينهم في حق آخر جاء به الرسول ، فآمن هؤلاء ببعضه وكفروا ببعضه ، والآخرون يؤمنون بما كفر به هؤلاء ويكفرون بما يؤمن به هؤلاء . .

وهنا كلا الطائفتين المختلفتين المفترقتين مذمومة ، وهذا شأن عامة الافتراق والاختلاف في هذه الأمة وغيرها ، وهذا من ذلك فإنهم اشتركوا [في] أن كون الرب خالقاً لفعل العبد ينافي كون فعله منقسماً إلى حسن وقبيح ، وهذه المقدمة اشتركوا فيها جدلاً من غير أن تكون حقاً في نفسها أو عليها حجة مستقيمة .

= أبي طالب شيئاً من أصول النحو فكتب فيه أبو الأسود وأخذه عنه جماعة سكن البصرة في خلافة عمر ، وولي امارتها في أيام علي ، استخلفه عبد الله بن عباس عليها لما شخص الى الحجاز ولم يزل في الامارة الى أن قتل علي ، وكان قد شهد معه صفين . مات بالبصرة عام ٦٩ هـ .

راجع الخضري على ابن عقيل ١ : ١١ وصبح الأعشى ٣ : ١٦١ ووفيات الأعيان ١ : ٢٤٠ والأصابة ت ٤٣٢٢ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ١٠٤ .

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٥ .

(٢) سورة البقرة الآيات من ٢٥٣ .

وهي إحدى المقدمتين التي يعتمدها الرازي في مسألة التحسين والتقبيح ، فإنه اعتقد في « محصوله » وغيره على أن العبد مجبور على فعله ، والمجبور لا يكون فعله قبيحاً ، فلا يكون شيء من أفعال العباد قبيحاً .

وهذه الحجة بنفي ذلك أصلها حجة المشركين المكذبين للرسل ـ الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾[1] فإنهم نفوا قبح الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات باثبات القدر .

لكن هؤلاء الذين يحتجون بالجبر على نفي الأحكام إذا أقروا بالشرع لم يكونوا مثل المشركين من كل وجه ، ولهذا لم يكن المتكلمون المقرون بالشريعة كالمشركين ، وإن كان فيهم جزء من باطل المشركين .

لكن يوجد في المتكلمين والمتصوفة طوائف يغلب عليهم الجبر حتى يكفروا حينئذ بالأمر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب ـ إما قولاً ، وإما حالاً وعملاً ، وأكثر ما يقع ذلك في الأفعال التي توافق أهواءهم ـ يطلبون بذلك إسقاط اللوم والعقاب عنهم ، ولا يزيدهم ذلك إلا ذماً وعقاباً ـ كالمستجير من الرمضاء بالنار ـ .

فإن هذا القول لا يطرد العمل به لأحد إذ لا غنى لبني آدم ـ بعضهم من بعض ـ من إرادة شيء والأمر به ، وبغض شيء والنهي عنه ، فمن طلب أن يسوي بين المحبوب والمكروه ، والمرضي والمسخوط ، والعدل والظلم ، والعلم والجهل ، والضلال والهدى ، والرشد والغي ، فإنه لا يستمر على ذلك أبداً ، بل إذا حصل له ما يكرهه ويؤذيه فر إلى دفع ذلك ، وعقوبة فاعله بما قدر عليه حتى يعتدي في ذلك .

فهم من أظلم الخلق في تفريقهم بين القبيح من الظلم والفواحش منهم ومن غيرهم ، وممن يهوونه ومن لا يهوونه ، واحتجاجهم بالقدر لأنفسهم دون خصومهم .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

وتجد أحدهم عند فعل ما يحمد عليه يغلب على قلبه حال أهل القدر ، فيجعل نفسه هو المحدث لذلك دون الله ، وينسى نعمة الله عليه في إلهامه إياه تقواه ، وهذا من أظلم الخلق ، كما قال أبو الفرج بن الجوزي(١): أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري - أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل العدل ضد ذلك ، إذا فعلوا حسنة شكروا الله عليها لعلمهم بأن الله هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وأنه هو الذي كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾(٢) .

فاتبعوا أباهم حيث أذنب : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾(٣) . ﴿ **ربَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾(٤) .

ويقول أحدهم « أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي » كما قال النبي ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب [إلا أنت](٥)» وكما في الحديث الصحيح أيضاً : « إن الله تعالى

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٨ ومفتاح السعادة ١ : ٣٠٧ وآداب اللغة ٣ : ٩١ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ١٣٥ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣٧ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٢٣ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب الدعوات ١٦ باب ما يقول اذا أصبح ٦٣٢٣ حدثنا مسدد ، حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حسين حدثنا عبد الله بن بريدة ، عن بشير بن كعب عن شداد بن =

يقول : يا عبادي، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه »[1] ويقولون بموجب قوله تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** ﴾[2] .

قال ابن القيم[3] رحمه الله :

ذكر سبحانه في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة ، فقال شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية :

هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم ، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ، ومدين ، وقوم لوط وغيرهم .

ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال « فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون » . ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾[4] .

= أوس عن النبي ﷺ وذكره . ورواه أبو داود في كتاب الأدب باب ١٠١ ، والترمذي في كتاب الدعوات ١٥ وابن ماجه في كتاب الدعاء ١٤ واحمد بن حنبل في المسند ٤:١٢٢ ، ٨٢٥ ٦:٣٥٦ (حلبي) .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب البر ١٥ باب تحريم الظلم ٥٥(٢٥٧٧) عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى وذكره .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٩

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد أبو عبد الله شمس الدين من أركان الاصلاح ولد عام ٦٩١ هـ وتوفي عام ٧٥١ تتلمذ لشيخ الاسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه من كتبه (الطرق الحكمية) وشفاء العليل وأحكام أهل الذمة « والصواعق المرسلة » . وغير ذلك كثير .

(٤) سورة فصلت آية رقم ١٧ .

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة كاللواط ، وبخس المكيال والميزان ، والفساد في الأرض ، كما في سورة هود ، والشعراء ، وغيرهما ، فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفواحش التي لم يسبقوا إليها ، وفي عاد ـ مع الشرك ـ التجبر ، والتكبر ، والتوسع في الدنيا ، وشدة البطش ، وقولهم « من أشد منا قوة »، وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال ، وفي قوم فرعون الفساد في الأرض ، والعلو .

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم ، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء ، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم ، فجمع لهم بين الهلاك ، والرجم بالحجارة من السماء ، وطمس الأبصار ، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها ، والخسف بهم إلى أسفل سافلين ، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم ، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان .

وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال ، فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنبهم ـ مع الشرك ـ عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم فمن انتهك محارم الله . واستخف بأوامره ونواهيه ، وعقر عباده وسفك دماءهم ، كان أشد عذاباً .

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً ، وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد ، وسفك الدماء بغير حق ، وأقام الفتن ، واستهان بحرمات الله ، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون .

سورة العلق

وقال الشيخ رحمه الله

فصل

في بيان أن الرسول ﷺ أول ما أنزل عليه بيان أصول الدين وهي الأدلة العقلية الدالة على ثبوت الصانع وتوحيده وصدق رسوله ﷺ ، وعلى المعاد إمكاناً ووقوعاً .

وقد ذكرنا فيما تقدم هذا الأصل غير مرة ، وأن الرسول ﷺ بين الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس إلى دينهم ، وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وأن الذين ابتدعوا أصولاً تخالف بعض ما جاء به هي أصول دينهم ، لا أصول دينه وهي باطلة عقلاً وسمعاً ، كما قد بسط في غير موضع ، وبين أن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدين قاصرون أو مقصرون في معرفة ما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية .

فطائفة قد ابتدعت أصولاً تخالف ما جاء به من هذا وهذا .

وطائفة رأت أن ذلك بدعة فأعرضت عنه ، وصاروا ينتسبون إلى السنة لسلامتهم من بدعة أولئك ، ولكن هم مع ذلك لم يتبعوا السنة على وجهها ، ولا قاموا بما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية .

بل الذي يخبر به من السمعيات مما يخبر به عن ربه وعن اليوم الآخر غايتهم أن يؤمنوا بلفظه من غير تصور لما أخبر به ، بل قد يقولون مع هذا إنه نفسه لم يكن يعلم معنى ما أخبر به ، لأن ذلك عندهم هو تأويل

المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

وأما الأدلة العقلية فقد لا يتصورون أنه أتى بالأصول العقلية الدالة على ما يخبر به ، كالأدلة الدالة على التوحيد والصفات ، ومنهم من يقر بأنه جاء بهذا - مجملاً ، ولا يعرف أدلته ، بل قد يظن أن ما يستدل به - كالاستدلال بخلق الإنسان على حدوث جواهره - هو دليل الرسول .

وكثير من هؤلاء يعتقدون أن في ذلك ما لا يجوز أن يعلم بالعقل كالمعاد ، وحسن التوحيد والعدل والصدق ، وقبح الشرك والظلم والكذب ، والقرآن بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك ، وينكر على من لم يستدل بها ، ويبين أنه بالعقل يعرف المعاد ، وحسن عبادته وحده وحسن شكره ، وقبح الشرك ، وكفر نعمه ، كما قد بسطت الكلام على ذلك في مواضع .

وكثير من الناس يكون هذا في فطرته وهو ينكر تحسين العقل وتقبيحه إذا صنف في أصول الدين على طريقة الثقاة الجبرية - أتباع جهم .

وهذا موجود في عامة ما يقوله المبطلون - يقولون بفطرتهم ما يناقض ما يقولونه في اعتقادهم البدعي .

وقد ذكر أبو عبد الله - ابن الجد الأعلى - أنه سمع أبا الفرج بن الجوزي ينشد في مجليس وعظه البيتين المعروفين :

هب ، البعثُ لم تأتنا رُسْله   وجاحمة النار لم تُضرم
أليس من الواجب المستحق   حياء العباد من المنعم ؟

فقد صرح في هذا بأنه من الواجب المستحق حياء الخلق من الخالق المنعم . وهذا تصريح بان شكره واجب مستحق ولو لم يكن وعيد ، ولا رسالة أخبرت بجزاء ، وهو يبين ثبوت الوجوب والاستحقاق وان قدر أنه لا عذاب .

وهذا فيه نزاع قد ذكرناه في غير هذا الموضع ، وبينا أن هذا هو

الصحيح ، ونتيجة فعل المنهي انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي التي كان فيها وإن كان لا يعاقب بالضرر .

ويبين أن الوجوب والاستحقاق يعلم بالبديهة ، فتارك الواجب وفاعل القبيح وإن لم يعذب بالآلام كالنار فيسلب من النعم وأسبابه ما يكون جزاءه . وهذا جزاء من لم يشكر النعمة بل كفرها ـ أن يسلبها .

فالشكر قيد النعم ، وهو موجب للمزيد ، والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب ، وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد .

مع أنه لا بد من إرسال رسول يستحق معه النعيم أو العذاب ، فإنه ماثم دار إلا الجنة أو النار . قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾[1] وهذا مبسوط في مواضع .

والمقصود هنا أن بيان هذه الأصول وقع في أول ما أنزل من القرآن فإن أول ما أنزل من القرآن ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾[2] عند جماهير العلماء ، وقد قيل ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** ﴾[3] روي ذلك عن جابر ، والأول أصح ، فإن [ما] في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ نزلت عليه وهو في غار حراء ، وأن « المدثر » نزلت بعد .

وهذا هو الذي ينبغي ، فإن قوله ﴿ **اقرأ** ﴾ أمر بالقراءة ، لا بتبليغ الرسالة ، وبذلك صار نبياً ، وقوله ﴿ **قم فأنذر** ﴾ أمر بالإنذار ، وبذلك صار رسولاً منذراً .

ففي الصحيحين من حديث الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت :

---

(١) سورة التين الآيات من ٤ ـ ٦ .
(٢) سورة العلق آية رقم ١ .
(٣) سورة المدثر آية رقم ١ .

أول ما بدىء بـه رسول الله ﷺ من الـوحي الرؤ يـا الصادقـة في النوم ، فكـان لا يرى رؤ يا إلا جاءت مثل فلق الصبـح ، ثم حبب إليه الخـلاء، فكان يـأتي غـار حراء فيتحنث فيـه ـ وهو التعبـد ـ الليالي ذوات العـدد قبـل أن ينـزع إلى أهله ويتزود لذلـك ، ثم يرجـع إلى خديجـة فيتزود لمثلهـا ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.

فجاء الملك فقال « اقرأ ».

قال : « ما أنا بقارىء ».

قـال : فـأخـذني فغـطني حتى بلغ مني الجهـد ، ثم أرسلني فقـال « اقرأ »: فقلت « ما أنا بقارىء ».

فـأخـذني فغطنـي الثـانيـة حتى بلغ مني الجهـد ثم أرسلني فقـال ﴿ اقرأ ﴾.

فقلت « ما أنا بقارىء ».

فـأخـذني فغطني الثـالثـة حتى بلغ مني الجهـد ، ثم أرسلني فقـال : ﴿ اقْـرَأْ بِـاسْمِ رَبِّـكَ الَّـذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَـانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

فـرجع بهـا رسـول الله ﷺ يـرجف فؤاده ، فـدخـل على خـديجـة بنت خويلد فقال : « زملوني ». زملوني [فزملوه] حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ « لقد خشيت على نفسي »!

فقـالت له خَديجة : « كـلا ! والله لا يخـزيـك الله أبـداً ـ إنـك لتصـل الـرحم ، وتحمـل الكـل ، وتقري الضيـف ، وتكسب المعـدوم ، وتعين على نوائب الحق ».

فـانطلقت بـه خـديجـة حتى أتت بـه ورقـة بن نـوفـل بن أسـد بن عبـد

(١) سورة العلق الآيات من ١ ـ ٥ .

العزى - ابن عم خديجة . وكان امرأً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبري ، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي .

فقالت له خديجة : « يا بن عم ! اسمع من ابن أخيك » .

فقال له ورقة : « يا بن أخي ! ماذا ترى ؟ » .

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس(١) الذي أنزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ؟(٢) ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ؟ » .

فقال رسول الله ﷺ : « أو مخرجي هم ؟ » .

قال : « نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .

ثم لم ينشب(٣) ورقة أن توفي ، وفتر الوحي(٤) .

قال ابن شهاب الزهري : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن ، قال أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي :

---

(١) الناموس صاحب السر كما جزم به المؤلف في أحاديث الأنبياء وزعم ابن ظفر أن الناموس صاحب سر الخير ، والجاسوس صاحب سر الشر ، والأول الصحيح الذي عليه الجمهور .

(٢) الجذع : بفتح الجيم والذال المعجمة : هو الصغير من البهائم كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء الى الاسلام شاباً ليكون أمكن لنصره .

(٣) لم ينشب : بفتح الشين المعجزة أي لم يلبث ، واصل النشوب التعلق ، أي لم يتعلق بشيء من الأمور حتى مات .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الوحي ٣ باب حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة ام المؤمنين وذكره ، ورواه أيضا في بدء الخلق ٧ والتفسير سورة ٩٦ ، ١ ورواه الامام مسلم في ايمان ٢٥٦ والامام احمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٢٥ ، ٣٧٧ ، ٦ : ٢٣٣ .

« فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت بصري قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجئثت حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زملوني ، زملوني ، فزملوني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر ، قم فأنذر - إلى قوله - والرجز فاهجر** ﴾ .

فهذا يبين أن « المدثر » نزلت بعد تلك الفترة ، وأن ذلك كان بعد أن عاين الملك الذي جاءه بحراء أولاً ، فكان قد رأى الملك مرتين .

وهذا يفسر حديث جابر الذي روي من طريق آخر كما أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير ، قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن . قال : ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ قلت : يقولون ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك [و] قلت له مثل ما قلت ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ - قال : « جاورت بحراء ؟ فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء بارداً ، فدثروني وصبوا عليّ ماء بارداً »[1] .

قال : فنزلت ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾[2] .

فهذا الحديث يوافق المتقدم ، وإن « المدثر » نزلت بعد أن هبط من الجبل وهو يمشي ، وبعد أن ناداه الملك حينئذ ، وقد بين في الرواية

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٧٤ سورة المدثر ١ باب ٤٩٢٢ - حدثني يحيى ، حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى بن ابي كثير سألت ابا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن وذكره .

(٢) سورة المدثر ١ - ٣ .

الأخرى أن هذا الملك هو الذي جاءه بحراء ، وقد بينت عائشة أن « اقرأ » نزلت حينئذ في غار حراء ، لكن كأنه لم يكن علم أن « اقرأ » نزلت حينئذ ، بل علم أنه رأى الملك قبل ذلك ، وقد يراه ولا يسمع منه ، لكن في حديث عائشة زيادة علم ، وهو أمره بقراءة « اقرأ » .

وفي حديث الزهري أنه سمى هذا « فترة الوحي » وكذلك في حديث عائشة « فترة الوحي » فقد يكون الزهري روى حديث جابر بالمعنى ، وسمى ما بين الرؤيتين « فترة الوحي » كما بينته عائشة ، وإلا فإن كان جابر سماه « فترة الوحي » فكيف يقول إن الوحي لم يكن نزل ؟ .

وبكل حال فالزهري عنده حديث عروة ، عن عائشة ، وحديث أبي سلمة ، عن جابر ، وهو أوسع علماً وأحفظ من يحيى بن أبي كثير لو اختلفا ، لكن يحيى ذكر أنه سأل أبا سلمة عن الأولى ، فأخبر جابر بعلمه ولم يكن علم ما نزل قبل ذلك ، وعائشة أثبتت وبينت .

والآيات ـ آيات ﴿ **اقرأ** ﴾ و﴿ **المدثر** ﴾ـ تبين ذلك ، والحديثان متصادقان مع القرآن ومع دلالة العقل على أن هذا الترتيب هو المناسب .

وإذا كان أول ما أنزل: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[1] ففي الآية الأولى إثبات الخالق تعالى ، وكذلك في الثانية .

وفيها وفي الثانية الدلالة على إمكان النبوة ، وعلى نبوة محمد ﷺ .

أما الأولى فإنه قال ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾، ثم قال : ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ فذكر الخلق مطلقاً ، ثم خص خلق الإنسان أنه خلقه من **علق** ، وهذا أمر معلوم لجميع الناس ـ كلهم يعلمون أن الإنسان يحدث في بطن أمه ، وأنه يكون من **علق** ، وهؤلاء بنو آدم .

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ ـ ٥ .

وقوله ﴿ الإنسان ﴾ هو اسم جنس يتناول جميع الناس ، ولم يدخل فيه آدم الذي خلق من طين ، فإن المقصود بهذه الآية بيان الدليل على الخالق تعالى ، والإستدلال إنما يكون بمقدمات يعلمها المستدل ، والمقصود بيان دلالة الناس وهدايتهم ، وهم كلهم يعلمون أن الناس يخلقون من العلق .

فأما خلق آدم من طين فذاك إنما علم بخبر الأنبياء ، أو بدلائل أخر ، ولهذا ينكره طائفة من الكفار ـ الدهرية وغيرهم ـ الذين لا يقرون بالنبوات .

وهذا بخلاف ذكر خلقه في غير هذه السورة ، فإن ذاك ذكره لمن يثبت النبوة ، وهذه السورة أول ما نزل ، وبها تثبت النبوة فلم يذكر فيها ما علم بالخبر ، بل ذكر فيها الدليل المعلوم بالعقل والمشاهدة ، والأخبار المتواترة لمن لم ير العلق .

وذكر سبحانه خلق الإنسان من العلق ـ وهو جمع « علقة » وهي القطعة الصغيرة من الدم ـ لأن ما كان قبل ذلك كان نطفة ، والنطفة قد تسقط في غير الرحم كما يحتلم الإنسان ، وقد تسقط في الرحم ثم يرميها الرحم قبل أن تصير علقة ، فقد صار مبدأ لخلق الإنسان ، وعلم أنها صارت علقة ليخلق منها الإنسان .

وقد قال في سورة القيامة : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ المَوتَى ﴾[1] ؟ فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب ، ولهذا قال في موضع آخر : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطفَةٍ ﴾[2] ففي القيامة استدل بخلقه من

---

(١) سورة القيامة الآيات من ٣٧ ـ ٤٠ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٥ وتكملة الآية ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى

نطفة ، فإنه معلوم لجميع الخلق ، وفي الحج ذكر خلقه من تراب ، فإنه قد علم بالأدلة القطعية ، وذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة .

وأما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى ابتداء فذكر أنه خلق الإنسان من علق ، وهو من العلقة ـ الدم ، يصير مضغة ، وهو قطعة لحم كاللحم الذي يمضغ بالفم ، ثم تخلق فتصور ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾[1] فإن الرحم قد يقذفها غير مخلقة ، فبين للناس مبدأ خلقهم ، ويرون ذلك بأعينهم .

وهذا الدليل ـ وهو خلق الإنسان من علق ـ يشترك فيه جميع الناس ، فإن الناس هم المستدلون ، وهم أنفسهم الدليل والبرهان والآية .

فالإنسان هو الدليل وهو المستدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ ﴾[2] وقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾[3] وهذا كما قال في آية أخرى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾[4] .

وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه ويذكره كلما تذكر في نفسه وفيمن يراه من بني جنسه، فيستدل به على المبدأ والمعاد ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ، أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ

= ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

(١) سورة الحج آية رقم ٥ .

(٢) سورة الذار يات آية رقم ٢١ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

(٤) سورة الطور آية رقم ٣٥ .

(٥) سورة مريم آية رقم ٦٦ ـ ٦٧ .

يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(١) .

وكذلك قال زكريا لما تعجب من حصول ولد على الكبر فقال : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّاً ؟ قَالَ كَذَلِكَ ، قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾(٢)ولم يقل « إنه أهون عليه » كما قال في المبدأ والمعاد : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(٣) .

وقال سبحانه: ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾(٤)بعد أن قال : ﴿ الذي خلق ﴾. فأطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق ، ثم عين خلق الإنسان فكان كلما يعلم حدوثه داخلاً في قوله ﴿ الذي خلق ﴾ .

وذكر بعد الخلق التعليم ـ الذي هو التعليم بالقلم ، وتعليم الإنسان ما لم يعلم ، فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة .

ولم يقل هنا « هدى » فيذكر الهدى العام المتناول للإنسان وسائر الحيوان ، كما قال في موضع آخر : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾(٥)وكما قال موسى ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾(٦)لأن هذا التعليم الخاص يستلزم الهدى العام ، ولا ينعكس ، وهذا أقرب إلى إثبات النبوة ، فإن النبوة نوع من التعليم .

وليس جعل الإنسان نبياً بأعظم من جعله العلقة إنساناً ، حياً ، عالماً ،

---

(١) سورة يس آية رقم ٧٨ ـ ٧٩ .
(٢) سورة مريم آية رقم ٨ ـ ٩ .
(٣) سورة الروم آية رقم ٢٧ .
(٤) سورة العلق آية رقم ٢ .
(٥) سورة الأعلى الآيات من ١ ـ ٣ .
(٦) سورة طه آية رقم ٥٠ .

ناطقاً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، قد علم أنواع المعارف ، كما أنه ليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته ، والقادر على المبدأ كيف لا يقدر على المعاد ؟ والقادر على هذا التعليم كيف لا يقدر على ذاك التعليم وهو بكل شيء عليم ، ولا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء ؟ .

وقال سبحانه أولاً ﴿ علم بالقلم ﴾ فأطلق التعليم والمعلم ، فلم يخص نوعاً من المعلمين ، فيتناول تعليم الملائكة وغيرهم من الإنس والجن ، كما تناول الخلق لهم كلهم .

وذكر التعليم بالقلم لأنه يقتضي تعليم الخط ، والخط يطابق اللفظ ، وهو البيان والكلام ، ثم اللفظ يدل على المعاني المعقولة التي في القلب فيدخل فيه كل علم في القلوب .

وكل شيء له حقيقة في نفسه ثابتة في الخارج عن الذهن ، ثم يتصوره الذهن والقلب ، ثم يعبر عنه اللسان ، ثم يخطه القلم ، فله وجود عيني ، وذهني ، ولفظي ، ورسمي ـ وجود في الأعيان ، والأذهان ، واللسان ، والبنان ، لكن الأول هو هو ، وأما الثلاث فإنها مثال مطابق له ، فالأول هو المخلوق ، والثلاثة معلمة ، فذكر الخلق والتعليم ليتناول المراتب الأربع ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

وقد تنازع الناس في الماهيات هل هي مجعولة أم لا ؟ وهل ماهية كل شيء زائدة على وجوده ؟ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين الصواب في ذلك ، وأنه ليس إلا ما يتصور في الذهن ، ويوجد في الخارج .

فإذا أريد الماهية ما يتصور في الذهن . وبالوجود ما في الخارج أو

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ ـ ٥ .

بالعكس ، فالماهية غير الوجود إلا كان ما في الأعيان مغايراً لما في الأذهان .

وإن أريد بالماهية ما في الذهن ، أو الخارج ، أو كلاهما ، وكذلك بالوجود ، فالذي في الخارج من الوجود هو الماهية الموجودة في الخارج ، وكذلك ما في الذهن من هذا هو هذا ، ليس في الخارج شيئان . وهو سبحانه علم ما في الأذهان ، وخلق ما في الأعيان ، وكلاهما مجعول له . لكن الذي في الخارج جعله جعلاً خلقياً ، والذي في الذهن جعله جعلاً تعليمياً ، فهو الذي ﴿ خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ وهو : ﴿ الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

وقوله : ﴿ علم بالقلم ﴾ يدخل فيه تعليم الملائكة الكاتبين ، ويدخل فيه تعليم كتب الكتب المنزلة ، فعلم بالقلم أن يكتب كلامه الذي أنزله كالتوراة والقرآن ، بل هو كتب التوراة لموسى .

وكون محمد كان نبياً أميّاً هو من تمام كون ما أتى به معجزاً خارقاً للعادة ، ومن تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[1]فغيره يعلم ما كتبه غيره ، وهو علم الناس ما يكتبونه ، وعلمه الله ذلك بما أوحاه إليه .

وهذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية وبرهان على نبوته ، فإنه لا يقدر عليه الإنس والجن ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الانس وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[2]﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٨٨ .

صَادِقِينَ ﴾[1] وفي الآية الأخرى ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[2].

(1) سورة يونس آية رقم ٣٨ .

(2) سورة هود آية رقم ١٣ ـ ١٤ .

فصل

في الاستدلال على وجود الخالق تعالى

وقد بسطنا في غير هذا الموضع طرق الناس في إثبات الصانع والنبوة [و] أن كل طريق تتضمن ما يخالف السنة فإنها باطلة في العقل كما هي مخالفة للشرع .

والطريق المشهورة عند المتكلمين هو الاستدلال بحدوث الاعراض على حدوث الأجسام .

وقد بينا الكلام على هذه في غير موضع ، وأنها مخالفة للشرع والعقل ، وكثير من الناس يعلم أنها بدعة في الشرع ، لكن لا يعلم فسادها في العلم ، وبعضهم يظن أنها صحيحة في العقل والشرع ، وأنها طريقة إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد بين فساد هذا في غير موضع .

والمقصود هنا أن طائفة من النظار ـ مثبتة الصفات ـ أرادوا سلوك سبيل السنة ولم يكن عندهم إلا هذه الطريق .

فاستدلوا بخلق الإنسان ، لكن لم يجعلوا خلقه دليلاً كما في الآية ؛ بل جعلوه مستدلاً عليه ، وظنوا أنه يعرف بالبديهة والحس حدوث أعراض النطفة ، وأما جواهرها . فاعتقدوا أن الأجسام كلها مركبة من الجواهر

المنفردة ، وأن خلق الإنسان وغيره إنما هو إحداث أعـراض في تلك الجواهـر بجمعها وتفريقها ، ليس هو إحداث عين .

فصاروا يريـدون أن يستدلـوا على أن الإنسان مخلوق ، ثم إذا ثبت أنـه مخلوق قالوا : إن له خالقاً .

واستـدلـوا على أنـه مخلوق بـدليـل الأعـراض ، وأن النـطفـة والعلقــة والمضغة لا تنفك من أعراض حادثة . إذ كان عندهم جواهر تجمع تارة وتفرق أخرى ، فلا تخلو عن اجتماع وافتراق ، وهما حادثان ، فلم يخل الإنسان عن الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها .

وهذه هي الطريقة التي سلكها الأشعـري في « اللمع في الـرد على أهل البدع » وشرحه أصحابه شروحاً كثيرة ، وكذلك في « رسـالته إلى أهـل الثغر » وذكـر قـولـه تعـالى : ﴿ **أَفَـرَأَيْتُمْ مَـا تمْنُـونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُـونَـهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ** ﴾[1] فاستدل على أن الإنسان مخلوق بأنه مركب من الجواهر التي لا تخلو من اجتماع وافتراق ، فلم تخل من الحوادث فهي حادثة .

وهذه الطريقة هي مقتضية من كون الأجسام كلها كذلك .

وتلك هي الطريقة المشهورة التي يسلكها الجهميـة ، والمعتزلـة ، ومن اتبعهم من المتـأخرين المنتسبين إلى المـذاهب الأربعة وغيـرهم من أصحـاب أبي حنيفـة ، ومالـك ، والشـافعي ، وأحمـد ، كمـا ذكـرهـا القـاضي ، وابن عقيـل ، وغيرهمـا ، وذكرهـا أبو المعـالي الجويني[2] ، وصـاحب « التتمـة » ،

---

(١) سورة الواقعة آية رقم ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) هـو عبد الملك بن عبـد الله بن يوسف ، سبق التـرجمة لـه . وراجع وفيـات الأعيان ١ :٢٨٧ ، والسبكي ٣ : ٢٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٠ ثم ٢ : ١٨٨ وتبيين كذب المفتري ٢٧٨ ـ ٢٨٥ .

وغيرهما ، وذكرها أبو الوليد الباجي(١) ، وأبو بكر بن العربي(٢)، وغيرهما ، وذكرها أبو منصور الماتريدي(٣) ، والصابوني(٤) . وغيرهما .

لكن هؤلاء الذين استدلوا بخلق الإنسان فرضوا ذلك في الإنسان ظناً أن هذه طريقة القرآن ، وطولوا في ذلك ودققوا حتى استدلوا على كون عين الإنسان وجواهره مخلوقة ، لظنهم أن المعلوم بالحسن وبديهة العقل إنما هو حدوث أعراض ، لا حدوث جواهر . وزعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب ، والمطر ، والزرع ، والثمر ، والإنسان والحيوان ، فإنما يحدث فيه أعراضاً ، وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفريقها .

وزعموا أن أحداً لا يعلم حدوث غيره من الأعيان بالمشاهدة ، ولا بضرورة العقل ، وإنما يعلم ذلك إذا استدل كما استدلوا . فقالوا : هي

---

(١) هو سليمان بن خلف بن سعد القرطبيّ أبو الوليد الباجي . سبق الترجمة له . وراجع : الديباج المذهب ١٢٠ والوفيات ١ : ٢١٥ والفوات ١ : ١٧٥ ونفح الطيب ١ : ٣٦١ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٢٤٨ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشبيلي المالكي أبو بكر بن العربي . قاض من حفاظ الحديث ، ولد في أشبيلية ، ورحل الى المشرق ، وبرع في الأدب ، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين ، وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير مات بقرب فاس ودفن بها عام ٥٤٣ هـ من كتبه : أحكام القرآن ، والقبس في شرح موطأ ابن أنس ، والناسخ والمنسوخ وغير ذلك كثير .

راجع طبقات الحفاظ للسيوطي ووفيات الأعيان ١ : ٤٨٩ ونفح الطيب ١ : ٣٤٠ وقضاة الأندلس ١٥٠ .

(٣) هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي ـ سبق الترجمة له توفي عام ٣٣٣ هـ .

راجع الفوائد البهية ١٩٥ ومفتاح السعادة ٢ : ٢١ والجواهر المضيئة ٢ : ١٣٠ .

(٤) هو اسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن اسماعيل أبو عثمان الصابوني مقدم أهل الحديث في بلاد خراسان ، لقبه أهل السنة فيها بشيخ الاسلام فلا يعنون عند اطلاقهم هذه اللفظة غيره ، ولد عام ٣٧٣ ومات في نيسابور عام ٤٤٩ هـ يجيد الفارسية إجادته العربية له كتاب « عقيدة السلف » والفصول والغايات.

راجع طبقات الشافعية ٣ : ١٧٧ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ٢٧ ـ ٢٣ .

أعراض حادثة في جواهر ، وتلك الجواهر لم تخل من الأعـراض لامتناع خلو الجواهر من الأعراض .

ثم قالوا : وما لم يخل من الحوادث فهو حادث .

وهـذا بنوه على أن الأجسـام مركبـة من الجواهـر المنفردة التي لا تقبـل القسمة ، وقالوا : إن الأجسام لا يستحيل بعضها إلى بعض .

وجمهور العقلاء من السلف ، وأنواع العلماء ، وأكثر النظار ، يخـالفون هؤلاء فيما يثبتون من الجوهر الفرد ، ويثبتون استحـالة الأجسـام بعضها إلى بعض ، ويقـولون بـأن الـرب لا يـزال يحـدث الأعيـان ، كمـا دل على ذلـك القرآن .

ولهذا كانت هذه الطريق باطلة عقلاً وشرعاً ، وهي مكابرة للعقـل . فإن كون الإنسان مخلوقاً محدثاً كائناً بعد أن لم يكن أمـر معلوم بالضـرورة لجميع النـاس ، وكل أحـد يعلم أنه حـدث في بـطن أمـه بعـد أن لم يكن وأن عينـه حـدثت كما قـال تعالى : ﴿ وَقَـدْ خَلَقْتُـكَ مِنْ قَبْـلُ وَلَمْ تَـكُ شَيْئـاً ﴾[١]وقـال تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾[٢] ليس هذا مما يستدل عليه ، فإن أبين وأوضح مما يستـدل به عليـه لو كـان صحيحاً . فكيف إذا كان باطلاً .

وقولهم : إن الحادث اعراض فقط ، وأنه مـركب من الجواهـر الفردة ، قولان باطلان لا يعلم صحتهما ، بل يعلم بطلانهما .

ويعلم حدوث جوهر الإنسان وغيره من المادة التي خلق منها وهي العلق

(١) سورة مريم آية رقم ٩ .
(٢) سورة مريم آية رقم ٦٧ .

كما قال ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[1].

وكونه مركباً من جواهر فردة ليس صحيحاً ، ولو كان صحيحاً لم يكن معلوماً إلا بأدلة دقيقة لا تكون هي أصل الدين الذي هو مقدمات أولية ، فإن تلك المقدمات يجب أن تكون بينة أولية معلومة بالبديهة .

فطريقهم تضمن جحد المعلوم ، وهو حدوث الأعيان الحادثة ، وهذا معلوم للخلق ، وإثبات ما ليس بمعلوم ، بل هو باطل ، ولأن الأحداث لها إنما [هو] جمع وتفريق للجواهر ، وأنه إحداث أعراض فقط .

ولهذا كان استدلالهم بطريقة الجواهر والأعراض على هذا الوجه مما أنكره عليهم أئمة الدين ، وبينوا أنهم مبتدعون في ذلك ، بل بينوا ضلالهم شرعاً وعقلاً ، كما بسط كلام السلف والأئمة عليهم في غير هذا الموضع ، إذ هو كثير .

فالقرآن استدل بما هو معلوم للخلق من أنه ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ وهؤلاء جاؤوا إلى هذا المعلوم فزعموا أنه غير معلوم ، بل هو مشكوك فيه ، ثم زعموا أنهم يذكرون الدليل الذي به يصير معلوماً ، فذكروا دليلاً باطلاً لا يدل على حدوثه ، بل يظن أنه دليل وهو شبهة ، ولها لوازم فاسدة .

فأنكروا المعلوم بالعقل ، ثم الشرع ، وادعوا طريقاً معلومة بالعقل وهي باطلة في العقل ، والشرع . فضاهوا الذين قال الله فيهم : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[2].

وكذلك في إثبات النبوات وإمكانها ، وفي إثبات المعاد وإمكانه ، عدلوا عن الطريق الهادية ـ التي توجب العلم اليقيني التي هدى الله بها عباده ـ إلى طريق تورث الشك والشبهة والحيرة ، ولهذا قيل : غاية المتكلمين المبتدعين

---

(١) سورة العلق آية رقم ٢ .

(٢) سورة الملك آية رقم ١٠ .

الشك ، وغاية الصوفية المبتدعين الشطح .

ثم لها لوازم باطلة مخالفة للعقل والشرع ، فألزموا لوازمها التي أوجبت لهم السفسطة في العقليات ، والقرمطة في السمعيات ، وتكلموا في دلائل النبوة والمعاد ، ودلائل الربوبية بأمور . وزعموا أنها أدلة وهي عند التحقيق ليست بأدلة ، ولهذا يطعن بعضهم في أدلة بعض .

وإذا استدلوا بدليل صحيح فهو مطابق لما جاء به الرسول وإن تنوعت العبادات .

ولهذا قد يستدل بعضهم بدليل - إما صحيح وإما غير صحيح - فيطعن فيه آخر ، ويزعم أنه يذكر ما هو خير منه ، ويكون الذي يذكره دون ما ذكره ذاك . وهذا يصيبهم كثيراً في الحدود - يطعن هؤلاء في حد هؤلاء ، ويذكرون حدّاً مثله أو دونه .

وتكون الحدود كلها من جنس واحد ، وهي صحيحة إذا أريد بها التمييز بين المحدود وغيره ، وأما من قال : إن الحدود تفيد تصوير ماهية المحدود ، كما يقوله أهل المنطق ، فهؤلاء غالطون ضالون ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وإنما الحد معرف للحدود ، ودليل عليه ، بمنزلة الاسم ، لكنه يفصل ما دل عليه الاسم بالاجمال فهو نوع من الأدلة ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

إذ المقصود هنا التنبيه على الفرق بين الطريق المفيد للعلم واليقين - كالتي بينها القرآن - وبين ما ليس كذلك من طرق أهل البدع الباطلة شرعاً وعقلاً .

فصـــل

الأعراض دليل الحدوث عند المتكلمين

وهؤلاء الـذين بنوا أصـل دينهم على طريقـة الأعراض والاستـدلال بهـا على حدوث الأجسام اضطربوا كثيراً ، كما قد بسط في مواضع ، ولا بد لكـل منهم مع مخالفته للشرع المنزل من السماء إلى أن يخالف أيضاً صريح العقـل ويكابر ، فيكون ممن لا يسمع ولا يعقل .

فإن القول لـه لوازم ، فـإذا كان بـاطلاً فقـد يستلزم أموراً بـاطلة ظاهـرة البطلان ، وصاحبه يريد إثبات تلك اللوازم ، فيظهر مخالفته للحس والعقل .

كالذين أثبتوا الجواهر المنفردة وقـالوا إن الحـركات في نفسهـا لا تنقسم إلى سـريع وبـطيء ، إذ كانت الحـركة عنـدهم منقسمة كـانقسام المتحـرك ، وكذلك الزمان وأجزاء الزمـان ، والحركـة والمتحرك عنـدهم واحد لا ينقسم ، فـإذا كان المتحـركان سـواء وحركـة أحدهمـا أسرع قـالوا : إنمـا ذاك لتخلل السكنات ، وادعو أن الرحا والدولاب وكل مستدير إذا تحرك فإن زمـان حركـة المحيط والـطوق الصغيـر واحـد مـع كثـرة أجـزاء المحيط ، فيجب أن تكـون حركتها أكثـر ، فيكون زمـانها أكثـر ، وليس هو بـأكثر ، فـادعوا أنهـا تنفك ثم تتصل ، وهذه مكابرة من جنس « طفرة النظام »[1] .

---

(١) هو ابراهيم بن سيار بن هانىء البصـري أبو اسحـاق النظام من أئمـة المعتزلـة . قال الجـاحظ : الأوائـل يقولـون في كل ألف سنـة رجل لا نـظير له فـإن صـح ذلـك فأبوا اسحـاق من هؤلاء =

وكذلك الذين قالوا بأن العرض لا يبقى زمانين خالفوا الحسن وما يعلمه العقلاء بضرورة عقولهم ، فإن كل أحد يعلم أن لون جسده الذي كان لحظة هو هذا اللون ، وكذلك لون السماء والجبال ، والخشب ، والورق ، وغير ذلك .

ومما ألجأهم إلى هذا ظنهم أنهما لو كانا باقيين لم يمكن إعدامهما ، فإنهم في إفناء الله الأشياء إذا أراد أن يفنيها ، كما حاروا في إحداثها ، وحيرتهم في الإفناء أظهر . هذا يقول : يخلق فناء لا في محل ، فيكون ضداً لها ، فتفنى بضدها ، وهذا يقول : يقطع عنها الأعراض مطلقاً ، أو البقاء الذي لا تبقى إلا به ، فيكون فناؤ ها لفوات شرطها .

ومن أسباب ذلك ظنهم ، أو ظن من ظن منهم ، أن الحوادث لا تحتاج إلى الله إلا حال إحداثها ، لا حال بقائها ، وقد قالوا إنه قادر على إفنائها . فتكلفوا هذه الأقوال الباطلة .

وهؤلاء لا يحتجون على بقاء الرب بافتقار العالم إليه ، بل بأنه قديم ، وما وجب قدمه امتنع عدمه ، وإلا فالباقي حال بقائه لا يحتاج إلى الرب عندهم .

وهؤلاء شر من الذين سألوا موسى : هل ينام ربك ؟ فضرب الله لهم المثل بالقارورتين لما أرق موسى ليالي ، ثم أمره بإمساك القارورتين فلما أمسكهما غلبه النوم فتكسرتا ، فبين الله له لو أخذته سنة أو نوم لتدكدك العالم[1] .

= الضلال ـ وصدق فيما قال : رأس الفرقة النظامية ـ قد الفت كتب في الرد على ضلاله وكفره ـ وفي لسان الميزان أنه متهم بالزندقة .

راجع تاريخ بغداد ٦ : ٩٧ واللباب ٣ : ٢٣٠ وخطط المقريزي ١ : ٣٤٦ .

(١) قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرنا الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس ـ في قوله ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله عز وجل . . ؟ =

وعلى رأي هؤلاء لو أخذته سنة أو نوم لم يعدم الباقي ، لكن منهم من يقول : هو محتاج إلى إحداث الأعراض متوالية ، لأن العرض عنده لا يبقى زمانين ، فمن هذا الوجه يقول : إذ لو أخذته سنة أو نوم لم تحدث الأعراض التي تبقى بها الأجسام ، لا لأن الأجسام في نفسها مفتقرة إليه في حال بقائها عنده .

وكذلك يقولون : إن الإرادة لا تتعلق بالقديم ، ولا بالباقي ، وكذلك القدرة عندهم لا تتعلق بالباقي ، ولا العجز يصح أن يكون عجزاً عن الباقي والقديم عندهم . لأن العجز عندهم إنما يكون عجزاً عما تصح القدرة عليه .

وهؤلاء يقولون : علة الافتقار إلى الخالق مجرد الحدوث ، وآخرون من المتفلسفة يقولون : هو مجرد الإمكان ، ويدعون أن القديم الأزلي الذي لم يزل ولا يزال هو مفتقر إلى الصانع . فهذا يدعي أن الباقي المحدث لا يفتقر ، وهذا يدعي أن الباقي القديم يفتقر ، وكلا القولين فاسد ، كما قد بسط في مواضع .

= فأوحى الله الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثاً فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما قال : فجعل ينعس وهما في يده في كل يد واحدة قال : فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب احداهما بالأخرى فكسرهما . قال معمر : إنما هو مثل ضربه الله عز وجل يقول فكذلك السموات والأرض في يده .

وهكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق فذكره قال ابن كثير : وهو من أخبار بني اسرائيل ـ وهو مما يعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل ، وأنه منزّه عنه .

* وروى ابن جرير : حدثنا اسحاق بن أبي اسرائيل ، حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي عكرمة عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال : وقع في نفس موسى هل ينام الله . . ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام وكادت يداه يلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومه فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان . قال ضرب الله عز وجل مثلاً ان الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جداً ، والأظهر أنه إسرائيلي .

والحق أن كل ما سوى الله حادث ، وهو مفتقر إليه دائماً ، وهو يبغيه ويعدمه ، كما ينشئه ويحدثه ، كما يحدث الحوادث من التراب وغيره ثم يفنيها ويحيلها إلى التراب وغيره .

وهؤلاء ادعى كثير منهم أن كل ما سوى الله يعدم ثم يعاد . وبعضهم قال : هذا ممكن ، لكنه موقوف على الخبر ، والخبر لم يتعرض لذلك بنفي ولا إثبات ، وهذا هو المعاد عندهم .

وهذا لم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا دل عليه عقل ، بل الكتاب والسنة يبين أن الله يحيل العالم من حال إلى حال ، كما يشق السماء ، ويجعل الجبال كالعهن ، ويكور الشمس ، إلى غير ذلك مما أخبر الله في كتابه ـ لم يخبر أن جميع الأشياء تعدم ثم تعاد .

ثم منهم من يقول : إنها تعدم بعد ذلك لامتناع وجود حوادث لا آخر لها ، كما تقوله الجهمية ، وهذا مما أنكره عليهم السلف والأئمة ، كما قد ذكر في غير هذا الموضع .

وهؤلاء إنما قالوا هذا طرداً لقولهم بامتناع دوام جنس الحوادث ، وقالوا : ما وجب أن يكون له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء ، كما قد بسط هذا وبين فساد هذا الأصل .

فصل

في أطوار الخلق والبعث

وهو سبحانه تارة يذكر خلق الإنسان مجملاً ، وتارة يذكره مفصلاً ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ـ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينُ ﴾[1] ثم ذكر المعادين الأصغر والأكبر فقال : ﴿ ثُمَّ اِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[2] .

ومن الناس من يقول : لم دخلت لام التوكيد في الموت وهو مشاهد ، ولم تدخل في البعث وهو غيب فيحتاج إلى التوكيد ؟ وذلك ـ والله أعلم ـ أن المقصود بذكر الموت والبعث هو الإخبار بالجزاء والمعاد ، وأول ذلك هو الموت . فنبه على الإيمان بالمعاد ، والاستعداد لما بعد الموت .

وهو انما قال « تبعثون » فقط ، ولم يقل « تجازون» لكن قد علم ان البعث للجزاء .

وأيضاً ، ففيه تنبيه على قهر الإنسان وإذلاله . يقول : بعد هذا كله أنك تموت ، فترد إلى أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

---

(١) سورة المؤمنون الآيات رقم ١٢ ـ ١٤ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١٥ ـ ١٦ .

كما قال : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾[1] .

وهذا الرد هو بالموت ، فإنه يصير في أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كما قال : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ** ﴾[2]وقال : ﴿ **إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ** ﴾[3] .

وفي قوله ﴿ **أسفل سافلين** ﴾ قولان . قيل : الهرم . وقيل : العذاب بعد الموت ، وهذا هو الذي دلت عليه الآية قطعاً ، فإنه جعله في أسفل سافلين إلا المؤمنين . والناس نوعان : فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل\ سافلين ، والمؤمن في عليين .

وأما القول الأول ففيه نظر ، فإنه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد إلى أسفل سافلين ، بل كثير من الكفار يموت قبل الهرم ، وكثير من المؤمنين يهرم ، وإن كان حال المؤمن في الهرم أحسن حالاً من الكافر ، فكذلك في الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر فجعل الرد إلى أسفل سافلين في آخر العمر وتخصيصه بالكفار ضعيف .

ولهذا قال بعضهم إن الاستثناء منقطع على هذا القول ، وهو أيضاً ضعيف ، فإن المنقطع لا يكون في الموجب ، ولو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعي في أي استثناء شاء أنه منقطع ، وأيضاً فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول ، والمؤمنون بعض نوع الإنسان .

وقد فسر ذلك بعضهم ـ على القول الأول ـ بأن المؤمنين يكتب له ما كان يعمله إذا عجز ، قال إبراهيم النخعي[4]: إذا بلغ المؤمن من الكبر ما

---

(١) سورة التين آية رقم ٤ ـ ٦ .

(٢) سورة المطففين آية رقم ٧ .

(٣) سورة المطففين آية رقم ١٨ .

(٤) هو ابراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران النخعي من مذحج من أكابر التابعين صلاحاً =

يعجز عن العمل كتب الله له ما كان يعمل ، وهو قوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[1] وقال ابن قتيبة[2] : المعنى « إلا الذين آمنوا » في وقت القوة والقدرة فإنهم في حال الكبر غير منقوصين وإن عجزوا عن الطاعات ، فإن الله يعلم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير فهو يجري لهم أجر ذلك .

فيقال : وهذا أيضاً ثابت في حال الشباب إذا عجز الشاب لمرض أو سفر ، كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »[3] .

وفسره بعضهم بما روي عن ابن عباس أنه قال : من قرأ القرآن فإنه لا يرد إلى أرذل العمر ، فيقال : هذا مخصوص بقارىء القرآن ، والآية استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء قرأوا القرآن أو لم يقرأوه وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها »[4] .

= وصدق رواية وحفظاً للحديث من أهل الكوفة . مات مختفياً من الحجاج عام ٩٦ هـ قال فيه الصلاح الصفدي فقيه العراق . كان اماماً مجتهداً له مذهب ، ولما بلغ الشعبي موته قال : والله ما ترك بعده مثله .

راجع طبقات ابن سعد ٦ : ١٨٨ - ١٩٩ .

(١) سورة التين آية رقم ٦ .

(٢) سبق الترجمة له وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ والأنباري ٢٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٦٠ .

(٣) الحديث رواه الامام احمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٩٤ حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ثنا وكيع واسحاق يعني الأزرق قالا ثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ وذكره مع اختلاف في بعض الألفاظ ورواه أبو داود في الجنائز ١ .

(٤) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين ٣٧ باب فضيلة حافظ القرآن ٢٤٣ (٧٩٧) عن قتادة عن أنس عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ وذكره . وفيه زيادة ومثل =

وأيضاً فيقال : هرم الحيوان ليس مخصوصاً بالإنسان ، بل غيره من الحيوان إذا كبر هرم .

وأيضاً ، فالشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب ، ولو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا رداً إلى أسفل سافلين ، فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف كقوله : ﴿ **ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً** ﴾[1]وقوله : ﴿ **وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ** ﴾[2]فهو يعيده إلى حال الضعف ، ومعلوم ان الطفل ليس هو في أسفل سافلين فالشيخ كذلك وأولى .

وإنما في أسفل سافلين من يكون في سجين ، لا في عليين ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ** ﴾[3] .

ومما يبين ذلك قوله ؛ ﴿ **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ**[4]﴾ فإنه يقتضي ارتباط هذا بما قبله لذكره بحرف الفاء ، ولو كان المذكور إنما هو رده إلى الهرم دون ما بعد الموت لم يكن هناك تعرض للدين والجزاء . بخلاف ما إذا كان المذكور أنه بعد الموت يرد إلى أسفل سافلين غير المؤمن المصلح ، فإن هذا يتضمن الخبر بأن الله يدين العباد بعد الموت ـ فيكرم المؤمنين ، ويهين الكافرين .

وأيضاً ، فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة ـ بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، وهي المواضع التي جاء منها محمد ، والمسيح ، وموسى ، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين .

= المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر . ورواه البخاري في الأطعمة ٣٠ وفضائل القرآن ١٧ ، ٣٦ والتوحيد ٥٧ والترمذي في الأدب ٧٩ .

(١) سورة الروم آية رقم ٥٤ .

(٢) سورة يس آية رقم ٦٨ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٤٥ .

(٤) سورة التين آية رقم ٧ .

وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد ، بل على الأمور الغائبة التي تؤكد بالإقسام ، فإن إقسام الله هو على أبناء الغيب .

وفي نفس المقسم به ـ وهو إرسال هؤلاء الرسل ـ تحقيق للمقسم عليه ـ وهو الثواب والعقاب بعد الموت ـ لأن الرسل أخبروا به .

وهو يتضمن أيضاً الجزاء في الدنيا كإهلاك من أهلكهم من الكفار ، فإنه ردهم إلى أسفل سافلين بهلاكهم في الدنيا ، وهو تنبيه على زوال النعم إذا حصلت المعاصي ، كمن رد في الدنيا إلى أسفل جزاء على ذنوبه .

وقوله : ﴿ **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ** ﴾[1]ـ أي الجزاء ـ يتناول جزاءه على الأعمال في الدنيا ، والبرزخ ، والآخرة ، إذ كان قد أقسم بأماكن هؤلاء المرسلين الذين أرسلوا بالآيات البينات الدالة على أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ـ مبشرين لأهل الإيمان ، منذرين لأهل الكفر ، وقد أقسم بذلك على أن الإنسان بعد أن جعل في أحسن تقويم إن آمن وعمل صالحاً كان له أجر غير ممنون وإلا كان في أسفل سافلين .

فتضمنت السورة بيان ما بعث به هؤلاء الرسل الذين أقسم بأماكنهم ، والإقسام بمواضع محنهم تعظيم لهم ، فإن موضع الإنسان إذا عظم لأجله كان هو أحق بالتعظيم ، ولهذا يقال في المكاتبات « إلى المجلس ، والمقر ـ ونحو ذلك ـ السامي ، والعالي » ، ويذكر بخضوع له وتعظيم والمراد صاحبه .

فلما قال : ﴿ **فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ** ﴾[2]دل على أن ما تقدم قد بين فيه ما يمنع التكذيب بالدين .

وفي قوله ﴿ **يكذبك** ﴾ قولان : قيل : هو خطاب للإنسان كما قال مجاهد وعكرمة ، ومقاتل ، ولم يذكر البغوي غيره . قال عكرمة ، يقول : فما

---

(١) سورة التين آية رقم ٧ .

(٢) سورة التين آية رقم ٧ .

يكذبك بعد بهذه الأشياء التي فعلت بك ، وعن مقاتل : فما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء ، وزعم أنها نزلت في عباس[1] بن أبي ربيعة .

والثاني أنه خطاب للرسول ، وهذا أظهر ، فإن الإنسان إنما ذكر مخبراً عنه ـ لم يخاطب ، والرسول هو الذي أنزل عليه القرآن ، والخطاب في هذه السورة له ، كقوله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[2] وقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[3] وقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[4].

والإنسان إذا خوطب قيل له ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ﴾[5] ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً ﴾[6].

وأيضاً فبتقدير أن يكون خطاباً للإنسان يجب أن يكون خطاباً للجنس ، كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾[7]، وعلى قول هؤلاء إنما هو خطاب للكافر خاصة ـ المكذب بالدين..

وأيضاً فإن قوله ﴿ يكذبك بعد بالدين ﴾ . أي يجعلك كاذباً ، هذا هو المعروف من لغة العرب ، فإن استعمال « كذب غيره » أي نسبه إلى الكذب وجعله كاذباً » مشهور ، والقرآن مملوء من هذا ، وحيث ذكر الله تكذيب

---

(١) هو عياش بن أبي ربيعة واسم أبي ربيعة : عمرو بن المغيرة بن عبد الله يكنى أبا عبد الرحمن ، وقيل : يكنى ابا عبد الله ـ هو أخو أبي جهل بن هشام لأمه ، أمهما ام الجلاس ، واسمها اسماء بنت مخربة كان اسلامه قديماً قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم وهاجر عياش رضي الله عنه الى أرض الحبشة مع امرأته أسماء بنت سلمة ، وولد له بها ابنه عبد الله ثم هاجر الى المدينة فجمع بين الهجرتين .
راجع الاستيعاب ٣ : ١٢٣٠ ـ ١٢٣١ ـ ١٢٣٢ .

(٢) سورة الضحى آية رقم ٣ .

(٣) سورة الشرح آية رقم ١ .

(٤) سورة العلق آية رقم ١ .

(٥) سورة الانفطار آية رقم ٦ .

(٦) سورة الانشقاق آية رقم ٦ .

(٧) سورة الانشقاق آية رقم ٦ .

المكذبين للرسل ، أو التكذيب بالحق ، ونحو ذلك فهذا مراده .

لكن هذه الآية فيها غموض من جهة كونه قال ﴿ **يكذبك بعد بالدين** ﴾ فذكر المكذب بالدين - فذكر المكذب والمكذب به جميعاً . وهذا قليل - جاء نظيره في قوله ﴿ **فقد كذبوكم بما تقولون** ﴾ - فأما أكثر المواضع فإنما يذكر أحدهما - إما المكذب كقوله : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[1] وإما المكذب به ، كقوله ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ** ﴾[2]. وأما الجمع بين ذكر المكذب والمكذب به فقليل .

ومن هنا اشتبهت هذه الآية على من جعل الخطاب فيها للإنسان وفسر معنى قوله ﴿ **فما يكذبك** ﴾ : فما يجعلك مكذباً .

وعبارة آخرين : فما يجعلك كذاباً ، قال ابن عطية : وقال جمهور من المفسرين : المخاطب الإنسان الكافر ، أي ما الذي يجعلك كذاباً بالدين - تجعل لله أنداداً ، وتزعم أن لا بعث - بعد هذه الدلائل ؟ . « قلت » وكلا القولين غير معروف في لغة العرب ، أن يقول « كذبك ، أي جعلك مكذباً » ، بل « كذبك : جعلك كذاباً » .

وإذا قيل « جعلك كذاباً » . أي كاذباً فيما يخبر به ، كما جعل الكفار الرسل كاذبين فيما أخبروا به فكذبوهم ، وهذا يقول : جعلك كاذباً بالدين ، فجعل كذبه أنه أشرك وأنه أنكر المعاد ، وهذا ضد الذي ينكر .

ذاك جعله مكذباً بالدين وهذا جعله كاذباً بالدين ، والأول فاسد من جهة العربية ، والثاني فاسد من جهة المعنى ، فإن الدين هو الجزاء الذي كذب به الكافر ، والكافر كذب به ، لم يكذب هو به .

وأيضاً ، فلا يعرف في المخبر أن يقول « كذبت به » بل يقال « كذبته » .

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ١١ وتكملة الآية ﴿ **واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً** ﴾ .

وأيضاً ، فالمعروف في « كذبه » أي نسبه إلى الكذب ، لا أنه جعل الكذب فيه ، فهذا كله تكلف لا يعرف في اللغة ، بل المعروف خلافه . وهو لم يقل « فما يكذبك » ولا قال « فما كذبك » .

ولهذا كان علماء العربية على القول الأول . قال ابن عطية : واختلف في المخاطب بقوله ﴿ فما يكذبك ﴾ فقال قتادة ، والفراء ، والاخفش ، هو محمد ﷺ ، قال الله له : « فما الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث ـ وهو الدين ـ بعد هذه العبرة التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت »؟ .

قال : ويحتمل أن يكون الدين على هذا التأويل جميع شرعه ودينه .

«قلت » : وعلى أن المخاطب محمد ﷺ في المعنى قولان ، أحدهما قول قتادة ، قال: ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ أي استيقن ، فقد جاءك البيان من الله ، وهكذا روى عنه ابن أبي حاتم باسناد ثابت .

وكذلك ذكره المهدوي : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ أي استيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين ، فالخطاب للنبي ﷺ وقال : معناه عن قتادة . قال : وقيل المعنى : فما يكذبك أيها الشاك ـ يعني الكافر ـ في قدرة الله ؟ أي شيء يحملك على ذلك بعدما تبين لك من قدرته ؟ قال وقال الفراء : فما يكذبك بالثواب والعقاب ؟ وهو اختيار الطبري(1) .

«قلت »: هذا القول المنقول عن قتادة هو الذي أوجب نفور مجاهد عن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ ، كما روى الناس ـ ومنهم ابن أبي حاتم ، عن

---

(1) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر ، المؤرخ المفسر الإمام ، ولد عام ٢٢٤ هـ في آمل (طبرستان) واستوطن بغداد وتوفي بها ، وعرض عليه القضاء فامتنع ، والمظالم فأبى ، له (أخبار الرسل والملوك) يعرف بتاريخ الطبري ، وجامع البيان في تفسير القرآن ، واختلاف الفقهاء وغير ذلك كثير ، كانت وفاته عام ٣١٠ هـ .

راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ والوفيات ١ : ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢ : ١٣٥ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٥ و ٤١٥ ، ثم ٢ : ١٧٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٥ وميزان الاعتدال ٣ : ٣٥ وتاريخ بغداد ٢ : ١٦٢ .

الثوري : عن منصور قال ، قلت لمجاهد : ﴿ **فما يكذبك بعد بالدين** ﴾ عنى به النبي ﷺ؟ قال : معاذ الله ؟ عنى به الإنسان .

وقد أحسن مجاهد في تنزيه النبي ﷺ ان يقال لـه ﴿ **فما يكـذبك** ﴾ أي استيقن ، ولا تكذب ، فإنه لو قيل له « لا تكـذب » لكان ذلـك من جنس أمره بالإيمان والتقوى ، ونهيه عما نهى الله عنه ، وأمـا إذا قيل ﴿ **فمـا يكذبـك بعد بالدين** ﴾ فهو لم يكذب بالدين ، بل هو الذي أخبر بـالدين وصـدق به ، فهـو ﴿ **الَّـذِي جَاءَ بِـالصِّدْقِ وَصَـدَّقَ بِهِ** ﴾[1] فكيف يقـال له : ﴿ **مـا يكـذبـك بعـد بالدين** ﴾؟ فهذا القول فاسد لفظاً ومعنى . واللفظ الذي رأيتـه منقولاً بـالإسناد عن قتادة ليس صريحاً فيه ، بل يحتمل أن يكون أراد به خطاب الإنسان ، فإنه قال : ﴿ **فما يكذبك بعد بالدين** ﴾ قال : « استيقن ، فقد جاءك البيان » . وكل إنسان مخاطب بهذا ، فإذا كان قتادة أراد هذا فالمعنى صحيح .

لكن هم حكوا عنه أن هذا خطاب للرسول ﷺ وعلى هذا فهـذا المعنى باطل ، فلا يقال للرسول « فأي شيء يجعلك مكذباً بـالدين ؟» وإن ارتـأت به النفس ، لأن هذا فيه دلائل تدل على فساده ، ولهذا استعاذ منه مجاهد .

والصواب ما قاله الفراء ، والاخفش ، وغيرهما ، وهو الـذي اختاره أبـو جعفر محمد بن جرير الطبري ، وغيره من العلماء كما تقدم .

وكـذلك ذكـره أبو الفـرج بن الجوزي عن الفـراء ، فقال : إنـه خـطاب للنبي ﷺ، والمعنى : فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين لـه أنا خلقنا الإنسان على ما وصفنا ، قاله الفراء .

قال : وأما ﴿ **الدين** ﴾ فهو الجـزاء « قلت »: وكذلـك قال غيـر واحد ، كما روى ابن أبي حاتم عن النضر بن عربي : ﴿ **فمـا يكذبـك بعد بـالدين** ﴾ أي بالحساب .

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٣٣ .

ومن تفسير العوفي عن ابن عباس : أي بحكم الله ، قلت : قال « بحكم الله » لقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ ﴾[1] وهو سبحانه يحكم بين المصدق بالدين والمكذب به .

وعلى هذا ، قوله ﴿ فما ﴾ وصف للأشخاص ، ولم يقل « فمن » لأن « ما » يراد به الصفات دون الأعيان ، وهو المقصود ، كقوله: ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ ﴾[2] وقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[3]، وقوله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾[4]، كأنه قيل : فما المكذب بالدين بعد هذا ؟ أي من هذه صفته ونعته هو جاهل ظالم لنفسه ، والله يحكم بين عباده فيما يختلفون فيه من هذا النبأ العظيم .

وقوله « بعد » قد قيل إنه « بعد ما ذكر من دلائل الدين » وقد يقال : لم يذكر إلا الإخبار به ، وأن الناس نوعان : في أسفل سافلين ، ونوع لهم أجر غير ممنون .

فقد ذكر البشارة والنذارة ، والرسل بعثوا مبشرين ومنذرين ، فمن كذبك بعد هذا فحكمه إلى الله أحكم الحاكمين وأنت قد بلغت ما وجب عليك تبليغه .

وقوله ﴿ فما يكذبك ﴾ ليس نفياً للتكذيب ، فقد وقع ، بل قد يقال إنه تعجب منه ، كما قال : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[5].

وقد يقال إن هذا تحقير لشأنه وتصغير لقدره لجهله وظلمه ، كما يقال :

---

(١) سورة التين آية رقم ٨ .
(٢) سورة النساء آية رقم ٣ .
(٣) سورة الكافرون آية رقم ٢ .
(٤) سورة الشمس آية رقم ٧ .
(٥) سورة الرعد آية رقم ٥ .

« من فلان ؟ » و« من يقول هذا إلا جاهل ؟ » لكنه ذكره بصيغة « ما » فإنها تدل على صفته ، وهي المقصودة ، إذ لا غرض في عينه ، كأنه قيل « فأي صنف وأي جاهل يكذبك بعد بالدين ؟ فإنه من الذين يردون إلى أسفل سافلين » وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ ﴾[1]يدل على أنه الحاكم بين المكذب بالدين والمؤمن به ، والأمر في ذلك له سبحانه وتعالى .

والقرآن لا تنقضي عجائبه ، والله سبحانه بين مراده بياناً أحكمه ، لكن الاشتباه يقع على من لم يرسخ في علم الدلائل الدالة ، فإن هذه السورة وغيرها فيها عجائب لا تنقضي .

منها أن قوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾[2]ذكر فيه الرسول المكذب والدين المكذب به جميعاً ، فإن السورة تضمنت الأمرين ، تضمنت الإقسام بأماكن الرسل المبينة لعظمتهم ، وما أتوا به من الآيات الدالة على صدقهم الموجبة للإيمان ، وهم قد أخبروا بالمعاد المذكور في هذه السورة .

وقد أقسم الله عليه كما يقسم عليه في غير موضع ، وكما أمر نبيه أن يقسم عليه في مثل قوله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾[3]وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[4] .

فلما تضمنت هذا وهذا ذكر نوعي التكذيب ، فقال ﴿ **فما يكذبك بعد بالدين** ﴾ . والله سبحانه أعلم .

وأيضاً ، فإنه لا ذنب له في ذلك ، والقرآن مراده أن يبين أن هذا الرد

---

(١) سورة التين آية رقم ٨ .

(٢) سورة التين آية رقم ٧ .

(٣) سورة التغابن آية رقم ٧ .

(٤) سورة سبأ آية رقم ٣ .

جزاء على ذنوبه ، ولهذا قال : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[1] كما قال: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[2].

لكن هنا ذكر الخسر فقط ، فوصف المستثنين بأنهم تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر مع الإيمان والصلاح ، وهناك ذكر أسفل سافلين ، وهو العذاب ، والمؤمن المصلح لا يعذب ، وإن كان قد ضيع أموراً خسرها ـ لو حفظها لكان رابحاً غير خاسر ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أنه سبحانه يذكر خلق الإنسان مجملاً ومفصلاً .

وتارة يذكر إحياءه ، كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3] وهو كقول الخليل عليه السلام ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾[4].

فإن خلق الحياة ولوازمها وملزوماتها أعظم وأدل على القدرة ، والنعمة والحكمة .

---

(١) سورة العصر آية رقم ٣ .

(٢) سورة العصر آية رقم ٢ ـ ٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .

فصـــل

الإنسان بين خلقه وتكريم الله له

قوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِـالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَـا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] سمى ووصف نفسه بالكرم ، وبأنه الأكرم ، بعد إخباره أنه خلق ليتبين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم إلى الغايات المحمودة ، كما قال في موضع آخر : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[2] وكما قال موسى عليه السلام ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[3] وكما قال الخليل عليه السلام ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[4] .

فالخلق يتضمن الابتداء ، والكرم تضمن الانتهاء ، كما قال في أم القرآن ، ﴿ رب العالمين ﴾ ثم قال ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ .

ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد ، لا يراد به مجرد الإعطاء بل الاعطاء من تمام معناه ، فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن ، والكرم كثرة الخير ويسرته .

ولهذا قال النبي ﷺ : « لا تسموا العنب الكرم ، فإنما الكرم قلب

---

(١) سورة العلق الآيات من ٣ ـ ٥ .

(٢) سورة الأعلى آية رقم ٢ ـ ٣ .

(٣) سورة طه آية رقم ٥٠ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٧٨ .

المؤمن »[1].

وهم سموا العنب « الكرم » لأنه أنفع الفواكه - يؤكل رطباً ويابساً، ويعصر فيتخذ منه أنواع :-

وهو اعم وجوداً من النخل - يوجد في عامة البلاد، والنخل لا يكون إلا في البلاد الحارة، ولهذا قال في رزق الإنسان ﴿ **فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلىٰ طَعَامِهِ . أنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَباً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ، وَعِنَباً وَقَضْباً ، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً ، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ، مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ** ﴾[2] فقدم العنب ، وقال في صفة الجنة ﴿ **إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ، حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً** ﴾[3].

ومع هذا نهى النبي ﷺ عن تسميته بالكرم وقال « الكرم قلب المؤمن» فإنه ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيراً من قلب المؤمن .

والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم ، قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾[4]قال ابن قتيبة : من كل جنس حسن . وقال الزجاج : الزوج النوع ، والكريم المحمود ، وقال غيرهما ، ﴿ **من كل زوج** ﴾ صنف وضرب ، ﴿ **كريم** ﴾ حسن ، من النبات مما يأكل الناس والأنعام : يقال « نخلة كريمة » إذا طاب حملها ، و « ناقة

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ١٠٢ باب قول النبي ﷺ « إنما الكرم قلب المؤمن » .
٦١٨٣ - حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان عن الزهري عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - وذكره .
ورواه الامام مسلم في ألفاظ ٦ - ١٠ ، ١٢ ، وأبو داود في كتاب الأدب ٧٤ ، والدارمي في الأشربة ١٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٢٩ ، ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٣١٦ ، ٤٦٤ ، ٤٧٦ ، ٥٠٩ (حلبي) .

(٢) سورة عبس آية رقم من ٢٤ - ٣٢ .

(٣) سورة النبأ آية رقم ٣١ - ٣٢ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٧ .

كريمة » إذا كثر لبنها .

وعن الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريمٌ، ومن دخل النار فهو لئيم .

والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه ، وفيهم من يهينه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ وَمن يهن الله فما له من مكرم ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[2].

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : « وإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »[3]وكرائم الأموال : التي تكرم على أصحابها لحاجتهم إليها وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها .

وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف لها ، فدل أنه الأكرم وحده ، بخلاف ما لو قال « وربك أكرم » فإنه لا يدل على الحصر ، وقوله ﴿الأكرم﴾ يدل على الحصر .

ولم يقل « الأكرم من كذا » بل أطلق الأسم ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد ، فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه .

قال ابن عطية : ثم قال له تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ على جهة التأنيس ، كأنه يقول : امض لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب ، بل هو

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٣ .

(٢) سورة الحج آية رقم ١٨ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الزكاة ٤١ ـ باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ١٤٥٨ بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه أيضاً في كتاب التوحيد ١ باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته الى توحيد الله تبارك وتعالى ، ٧٣٧٢ بسنده عن ابن عباس أيضاً .
ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٩ ـ ٣١ وأبو داود في الزكاة ٥ والترمذي في الزكاة ٦ ، والنسائي في الزكاة ٤٦ ، وابن ماجه في الزكاة ١ والدارمي في الزكاة ١ ، ٩ واحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٣٣ (حلبي) .

الأكرم الذي لا يلحقه نقص ، فهو ينصرك ويظهرك .

(قلت) وقد قال بعض السلف : « لا يهدين أحدكم لله ما يستحيي أن يهديه لكريمه ، فإن الله أكرم الكرماء » أي هو أحق من كل شيء بالإكرام ، إذ كان أكرم من كل شيء .

وهو سبحانه ذو الجلال والإكرام ، فهو المستحق لأن يحل ، ولأن يكرم ، والإجلال يتضمن التعظيم ، والإكرام يتضمن الحمد والمحبة .

وهذا كما قيل في صفة المؤمن : إنه رزق حلاوة ومهابة .

وفي حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ : « من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه »[(1)] .

وهذا لأنه سبحانه له الملك وله الحمد .

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن أهل السنة يصفونه بالقدرة الإلهية ، والحكمة ، والرحمة ، وهم الذين يعبدونه ، ويحمدونه ، وأنه يجب أن يكون هو المستحق لأن يعبد دون ما سواه ، والعبادة تتضمن غاية الذل وغاية الحب . وأن المنكرين لكونه يحب من الجهمية ومن وافقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يعبد ، كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة ، ولا رحمة يقتضي أنه لا يحمد .

فهم إنما يصفونه بالقدرة والقهر ، وهذا إنما يقتضي الإحلال فقط لا يقتضي الإكرام والمحبة ، والحمد ، وهو سبحانه الأكرم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾[(2)]ثم قال ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ،

---

(1) الحديث رواه ابن سعد في طبقاته وهو كبير كثير أخبرنا مالك بن اسماعيل أبو غسان النهدي ، أخبرنا جميع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي ، حدثني رجل بمكة عن ابن لأبي هالة التميمي عن الحسن بن علي قال : سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي ، وكان وصافاً عن حلية رسول الله ﷺ ، وأنا اشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به فقال : كان رسول الله ﷺ وذكره .

(2) سورة البروج آية رقم ١٢ - ١٣ .

﴿ذُو العَرْشِ المَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[1] وقال شعيب ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ ، إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[2] .

وفي أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق ، وبأنه الأكرم ، والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقاً - مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقاً - لا يصفونه بالكرم ، ولا الرحمة ، ولا الحكمة .

وإن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها ، بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن ، ثم يلحدون في أسمائه ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فتارة يقولون : الحكمة هي القدرة ، وتارة يقولون : هي المشيئة ، وتارة يقولون : هي العلم .

وأن الحكمة ، وإن تضمنت ذلك واستلزمته ، فهي أمر زائد على ذلك ، فليس كل من كان قادراً أو مريداً كان حكيماً ، ولا كل من كان له علم يكون حكيماً ، حتى يكون عاملاً بعلمه .

قال ابن قتيبة وغيره : الحكمة هي العلم والعمل به ، وهي أيضاً : القول الصواب ، فتتناول القول السديد ، والعمل المستقيم الصالح .

والرب تعالى أحكم الحاكمين ، وأحكم الحكماء .

والإحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه ، وهم مع سائر الطوائف يستدلون بالاحكام على العلم ، وإنما يدل إذا كان الفاعل حكيماً يفعل لحكمة .

وهم يقولون إنه لا يفعل لحكمة ، وإنما يفعل بمشيئة تخص أحد المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص ، وهذا مناقض للحكمة ، بل هذا سفه .

---

(١) سورة البروج آية رقم ١٤ - ١٦ .

(٢) سورة هود آية رقم ٩٠ .

وهو قد نزه نفسه عنه في قوله : ﴿ **لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ، بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴾[1] .

وقد أخبر أنه إنما خلق السموات والأرض ، وما بينهما بالحق ، وأنه لم يخلقهما باطلاً ، وأن ذلك ظن الذين كفروا ، وقال : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً** ﴾[2]وقال : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً** ﴾[3]أي مهملاً ، لا يؤمر ولا ينهى ، وهذا استفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب .

والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه ، ولا تنزهه عن فعل وإن كان من منكرات الأفعال ، ولا تنعته بلوازم كرمه ، ورحمته ، وحكمته ، وعدله - فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك ، ولا يفعل ما يضاد ذلك .

بل تجوز كل مقدور أن يكون وأن لا يكون ، وإنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعي أو عادة مطردة مع تناقضهم في الإستدلال بالخبر - أخبار الرسل وعادات الرب ، كما بسط هذا في مواضع ، مثل الكلام على معجزات الأنبياء ، وعلى إرسال الرسل ، والأمر والنهي ، وعلى المعاد ، ونحو ذلك ، مما يتعلق بأفعاله وأحكامه الصادرة عن مشيئته ، فإنها صادرة عن حكمتهوعن رحمته ، ومشيئته مستلزمة لهذا وهذا - لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها [4]. فهم في الحقيقة

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ١٧ - ١٨ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ١١٥ .

(٣) سورة القيامة آية رقم ٣٦ .

(٤) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الأدب ١٨ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته .

٥٩٩٩ - حدثنا ابن أبي مريم حدثنا أبو غسان قال حدثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي =

لا يقرون بأنه الأكرم .

والإرادة التي يثبتونها لم يدل عليها سمع ولا عقل ، **فإنه لا تعرف إرادة** ترجح مراداً على مراد بلا سبب يقتضي الترجيح ، ومن **قال من الجهمية** والمعتزلة « إن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح » **فهو مكابر** .

وتمثيلهم ذلك بالجائع إذا أخذ أحد الرغيفين ، والهارب إذا سلك أحد الطريقين - حجة عليهم ، فإن ذلك لا يقع إلا مع رجحان أحدهما ، إما لكونه أيسر في القدرة ، وإما لأنه الذي خطر بباله وتصوره ، أو ظن أنه أنفع ، فلا بد من رجحان أحدهما بنوع ما إما من جهة القدرة ، وإما من جهة التصور والشعور ، وحينئذ يرجح إرادته ، والآخر لم يرده ، فكيف يقال إن إرادته رجحت أحدهما بلا مرجح ؟ أو إنه رجح إرادة هذا على إرادة ذاك بلا مرجح ؟ وهذا ممتنع يعرف امتناعه من تصوره حق التصور .

ولكن لما تكلموا في مبدأ الخلق بكلام ابتدعوه - خالفوا به الشرع والعقل - احتاجوا إلى هذه المكابرة ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، وبذلك تسلط عليهم الفلاسفة من جهة أخرى - فلا الإسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا .

ومعلوم بصريح العقل أن القادر إذا لم يكن مريداً للفعل ولا فاعلاً ، ثم صار مريداً فاعلاً فلا بد من حدوث أمر اقتضى ذلك .

والكلام هنا في مقامين . أحدهما في جنس الفعل والقول - هل صار فاعلاً متكلماً بمشيئته بعد أن لم يكن ، أو ما زال فاعلاً متكلماً بمشيئته ، وهذا مبسوط في مسائل الكلام والأفعال - في مسألة القرآن وحدوث العالم .

= إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي ﷺ أترون هذه طارحة ولدها في النار . . ؟ قلنا : لا وهي تقدر على أن لا تطرحه ، وذكره .

ورواه الامام مسلم في التوبة باب ٢٢ وأبو داود في كتاب الجنائز ١ باب وابن ماجه في كتاب الزهد ٣٥ باب .

والثاني إرادة الشيء المعين وفعله ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1]وقوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾[2]، وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾[3]، وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾[4]، وقوله : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾[5]وقوله : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِي اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾[6] .

وهو سبحانه إذا أراد شيئاً من ذلك فللناس فيها أقوال .

قيل : الإرادة قديمة أزلية واحدة ، وإنما يتجدد تعلقها بالمراد ، ونسبتها إلى الجميع واحدة ، ولكن من خواص الإرادة أنها تخصص بلا مخصص ، فهذا قول ابن كلاب ، والأشعري ، ومن تابعهما .

وكثير من العقلاء يقول : إن هذا فساده معلوم بالإضطرار ، حتى قال أبو البركات : ليس في العقلاء من قال بهذا .

وما علم أنه قول طائفة كبيرة من أهل النظر والكلام ، وبطلانه من جهات : من جهة جعل إرادة هذا غير إرادة ذاك ، ومن جهة أنه جعل الإرادة تخصص لذاتها ، ومن جهة أنه لم يجعل عند وجود الحوادث شيئاً حدث حتى تخصص أو لا تخصص ، بل تجددت نسبة عدمية ليست وجوداً ، وهذا ليس

---

(١) سورة يس آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة الكهف آية رقم ٨٢ .

(٣) سورة الاسراء آية رقم ١٦ .

(٤) سورة الرعد آية رقم ١١ .

(٥) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

(٦) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .

بشيء ، فلم يتجدد شيء ، فصارت الحوادث تحدث وتتخصص بلا سبب حادث ، ولا مخصص .

والقول الثاني : قول من يقول بإرادة واحدة قديمة مثل هؤلاء ، لكن يقول : تحدث عند تجدد الأفعال إرادات في ذاته بتلك المشيئة القديمة ، كما تقول الكرامية وغيرهم .

وهؤلاء أقرب من حيث أثبتوا إرادات الأفعال ، ولكن يلزمهم ما لزم أولئك من حيث أثبتوا حوادث بلا سبب حادث ، وتخصيصات بلا مخصص ، وجعلوا تلك الإرادة واحدة تتعلق بجميع الإرادات الحادثة وجعلوها أيضاً تخصص لذاتها ، لم يجعلوا عند وجود الإرادات الحادثة شيئاً حدث حتى تخصص تلك الإرادات الحدوث .

والقول الثالث قول الجهمية والمعتزلة الذين ينفون قيام الإرادة به ، ثم إما أن يقولوا بنفي الإرادة ، أو يفسرونها بنفس الأمر والفعل ، أو يقولوا بحدوث إرادة ، لا في محل كقول البصريين .

وكل هذه الأقوال قد علم أيضاً فسادها .

والقول الرابع : أنه لم يزل مريداً بإرادات متعاقبة ، فنوع الإرادة قديم وأما إرادة الشيء المعين فإنما يريده في وقته .

وهو سبحانه يقدر الأشياء ويكتبها ، ثم بعد ذلك يخلقها ، فهو إذا قدرها علم ما سيفعله ، وأراد فعله في الوقت المستقبل ، لكن لم يرد فعله في تلك الحال ، فإذا جاء وقته أراد فعله ، فالأول عزم والثاني قصد .

وهل يجوز وصفه بالعزم فيه قولان . أحدهما : المنع ، كقول القاضي أبي بكر ، والقاضي أبي يعلى ، والثاني : الجواز وهو أصح . فقد قرأ جماعة من السلف ﴿ فَإِذَا عَزَمْتُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾[1] بالضم ، وفي الحديث الصحيح من

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩ وأول الآية ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ =

حديث أم سلمة : ثم عزم الله لي[1]، وكذلك في خطبة مسلم : فعزم لي .

وسواء سمي « عزماً » أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها ، وأراد أن يفعلها في وقتها ، فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعين ، ونفس الفعل ، ولا بد من علمه بما يفعله .

ثم الكلام في علمه بما يفعله هل هو العلم المتقدم بما سيفعله ، وعلمه بأن قد فعله هل هو الأول ، فيه قولان معروفان ـ والعقل والقرآن يدل على أنه قدر زائد ، كما قال « لنعلم » في بضعة عشر موضعاً ، وقال ابن عباس : إلا لنرى .

وحينئذ ، فإرادة المعين تترجح لعلمه بما في المعين من المعنى المرجح لإرادته ، فالإرادة تتبع العلم .

وكون ذلك المعين متصفاً بتلك الصفات المرجحة إنما هو في العلم والتصور ، ليس في الخارج شيء.

ومن هنا غلط من قال « المعدوم شيء» حيث أثبتوا ذلك المراد في الخارج ، ومن لم يثبته شيئاً في العلم ، أو كان ليس عنده إلا إرادة واحدة وعلم واحد ، ليس للمعلومات والمرادات صورة علمية عند هؤلاء فهؤلاء نفوا كونه شيئاً في العلم والإرادة ، وأولئك أثبتوا كونه شيئاً في الخارج .

وتلك الصورة العلمية الإرادية حدثت بعد أن لم تكن ، وهي حادثة بمشيئته وقدرته ، كما يحدث [الحوادث] المنفصلة بمشيئته وقدرته . فيقدر

= القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الجنائز وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبي ، حدثنا سعد بن سعيد أخبرني عمر يعني ابن كثير عن ابن سفينة مولى أم سلمة عن ام سلمة زوج النبي ﷺ قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول بمثل حديث ابي اسامة وزاد قالت فلما توفي أبو سلمة قلت من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ ثم عزم الله لي فقلتها قالت فتزوجت رسول الله ﷺ » .

ما يفعله ، ثم يفعله .

فتخصيصها بصفة دون صفة وقدر دون قدر هو للأمور المقتضية لذلك في نفسه ، فلا يريد إلا ما تقتضي نفسه إرادته بمعنى يقتضي ذلك ، ولا يرجح مراداً على مراد إلا لذلك .

ولا يجوز أن يرجح شيئاً لمجرد كونه قادراً ، فإنه كان قادراً قبل إرادته ، وهو قادر على غيره ، فتخصيص هذا بالإرادة لا يكون بالقدرة المشتركة بينه وبين غيره .

ولا يجوز أيضاً أن تكون الإرادة تخصص مثلاً على مثل بلا مخصص . بل إنما يريد المريد أحد الشيئين دون الآخر لمعنى في المريد والمراد ـ لا بد أن يكون المريد إلى ذلك أميل ، وأن يكون في المراد ما أوجب رجحان ذلك الميل .

والقرآن والسنة تثبت القدر ، وتقدير الأمور قبل أن يخلقها ، وأن ذلك في كتاب ، وهذا أصل عظيم يثبت العلم والإرادة لكل ما سيكون ويزيل إشكالات كثيرة ضل بسببها طوائف في هذا المكان ـ في مسائل العلم والإرادة .

فالإيمان بالقدر من أصول الإيمان ، كما ذكره النبي ﷺ في حديث جبريل ـ قال : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[1]، وقد تبرأ ابن عمر وغيره من الصحابة من المكذبين بالقدر ..

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان وعلم الساعة .

ورواه في التفسير سورة ٣١ ، ٢ ورواه الامام مسلم في الايمان ٥ ، ٧ وابن ماجه في المقدمة ٩ ، وصاحب الموطأ في العتق ٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣:١٠٧ ، ٤٢٦ ، ٣:٤٥٢ ، ٤:١١٤ (حلبي) .

ومع هذا فطائفة من أهل الكلام وغيرهم لا تثبت القدر إلا علماً أزلياً وإرادة أزلية فقط ، وإذا أثبتوا الكتابة قالوا إنها كتابة لبعض ذاك .

وأما من يقول إنه قدرها حينئذ ، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء »(١) فقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع .

وهو كقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾(٢)، وقوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٣) وقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾(٤)، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(٥). وقوله : ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٦).

والكتاب في نفسه لا يكون أزلياً . وفي حديث رواه حماد بن سلمة ، عن الأشعث بن عبد الرحمن الجرمي ، [عن أبي قلابة] عن أبي الاشعث الصنعاني ، عن شداد بن أوس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي سنة أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة »(٧) رواه الترمذي ، وقال غريب . وهو سبحانه أنزل القرآن ليلة القدر

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٦٧ .

(٣) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(٤) سورة طه اية رقم ١٢٩ .

(٥) سورة الصافات آية رقم ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٦) سورة الأنفال آية رقم ٦٨ .

(٧) الحديث رواه الترمذي . قال : حدثنا بندار ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا حماد بن سلمة عن اشعث بن عبد الرحمن الحرمي عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن النعمان بن =

من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا .

وكثير من الكتب المصنفة في أصول الدين والكلام يوجد فيها الأقوال المبتدعة دون القول الذي جاء به الكتاب والسنة .

فالشهرستاني(1) مع تصنيفه في الملل والنحل يذكر في مسألة الكلام والإرادة وغيرهما أقوالاً ليس فيها القول الذي دل عليه الكتاب والسنة وإن كان بعضها أقرب .

وقبله أبو الحسن كتابه في اختلاف المصلين من أجمع الكتب ، وقد استقصى فيه أقاويل أهل البدع ، ولما ذكر قول أهل السنة والحديث ذكره مجملاً ، غير مفصل ، وتصرف في بعضه ، فذكره بما اعتقده هو ، أنه قولهم من غير أن يكون ذلك منقولاً عن أحد منهم . وأقرب الأقوال إليه قول ابن كلاب .

فأما ابن كلاب (2) فقوله مشوب بقول الجهمية ، وهو مركب من قول أهل السنة وقول الجهمية ، وكذلك مذهب الأشعري (3) في الصفات . وأما في القدر والإيمان فقوله قول جهم .

= بشير عن النبي ﷺ قال : وذكره . وفيه زيادة (ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان) ثم قال : هذا حديث غريب وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث حماد بن سلمة به وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » .

(1) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد ، أبو الفتح الشهرستاني من فلاسفة الاسلام كان اماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة يلقب بالأفضل ولد في شهرستان عام ٤٧٩ وانتقل الى بغداد عام ٥١٠ هـ فاقام ثلاث سنين وعاد الى بلده فتوفي بها عام ٥٤٨ هـ من كتبه الملل والنحل ، ونهاية الاقدام في علم الكلام والارشاد الى عقائد العباد وغير ذلك كثير .
راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ ومفتاح السعادة ١ : ٢٦٤ .

(2) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليه .

(3) هو علي بن إسماعيل بن اسحاق أبو الحسن من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ت ٣٢٤ هـ وسبق الترجمة له . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ والمقريزي ٢ : ٣٥٩ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧]

وأما ما حكاه عن أهل السنة والحديث وقال « وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب » فهو أقرب ما ذكره .

وبعضه ذكره عنهم على وجهه ، وبعضه تصرف فيه وخلطه بما هو من أقوال جهم في الصفات والقدر ، إذ كان هو نفسه يعتقد صحة تلك الأصول .

وهو يحب الانتصار لأهل السنة والحديث وموافقتهم فأراد أن يجمع بين ما رآه من أولئك وبين ما نقله عن هؤلاء ، ولهذا يقول فيه طائفة : إنه خرج من التصريح إلى التمويه ، كما يقوله طائفة : إنهم الجهمية الإناث ، وأولئك الجهمية الذكور .

وأتباعه الذين عرفوا رأيه في تلك الأصول ووافقوه أظهروا من مخالفة أهل السنة والحديث ما هو لازم لقولهم ، ولم يهابوا أهل السنة والحديث ويعظموا ويعتقدوا صحة مذاهبهم كما كان هو يرى ذلك .

والطائفتان ـ أهل السنة والجهمية ـ يقولون إنه تناقض، لكن السني يحمد موافقته لأهل الحديث ويذم موافقته للجهمية ، والجهمي يذم موافقته لأهل الحديث ويحمد موافقته للجهمية .

ولهذا كان متأخروا أصحابه ، كأبي المعالي (١) ونحوه ، أظهر تجهماً وتعطيلاً من متقدميهم ، وهي مواضع دقيقة يغفر الله لمن أخطأ فيها بعد اجتهاده .

لكن الصواب ما أخبر به الرسول ، فلا يكون الحق في خلاف ذلك قط والله أعلم .

ومن أعظم الأصول التي دل عليها القرآن في مواضع كثيرة جداً ،وكذلك الأحاديث ، وسائر كتب الله ، وكلام السلف ، وعليها تدل المعقولات

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

الصريحة ، هو إثبات الصفات الإختيارية ، مثل أنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته ، وكذلك يقوم بذاته فعله الذي يفعله بمشيئته .

فإثبات هذا الأصل يمنع ضلال الطوائف الذين كذبوا به ، والقرآن والحديث مملوء ، وكلام السلف والأئمة مملوء ، من إثباته .

فالحق المحض ما أخبر به الرسول ﷺ ، فلا يكون الحق في خلاف ذلك، لكن الهدى التام يحصل بمعرفة ذلك وتصوره فإن الاختلاف تارة ينشأ من سوء الفهم ونقص العلم، وتارة من سوء القصد .

والناس يختلفون في العلم والإرادة ـ في تعدد ذلك وإيجاده . ومعلوم أن ما يقوم بالنفس من إرادة الأمور ، لا يمكن أن يقال فيه . العلم بهذا هو العلم بهذا ، ولا إرادة هذا هو إرادة هذا فإن هذا مكابرة وعناد .

وليس تمييز العلم عن العلم ، والإرادة عن الإرادة ، تمييزاً مع انفصال أحدهما عن الآخر ، بل نفس الصفات المتنوعة ـ كالعلم ، والقدرة ، والإرادة ـ إذا قامت بمحل واحد لم ينفصل بعضها عن بعض ، بل محل هذا هو محل هذا ، كالطعم واللون والرائحة القائمة بالأترجة الواحدة وأمثالها من الفاكهة وغيرها .

فإذا قيل « هي علوم وإرادات » لم ينفصل هذا عن هذا بفصل حسي ، بل هو نوع واحد قائم بالنفس ، وإذا علم هذا بعد علمه بذلك فقد زاد هذا النوع وكثر ـ وإن شئت قلت : عظم ، فلا يزيد فيه زيادة الكمية عن زيادة الكيفية .

بل يقال « علم كثير ، وعلم عظيم » بأن تكون العظمة ترجع إلى قوته وشرف معلومه ، ونحو ذلك ، كما قال النبي ﷺ لأبي بن كعب : « أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم » ؟ قال ﴿ **اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ** ﴾ فقال

« ليهنك العلم ، أبا المنذر ؟ » [1] .

وكتب سلمان [2] إلى أبي الدرداء [3] : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك .

وانضمام العلم إلى العلم ، والإرادة إلى الإرادة ، والقدرة إلى القدرة ، هو شبيه بانضمام الأجسام المتصلة ، كالماء إذا زيد فيه ماء ، فإنه يكثر قدره ، لكن هو كم متصل لا منفصل ، بخلاف الدراهم .

فإذا قيل : « تعددت العلوم والإرادات » فهو إخبار عن كثرة قدرها وأنها أكثر وأعظم مما كانت ، لا أن هناك معدودات منفصلة كما قد يفهم بعض الناس .

ولهذا كان العلم اسم جنس ، فلا يكاد يجمع في القرآن ، بل يقال : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ [4] ، فيذكر الجنس ، وكذلك الماء ، ليس في القرآن ذكر مياه ، بل إنما يذكر جنس الماء :

---

(١) قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن عبدالله بن رباح عن أبي هو ابن كعب أن النبي ـ ﷺ ـ سأله وذكره وفيه زيادة (والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .
وقد رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن الجريري به وليس عنده زيادة (والذي نفسي بيده الخ) . .

(٢) هو سلمان الفارسي : صحابي من مقدميهم كان يسمي نفسه سلمان الإسلام ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً واختلفوا فيما كان يسمى به في بلاده ، وقالوا : نشأ في قرية جيان ، ورحل الى الشام فالموصل فنصبين ، فعمورية ، وقرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب وأسلم ـ اشترك في حفر الخندق وقال الرسول ـ ﷺ سلمان منا أهل البيت توفي عام ٣٦ هـ [راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٥٣ ـ ٦٧ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ١٨٨ والاصابة ت ٣٣٥٠]

(٣) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي سبق الترجمة له . [وراجع الاصابة ت ٦١١٩ وحلية الأولياء ١ : ٢٠٨] .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ (١) ؛ ونحو ذلك .

والعلم يشبه بالماء، كقوله ﷺ : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً (٢) . . . . الحديث » ؛ وقد قال : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ـ إلى قوله ـ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ (٣) .

وما خلقه الرب تعالى فإنه يراه ، ويسمع أصوات عباده ، والمعدوم لا يرى باتفاق العقلاء .

والسالمية كأبي طالب المكي (٤) وغيره لم يقولوا : إنه يرى قائماً بنفسه ، وإنما قالوا : يراه الرب في نفسه وإن كان هو معدوماً في ذات الشيء المعدوم ، فهم يجعلون الرؤية لما يقوم بنفس العالم من صورته العلمية ما هو عدم محض ، وهم وإن كانوا غلطوا في بعض ما قالوه فلم يقولوا : إن العدم المحض الذي ليس بشيء يرى ، فإن هذا لا يقوله عاقل ، وفي الحقيقة إذا رؤي شيء فإنما رؤي مثاله العلمي ، لا عينه .

وأبو الشيخ الأصبهاني لما ذكرت هذه المسألة أمر بالإمساك عنها . فقبل أن يوجد لم يكن يرى ، وبعد أن يعدم لا يرى ، وإنما يرى حال وجوده ، وهذا هو الكمال في الرؤية .

وكذلك سمع أصوات العباد هو عند وجودها ، لا بعد فنائها ، ولا قبل حدوثها . قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٤٨ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب العلم ٢٠ باب فضل العلم ٧٩ حدثنا محمد بن العلاء قال : حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبدالله عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره .

ورواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٩٩ (حلبي) .

(٣) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية فليرجع إليها .

وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٤ .

فصل
من خصائص الرسالة الهداية والرحمة

الرسول ﷺ بعثه الله تعالى هدى ورحمة للعالمين ، فإنه كما أرسله بالعلم والهدى ، والبراهين العقلية والسمعية ، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس ، والرحمة لهم بلا عوض ، وبالصبر على أذاهم واحتماله ، فبعثه بالعلم ، والكرم ، والحلم ـ عليم هاد ، كريم محسن ، حليم صفوح .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٣) ونظائره كثيرة .

وقال : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾(٤) ، وقال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾(٥) ؛ وقال : ﴿ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ

---

(١) سورة الشورى آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ١ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٥٧ .

(٥) سورة سبأ آية رقم ٤٧ .

عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [1] ، فهو يعلم ويهدي ويصلح القلوب ويدلها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض .

وهذا نعت الرسل كلهم ـ كل يقول : ﴿ **وما أسألكم عليه من أجر** ﴾ ولهذا قال صاحب يٓس : ﴿ **يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾ [2] .

وهذه سبيل من اتبعه ، كما قال : ﴿ **قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [3] .

وأما المخالفون لهم فقد قال عن المنتسبين إليهم مع بدعة : ﴿ **إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ [4] . فهؤلاء أخذوا أموالهم ومنعوهم سبيل الله ، ضد الرسل ، فكيف بمن هو شر من هؤلاء من علماء المشركين ، والسحرة ، والكهان ؟ فهم أوكل لأموالهم بالباطل وأصد عن سبيل الله من الأحبار والرهبان .

وهو سبحانه قال : ﴿ **إن كثيراً من الأحبار والرهبان** ﴾ . فليس كلهم كذلك ، بل قال في موضع آخر : ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [5] .

وقد قال في وصف الرسول: ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ** ﴾ [6] . وفيها قراءتان . فمن قرأ « بضنين » ، أي ما هو بمتهم على الغيب ، بل هو

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ٩٠ .

(2) سورة يس آية رقم ٢٠ - ٢١ .

(3) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

(4) سورة التوبة آية رقم ٣٤ .

(5) سورة المائدة آية رقم ٨٢ .

(6) سورة التكوير آية رقم ٢٤ .

صادق أمين فيما يخبر به ، ومن قرأ ﴿ بضنين ﴾ ، أي ما هو ببخيل ، لا يبذله إلا بعوض ، كالذين يطلبون العوض على ما يعلمونه .

فوصفه بأنه يقول الحق فلا يكذب ، ولا يكتم ، وقد وصف أهل الكتاب بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ، وأنهم يشترون به ثمناً قليلاً .

ومع هذا وهذا قد أمره الله بالصبر على أذاهم ، وجعله كذلك يعطيهم ما هم محتاجون إليه غاية الحاجة بلا عوض ، وهم يكرهونه ويؤذونه عليه .

وهذا أعظم من الذي يبذل الدواء النافع للمرضى ، ويسقيهم إياه بلا عوض ، وهم يؤذونه ، كما يصنع الأب الشفيق ، وهو أب المؤمنين . وكذلك نعت أمته بقوله ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١) . قال أبو هريرة : كنتم خير الناس للناس ـ تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة فيجاهدون ـ يبذلون أنفسهم وأموالهم ـ لمنفعة الخلق وصلاحهم ، وهم يكرهون ذلك لجهلهم ، كما قال أحمد في خطبته : « الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ! » (٢) ـ إلى آخر كلامه .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ .
قال الامام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا شريك عن سماك عن عبدالله بن عميرة عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل الى النبي ﷺ ـ وهو على المنبر فقال يا رسول الله ـ أي الناس خير ؟ قال : خير الناس أقراهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » .
ورواه أحمد في مسنده ، والنسائي في سننه والحاكم في مستدركه من حديث سماك عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس .

(٢) راجع كتاب (الرد على الجهمية والزنادقة) للامام أحمد بن حنبل بتحقيقنا ص ٨٥ ط دار =

فهذا هذا ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، وهو سبحانه يجزي الناس بأعمالهم ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، فهو ينعم على الرسول بإنعامه جزاء على إحسانهم ، والجميع منه ، فهو الرحمن الرحيم الجواد الكريم الحنان المنان ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وله الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها ، وهو يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات ، وقد قيل أيضاً : وقد يحب الشجاعة ولو على قتل الحيات ويحب السماحة ولو بكف من تمرات .

والقرآن أخبر أنه يحب المحسنين ، ويحب الصابرين ، وهذا هو الكرم والشجاعة .

= اللواء بالرياض ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .

فصل
في حقيقة الأكرم

وقوله ﴿ الأكرم ﴾ يقتضي اتصافه بالكرم في نفسه ، وأنه الأكرم ، وأنه محسن إلى عباده ، فهو مستحق للحمد لمحاسنه وإحسانه . وقوله : ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال . قيل : أهل أن يجل وأن يكرم ، كما يقال إنه « أهل التقوى » ، أي المستحق لأن يتقي ، وقيل : أهل أن يجل في نفسه [و] أن يكرم أهل ولايته وطاعته ، وقيل : أهل أن يجل في نفسه وأهل أن يكرم .

ذكر الخطابي الاحتمالات الثلاثة ، ونقل ابن الجوزي كلامه فقال : قال أبو سليمان الخطابي [١] : الجلال مصدر الجليل ، يقال : جليل بين الجلالة والجلال ، والإكرام مصدر أكرم - يكرم - إكراماً ، والمعنى إنه يكرم أهل ولايته وطاعته ، وأن الله يستحق أن يجل ويكرم - ولا يجحد ولا يكفر به ، قال : ويحتمل أن يكون المعنى : يكرم أهل ولايته ويرفع درجاتهم .

(قلت): وهذا الذي ذكره البغوي فقال : ﴿ ذو الجلال ﴾ العظمة

(١) هو محمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستي أبو سليمان ، فقيه محدث من أهل بست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب) رضي الله عنهما - له معالم السنن في شرح سنن أبي داود ، وبيان اعجاز القرآن ، وإصلاح غلط المحدثين وغريب الحديث توفي عام ٣٨٨ هـ . [راجع الوفيات ١ : ١٦٦ ويتيمة الدهر ٤ : ٢٣١] .

والكبرياء ﴿ **والإكرام** ﴾ يكرم أنبياءه وأولياءه بلطفه مع جلاله وعظمته .

قال الخطابي : وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين - وهو الجلال - مضافاً إلى الله بمعنى الصفة له ، والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ (١) فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة ، والآخر إلى العباد وهي التقوى . قلت : القول الأول هو أقربها إلى المراد ، مع أن الجلال هنا ليس مصدر جل جلاله ، بل هو اسم مصدر أجل إجلالاً ، كقول النبي ﷺ : « إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه ، و[إكرام] ذي السلطان المقسط . فجعل إكرام هؤلاء من جلال الله ، أي من اجلال الله ، كما قال : ﴿ **وَاللهُ أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً** ﴾ (٢) ، وكما يقال : كلمه كلاماً ، وأعطاه عطاء ، والكلام والعطاء اسم مصدر التكليم والإعطاء . والجلال قرن بالإكرام ، وهو مصدر المتعدي ، فكذلك الإكرام . ومن كلام السلف : « أجلوا الله أن تقولوا كذا » وفي حديث موسى : يا رب ، إني أكون على الحال التي أجلك أن أذكرك عليها . قال : أذكرني على كل حال » .

وإذا كان مستحقاً للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفاً في نفسه بما يوجب ذلك ، كما إذا قال : الإله هو المستحق لأن يؤله ، أي يعبد ، كان هو في نفسه مستحقاً لما يوجب ذلك ، وإذا قيل : ﴿ **هو أهل التقوى** ﴾ كان هو في نفسه متصفاً بما يوجب أن يكون هو المتقي .

ومنه قول النبي ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع بعد ما يقول « ربنا ولك الحمد : ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا

---

(١) سورة المدثر آية رقم ٥٦

(٢) سورة نوح آية رقم ١٧ .

مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[١] . أي هو مستحق لأن يثني عليه وتمجد نفسه .

والعباد لا يحصون ثناء عليه ، وهو كما أثنى على نفسه ، كذلك هو أهل أن يجل وأن يكرم ، وهو سبحانه يجل نفسه ويكرم نفسه والعباد لا يحصون إجلاله وإكرامه .

والإجلال من جنس التعظيم ، والإكرام من جنس الحب ، والحمد وهذا كقوله : ﴿ **له الملك وله الحمد** ﴾[٢] . فله الإجلال والملك ، وله الإكرام والحمد .

والصلاة مبناها على التسبيح في الركوع والسجود ، والتحميد والتوحيد في القيام والقعود ، والتكبير في الانتقالات ، كما قال جابر « كنا مع رسول الله ﷺ ، فكنا إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا ، فوضعت الصلاة على ذلك »[٣] . رواه أبو داود .

وفي الركوع يقول : « سبحان ربي العظيم » . وقال النبي ﷺ : إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً[٤] ، أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء ، فَقِمن أن يستجاب لكم .

---

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في الصلاة ٣٨ باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام ١٩٤ حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري ، حدثنا أبي حدثنا شعبة عن الحكم قال : غلب على الكوفة رجل (قد سماه) زمن ابن الأشعث فأمر أبا عبيدة بن عبدالله أن يصلي بالناس فكان يصلي . فإذا رفع رأسه من الركوع قام قدر ما أقول وذكره .
ورواه الترمذي في المواقيت ٨٢ والدعوات ٣٢ والنسائي في التطبيق ٣٥ وابن ماجه في الاقامة ١٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٤٨ .

(٢) سورة التغابن آية رقم ١ .

(٣) الحديث رواه أبو داود في الصلاة ، ورواه الدارمي في الاستئذان ٤٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٣٣ (حلبي) .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

وإذا رفع رأسه حمد فقال : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد » فيحمده في هذا القيام كما يحمده في القيام الأول إذا قرأ أم القرآن ، فالتحميد والتوحيد مقدم على مجرد التعظيم ، ولهذا اشتملت الفاتحة على هذا ـ أولها تحميد ، وأوسطها تمجيد ، ثم في الركوع تعظيم الرب ، وفي القيام يحمده ، ويثني عليه ، ويمجده .

فدل على أن التعظيم المجرد تابع لكونه محموداً وكونه معبوداً ، فإنه يحب أن يحمد ويعبد ، ولا بد مع ذلك من التعظيم ، فإن التعظيم لازم لذلك .

وأما التعظيم فقد يتجرد عن الحمد والعبادة على أصل الجهمية ، فليس ذلك بمأمور به ، ولا يصير العبد به لا مؤمناً ، ولا عابداً ، ولا مطيعاً . وأبو عبدالله بن الخطيب الرازي (١) يجعل الجلال للصفات السلبية ، والإكرام للصفات الثبوتية ، فيسمي هذه « صفات الجلال » وهذه « صفات الإكرام » وهذا إصطلاح له ، وليس المراد هذا في قوله : ﴿ **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ **تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ (٣) .

وهو في مصحف أهل الشام « تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام » وهي قراءة ابن عامر، فالاسم نفسه يُذوى بالجلال والإكرام ، وفي سائر المصاحف ـ وفي قراءة الجمهور ـ ﴿ **ذي الجلال** ﴾ فيكون المسمى نفسه .

وفي الأولى ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ فالمذوي وجهه سبحانه ، وذلك يستلزم أنه هو ذو الجلال والإكرام ، فإنه إذا كان وجهه ذا

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سورة الرحمن آية رقم ٢٧ .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ٧٨ .

الجلال والإكرام كان ذلك تنبيهاً ، كما أن اسمه إذا كان ذا الجلال والإكرام كان تنبيهاً على المسمى .

وهذا يبين أن المراد أنه يستحق أن يجل ويكرم .

فإن الاسم نفسه يسبح ويذكر ويراد بذلك المسمى . والاسم نفسه لا يفعل شيئاً - لا إكراماً ولاغيره - ولهذا ليس في القرآن إضافة شيء من الأفعال والنعم إلى الاسم .

ولكن يقال : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ (١) ، ﴿ **تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ** ﴾ (٢) ونحو ذلك ، فإن اسم الله مبارك تنال معه البركة ، والعبد يسبح اسم ربه الأعلى فيقول « سبحان ربي الأعلى » . ولما نزل قوله ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قل : « اجعلوها في سجودكم » (٣) فقالوا : « سبحان ربي الأعلى » .

فكذلك كان النبي ﷺ لا يقول : « سبحان اسم ربي الأعلى » لكن قوله « سبحان ربي الأعلى » هو تسبيح لاسمه يراد به تسبيح المسمى ، لا يراد به تسبيح مجرد الاسم ، كقوله : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ (٤) فالداعي يقول « يا الله » « يا رحمن » ومراده المسمى - وقوله ﴿ **أيّا ما** ﴾ أي الاسمين تدعوا ودعاء الاسم هو دعاء مسماه .

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ١ .

(٢) سورة الرحمن آية رقم ٧٨ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في الإقامة ٢٠ باب التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧ بسنده عن عقبة ابن عامر الجهني يقول لما نزلت ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال لنا رسول الله - ﷺ اجعلوها في ركوعكم فلما نزلت ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ قال لنا رسول الله - ﷺ ﴿ **اجعلوها في سجودكم** ﴾ ورواه أبو داود في الصلاة ١٤٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٥٥ (حلبي) .

(٤) سورة الاسراء آية رقم ١١٠ .

وهـذا هو الذي أراده من قـال من أهـل السنـة إن الاسم هـو المسمى ، أرادوا بـه أن الاسم إذا دعي وذكر يـراد به المسمى ، فـإذا قـال المصلي « الله أكبر » فقد ذكر اسم ربه ، ومراده المسمى .

لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج ، فـإن فساد هذا لا يخفى على من تصوره ، ولـو كان كـذلك كـان من قال « نـاراً » احترق لسانه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن الجلال والاكرام مثل الملك والحمد ، كالمحبة والتعظيم ، وهـذا يكـون في الصفـات الثبـوتيـة والسلبيـة ، فـإن كـل سلب فهـو متضمن للثبوت ، وأما السلب الـمحض فلا مدح فيه .

وهذا مما يظهر به فساد قول من جعل أحدهما للسلب والآخر للإثبات ، لا سيمـا إذا كان من الجهميـة الذين ينكـرون محبته ، ولا يثبتـون لـه صفـات توجب المحبة والحمد ، بل إنما يثبتون مـا يوجب القهـر ، كالقـدرة . فهؤلاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وألحدوا في أسمائه وآياتـه بقدر مـا كذبـوا به من الحق ، كما بسط هذا في غير هذا الموضع .

فصل

القرآن الكريم خطاب للبشرية كلها

قوله تعالى في أول ما أنزل ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ﴾ (١) . وقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ (٢).

ذكر في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف ، وأنه معروف عند المخاطبين ، إذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق ، وأن المخلوق مع أنه دليل وأنه يدل على الخالق ، لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ، ومعرفته فطرية ، مغروزة في الفطرة ، ضرورية ، بديهية ، أولية .

وقوله ﴿ اقرأ ﴾ وإن كان خطاباً للنبي ﷺ أولاً فهو خطاب لكل أحد ، سواء كان قوله ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ هو خطاب للإنسان مطلقاً ، والنبي ﷺ أول من سمع هذا الخطاب ، أو من النوع ، أو هو خطاب للنبي ﷺ خصوصاً ، كما قد قيل في نظائر ذلك .

مثل قوله ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٣) قيل خطاب له ، وقيل خطاب للجنس ، وأمثال ذلك . فإنه وإن

(١) سورة العلق آية رقم ١ .

(٢) سورة العلق آية رقم ٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٧٩.

قيل إنه خطاب له فقد تقرر أن ما خوطب به من أمر ونهي فالأمة مخاطبة بـه ما لم يقم دليل التخصيص .

وبهذا يبين أن قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١) يتناول غيره ، حتى قال كثير من المفسرين : الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره ، أي هم الذين أريد منهم أن يسألوا لما عندهم من الشك ، وهو لم يرد منه السؤال إذ لم يكن عنده شك .

ولا شك أن هذا لا يمنع أن يكون هو مخاطباً ومراداً بالخطاب ، بل هذا صريح اللفظ ، فلا يجوز أن يقال إن الخطاب لم يتناوله ، ولأن ليس في الخطاب أنه أمر بالسؤال مطلقاً ، بل أمر به إن كان عنده شك ، وهذا لا يوجب أن يكون عنده شك ، ولا أنه أمر به مطلقاً ، بل أمر به إن كان هذا موجوداً ، والحكم المعلق بشرط عدم عند عدمه . وكذلك كثير من المفسرين يقول في قوله ﴿ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ﴾ (٢) وفي قوله ﴿ ولَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ ﴾ (٣) ونحو ذلك : إن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره ، أي غيره قد يكون ممترياً ومطيعاً لأولئك فنهى ، وهو لا يكون ممترياً ولا مطيعاً لهم .

ولكن بتقدير أن يكون الأمر كذلك فهو أيضاً مخاطب بهذا ، وهو منهى عن هذا ، فالله سبحانه قد نهاه عما حرمه من الشرك، والقول عليه بلا علم ، والظلم والفواحش ، وبنهي الله له عن ذلك وطاعته لله في هذا استحق عظيم الثواب ، ولولا النهي والطاعة لما استحق ذلك . ولا يجب أن يكون المأمور المنهي ممن يشك [في] طاعته ، ويجوز عليه أن يعصى الرب ، أو يعصيه

---

(١) سورة يونس آية رقم ٩٤ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٤٧ .
(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٤٨ .

مطلقاً ولا يطيعه - بل الله أمر الملائكة مع علمهم أنهم يطيعونه ، ويأمر الأنبياء مع علمه أنهم يطيعونه ، وكذلك المؤمنون كل ما أطاعوه فيه قد أمرهم به مع علمه أنهم يطيعونه .

ولا يقال : لا يحتاج إلى الأمر - بل الأمر صار مطيعاً مستحقاً لعظيم الثواب .

ولكن النهي يقتضي قدرته على المنهي عنه ، وأنه لو شاء لفعله ليثاب على ذلك إذا تركه ، وقد يقتضي قيام السبب الداعي إلى فعله فينهى عنه ، فإنه بالنهي وإعانة الله له على الامتثال يمتنع مما نهى عنه إذا قام السبب الداعي له إليه .

وكذلك قد قيل في قوله : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [١] إنه أمر للرسول والمراد به هو والمؤمنون ! وقيل هو أمر لكل مكلف .

فقوله في هذه السورة ﴿ اقرأ ﴾ كقوله في آخرها ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب** ﴾ [٢] وقوله : ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [٣] هذا متناول لجميع الأمة ، وقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [٤] فإنه كان خطاباً للمؤمنين كلهم .

وكذلك قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ** ﴾ [٥] لما أمر بتبليغ ما أنزل إليه من الإنذار ،وهذا فرض على الكفاية ، فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه وينذروا كما أنذر . قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [٦]

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١١ .

(٢) سورة العلق آية رقم ١٩ .

(٣) سورة الضحى آية رقم ٩ ـ ١١ .

(٤) سورة المزمل آية رقم ١ ـ ٢ ..

(٥) سورة المدثر آية رقم ١ ـ ٢ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ١٢٢ .

والجن لما سمعوا القرآن ﴿ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾[1] وإذا كان كذلك فكل إنسان في قلبه معرفة بربه ، فإذا قيل له : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ عرف ربه الذي هو مأمور أن يقرأ باسمه ، كما يعرف أنه مخلوق ، والمخلوق يستلزم الخالق ويدل عليه .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس ، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة ، وهذا قول جمهور الناس ، وعليه حذاق النظار ، أن المعرفة تارة تحصل بالضرورة ، وتارة بالنظر ، كما اعترف بذلك غير واحد من أئمة المتكلمين .

وهذه الآية أيضاً تدل على أنه ليس النظر أول واجب ، بل أول ما أوجب الله على نبيه ﷺ ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ لم يقل « انظر واستدل حتى تعرف الخالق » .

وكذلك هو أول ما بلغ هذه السورة ، فكان المبلغون مخاطبين بهذه الآية قبل كل شيء ولم يؤمروا فيها بالنظر والاستدلال .

وقد ذهب كثير من أهل الكلام إلى أن اعتراف النفس بالخالق واثباتها له لا يحصل إلا بالنظر .

ثم كثير منهم جعلوا ذلك نظراً مخصوصاً ، وهو النظر في الأعراض وأنها لازمة للأجسام فيمتنع وجود الأجسام بدونها .

قالوا : وما لا يخلو عن الحوادث ، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث . ثم منهم من اعتقد أن هذه المقدمة بينة لنفسها ، بل ضرورية ، ولم يميز بين الحادث المعين والمحدود وبين الجنس المتصل شيئاً بعد شيء إما لظنه أن هذا ممتنع ، أو لعدم خطوره بقلبه ، لكن وإن قيل هو ممتنع فليس

---

(١) سورة الأحقاف آية رقم ٢٩ .

العلم بذلك بديهياً .

وإنما العلم البديهي أن الحادث الذي له مبدأ محدود كالحادث والحوادث المقدرة من حين محدود فتلك ما لا يسبقها فهو حادث ، وما لا يخلو منها لم يسبقها فهو حادث ، فإنه إذا لم يسبقها كان معها أو متأخراً عنها ، وعلى التقديرين فهو حادث .

وأما إذا قدر حوادث دائمة شيئاً بعد شيء ، فهذا إما أن يقال هو ممكن ، وإما أن يقال هو ممتنع ، لكن العلم بامتناعه يحتاج إلى دليل ، ولم تعلم طائفةِ معروفة من العقلاء قالوا : إن العلم بامتناع هذا بديهي ضروّري ، ولا يفتقر إلى دليل .

بل كثير من الناس لا يتصور هذا تصوراً تاماً . بل متى تصور الحادث قدر [في] ذهنه مبدأ ، ثم يتقدم في ذهنه شيء قبل ذلك ، ثم شيء قبل ذلك ، لكن إلى غايات محدودة بحسب تقدير ذهنه ، كما يقدر الذهن عدداً بعد عدد ، ولكن كل ما يقدره الذهن فهو منته .

ومن الناس من إذا قيل له « الأزل » أو « كان هذا موجوداً في الأزل » ، تصور ذلك ، وهذا غلط ، بل « الأزل » ما ليس له أول ، كما أن « الأبد » ليس له آخر ، وكل ما يومىء اليه الذهن من غاية في « الأزل » وراءها وهذا لبسطه موضع آخر .

والمقصود هنا أن هؤلاء الذين قالوا : معرفة الرب لا تحصل إلا بالنظر ، ثم قالوا : لا تحصل إلا بهذا النظر ، هم من أهل الكلام ـ الجهمية المقدرية ومن تبعهم ، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وجمهور العلماء من المتكلمين وغيرهم ، على خطأ هؤلاء في إيجابهم هذا النظر المعين ، وفي دعواهم أن المعرفة موقوفة عليه ، إذ قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه لم يوجب هذا على الأمة ولا أمرهم به ، بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة . ثم هذا النظر ـ هذا الدليل ـ للناس فيه

ثلاثة أقوال .

قيل : إنه واجب ، وأن المعرفة موقوفة عليه ، كما يقوله هؤلاء .

وقيل : بل يمكن حصول المعرفة بدونه ، لكنه طريق آخر إلى المعرفة ، وهذا بقوله كثير من هؤلاء ممن يقول بصحة هذه الطريقة لكن لا يوجبها ، كالخطابي ، والقاضي أبي يعلى ، وأبي جعفر السمناني [1] قاضي الموصل شيخ أبي الوليد الباجي ـ وكان يقول : إيجاب النظر بقية بقيت على الشيخ أبي الحسن الأشعري من الاعتزال ، وهؤلاء الذين لا يوجبون هذا النظر .

ومنهم من لا يوجب النظر مطلقاً ، كالسمناني ، وابن حزم وغيرهما . ومنهم من يوجبه في الجملة ، كالخطابي ، وأبي الفرج المقدسي .

والقاضي أبو يعلى يقول بهذا تارة ، وبهذا تارة ، بل ويقول تارة بإيجاب النظر المعين ، كما يقوله أبو المعالي ، وغيره .

ثم من الموجبين للنظر من يقول : هو أول الواجبات ، ومنهم من يقول : بل المعرفة الواجبة به ، وهو نزاع لفظي ، كما أن بعضهم قال : أول الواجبات القصد إلى النظر ، كعبارة أبي المعالي ، ومن هؤلاء من قال : بل الشك المتقدم كما قاله أبو هاشم .

وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وغيرها في موضع آخر . وبين أنها كلها غلط مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة بل وباطلة في العقل أيضاً .

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد السمناني أبو جعفر ، ولد عام ٣٦١ هـ وهو قاض حنفي أصله من سمنان العراق . نشأ ببغداد . وولي القضاء بالموصل إلى أن توفي عام ٤٤٤ هـ ، وكان مقدم الأشعرية في وقته ، وشنع عليه ابن حزم ، له تصانيف في الفقه . [راجع تبيين كذب المفتري ٢٥٩ والجواهر المضيئة ٢ : ٢١ ونكت الهميان ٢٣٧] .

وهذه الآية مما يستدل به على ذلك ، فإن أول ما أوجب الله على رسوله وعلى المؤمنين هو ما أمر به في قوله : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ (١) . والذين قالوا : المعرفة لا تحصل إلا بالنظر ، قالوا : لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها ، كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر ، وغيره .

فيقال لهم : وليس فيما قص الله علينا من أخبار الرسل أن منهم أحداً أوجبها ، بل هي حاصلة عند الأمم جميعهم ، ولكن أكثر الرسل افتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه كما أخبر الله عن نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وقومهم كانوا مقرين بالخالق ، لكن كانوا مشركين يعبدون غيره ، كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ .

ومن الكفار من أظهر جحود الخالق ، كفرعون حيث قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ** ﴾ (٣) . وقال لموسى : ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾ (٤) . وقال : ﴿ **يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً** ﴾ (٥) .

ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله في القرآن قال : ﴿ **وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ، وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ، قَالَ كَلَّا ، فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا**

(١) سورة العلق آية رقم ١ .
(٢) سورة القصص آية رقم ٣٨ .
(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .
(٤) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .
(٥) سورة غافر آية رقم ٣٦ ـ ٣٧ .

مَعَكُم مُسْتَمِعُونَ ، فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقُولاَ إنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قال أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التِّي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ، قَالَ فَعلْتُهَا إذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ، فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجعَلَنِي مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ [١] .

قال فرعون إنكاراً وجحداً : ﴿ **وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ ؟** ﴾ قال موسى : ﴿ **رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ، قَالَ رَبُّكُمْ وَربُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُم الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُمَا** [٢] ﴾ ـ الآيات .

وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون ﴿ **وما رب العالمين ؟** ﴾ هو سؤال عن ماهية الرب ، كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول « ما الإنسان ؟ ما الملك؟، ما الجني ؟ ونحو ذلك . قالوا : ولما لم يكن للمسؤول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به وهو قوله : ﴿ **رب السموات والأرض** ﴾ وهذا قول قاله بعض المتأخرين وهو باطل .

فإن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد ، لم يسأل عن ماهية رب أقر بثبوته ، بل كان منكراً له جاحداً ، ولهذا قال في تمام الكلام ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ** ﴾ [٣] . وقال : ﴿ **واني لأظنه كاذباً** ﴾ . فاستفهامه كان إنكاراً وجحداً ، يقول : ليس للعالمين رب يرسلك ، فمن هو هذا ؟ـ إنكاراً له .

فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين، وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده ، وأنكم إنما تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم ، كما

---

(١) سورة الشعراء الآيات من ١٠ ـ ٢١ .

(٢) سورة الشعراء الآيات رقم ٢٣ ـ ٢٥ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

قال موسى في موضع آخر لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ (١) وقال الله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

ولم يقل فرعون « ومن رب العالمين ؟ » ، فإن « من » ؟ سؤال عن عينه يسأل بها من عرف جنس المسؤول عنه أنه من أهل العلم وقد شك في عينه ، كما يقال لرسول عرف أنه جاء من عند إنسان « من أرسلك ؟ » .

وأما ﴿ ما ؟ ﴾ فهي سؤال عن الوصف ، يقول : أي شيء هو هذا ؟ وما هو هذا الذي سميته ﴿ رب العالمين ﴾ قال ذلك منكراً له جاحداً . فلما سأل جحداً أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر ، وأظهر من أن يشك فيه ويرتاب فقال : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (٣) .

ولم يقل « موقنين بكذا وكذا » بل أطلق ، فأي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب ، كما قالت الرسل لقومهم : ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ ؟ ﴾ (٤) .

وإن قلتم : لا يقين لنا بشيء من الأشياء ، بل سلبنا كل علم ، فهذه دعوى السفسطة العامة ، ومدعيها كاذب ظاهر الكذب ، فإن العلوم من لوازم كل إنسان ، فكل إنسان عاقل لا بد له من علم ، ولهذا قيل في حد « العقل » إنه علوم ضرورية ، وهي التي لا يخلو منها عاقل .

فلما قال فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٥) وهذا من افتراء المكذبين على الرسول ـ لما خرجوا عن عاداتهم التي هي

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة النمل آية رقم ١٤ .

(٣) سورة الدخان آية رقم ٧ .

(٤) سورة ابراهيم آية رقم ١٠ .

(٥) سورة الشعراء اية رقم ٢٧ .

محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون ، ولما كانوا مظهرين للجحد بالخالق ، أو للاسترابة والشك فيه ـ هذه حال عامتهم ودينهم ، وهذا عندهم دين حسن ، وإنما إلههم الذي يطيعونه فرعون ـ قال : ﴿ **إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون** ﴾ .

فبين له موسى إنكم الذين سلبتم العقل النافع ، وأنتم أحق بهذا الوصف فقال : ﴿ **رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (١) . فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية ، وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق ، فلما ذكر أولاً أن من أيقن بشيء فهو موقن به ، واليقين بشيء هو من لوازم العقل ، بين ثانياً أن الإقرار به من لوازم العقل .

ولكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه ، فإن لم يعمل به صاحبه قيل : إنه ليس له عقل ، ويقال أيضاً لمن لم يتبع ما أيقن به : إنه ليس له يقين ، فإن اليقين أيضاً يراد به العلم المستقر في القلب ، ويراد به العمل بهذا العلم ، فلا يطلق « الموقن » إلا على من استقر في قلبه العلم والعمل .

وقوم فرعون لم يكن عندهم اتباع لما عرفوه ، فلم يكن لهم عقل ولا يقين وكلام موسى يقتضي الأمرين : إن كان لك يقين فقد عرفته ، وإن كان لك عقل فقد عرفته ، وإن ادعيت أنه لا يقين لك ولا عقل لك ، فكذلك قومك ، فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان . ومن يكون هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية ، مع أن هذا باطل منكم ، فإنكم موقنون به ، كما قال تعالى : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً** ﴾ (٢) .

ولكم عقل تعرفونه به ، ولكن هواكم يصدكم عن اتباع موجب العقل ، وهو إرادة العلو في الأرض والفساد، فأنتم لا عقل لكم بهذا الاعتبار ، كما

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٨ .
(٢) سورة النمل آية رقم ١٤ .

قال أصحاب النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [1] .

وقال تعالى عند الكفار : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [2] .

قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [3] والخفيف هو السفيه الذي لا يعمل بعلمه ، بل يتبع هواه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه : إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق ، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه ، فلم يكلفوا أولاً بنفس المعرفة ، ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة ، إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقربه ، وكل مولود يولد على الفطرة ، لكن عرض للفطرة ما غيرها ، والإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته .

ولهذا قال الله في خطابه لموسى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ [4] ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه ، ويعرف إنعامه عليه ، وإحسانه إليه ، وافتقاره إليه ـ فذلك يدعوه إلى الإيمان ، ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ ما ينذره به من العذاب ـ فذلك أيضاً يدعوه إلى الإيمان . كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [5] فالحكمة تعريف الحق ، فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة ، ومن نازعه هواه وعظ بالترغيب والترهيب .

---

(١) سورة الملك آية رقم ١٠ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٤٤ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٥٤ .

(٤) سورة طه آية رقم ٤٤ .

(٥) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .

فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى اتباعه، فإن الحق محبوب في الفطرة، وهو أحب إليها، وأجل فيها، وألذ عندها، من الباطل الذي لا حقيقة له. فإن الفطرة لا تحب ذاك.

فإن لم يدعه الحق والعلم به خوف عاقبة الجحود والعصيان، وما في ذلك من العذاب، فالنفس تخاف العذاب بالضرورة، فكل حي يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع.

فمن الناس من يتبع هواه، فيتبع الأدنى دون الأعلى، كما أن منهم من يكذب بما خوف به، أو يتغافل عنه، حتى يفعل ما يهواه، فإنه إذا صدق به واستحضره لم يبعث نفسه إلى هواها، بل لا بد من نوع من الغفلة والجهل حتى يتبعه، ولهذا كان كل عاص لله جاهلاً، كما قد بسط هذا في مواضع.

إذ المقصود هنا التنبيه على أن قوله: ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ فيه تنبيه على أن الرب معروف عند المخاطبين، وأن الفطر مقرة به.

وعلى ذلك دل قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) ـ الآية، كما قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع.

وكذلك قول الرسل: ﴿ أفي الله شك ﴾ هو نفي. أي ليس في الله شك، وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك فهذا استفهام تقرير.

فإن حرف الاستفهام إذا دخل على حرف النفي كان تقريراً، كقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (٢)، ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ (٣)، ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٧٢.

(٢) سورة الشرح آية رقم ١.

(٣) سورة البلد آية رقم ٨.

نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (١) ، ومثله كثير ، بخلاف استفهام فرعون ، فإنه استفهام إنكار لا تقرير ، إذ ليس هناك إلا أداة الاستفهام فقط ، ودل سياق الكلام على أنه إنكار .

فإن قيل : إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتاً في كل فطرة فكيف ينكر ذلك كثير من النظار - نظار المسلمين وغيرهم - وهم يدعون أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية ؟ .

فيقال أولاً : أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام (٢) الذي اتفق السلف على ذمه - من الجهمية والقدرية - وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم ، ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية ، فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في الأصل عن علماء المسلمين وليس كذلك إنما صدر أولاً عمن ذمه أئمة الدين وعلماء المسلمين .

الثاني : أن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه ، فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به ، فوجود الشيء في الإنسان وغيره غير علم الإنسان به .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٧٠ تكملة الآية ﴿ قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

(٢) يروى عن أحمد بن سنان قال : كان الوليد بن أبان الكرابيسي خالي فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني . . .؟ قالوا : لا . قال : فتتهموني . .؟ قالوا : لا . قال : فإني أوصيكم أتقبلون . . .؟ قالوا : نعم . قال : عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم وكان أبو المعالي الجويني يقول : لقد جلت أهل الإسلام جولة وعلومهم ، وركبت البحر الأعظم ، وغصت في الذي نهوا عنه كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد ، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق . عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق بلطف بره ، فأموت على دين العجائز ، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الاخلاص ، فالويل لابن الجويني .

وهذا كصفات بدنه ، فإن منها ما لا يراه كوجهه وقفاه ، ومنها ما يراه إذا تعمد النظر إليه كبطنه وفخذه وعضديه ، وقد يكون بهما آثار من خيلان وغير خيلان ، وغير ذلك من الأحوال ، وهو لم يره ولم يعرفه ، لكن لو تعمد رؤيته لرآه ، ومن الناس من لا يستطيع رؤ ية ذلك لعارض عرض لبصره من العشي أو العمى ، أو غير ذلك .

كذلك صفات نفسه قد يعرف بعضها ، وبعضها لا يعرفه ، لكن لو تعمد تأمل حال نفسه لعرفه ، ومنها ما لا يعرفه ولو تأمل لفساد بصيرته وما عرض لها .

والذي يبين ذلك أن الأفعال الاختيارية لا تتصور إلا بإرادة تقوم بنفس الإنسان ، وكل من فعل فعلاً اختيارياً وهو يعرفه فلا بد أن يريده ، كالذي يأكل ويشرب ويلبس وهو يعرف أنه يفعل ذلك، فلا بد أن يريده ، فالفعل الاختياري يمتنع أن يكون بغير إرادة ، وإذا تصور الفعل الذي يفعله ، وقد فعله لزم أن يكون مريداً له وقد تصوره ، وإذا كان مريداً له وقد تصوره امتنع أن لا يريد ما تصوره وفعله .

فالإنسان إذا قام إلى صلاة يعلم أنها الظهر فمن الممتنع أن يصلي الظهر وهو يعلم هذا لم ينسه ولا يريد صلاة الظهر .

وكذلك الصيام إذا تصور أن غداً من رمضان وهو مريد لصوم رمضان امتنع أن لا ينوي صومه .

وكذلك إذا أهل بالحج وهو يعلم أنه مهل به امتنع أن لا يكون مريداً للحج .

وكذلك الوضوء إذا علم أنه يتوضأ للصلاة وهو يتوضأ امتنع أن لا يكون مريداً للوضوء ، ومثل هذا كثير - نجد خلقاً كثيراً من العلماء - دع العامية - يستدعون النية بألفاظ يقولونها ، ويتكلفون ألفاظاً ، ويشكون في وجودها مرة

بعد مرة ، ويخرجون إلى ضرب من الوسوسة التي يشبه أصحابها المجانين .

والنية هي الإرادة ، وهي القصد ، وهي موجودة في نفوسهم لوجودها في نفس كل من يصلي في ذلك المسجد والجامع ، ومن توضأ في تلك المطهرة ، أولئك يعلمون هذا من نفوسهم ولم يحصل لهم وسواس (١) ، وهؤلاء ظنوا أن النية في قلوبهم - يطلبون حصولها من قلوبهم .

وهم يعلمون أن التلفظ بها ليس بواجب ، وإنما الفرض وجود الإرادة في القلب ، وهي موجودة ، ومع هذا يعتقدون أنها ليست موجودة ، وإذا قيل لأحدهم « النية حاصلة في قلبك » لم يقبل لما قام به من الاعتقاد الفاسد المناقض لفطرته .

وكذلك حب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن ، لا يمكنه دفع ذلك من قلبه إذا كان مؤمناً ، وتظهر علامات حبه لله ولرسوله إذا أخذ أحد يسب الرسول ويطعن عليه ، أو يسب الله ويذكره بما لا يليق به ، فالمؤمن يغضب لذلك أعظم مما يغضب لو سب أبوه وأمه .

ومع هذا فكثير من أهل الكلام والرأي أنكروا محبة الله ، وقالوا : يمتنع أن يكون محباً أو محبوباً ، وجعلوا هذا من أصول الدين ، وقالوا : خلافاً

---

(١) أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتعوذ من شر الوسواس الخناس وقال بعض المفسرين: الوسواس الخناس: هو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخيال ، والمعصوم من عصمه الله . وقد ثبت في الصحيح « أنه ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه » قالوا : وأنت يا رسول الله . . . ؟

قال : نعم . إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » . وثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي - ﷺ - وهو معتكف وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها فلقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي - ﷺ - أسرعا فقال رسول الله - ﷺ - على رسلكما إنها صفية بنت حيي » .

فقالا : سبحان الله يا رسول الله . فقال : إن الشيطان يجري من الانسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال شراً - » .

للحلولية ، كأنه لم يقل بأن الله يحب إلا الحلولية . **ومعلوم أن هذا دين** الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، **وأهل الايمان أجمعين ، وقد دل** على ذلك الكتاب والسنة ، كما قد بسطناه في مواضع .

فهذه المحبة لله ورسوله موجودة في قلوب أكثر المنكرين لها ، **بل في** قلب كل مؤمن وإن أنكرها لشبهة عرضت له .

وهكذا المعرفة موجودة في قلوب هؤلاء ، فإن هؤلاء الذين أنكروا محبته هم الذين قالوا : معرفته لا تحصل إلا بالنظر ـ فأنكروا ما في فطرهم وقلوبهم من معرفته ومحبته .

ثم قد يكون ذلك الإنكار سبباً إلى امتناع معرفة ذلك في نفوسهم ، وقد يزول عن قلب أحدهم ما كان فيه من المعرفة والمحبة ـ **فإن الفطرة قد تفسد** ـ فقد تزول ، وقد تكون موجودة ولا ترى ، ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ (١) .

وقد قال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » (٣) ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ **فِطْرَةَ الله**

---

(١) سورة الحج آية رقم ٤٦ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٣٠ ـ ٣١ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب القدر ٣ باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٦٥٩٩ ـ أخبرنا اسحاق بن ابراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ـ ﷺ وذكره . =

﴿ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١) .

والفطرة تستلزم معرفة الله ، ومحبته ، وتخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد ـ وهو التوحيد ، وهذا معنى قول « لا إله إلا الله » كما جاء مفسراً : « كل مولود يولد على هذه الملة ـ وروي « على ملة الاسلام » . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، أن النبي ﷺ قال : يقول الله تعالى : « إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » (٢) فأخبر أنه خلقهم حنفاء ، وذلك يتضمن معرفة الرب ، ومحبته ، وتوحيده ، فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية ، وهي معنى قول « لا إله إلا الله » فإن في هذه الكلمة الطيبة التي هي ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣) ، فيها إثبات معرفته والإقرار به ، وفيها إثبات محبته ، فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يكون مألوهاً ، وهذا أعظم ما يكون من المحبة ، وفيها أنه لا إله إلا هو ففيها المعرفة ، والمحبة ، والتوحيد . وكل مولود يولد على الفطرة ، وهي الحنيفية التي خلقهم عليها ، ولكن أبواه يفسدان ذلك ـ فيهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، ويشركانه ، كذلك يجهمانه ـ فيجعلانه منكراً لما في قلبه من

= ورواه الامام مسلم في كتاب القدر ٢٢ باب ، ٢٣ ، ٢٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٥ ، ٣٤٦ .

(١) سورة الروم آية رقم ٣٠ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي وفيه زيادة (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال : إنما بعثتك لابتليك وابتلي بك وانزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظان ، وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً فقلت رب إذا يتلغوا رأسي فيدعوه خبزه قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نعزك وانفق فسننفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسه مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ، ومسلم عفيف متعفف ذو عيال» .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ .

معرفة الرب ومحبته وتوحيده ، ثم المعرفة يطلبها بالدليل ، والمحبة ينكرها بالكلية ، والتوحيد المتضمن للمحبة ينكره من لا يعرفه ، وإنما ثبت توحيد الخلق ، والمشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد وهذا الشرك .

فهما يشركانه ، [و] يهودانه ، وينصرانه، ويمجسانه ، وقد بسط الكلام على هذا الحديث وأقوال الناس فيه في غير هذا الموضع . وأيضاً مما يبين أن الإنسان قد يخفى عليه كثير من أحوال نفسه فلا يشعر بها ، أن كثيراً من الناس يكون في نفسه حب الرياسة كامن لا يشعر به ، بل إنه مخلص في عبادته وقد خفيت عليه عيوبه ، وكلام الناس في هذا كثير مشهور ، ولهذا سميت هذه « الشهوة الخفية » قال شداد بن أوس : يا بقايا العرب ! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية ، قيل لأبي داود السجستاني (1) : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرياسة : فهي خفية تخفى على الناس ، وكثيراً ما تخفى على صاحبها .

بل كذلك حب المال والصورة ، فإن الإنسان قد يحب ذلك ولا يدري . بل نفسه ساكنة ما دام ذلك موجوداً ، فإذا فقده ظهر من جزع نفسه وتلفها ما دل على المحبة المتقدمة ، والحب مستلزم للشعور ، فهذا شعور من النفس بأموز وحب لها ، والإنسان قد يخفى ذلك عليه من نفسه ، لا سيما والشيطان يغطي على الإنسان أموراً .

وذنوبه أيضاً تبقى ريناً على قلبه قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ ، رَانَ عَلَىٰ

---

(1) هو سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير الأزدي السجستاني أبو داود إمام أهل الحديث في زمانه أصله من (سجستان) رحل رحلة كبيرة وتوفي بالبصرة عام ٢٧٥ هـ .
له السنن ، وهو أحد الكتب الستة جمع فيه ٤٨٠٠ حديث انتخبها من ٥٠٠,٠٠٠ حديث وله المراسيل في الحديث ، وكتاب الزهد وغير ذلك كثير . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٥٢ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٢٤٤ وطبقات الحنابلة ١١٨ وتاريخ بغداد ٩ : ٥٥ وابن خلكان ١ : ٢١٤] .

قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون ، كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجوبُون ﴾[1] . وفي الترمذي وغيره عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي قال الله : ﴿ **كَلَّا بَلْ ، رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ما كانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[2] . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [3] .

وقال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ [4] . فالمتقون إذا أصابهم هذا الطيف الذي يطيف بقلوبهم يتذكرون ما علموه قبل ذلك ، فيزول الطيف ويبصرون الحق الذي كان معلوماً ، ولكن الطيف يمنعهم عن رؤ يته .

قال تعالى : ﴿ **وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ** ﴾ [5] . فإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في غيهم ، ﴿ **ثم لا يقصرون** ﴾ لا تقصر الشياطين عن المدد والإمداد ، ولا الإنس عن الغي ، فلا يبصرون مع ذلك .

---

(١) سورة المطففين آية رقم ١٤ ـ ١٥ .

(٢) الرين يعتري قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار والغين للمقربين والحديث رواه ابن جرير ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه من طرق ، عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره . وقال الترمذي : حسن صحيح ، ولفظ النسائي : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذي قال الله تعالى ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ سورة المطففين آية رقم ١٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٨٨ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٢٠١ .

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٢٠٢ .

الغي ما هو معلوم لهم ، مستقر في فطرهم ، لكنهم ينسونه .

ولهذا كانت الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها ، وتقـويته ، وإمداده ، ونفي المغير للفطرة ، فالرسل بعثوا بتقريـر الفطرة ، وتكميلهـا ، لا بتغيير الفطرة وتحويلها ، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة .

فصل

نسيان الإنسان لربه نسيان لنفسه

وهذا النسيان ـ نسيان الإنسان لنفسه ولما في نفسه ـ حصل بنسيانه لـربه ولما أنزلـه ـ قال تعـالى : ﴿ وَلَا تَكُونُـوا كَالَّـذِينَ نَسُوا الله فَـأَنْسَاهُـمْ أَنْفُسَهُـمْ ، أُولَئِـكَ هُمُ الفَاسِقُـونَ ﴾ (١) ، وقـال تعـالى في حق المنـافقين : ﴿ نَسُـوا الله فَنَسِيَهُمْ ﴾ (٢) . وقـال : ﴿ كَـذَلِـكَ أَتَتْـكَ آيَـاتُنَـا فَنَسِيتَهَـا ، وَكَـذَلِـكَ اليَـوْمَ تُنْسَى ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَـالَّذِينَ نَسُـوا الله فَأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾(٤) يقتضي أن نسيـان الله كان سببـاً لنسيانهم أنفسهم ، وأنهم لمـا نسـوا الله عـاقبهم بـأن أنساهم أنفسهم .

ونسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم وغفلتهم وعـدم معرفتهم بمـا كانـوا عـارفين به قبـل ذلـك من حـال أنفسهم ، كمـا أنـه يقتضي تـركهم لمصـالـح أنفسهم ، فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكراً ينفعها ويصلحها وأنهم لـو ذكروا الله لذكروا أنفسهم .

---

(١) سورة الحشر آية رقم ١٩ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٧ .

(٣) سورة طه آية رقم ١٢٦ .

(٤) سورة الحشر آية رقم ١٩

وهذا عكس ما يقال « من عرف نفسه عرف ربه » وبعض الناس يروي هذا عن النبي ﷺ ، وليس هذا من كلام النبي ﷺ ولا هو في شيء من كتب الحديث ، ولا يعرف له إسناد .

ولكن يروى في بعض الكتب المتقدمة ـ إن صح ـ « يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك » وهذا الكلام سواء كان معناه صحيحاً أو فاسداً لا يمكن الاحتجاج بلفظه ، فإنه لم يثبت عن قائل معصوم ، لكن إن فسر بمعنى صحيح عرف صحة ذلك المعنى ، سواء دل عليه هذا اللفظ أو لم يدل .

وإنما القول الثابت ما في القرآن ، وهو قوله ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (١) . فهو يدل على أن نسيان الرب موجب لنسيان النفس .

وحينئذ ، فمن ذكر الله ولم ينسه يكون ذاكراً لنفسه ، فإنه لو كان ناسياً لها ـ سواء ذكر الله أو نسيه ـ لم يكن نسيانها مسبباً عن نسيان الرب ، فلما دلت الآية على أن نسيان الإنسان نفسه مسبب عن نسيانه لربه دل على أن الذاكر (٢) لربه لا يحصل له هذا النسيان لنفسه .

والذكر يتضمن ذكر ما قد علمه ، فمن ذكر ما يعلمه من ربه ذكر ما يعلمه من نفسه ، وهو قد ولد على الفطرة التي تقتضي أنه يعرف ربه ويحبه ويوحده ، فإذا لم ينس ربه الذي عرفه ، بل ذكره على الوجه التي يقتضي محبته ومعرفته وتوحيده ، ذكر نفسه ، فأبصر ما كان فيها قبل من معرفة الله ومحبته وتوحيده .

---

(١) سورة الحشر آية رقم ١٩ .

(٢) في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال : قال النبي ـ ﷺ ـ يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

وأهل البدع - الجهمية ونحوهم - لما أعرضوا عن ذكر الله - الذكر المشروع الذي كان في الفطرة وجاءت به الشريعة ، الذي يتضمن معرفته ومحبته وتوحيده - نسوا الله من هذا الوجه ، فأنساهم أنفسهم من هذا الوجه ، فنسوا ما كان في أنفسهم من العلم الفطري ، والمحبة الفطرية ، والتوحيد الفطري . وقد قال طائفة من المفسرين : ﴿ **نسوا الله** ﴾ أي تركوا أمر الله ﴿ **فأنساهم أنفسهم** ﴾ أي حظوظ أنفسهم حيث لم يقدموا لها خيراً ، هذا لفظ طائفة منهم البغوي ، ولفظ آخرين منهم ابن الجوزي : حين لم يعملوا بطاعته ، وكلاهما قال: ﴿ **نسوا الله** ﴾ أي تركوا أمر الله . ومثل هذا التفسير يقع كثيراً في كلام من يأتي بمجمل من القول يبين معنى دلت عليه الآية ولا يفسرها بما يستحقه من التفسير ، فإن قولهم « تركوا أمر الله » هو تركهم للعمل بطاعته ، فصار الأول هو الثاني ، والله سبحانه قال : ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ** ﴾ (١) فهنا شيئان : نسيانهم لله ، ثم نسيانهم لأنفسهم الذي عوقبوا به .

فإن قيل : هذا الثاني هو الأول لكنه تفصيل مجمل كقوله : ﴿ **وَكَمْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** ﴾ (٢) وهذا هو هذا قيل : هو لم يقل « نسوا الله فنسوا حظ أنفسهم » حتى يقال هذا هو هذا بل قال ﴿ **نسوا**

---

(١) سورة الحشر آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٤ .

« بياتاً أي ليلاً ، أو هم قائلون (من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال تعالى : ﴿ **أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون** ﴾ أو أأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) .

وروى ابن جرير بسنده عن رسول الله - ﷺ من قوله ﴿ **ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم** ﴾ حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبدالله ابن مسعود قال رسول الله - ﷺ : ما **هلك قوم** حتى يعذروا من أنفسهم » قال قلت لعبد الملك كيف يكون ذلك قال : فقرأ هذه الآية ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ .

الله فـأنساهم أنفسهم ﴾ فثم إنسـاء منه لهم أنفسهم ، ولـو كان هـذا هـو الأول لكان قد ذكر ما يعذرهم به ، لا ما يعاقبهم به .

فلو كـان الثاني هـو الأول لكـان : ﴿ نســوا الله ﴾ أي تـركــوا العمـل بطاعته ، فهو الذي أنساهم ذلك ، ومعلوم فساد هذا الكلام لفظاً ومعنى .

ولو قيل : ﴿ نسوا الله ﴾ أي نسوا أمـره « فأنسـاهم العمل بـطاعته ، أي تذكرها ، لكان أقـربِ ، ويكون النسيـان الأول على بابـه ، فإن من نسي نفس أمر الله لم يطعه .

ولكن هم فسـروا نسيان الله بتـرك أمره ، وأمـره الـذي هـو كـلامـه ليس مقدوراً لهم حتى يتركوه ، إنما يتركون العمل به ، فالأمر بمعنى المـأمور بـه . إلا أن يقـال : مرادهم بتـرك أمره هـو ترك الإيمـان به ، فلمـا تـركـوا الإيمـان أعقبهم بترك العمل ، وهذا أيضاً ضعيف ، فإن الإيمان الذي تركوه إن كان هو ترك التصديق فقط فكفى بهذا كفراً وذنباً ، فلا تجعل العقوبة ترك العمـل به ، بل هذا أشد ، وإن كان المراد بترك الإيمان ترك الإيمان تصديقـاً وعملاً فهـذا هو ترك الطاعة كما تقدم .

وهؤلاء أتوا من حيث أرادوا أن يفسروا نسيـان العبد بمـا قيل في نسيـان الرب ، وذاك قد فسر بالتـرك ، ففسروا هـذا بالتـرك ، وهذا ليس بجيـد ، فإن النسيان المناقض للذكر جائز على العبد بلا ريب ، والإنسان يعـرض عما أمـر به حتى ينساه ، فلا يذكره ، فلا يحتـاج أن يجعل نسيـانه تـركاً مـع استحضار وعلم .

وأمـا الرب تعـالى فلا يجـوز عليه مـا ينـاقض صفـات كمـالـه سبحـانـه وتعـالى ، وفي تفسير نسيانه الكفار بمجرد الترك نظر .

ثم هذا قيل في قـوله تعـالى : ﴿ كَذَلِـكَ أَتَتْكَ آيَـاتُنَا فَنَسِيتَهَـا ﴾ [1] أي تركت العمل بها . وهنا قالوا ﴿ نسوا الله ﴾ ولا يقال في حق الله « تركوه » .

---

(١) سورة طه آية رقم ١٢٦ ومثله قوله تعالى ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ .
قال الامام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنـا خالـد عن يزيـد بن أبي زياد عن عيسى بن قـائد عن رجـل عن سعد بن عبـادة رضي الله عنه ، عن النبي - ﷺ - قـال : ما من رجـل قـرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم » ثم رواه الامـام أحمد من حـديث يزيـد بن أبي زياد عن عيسى بن قائد عن عبادة بن الصامت عن النبي - ﷺ - فذكر مثله سواء .

فصل

الخالق لا يكون إلا قادراً

قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [1] بيان لتعريفه بما قد عرف من الخلق عموماً ، وخلق الإنسان خصوصاً ، وأن هذا مما تعرف به الفطرة كما تقدم .

ثم إذا عرف أنه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون إلا قادراً ، بل كل فعل يفعله فاعل لا يكون إلا بقوة قادرة ، حتى أفعال الجمادات ، كهبوط الحجر والماء وحركة النار هو بقوة فيها ، وكذلك حركة النبات هي بقوة فيه ، وكذلك فعل كل حيّ من الدواب وغيرها هو بقوة فيها ، وكذلك الإنسان وغيره .

والخلق أعظم الأفعال ، فإنه لا قدر عليه إلا الله ، فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة ، وليس لها نظير من قدر المخلوقين .

وأيضاً فالتعليم بالقلم يستلزم القدرة ، فكل من الخلق والتعليم يستلزم القدرة .

وكذلك كل منهما يستلزم العلم ، فإن المعلم لغيره يجب أن يكون هو عالماً بما علمه إياه ، وإلا فمن الممتنع أن يعلم غيره ما لا يعلمه هو ، فمن

(١) سورة العلق آية رقم ١ - ٢ .

علم كل شيء ـ الإنسان وغيره ـ ما لم يعلم أولى أن يكون عالماً بما علمه ، والخلق أيضاً يستلزم العلم ، كما قال تعالى ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (١) وذلك من جهة أن الخلق يستلزم الإرادة ، فإن فعل الشيء على صفة مخصوصة ومقدار مخصوص دون ما هو خلاف ذلك لا يكون إلا بارادة تخصص هذا عن ذاك ، والإرادة تستلزم العلم ، فلا يريد المريد إلا ما شعر به وتصور في نفسه ، والإرادة بدون الشعور ممتنعة .

وأيضاً فنفس الخلق ـ خلق الإنسان ـ هو فعل لهذا الإنسان الذي هو من عجائب المخلوقات ، وفيه من الإحكام والاتقان ما قد بهر العقول ، والفعل المحكم المتقن لا يكون إلا من عالم بما فعل ، وهذا معلوم بالضرورة .

فالخلق يدل على العلم من هذا الوجه ، ومن هذا الوجه .

وقد قال في سورة الملك ﴿ **وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾(٢) . وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه ، كما قال يوسف عليه السلام ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ** ﴾ (٣) ، وهذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة ، والعلم بالطريق الموصل وكذلك الخبرة . وبسط هذا يطول ، إذ المقصود هنا التنبيه على ما في الآيات التي هي أول ما أنزل .

---

(١) سورة الملك آية رقم ١٤ .

(٢) سورة الملك آية رقم ١٤ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ تكملة الآية ﴿ **إنه هو العليم الحكيم** ﴾ قال أبو عثمان النهدي عن سليمان : كان بين رؤ يا يوسف وتأويلها أربعون سنة .
قال عبدالله بن شداد وإليها ينتهي أقصى الرؤية رواه ابن جرير وقال أيضاً حدثنا عمر بن علي ، حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا هشام عن الحسن قال : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة فغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة فمات وله عشرون ومائة سنة . وقال قتادة : كان بينهما خمس وثلاثون سنة ، وقال محمد بن اسحاق ذكروا والله أعلم أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة قال : وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها ، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه . والله أعلم .

ثم إذا ثبت أنه قادر عالم فذلك يستلزم كونه حياً ، وكذلك الإرادة تستلزم الحياة .

والحي إذا لم يكن سميعاً بصيراً متكلماً كان متصفاً بضد ذلك من العمى والصمم والخرس ، وهذا ممتنع في حق الرب تعالى ، فيجب أن يتصف بكونه سميعاً بصيراً متكلماً .

والإرادة إما أن تكون لغاية حكيمة ، أولاً ، فإن لم تكن لغاية حكيمة كانت سفهاً ، وهو منزه عن ذلك ، فيجب أن يكون حكيماً .

وهو إما أن يقصد نفع الخلق والإحسان إليهم ، أو يقصد مجرد ضررهم وتعذيبهم ، أو لا يقصد واحداً منهما ، بل يريد ما يراد سواء كان كذا أو كذا ، والثاني شرير ظالم يتنزه الرب عنه ، والثالث سفيه عابث ، فتعين أنه تعالى رحيم ، كما أنه حكيم ، كما قد بسط في مواضع .

فصل

وسائل إثبات صفات الكمال لله تعالى

إثبات صفات الكمال له طرق ، أحدها ما نبهنا عليه من أن الفعل مستلزم للقدرة ولغيرها ، فمن النظار من يثبت أولاً القدرة ، ومنهم من يثبت أولاً العلم ، ومنهم من يثبت أولاً الإرادة ، وهذه طرق كثير من أهل الكلام .

وهذه يستدل عليها بجنس الفعل ، وهي طريقة من لا يميز بين مفعول ومفعول ، كجهم بن صفوان ومن اتبعه .

وهؤلاء لا يثبتون حكمة ، ولا رحمة ، إذ كان جنس الفعل لا يستلزم ذلك ، لكن هم أثبتوا بالفعل المحكم المتقن العلم ، وكذلك نثبت بالفعل النافع الرحمة (١) ، وبالغايات المحمودة الحكمة (٢) .

ولكن هم متناقضون في الاستدلال بالإحكام والإتقان على العلم ، إذ كان ذلك إنما يدل إذا كان فاعلاً لغاية يقصدها ، وهم يقولون إنه يفعل لا لحكمة ، ثم يستدلون بالإحكام على العلم ، وهو تناقض . كما تناقضوا في

(١) قال تعالى : ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك ﴾ قال : ﴿ عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الأعراف آية رقم ١٥٦ .

(٢) قال تعالى : ﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ . سورة هود آية رقم ٤٥ وقال تعالى : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ . سورة التين آية رقم ٨ .

المعجزات حيث جعلوها دالة على صدق النبي ، إما للعلم الضروري بذلك ، وإما لكونه لو لم تدل لزم العجز، وهي إنما تدل إذا كان الفاعل يقصد إظهارها ليدل بها على صدق الأنبياء ، فإذا قالوا إنه لا يفعل شيئاً لشيء تناقضوا .

وأما الطريق الأخرى في إثبات الصفات [و] هي الاستدلال بالأثر على المؤثر ، وأن من فعل الكامل فهو أحق بالكمال .

والثالثة طريقة قياس الأولى ، وهي الترجيح والتفضيل ، وهو أن الكمال إذا ثبت للمحدث الممكن المخلوق فهو للواجب القديم الخالق أولى .

والقرآن يستدل بهذه ، وهذه ، وهذه .

فالاستدلال بالاثر على المؤثر أكمل ، كقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ ﴾ [1] ، قال الله تعالى ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [2] .

وهكذا ، كل ما في المخلوقات من قوة وشدة تدل على أن الله أقوى وأشد ، وما فيها من علم يدل على أن الله أعلم ، وما فيها من علم وحياة يدل على أن الله أولى بالعلم والحياة .

وهذه طريقة يقر بها عامة العقلاء ، حتى الفلاسفة يقولون : كل كمال في المعلول فهو من العلة .

وأما الاستدلال بطريق الأولى فكقوله ﴿ وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ [3] ومثل قوله : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَكُمْ مِن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [4] وأمثال

---

(١) سورة فصلت آية رقم ١٥ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ١٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٦٠ .

(٤) سورة الروم آية رقم ٢٨ .

ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدث المخلوق الممكن فهو للقديم الواجب الخالق أولى من جهة أنه أحق بالكمال لأنه أفضل .

وذاك من جهة أنه هو جعله كاملاً وأعطاه تلك الصفات . واسمه « العلي » يفسر بهذين المعنيين ـ يفسر بأنه أعلى من غيره قدراً ، فهو أحق بصفات الكمال ، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة ، فيعود إلى أنه القادر عليهم وهم المقدورون ، وهذا يتضمن كونه خالقاً لهم ورباً لهم .

وكلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شيء ، فلا شيء فوقه ، كما قال النبي ﷺ : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » (١) .

فلا يكون شيء قبله ، ولا بعده ، ولا فوقه ، ولا دونه ، كما أخبر النبي ﷺ وأثنى به على ربه ، وإلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصاً ، وكان ذلك أعلى منه . وإن قيل : إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، كان ذلك تعطيلاً له ، فهو منزه عن هذا .

وهذا هو العلي الأعلى ، مع أن لفظ « العلي » و« العلو » لم يستعمل في القرآن عند الإطلاق إلا في هذا ـ وهو مستلزم لذينك ـ لم يستعمل في مجرد القدرة ، ولا في مجرد الفضيلة .

ولفظ « العلو » يتضمن الاستعلاء ، وغير ذلك من الأفعال إذا عدي

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
حدثني زهير بن حرب ، حدثنا جرير عن سهيل قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته وذكره .
ورواه ابن ماجه في الدعاء ٢ ، ١٠ ، ١٥ وأبو داود في الأدب ٩٨ والترمذي في الدعوات ١٩ ، ٦٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٨١ ، ٤٠٤ ، ٥٣٦ (حلبي) .

بحرف الاستعلاء دل على العلو ، كقوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ [1] فهو يدل على علوه على العرش .

والسلف فسروا « الاستواء » بما يتضمن الارتفاع فوق العرش ، كما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية في قوله ﴿ ثم استوى ﴾ قال : ارتفع . وكذلك رواه ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم ـ رواه من حديث آدم بن أبي إياس ، عن أبي جعفر ، عن أبي الربيع ، عن أبي العالية : ﴿ ثم استوى ﴾ قال : ارتفع .

وقال البخاري : وقال مجاهد في قوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ علا على العرش ، ولكن يقال : « علا على كذا » . و « علا عن كذا » وهذا الثاني جاء في القرآن في مواضع ، لكن بلفظ « تعالى » كقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُواً كَبِيراً ﴾ [2] ، ﴿ عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [3] وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن كل واحد من ذكر أنه خلق ، وأنه الأكرم الذي علم بالقلم ، يدل على هاتين الطريقتين من إثبات الصفات ، كما دلنا على الطريقة الأولى ـ طريقة الاستدلال بالفعل .

فإن قوله ﴿ الأكرم ﴾ يقتضي أنه أفضل من غيره في الكرم ، والكرم اسم جامع لجميع المحاسن ، فيقتضي أنه أحق بجميع المحامد ، والمحامد هي صفات الكمال ، فيقتضي أنه أحق بالإحسان إلى الخلق والرحمة وأحق بالحكمة ، وأحق بالقدرة ، والعلم والحياة ، وغير ذلك .

وكذلك قوله ﴿ خلق ﴾ فإن الخالق قديم أزلي ، مستغن بنفسه ، واجب

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣ وسورة الرعد آية رقم ٢ وسورة الفرقان آية رقم ٥٩ وسورة السجدة آية رقم ٤ وسورة الحديد آية رقم ٤ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٤٣ .

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٩٢ .

الوجود بنفسه ، قيوم ، ومعلوم أنه أحق بصفات الكمال من المخلوق المحدث الممكن .

فهذا من جهة قياس الأولى ، ومن جهة الأثر فإن الخالق لغيره الذي جعله حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً هو أولى بأن يكون حياً عالماً قديراً سميعاً بصيراً .

و ﴿ الأَكْرَمُ ، الَّذِي علَّمَ بِالقَلَم ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] فجعله عليماً ، والعليم لا يكون إلا حيّاً ، وكرمه أيضاً أن يكون قديراً سميعاً بصيراً ، والأكرم الذي جعل غيره عليماً هو أولى أن يكون عليماً ، وكذلك في سائر صفات الكمال والمحامد .

فهذا استدلال بالمخلوق الخاص ، والأول استدلال بجنس الخلق ، ولهذا دل هذا على ثبوت الصفات بالضرورة من غير تكلف، وكذلك طريقة التفضيل، والأولى ، أن يكون الرب أولى بالكمال من المخلوق . وهذه الطرق لظهورها يسلكها غير المسلمين من أهل الملل وغيرهم كالنصارى ، فإنهم أثبتوا أن الله قائم بنفسه حتى يتكلم بهذه الطريق ، لكن سموه « جوهراً » وضلوا في جعل الصفات ثلاثة ، وهي الأقانيم »[2] .

فقالوا : وجدنا الأشياء تنقسم إلى جوهر وغير جوهر ، والجوهر أعلى النوعين ، فقلنا : هو جوهر ، ثم وجدنا الجوهر ينقسم إلى حي ، وغير حيّ ، ووجدنا الحي أكمل ، فقلنا : هو حي . ووجدنا الحي ينقسم إلى ناطق وغير ناطق ، فقلنا : هو ناطق .

وكذلك يقال لهم في سائر صفات الكمال : إن الأشياء تنقسم إلى قادر وغير قادر ، والقادر أكمل ، وقد بسط ما في كلامهم من صواب وخطأ في

---

(١) سورة العلق الآيات ٣ ـ ٥ .

(٢) تكلمنا فيما سبق عن الأقانيم الثلاثة عند النصارى في كلمة وافية .

الكتاب الذي سميناه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

والمقصود هنا التنبيه على دلالة هـذه الآية ـ وهـذه الآيات التي هي أول ما نزل ـ على أصول الدين .

وقـوله ﴿ **عَلَّمَ الإِنْسَـانَ مَـا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (١) يـدل على قـدرتـه على تعليم الإنسان ما قد علمه ، مع كون جنس الإنسان فيه أنواع من النقص ، فإذا كـان قـادراً على ذلك التعليم فقـدرته على تعليم الأنبيـاء ما علمهم أولى وأحـرى ، وذلك يدخل في قوله ﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ فإن الأنبياء من الناس .

فقد دلت هذه الآيات على جميع الأصول العقلية ، فـإن إمكان النبـوات هو آخر ما يعلم بالعقل .

وأما وجود الأنبياء وآياتهم فيعلم بالسمع المتـواتر ، مـع أن قولـه ﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ يدخل فيه إثبات تعليمـه للأنبيـاء ما علمهم، فهي تـدل على الإمكان والوقوع .

وقد ذكرنا في مواضع أن تنزيهه يرجع إلى أصلين .

تنزيهه عن النقص المناقض لكماله ، فما دل على ثبوت الكمال لـه فهو يدل على تنزهه عن النقص المناقض لكماله .

وهـذا مما يبين أن تنـزهه عن النقص معلوم بـالعقل ، بخـلاف مـا قـال طائفة من المتكلمين إن ذلك لا يعلم إلا بالسمع .

وقـد بينا في غيـر هذا المـوضـع أن الـطرق العقليـة التي سلكـوهـا من الاستـدلال بالأعـراض على حدوث الأجسـام لا تـدل على إثبـاتـه ، ولا على إثبـات شيء من صفات الكمـال ، ولا على تنـزهـه عن شيء من النقـائص ، فليس عند القوم مـا يحيلون به عنـه شيئـاً من النقـائص . وهم معترفـون بأن

---

(١) سورة العلق آية رقم ٥ .

الأفعال يجوز عليه منها كل شيء بخلاف الصفات ، لكن طريقهم في الصفات فاسد متناقض ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

الثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال . والقرآن مملوء بإثبات هذين الأصلين - بإثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ، وتنزيهه عن التمثيل ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فصل

وقوله ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١) وقوله ﴿ عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَانَمَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) يدل على إثبات أفعاله وأقواله .

فالخلق فعله ، والتعليم يتناول تعليم ما أنزله ، كما قال ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ (٣) وقوله ﴿ بالقلم ﴾ يتناول تعليم كلامه الذي يكتب بالقلم ، ونزوله في أول السورة التي أنزل فيها كلامه وعلم نبيه كلامه الذي يكتب بالقلم دليل على شمول الآية لذلك ، فإن سبب اللفظ المطلق والعام لا بد أن يكون مندرجاً فيه ، وإذا دل على أنه خلق وتكلم . وقد قال ﴿ خلق الإنسان ﴾ . ومعلوم بالعقل وبالخطاب أن الإنسان المخلوق غير خلق الرب له ، وكذلك خلقه لغيره ، والذين نازعوا في ذلك إنما نازعوا لشبهة عرضت لهم ، كما قد ذكر بعد هذا وفي مواضع ، وإلا فهم لا يتنازعون أن ﴿ خلق ﴾ فعل له مصدر ـ يقال : خلق ـ يخلق ـ خلقاً . والإنسان مفعول المصدر ـ و« المخلوق » ليس هو المصدر

ولكن قد يطلق لفظ المصدر على المفعول ، كما يقال « درهم ضرب

(١) سورة العلق آية رقم ١ .

(٢) سورة العلق آية رقم ٤ ـ ٥ .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ١ ـ ٤ .

الأمير » . ومنه قوله « هذا خلق الله » والمراد هناك : هذا مخلوق الله . وليس الكلام في لفظ ﴿ خلق ﴾ المراد به « المخلوق » ، بل في لفظ « الخلق » المراد به « الفعل » الذي يسمى المصدر ، كما يقال : خلق - يخلق - خلقاً ، وكقوله ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[1] وقوله ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾[2] وقوله ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾[3] .

وإذا كان الخلق فعله فهو بمشيئته ، إذ يمتنع أن يكون فعله بغير مشيئته ، وما كان بالمشيئة امتنع قدم عينه ، بل يجوز قدم نوعه .

وإذا كان الخلق للحادث لا بد له من مؤثر تام أوجب حدوثه لزم أنه لم يزل متصفاً بما يقوم به من الأمور الاختيارية ، لكن إن يثبت أنه كان قبل هذا المخلوق مخلوق آخر ثبت أنه متصف بخلق بعد خلق .

وكذلك الكلام ، هو متكلم بمشيئته ، ويمتنع أن لا يكون متكلماً ، ثم يصير متكلماً لوجهين :

أحدهما : أنه سلب لكماله ، والكلام صفة كمال .

والثاني : أنه يمتنع حدوث ذلك ، فإن من لا يكون متكلماً يمتنع أن يجعل نفسه متكلماً ، ومن لا يكون عالماً يمتنع أن يجعل نفسه عالماً ، ومن لا يكون حياً يمتنع أن يجعل نفسه حياً ، فهذه الصفات من لوازم ذاته .

وكذلك من لا يكون خالقاً يمتنع أن يجعل نفسه خالقاً ، فإنه إذا لم يكن قادراً على أن يخلق فجعله نفسه خالقة أعظم ، فيكون هذا ممتنعاً بطريق الأولى ، فإن جعل نفسه خالقة يستلزم وجود المخلوق . ولهذا لما كان قادراً

---

(١) سورة لقمان آية رقم ٢٨ .
(٢) سورة الزمر آية رقم ٦ .
(٣) سورة الكهف آية رقم ٥١ .

على جعل الإنسان فاعلاً كان هو الخالق لما يفعله الإنسان ، فلو جعل نفسه خالقة كان هو الخالق لما جعلها تخلقه .

فإذا فرض أنه يمتنع أن يكون خالقاً في الأزل امتنع أن يجعل نفسه خالقة بوجه من الوجوه ، ويلزم من القول بامتناع الفعل عليه في الأزل امتناعه دائماً ، وقد دلت الآية على أنه خلق ، فعلم أنه ما زال قادراً على الخلق ، ما زال يمكنه أن يخلق ، وما زال الخلق ممكناً مقدوراً ، وهذا يبطل أصل الجهمية .

بل وإذا كان قادراً عليه فالموجب له ليس شيئاً بائناً من خارج ، بل هو من نفسه ، فيمتنع أن يجعل نفسه مريدة بعد أن لم تكن ، فيلزم أنه ما زال مريداً قادراً ، وإذا حصلت القدرة والإرادة وجب وجود المقدور . وأهل الكلام الذين ينازعون في هذا يقولون : لم يزل قادراً على ما سيكون .

فيقال لهم : القدرة لا تكون إلا مع إمكان المقدور ، وإذا كانت القدرة دائمة ، فهل كان يمكنه أن يفعل المقدور دائماً ؟ وهم يقولون : لا ، بل الإمكان ـ إمكان الفعل ـ حادث ، وهذا يناقض إثبات القدرة ، وإن قالوا : بل الإمكان حاصل ، تبين أنه لم يزل الفعل ممكناً ، فثبت إمكان وجود ما لا يتناهى من مقدور الرب . وحينئذ ، فإذا كان لم يزل قادراً ، والفعل ممكناً ، وهذا الممكن قد وجد ، فما لا يزال فالموجب لوجود جنس المقدور ـ كالإرادة ـ مثلاً ، إما أن يكون وجودها في الأزل ممتنعاً ، فيلزم امتناع الفعل ، وقد بينا أنه ممكن .

وأيضاً إذا كان وجودها ممتنعاً لم يزل ممتنعاً ، لأنه لا شيء هناك يجعلها ممكنة فضلاً عن أن تكون موجودة، ومعلوم أن وجودها بعد أن لم تكن لا بد له من موجب ، وإذا كان وجودها في الأزل ممكناً ، فوجود هذا الممكن لا يتوقف على غير ذاته ، وذاته كافية في حصوله ، فيلزم أنه لم يزل مريداً .

وهكذا في جميع صفات الكمال متى ثبت إمكانها في الأزل لزم وجودها

في الأزل ، فإنها لو لم توجد لكانت ممتنعة ، إذ ليس في الأزل شيء سوى نفسه يوجب وجودها فإذا كانت ممكنة والمقتضى التام لها نفسه لزم وجوبها في الأزل .

وهذا مما يدل على أنه لم يزل حيّاً ، عليماً ، قديراً ، مريداً ، متكلماً ، فاعلاً ، إذ لا مقتضى لهذه الأشياء إلا ذاته ، وذاته وحدها كافية في ذلك ، فيلزم قدم النوع ، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، لكن إذا أفراد النوع تحصل شيئاً بعد شيء بحسب الإمكان والحكمة .

ولهذا قد بين في مواضع أنه ليس في نفس الأمر ممكن يستوي طرفا وجوده وعدمه ، بل إما أن يحصل المقتضي لوجوده فيجب ، أو لا يحصل فيمتنع . [فما] اتصف به الرب فاتصافه به واجب ، وما لم يتصف به فاتصافه به ممتنع ، وما شاء كان ووجب وجوده ، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده ، فالممكن مع مرجحه التام واجب ، وبدونه ممتنع .

ففي قوله تعالى : ﴿ اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [1] وفي قوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمْ ﴾ [2] دلالة على ثبوت صفات الكمال له ، وأنه لم يزل متصفاً بها.

وأقوال السلف في ذلك كثيرة ، وبهذا فسروا قوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[3] ونحوه ، كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس - ورواه ابن أبي حاتم من عدة طرق - لما قيل له : قوله : ﴿ وكان الله . . . ﴾ كأنه كان شيء ثم مضى ؟ فقال ابن عباس : هو سمى نفسه بذلك ، ولم يزل كذلك .

---

(١) سورة العلق آية رقم ١ - ٢ .

(٢) سورة العلق آية رقم ٣ - ٤ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٥٨ .

هـذا لفظ ابن أبي حـاتم من طـريق أبي معـاويــة ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فقال ابن عباس : كذلك كان ولم يزل .

ومن رواية عمرو بن أبي قيس ، عن مطرف ، عن المنهال ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، قال : أتاه رجل فقال : سمعت الله يقـول ﴿ **وكان الله** . . . ﴾ كأنه شيء كان ؟ فقال ابن عباس : أما قوله ﴿ **كان** ﴾ فإنـه لم يزل ولا يــزال ، و﴿ **هُـوَ الأوَلُ وَالآخِـرُ وَالـظَّاهِـرُ وَالبَـاطِنُ ، وَهُــوَ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (١) .

ومن روايـة عبد الـرحمن بن مغرا ، عن مجمـع بن يحيى ، عن عمه ، عن ابن عباس ، قال . قال يهودي : إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً ، فكيف هو اليوم ؟ فقال ابن عباس : إنه كان في نفسه عزيزاً حكيماً .

وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفاً بخبـر « كان » ، ولا يـزال كذلك ، وأن ذلك حصل لـه من نفسه، فلم يـزل متصفاً في نفسـه إذا كان من لوازم نفسه ، ولهذا لا يزال لأنه من نفسه . وقال أحمد بن حنبل : لم يزل الله عالماً ، متكلماً ، غفوراً ، وقال أيضاً : لم يزل الله متكلماً إذا شاء .

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٣ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرباض بن ساريـة أنها أفضـل من ألف آية .

وقال أبو داود حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا النضر بن محمـد حدثنـا عكرمـة ـ يعني ابن عمار ـ حدثنا أبو زميل ، قال سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صـدري . . ؟ قال : ما هو . . ؟ قلت والله لا أتكلم به قال : فقال لي أشيء من شك . . ؟ قال : وضحك قال : ما نجا من ذلك أحد قال : حتى أنزل الله تعالى: ﴿ **فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك** ﴾ . الآية . قـال : وقال لي إذا وجـدت في نفسك شيئاً فقل ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو بضعة عشر قولاً .

فصل

وكما أنه أول آية نزلت من القرآن تدل على ذلك فأعظم آية في القرآن تدل على ذلك ، لكن مبسوطاً دلالة أتم من هذا .

وهي آية الكرسي ، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب : يا أبا المنذر ! أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم » ؟ فقال : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ فقال : « ليهنك العلم ، أبا المنذر » .

وهنا افتتحها بقوله ﴿ الله ﴾ ، وهو أعظم من قوله ﴿ وربك . . . . ﴾ ولهذا افتتح به أعظم سورة في القرآن فقال : ﴿ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [1] . وقال : ﴿ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ [2] إذا كان المشركون قد اتخذوا إلهاً غيره وإن قالوا بأنه الخالق ، ففي قوله ﴿ خلق ﴾ لم يذكر نفي خالق آخر إذ كان ذلك معلوماً ، فلم يثبت أحد من الناس خالقاً آخر مطلقاً خلق كل شيء ، وخلق الإنسان وغيره ، بخلاف الإلهية . قال تعالى ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [3] . وقال تعالى : ﴿ وَانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٦٨ .

يُـرَادُ ﴾ (١) ، وقال تعـالى ﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَـعَ اللهِ آلِهَةً أُخْـرَىٰ ، قُلْ لاَ أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٢) ، وقـال تعالى : ﴿ قُـلْ لَوْ كَـانَ مَعَهُ آلِهَـةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغُوْا إِلَىٰ ذِي العَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (٣) فابتغوا معه آلهة أخـرى ، ولم يثبتـوا معه خـالقاً آخـر .

فقـال في أعظم الآيـات : ﴿ الله لا إله إلا هـو الحي القيوم ﴾ . ذكـره في ثلاثة مـواضع من القـرآن ، كل مـوضع فيـه أحد أصـول الدين الثـلاثة - وهي التوحيد ، والرسل ، والآخرة .

هذه التي بعث بها جميع المرسلين ، وأخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُـوا بِآيَـاتِنَا ، وَالَّـذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (٤) .

فقال هنا : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ (٥) - قرنهـا بأنـه لا إله إلا هو .

وزاد في آل عمـران ﴿ نَزَّلَ عَلَيْـكَ الكِتَابَ بِـالحَقِّ مُصَدِّقـاً لِمَـا بَـيْنَ يَـدَيْـهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ، مِن قَبْلُ هُـدىً لِلنَّاسِ وَأَنْـزَلَ الفُرْقَـانَ ﴾ (٦) ، وهذا إيمان بالكتب والرسل .

وقال في طه : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الـرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَـهُ قَوْلاً ، يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِم، وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُون بِـهِ عِلْمـاً ، وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾ (٧) .

---

(١) سورة ص آية رقم ٦ .
(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٩ .
(٣) سورة الاسراء آيـة رقم ٤٢ .
(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٥٠ .
(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .
(٦) سورة آل عمران آية رقم ٣ - ٤ .
(٧) سورة طه آية رقم ١٠٩ - ١١١ .

فصل

ومن أعظم الأصول معرفة الإنسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية ، كقوله في هذه السورة ﴿ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [1] و﴿ الخلق ﴾ مذكور في مواضع كثيرة ، وكذلك غيره من الأفعال . وهو نوعان .

فعل إلى مفعول به ، مثل ﴿ خلق ﴾ فإنه يقتضي مخلوقاً ، وكذلك « رزق » ، كقوله : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شيءٍ ﴾[2] وكذلك الهدي والإضلال ، والتعليم والبعث ، والإرسال والتكليم .

وكذلك ما أخبر به من قوله ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [3] وقوله : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾[4] وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [5] . وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ

---

(١) سورة العلق آية رقم ١ ـ ٢

(٢) سورة الروم آية رقم ٤٠ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ١٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٥) سورة الذاريات آية رقم ٤٧ .

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ﴾ (١) . وقوله في الآية الأخرى : ﴿ الَّـذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَـرَاراً وَالسَّمَـاءَ بِنَـاءً وَصَـوَّرَكُمْ فَـأَحْسَنَ صُـوَرَكُمْ وَرِزْقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (٢) وهذا في القرآن [كثير] جداً .

والأفعـال اللازمـة ، كقـولـه : ﴿ ثُمَّ اسْتَـوَىٰ إِلَى السَّمَـاءِ ﴾ (٣) ، ﴿ ثُمَّ اسْتَـوَىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ (٤) ﴿ هَـلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَـأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَـامِ ﴾ (٥) ﴿ هَلْ يَنْـظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَـلاَئِكَةُ أَوْ يَـأْتِيَ رَبُّـكَ أَوْ يَـأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ (٦) ﴾ ، وقـوله : ﴿ وَجَـاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّـاً صَفّاً ﴾ (٧) .

فأما النـوع الأول ، فالمسلمون متفقون على إضـافته إلى الله ، وأنـه هو الـذي يخلق ويرزق ، ليس ذلك صفة لشيء من مخلوقاته . لكن هل قام به فعـل هو الخلق ، أو الفعل هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ؟ وهذا فيه قـولان لمن يثبت اتصافه بـالصفات ، فـأما من ينفي الصفـات من الجهمية والمعتـزلة فهم ينفون قيام الفعل به بطريق الأولى .

لكن منهم من يجعـل الخلق غيـر المخلوق ، ويجعـل الخلق إمـا معنى قام بالمخلوق ، ، أو المعـاني المتسلسلة ، كما يقـول معمر بن عبـاد (٨) ، أو

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة غافر آية رقم ٦٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة يونس آية رقم ٣ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٥٨ .

(٧) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(٨) هو معمر بن عبـاد السلمي : معتزلي من الغـلاة من أهل البصـرة سكن بغداد ونـاظر النـظام ، وكان أعظم القدرية غلواً انفرد بمسائل منها أن الإنسان يدبر الجسد وليس بحال به ، والإنسان عنده ليس بطويل ولا عريض ولا ذي لون وتأليف وحركة ولا حال ولا متمكن ، وإنما هو شيء غير الجسد ، وهو حي عالم قادر مختار ومن أقواله : إن الله تعالى لم يخلق شيئاً غير الأجسام فأما الأعراض فهي من اختراعات الأجسام إما بالطبع وإما بالاختيـار وتنسب إليه طـائفة تعـرف بالمعمريـة . توفي عـام ٢١٥ هـ [راجع خـطط المقريـزي ٢ : ٣٤٧ ولسان الميـزان ٦ : ٧١ =

يجعل الخلق قائماً لا في محل ، كقول بعضهم ، إنه قول « كن » لا في محل ، وقول البصريين : إنه إرادة لا في محلٍ ، وهذا فرار منهم عن قيام الحوادث به ، مع أن منهم من يلتزم ذلك ، كما التزمه أبو الحسين وغيره .

والجمهور المثبتون للصفات هم في الأفعال على قولين : ـ منهم من يقول : لا يقوم به فعل ، وإنما الفعل هو المفعول ، وهذا قول طائفة منهم الأشعري ومن وافقه من أصحابه وغير أصحابه ، كابن عقيل وغيره ، وهو أول قولي القاضي أبي يعلى .

وهؤلاء يقسمون الصفات إلى ذاتية ، ومعنوية وفعلية ، وهذا تقسيم لا حقيقة له ، فإن الأفعال عندهم لا تقوم به فلا يتصف بها ، لكن يخبر عنه بها .

وهذا التقسيم يناسب قول من قال : الصفات هي الأخبار التي يخبر بها عنه ، لا معاني تقوم به ، كما تقول ذلك الجهمية والمعتزلة ، فهؤلاء إذا قالوا : الصفات تنقسم إلى ذاتية وفعلية ، أرادوا بذلك ما يخبر به عنه من الكلام تارة يكون خبراً عن ذاته ، وتارة عن المخلوقات ليس عندهم صفات تقوم به ، فمن فسر الصفات بهذا أمكنه أن يجعلها ثلاثة أقسام ـ ذاتية ، ومعنوية ، وفعلية .

وأما من كان مراده بالصفات ما يقوم به فهذا التقسيم لا يصلح على أصلهم ، ولكن أخذوا التقسيم عن أولئك وهم مخالفون لهم في المراد بالصفات .

وهذا التقسيم موجود في كلام أبي الحسن ومن وافقه ، كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي ، والباجي وغيرهم .

= وانظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ٨٩ والمعتزلة لزهدي جار الله ٥٧ ـ ٦٧ .

والقول الثاني : إنه تقوم بـه الأفعال ، وهـذا قول السلف وجمهـور مثبتة الصفات .

ذكـر البخـاري في كتـاب « خلق أفعـال العبـاد »[1] أن هـذا إجمـاع العلماء ، خالق ، وخلق ، ومخلوق ، وذكره البغوي قـول أهل السنـة ، وذكره أبـو نصـر محمـد بن اسحـاق الكـلابـاذي[2] في كتـاب « التعـرف بمـذاهب التصـوف » أنه قـول الصوفيـة ، وهـو قـال الحنفيـة مشهـور عنـدهم يسمـونـه « التكوين » ، وهو قول الكرامية ، والهشامية ، ونحوهما وهو قول القدمـاء من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وهو آخر قولي القاضي أبي [يعلى] .

ثم إذا قيـل : الخلق غير المخلوق ، وإنـه قائم بـالرب ، فهـو هو خلق قديم لازم لذات الرب مع حدوث المخلوقات ، كما يقوله أصحاب أبي حنيفة وغيرهم ؟ أو هو خلق حادث بذاته ـ حدث لمـا حدث جنس المخلوقـات ؟ أم خلق بعد خلق ؟ على ثلاثة أقوال .

وهذا أو هذا هو الذي عليه أئمة السنة والحديث وجمهورهم ، وهو قول طـوائف من أهل الكـلام ـ من الكراميـة والهشاميـة وغيرهم . فمن قـال « إنـه يتكلم بمشيئته واختياره كلاماً يقوم بذاته ، يمكنه أن يقول : إنه يفعل باختيـاره ومشيئته فعلاً يقوم بذاته » .

والـذين يقولـون بقيام الأمـور الإختياريـة بذاتـه منهم من يصحـح دليـل الأعـراض والاستدلال بـه عـلى حـدوث الأجسـام ، كـالكـراميـة ، ومتـأخـري الحنفية ، والمالكية ، والحنبلية ، والشافعية ، ومنهم من لا يصححه ، كأئمـة

---

(١) راجع هذا الكتاب بتحقيقنا ط عكاظ السعودية عام ١٩٧٩ م .

(٢) هـو محمد بن ابـراهيم بن يعقوب الكـلاباذي البخـاري أبو بكـر من حفاظ الحـديث من أهـل بخارى ، له بحر الفوائد ويعرف بمعاني الأخبار ، جمـع فيه ٥٩٢ حـديثاً ، والتعـرف لمذهب أهل التصوف توفي عام ٣٨٠ هـ . [راجع فهرست الكتبخانة ١ : ٢٧٥ وكشف الـظنون ٢٢٥ وانظر بروكلمن الملحق ١ : ٣٦٠] .

السلف ، وأئمة السنة والحديث ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري وغيرهم . وهذه المسألة يعبر عنها بـ « مسألة التأثير » هل هو أمر وجودي أم لا ؟ وهل التأثير زائد على المؤثر والأثر أم [لا] ؟ وكلام الرازي في ذلك مختلف ، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع .

وعمدة الذين قالوا : إن الخلق هو المخلوق ، والتأثير هو وجود الأثر ، لم يثبتوا زائداً أن قالوا : لو كان الخلق والتأثير زائداً على ذات المخلوق والأثر لكان إما أن يقوم بمحل أولاً . والثاني باطل ، فإن المعاني لا تقوم بنفسها ، وهذا رد على طائفة من المعتزلة قالوا : يقوم بنفسه . قالوا : وإذا قام بمحل فإما أن يقوم بالخالق أو بغيره ، والثاني باطل ، لأنه لو قام بغيره لكان ذلك الغير هو الخالق ، لا هو ، وهذا رد على طائفة ثانية يقولون : إنه يقوم بالمخلوق .

وإذا قام بالخالق فإما أن يكون قديماً أو محدثاً ، ولو كان قديماً للزم قدم المخلوق ، فإن الخلق والمخلوق متلازمان ، فوجود خلق بلا مخلوق ممتنع ، وكذلك وجود تأثير بلا أثر .

وإن كان محدثاً فهو باطل لوجهين : أحدهما أنه يلزم قيام الحوادث به ، والثاني : أن ذلك الخلق الحادث يفتقر إلى خلق آخر ويلزم التسلسل ومعمر بن عباد [1] التزم التسلسل ، وجعل للخلق خلقاً ، وللخلق خلقاً ، لكن لا في ذات الله ، وجعل ذلك في وقت واحد .

فهذه عمدة هؤلاء ، وكل طائفة تخالفهم منعت مقدمة من مقدمات دليلهم .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع : خطط المقريزي ٢ : ٣٤٧ ولسان الميزان ٦ : ٧١ وفي اللباب ٣ : ١٦١ وهو صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة المنسوبة إليه وله فضائح ، وانظر الملل والنحل للشهرستاني ، والمعتزلة لزهدي جار الله ٥٧ ـ ٦٧ .

فمن جوز أن يقوم بنفسه ، أو بالمخلوق ، منع تينك المقدمتين ، وأما الجمهور فكل أجاب بحسب قوله .

منهم من قال : بل الخلق والتكوين قديم ، كما أن الإرادة عندكم قديمة ، ومع القول بقدمها لم يلزم تقدم المراد ، كذلك الخلق والتكوين قديم ، ولا يلزم تقدم المخلوق ، وهذا لازم للكلابية من الأشعرية وغيرهم لا جواب لهم عنه .

لكن لا يلزم من نفي قدم إرادة معينة ، بل نفي قدم الإرادة ، كما يقوله الجهمية والمعتزلة ، أو يقول بقدم نوع الإرادة ، كما يقوله أئمة أهل الحديث ومن وافقهم من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم .

لكن صاحب هذا القول يقال له : التكوين القديم إما أن يكون بمشيئته وإما أن لا يكون بمشيئته، فإن كان بغير مشيئته لزم أن يكون قد خلق الخلق بلا مشيئته ، وإن كان بمشيئته لزم أن يكون القديم مراداً وهذا باطل ، ولو صح لأمكن كون العالم قديماً ـ مع كونه مخلوقاً ـ بخلق قديم بإرادة قديمة ، ومعلوم أن هذا باطل ، ولهذا كان كل من قال : « القرآن قديم » يقولون : تكلم بغير مشيئته وقدرته .

فالمفعول المراد لا يكون إلا حادثاً ، وكذلك الفعل المراد لا يكون إلا حادثاً .

وأيضاً فهؤلاء المنازعون لهم يقولون : الإرادة مستلزمة للمراد ، والخلق مستلزم للمخلوق ، وما ذكر حجة على هؤلاء، وهؤلاء ، فإن الإرادة والخلق من الأمور الإضافية ، وثبوت إرادة بلا مراد وخلق بلا مخلوق ممتنع . لكن المنازع يقول : توجد الإرادة والخلق ويتأخر المراد المخلوق . ؟

فيقال لهؤلاء ـ تقولون : توجد الإرادة ، أو الخلق مع الإرادة ، ولا يوجد لا المراد ولا المخلوق ، ثم بعد ذلك بما لا يتناهى من تقدير الأوقات

يوجد المراد المخلوق من غير سبب ، وهذا معلوم البطلان في بداية العقول ، فإن الإرادة أو الخلق كان موجوداً مع القدرة ، فإن كان هـذا مؤثراً تـاماً استلزم وجود الأثر ، ولزم وجود الأثر عند وجود المؤثر التام .

فإن المؤثر « ممكن » . والممكن يجب وجوده عند وجود المرجح التام ، إذ لو لم يكن كذلك كان جائزاً بعد وجود المرجح يقبل الوجود والعدم ، وحينئذ فيفتقر إلى مرجح ، وهذا يستلزم التسلسل ، ولا ينقطع التسلسل إلا إذا وجد المرجح التام الموجب .

وهنا تنازع الناس ، فقالت طائفة ـ مثل محمد بن الهيصم الكرامي ، ومحمود الخوارزمي ـ يكون الممكن أولى بالوقوع لكن لا ينتهي إلى حد الوجوب .

وقد قال أكثر المعتزلة والأشعرية : بل لا يصير أولى ، ولكن القادر أو القادر المريد ، يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

وآخرون عرفوا أن هذا لازم فاعترفوا بأنه عند وجود المرجح التام يجب وجود الأثر ، وعند الداعي التام مع القدرة يجب وجود الفعل ، كما اعترف بذلك أبو الحسين البصري ، والرازي ، والطوسي ، وغيرهم ، وكثير من قدماء المتكلمين يقولون بالإرادة الموجبة ، وأن الإرادة تستلزم وجود المراد .

والمتفلسفة أوردوا هذا على المتكلمين ، لكن بأن الأثر يقارن وجود التأثير فيكون معه بالزمن .

وكثير من الناس لا يعرف إلا هذا القول ، وذاك القول ، كالرازي وغيره ، فيبقون حيارى في هذا الأصل العظيم الذي هو من أعظم أصول الدين والعلم والكلام .

وقد بسطنا الكلام على هذا في غير موضع ، وبينا أن قولا ثالثاً هو الصواب الذي عليه أئمة العلم ، وهو أن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عِقَبه ـ

لا معه في الزمان ، ولا متراخياً عنه . فمن قال بالتراخي من أهل الكلام فقد غلط ، ومن قال بالاقتران ـ كالمتفلسفة ـ فهم أعظم غلطاً ، ويلزم قولهم من المحالات ما قد بيناه في مواضع .

وأما هذا القول فعليه يدل السمع والعقل ـ قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ [1] . والعقلاء يقولون : قطعته فانقطع ، وكسرته فانكسر » . و« طلَّق المرأة فطلقت ، وأعتق العبد فعتق » ، فالعتق والطلاق يقعان عقب الاعتاق والتطليق ـ لا يتراخى الأثر ، ولا يقارن ، وكذلك الانكسار والانقطاع مع القطع والكسر .

وهذا مما يبين أنه إذا وجد الخلق لزم وجود المخلوق عقبه ، كما يقال : كوّن الله الشيء فتكون ، فتكونه عقب تكوين الله ـ لا مع التكوين ، ولا متراخياً .

وكذلك الإرادة التامة مع القدرة تستلزم وجود المراد المقدور . فهو يريد أن يخلق ، فيوجد الخلق بإرادته وقدرته ، ثم الخلق يستلزم وجود المخلوق ، وإن كان ذلك الخلق حادثاً بسبب آخر يكون هذا عقبه ، فإنما في ذلك وجود الأثر عقب المؤثر التام ، والتسلسل في الآثار ، وكلاهما حق ، والله أعلم .

وأما المخلوق فلا يكون إلا بائناً عنه ـ لا يقوم به مخلوق. بل نفس الإرادة مع القدرة تقتضي وجود الخلق ، كما تقتضي وجود الكلام .

---

(١) سورة يس آية رقم ٨٢ .
قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما ... يقول له كن قوله فيكون

وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن نمير ، حدثنا موسى بن المسيب عن شهر عن عبد الرحمن عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : إن الله تعالى يقول : يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد أفعل ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون . »

ولا يفتقر الخلق إلى خلق آخر ، بل يفتقر إلى ما به يحصل - وهو الإرادة المتقدمة، وإذا خلق شيئاً أراد خلق شيء آخر ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ومن قال : إن الخلق حادث - كالهشامية (١) والكرامية (٢) - قال : نحن نقول بقيام الحوادث .

ولا دليل على بطلان ذلك ، بل العقل والنقل ، والكتاب والسنة وإجماع السلف ، يدل على تحقيق ذلك ، كما قد بسط في موضعه .

ولا يمكن القول بأن الله يدبر هذا العالم إلا بذلك ، كما اعترف بذلك أقرب الفلاسفة إلى الحق ، كأبي البركات صاحب « المعتبر » وغيره .

وأما قولهم : يلزم أن للخلق خلقاً آخر ، فقد أجابهم من يلتزم ذلك - كالكرامية وغيرهم - بأنكم تقولون : إن المخلوقات المنفصلة تحدث بلا حدوث سبب أصلاً ، وحينئذ فالقول بحدوث الخلق الذي تحصل به المخلوقات بلا حدوث سبب أقرب إلى العقل والنقل .

وهذا جواب لازم على هذا التقدير - تقدير قيام الأمور الاختيارية .

---

(١) صاحبها عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي من أبناء أبان مولى عثمان : عالم بالكلام من كبار المعتزلة ، له أراء انفرد بها ، وله مصنفات « الشامل » في الفقه ، وتذكرة العالم والعدة في أصول الفقه توفي عام ٣٢١ هـ [راجع المقريزي ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٢٩٢ والبداية والنهاية ١١ : ١٧٦ وميزان الاعتدال ٢ : ١٣١ وتاريخ بغداد ١١ : ٥٥ وفيه أبو هاشم : شيخ المعتزلة ومصنف الكتب على مذهبهم] .

(٢) صاحبها محمد بن كرام السجستاني أمام الكرامية - من فرق الابتداع في الإسلام كان يقول : بأن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر ، ولد ابن كرام في سجستان وجاور بمكة خمس سنين وورد نيسابور ، فحبسه طاهر بن عبدالله ثم انصرف إلى الشام وعاد الى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر مرة ثانية وخرج منها سنة ٢٥١ هـ إلى القدس فمات فيها عام ٢٥٥ هـ والسجزي نسبة إلى سجستان . [راجع الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٨ وتذكرة الحفاظ ٢ : ١٠٦ والقاموس والتاج مادة كرم والأنس الخليل ١ : ٢٦٢ وميزان الاعتدال ٣ : ١٢٧] .

والكرامية يسمون ما قام به « حادثاً » ولا يسمونه محدثاً ـ كالكلام الذي يتكلم به ـ القرآن ، أو غيره ـ يقولون : هو حادث ، ويمنعون أن يقال هو « محدث» ،لأن « الحادث » يحدث بقدرته ومشيئته كـ « الفعل » ، وأما « المحدث » فيفتقر إلى إحداث فيلزم أن يقوم بذاته إحداث غير المحدث ، وذلك الإحداث يفتقر إلى إحداث ، فيلزم التسلسل .

وأما غير الكرامية من أئمة الحديث والسنة والكلام فيسمون ذلك « محدثاً » ، كما قال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ [(١)] وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » [(٢)]. والذي أحدثه هو النهي عن تكلمهم في الصلاة .

وقولهم : « إن المحدث يفتقر إلى إحداث ، وهلم جرا » هذا يستلزم التسلسل في الآثار ، مثل كونه متكلماً بكلام بعد كلام، وكلمات الله لا نهاية لها ، وأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وهذا قول أئمة السنة ، وهو الحق الذي يدل عليه النقل والعقل .

وكذلك أفعاله ، فإن الفعل والكلام صفة كمال ، فإن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يخلق أكمل ممن لا يخلق ، قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ ! ﴾ [(٣)] .

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٤٢ باب قول الله تعالى ﴿ كل يوم هو في شأن ، وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ وقوله تعالى ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ .
وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع العليم ﴾ .
وقال ابن مسعود عن النبي ـ ﷺ ـ إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » . ورواه أبو داود في الصلاة ١٦٦ والنسائي في السهو ٢٠ والكسوف ١٦ واحمد بن حنبل في المسند ١ :٢٧٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٦٣ (حلبي) .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٧ .

وحينئذ فهو ما زال متصفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الإكرام والجلال .

وبهذا تزول أنواع الإشكال ، ويعلم أن ما أخبرت به الرسل عن الله من أصدق الأقوال ، وأن دلائل العقول لا تدل إلا على ما يوافق أخبار الرسول.

ولكن نشأ الغلط من جهل كثير من الناس بما أخبر به الرسول ، وسلوكهم أدلة برأيهم ظنوها عقلية وهي جهلية ، فغلطوا في الدلائل السمعية والعقلية ، فاختلفوا . ﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ (١) .

وقد بسط الكلام على هذا في مواضع - في مسألة الكلام والأفعال - وذكر ما تيسر من كلام السلف والأئمة في هذا الأصل ، والمقصود هنا التنبيه على مآخذ الأقوال .

وهذا الموضع مما بينه أئمة السنة كالإمام أحمد وغيره ، فتكلم في « الرد على الجهمية » على قوله : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً** ﴾ (٢) وبين أن « الجعل » من الله قد يكون « خلقاً » كقوله : ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ** ﴾ (٣) ، وقد يكون « فعلا ليس بخلق » ، وقوله ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً** ﴾ من هذا الباب .

وذلك أن الخلق ، ونحوه من الأفعال التي ليست خلقاً ، مثل تكلمه بالقرآن وغيره ، وتكلمه لموسى وغيره ، ومثل النزول ، والإتيان ، والمجيء ،

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٦

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١ تكملة الآية ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ .

ونحو ذلك ، فهذه إنما تكون بقدرته ومشيئته ، وبأفعال أخر تقوم بذاته ، ليست خلقاً .

وبهذا يجيب البخاري وغيره من أئمة السنة للكرامية إذا قالوا : « المحدث لا بد له من إحداث ؟ » فيقول : « نعم ، وذلك الإحداث فعل ليس بخلق » . و« التسلسل » نلتزمه .

فإن التسلسل الممتنع هو وجود المتسلسلات في آن واحد . كوجود خالق للخالق ، وخالق للخالق ، أو للخلق خلق وللخلق خلق ، في آن واحد ، وهذا ممتنع من وجوه ، منها وجود ما لا يتناهى في آخر واحد ، وهذا ممتنع مطلقاً ، ومنها أن كل ما ذكر يكون « محدثاً » لا « ممكناً » وليس فيها موجود بنفسه ينقطع به التسلسل ، وإذا كان أولى بالامتناع .

بخلاف ما إذا قيل « كان قبل هذا الكلام كلام ، وقبل هذا الفعل فعل » جائز عند أكثر العقلاء ـ أئمة السنة ، وأئمة الفلاسفة ، وغيرهم . فإذا قيل « هذا الكلام المحدث أحدثه في نفسه » كان هذا معقولاً ، وهو مثل قولنا « تكلم به » وهو معنى قوله ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً** ﴾ أي تكلمنا به عربياً ، وأنزلناه عربياً .

وكذلك فسره السلف كاسحاق بن راهويه [1] ، وذكره عن مجاهد قال : ﴿ **جعلناه قرآناً عربياً** ﴾ : قلنا عربياً ، ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره ، عن اسحاق بن راهويه قال : ذكر لنا عن مجاهد وغيره من التابعين : ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً** ﴾ : إنا قلناه ووصفناه ، وذكره عن أحمد بن حنبل ، عن الأشجعي ، عن سفيان الثوري في قوله ﴿ **جعلناه قرآناً عربياً** ﴾ : بيناه قرآناً عربياً .

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع : تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ ـ ٤١٤ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ ، وميزان الاعتدال ١ : ٨٥ وابن خلكان ١ : ٦٤ وحلية الأولياء ٩ : ٢٣٤ وطبقات الحنابلة ٦٨ وتاريخ بغداد ٦ : ٣٤٥ .

والإنسان يفرق بين تكلمه وتحركه في نفسه وبين تحريكه لغيره ، وقد احتج سفيان بن عيينة (١) وغيره من السلف على أنه غير مخلوق بأن الله خلق الأشياء بـ ﴿ كن ﴾ فلو كانت ﴿ كن ﴾ مخلوقة لزم أن يكون خلق مخلوقاً بمخلوق ، فيلزم التسلسل الباطل .

وذلك أنه إذا لم يخلق إلا بـ ﴿ كن ﴾ فلو كانت ﴿ كن ﴾ مخلوقة لزم أن لا يخلق شيئاً ، وهو الدور الممتنع ، فإنه لا يخلق شيئاً حتى يقول ﴿ كن ﴾ ولا يقول ﴿ كن ﴾ حتى يخلقها ، فلا يخلق شيئاً ، وهذا تسلسل في أصل التأثير والفعل ، مثل أن يقال : لا يفعل حتى يفعل ، فيلزم ألا يفعل ، ولا يخلق حتى يخلق ، فيلزم أن لا يخلق . وأما إذا قيل : قال ﴿ كن ﴾ ، وقيل « كن » « كن ، وقيل « كن » « كن » فهذا ليس بممتنع ، فإن هذا تسلسل في آحاد التأثير ، لا في جنسه ، كما أنه في المستقبل يقول « كن » بعد « كن » ويخلق شيئاً بعد شيء إلى غير نهاية .

فالمخلوقات التامة يخلقها بخلقه ، وخلقه فعله القائم به ، وذلك إنما يكون بقدرته ومشيئته .

وإذا قيل : هذا الفعل القائم به يفتقر إلى فعل آخر يكون هو المؤثر في وجوده غير القدرة والإرادة ، فإنه لو كان مجرد ذلك كافياً كفى في وجود المخلوق فلما كان لا بد له من خلق ، فهذا الخلق أمر حادث بعد أن لم يكن ، وهو فعل قائم به ، فالمؤثر التام فيه يكون مستلزماً له مستعقباً له ،

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون بن هلال الكوفي ، أبو محمد محدث الحرم المكي من الموالي ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ وسكن مكة وتوفي بها ، كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبير القدر قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، وكان أعور وحج سبعين حجة . له الجامع في الحديث ، وكتاب في التفسير توفي عام ١٩٨ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٤٢ والرسالة المستطرفة ٣١ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧ : ٢٧٠ وذيل المذيل ١٠٨ والشعراني ١ : ٤٠ وتاريخ بغداد ٩ : ١٧٤] .

كالمؤثر التام في وجود الكلام الحادث بذاته . والمتكلم من الناس إذا تكلم فوجود الكلام ـ لفظه ومعناه ـ مسبوق بفعل آخر، فلا بد من حركة تستعقب وجود الحروف التي هي الكلام ، فتلك الحركة هي التي تجعل الكلام عربياً أو عجمياً ، وهو فعل يقوم بالفاعل ، وذلك الجعل الحادث حدث بمؤثر تام قبله أيضاً .

وذات الرب هي المقتضية لذلك كله ، فهي تقتضي الثاني بشرط انقضاء الأول ، لا معه ، واقتضاؤها للثاني فعل يقوم به بعد الأول ، وهي مقتضية لهذا التأثير وهذا التأثير .

ثم إن هذا التأثير ـ وكل تأثير ـ هو سبب عما قبله وشرط لما بعده ، وليس في ذلك شيء مخلوق وإن كانت « حادثة » .

وإن قالِ قائل : أنا أسمي هذا « خلقاً » ، كان نزاعه لفظياً ، وقيل له : الذين قالوا « القرآن مخلوق » لم يكن مرادهم هذا ، ولا رد السلف والأئمة هذا ، إنما ردوا قول من جعله مخلوقاً بائناً عن الله ، كما قال الإمام أحمد : كلام الله من الله ليس بائناً عنه .

وقالوا : القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ .

قال أحمد : منه بدأ هو المتكلم به لم يبدأ من مخلوق ، كما قال من قال إنه مخلوق . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (١) .

ولهذا لا يقول أحد إنه خلق نزوله ، واستواءه ، ومجيئه ، وكذلك

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ تكملة الآية ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ كما قال تعالى ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ .

ولهذا جاء عن الرسول ـ ﷺ ـ أنه قال : « لا أشك ولا أسأل » .

تكليمه لموسى ، ونداؤه له ـ ناداه وكلمه بمشيئته وقدرته ، والتكليم فعل قام بذاته ، وليس هو الخلق ، كما أن الإنسان إذا تكلم فقد فعل كلاماً ، وأحدث كلاماً ، ولكن في نفسه ، لا مبايناً له .

ولهذا كان الكلام صفة فعل ، وهو صفة ذات أيضاً على مذهب السلف والأئمة .

ومن قال انه مخلوق يقول : إنه صفة فعل ، ويجعل الفعل بائناً عنه ، والكلام بائناً عنه ، ومن قال صفة ذات يقول : إنه يتكلم بلا مشيئته وقدرته .

ومذهب السلف أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه قائم به ، فهو صفة ذات وصفة فعل ، ولكن الفعل هنا ليس هو الخلق ، بل كما قال الإمام أحمد : الجعل جعلان ـ جعل هو خلق ، وجعل ليس بخلق . وهذا كله يستلزم قيام الأفعال بذاته ، وأنها تنقسم إلى قسمين : ـ أفعال متعدية كالخلق ، وأفعال لازمة كالتكلم والنزول ، والسلف يثبتون النوعين ـ هذا وغيره .

وأما جعل القرآن عربياً وإن كان متعدياً في صناعة العربية بمعنى أنه نصب مفعولاً ، ففي « الكلام » الفعل الذي هو « التكلم » متصلاً بالمفعول الذي هو « الكلام » ـ كلاهما قائم بالمتكلم .

ولهذا قد يراد بالمفعول المصدر ، إذا قلت « قال قولاً حسناً » فقد يراد « بالقول » المصدر فقط ، وقد يراد به « الكلام » فقط فيكون المفعول ، وقد يراد به المجموع فيكون مفعولاً به ومصدراً .

وكذلك « القرآن » هو في الأصل « قرأ قرآناً » وهو الفعل والحركة ، ثم سمى الكلام المقروء « قرآناً » . قال تعالى في الأول : ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ (١) وقال في الثاني : ﴿ **إِنَّ هَذَا**

---

(١) سورة القيامة آية رقم ١٧ ـ ١٨ .

=

الْقُرْآنَ ﴾ (١) .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين أن التلاوة والقراءة في الأصل مصدر « تلا تلاوة ، وقرأ قراءة ، كالقرآن » لكن يسمى به الكلام كما يسمى بالقرآن ، وحينئذ فتكون القراءة هي المقروء ، والتلاوة هو المتلو .

وقد يراد بالتلاوة والقراءة المصدر الذي هو الفعل ، فلا تكون القراءة والتلاوة هي المقروء المتلو ، بل تكون مستلزمة له .

وقد يراد بالتلاوة والقراءة مجموع الأمرين ، فلا تكون هي المتلو لأن فيها الفعل ، ولا تكون مباينة مغايرة للمتلو لأن المتلو جزؤ ها .

هذا إذا أريد بالقراءة والمقروء شيء واحد معين ، مثل قراءة الرب ومقروءه ، أو قراءة العبد ومقروءه ، وأما إذا أريد بالقراءة قراءة العبد وهي حركته ، وبالمقروء صفة الرب ، فلا ريب أن حركة العبد ليست صفة الرب .

ولكن هذا تكلف ، بل قراءة العبد مقروءة كمقروئه ، وقراءته للقرآن إذا عنى بها نفس القرآن فهي مقروءة ، وإن عنى بها حركته فليست مقروءة ، وإن عنى بها الأمران فلا يطلق أحدهما .

ولهذا كان من المنتسبين إلى السنة من يقول : القراءة هي المقروء

= قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرحمن عن أبي عوانة عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : كان رسول الله - ﷺ - يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفتيه قال : فقال لي ابن عباس أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله - ﷺ يحرك شفتيه ، وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه فأنزل الله عز وجل ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾ .

وقد رواه البخاري ومسلم من غير وجه عن موسى بن أبي عائشة به ولفظ البخاري : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل .

(١) سورة الإسراء آية رقم ٩ تكملة الآية ﴿ **يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾ .

ومنهم من يقول : القراءة غير المقروء ، ومنهم من لا يطلق واحداً منهما ولكل قول وجه من الصواب عند التصور التام والإنصاف ، وليس فيها قول يحيط بالصواب ، بل كل قول فيه صواب من وجه وقد يكون خطأ من وجه آخر .

والبخاري [1] إنما يثبت خلق أفعال العباد [2] ـ حركاتهم وأصواتهم ، وهذه القراءة هي فعل العبد يؤمر به وينهى عنه ، وأما الكلام نفسه فهو كلام الله ، ولم يقل البخاري إن لفظ العبد مخلوق ولا غير مخلوق كما نهى أحمد عن هذا وهذا .

والذي قال البخاري إنه مخلوق من أفعال العباد وصفاتهم لم يقل أحمد ولا غيره من السلف إنه غير مخلوق ، وإن سكتوا عنه لظهور أمره ، ولكونهم كانوا يقصدون الرد على الجهمية .

والذي قال أحمد إنه غير مخلوق ـ هو كلام الله لا صفة العباد ـ لم يقل البخاري إنه مخلوق .

ولكن أحمد كان مقصوده الرد على من يجعل كلام الله مخلوقاً إذا بلغ عن الله ، والبخاري كان مقصوده الرد على من يقول : أفعال العباد وأصواتهم غير مخلوقة .

وكلا القصدين صحيح لا منافاة بينهما ، وقد بين ذلك ابن قتيبة [3] في مسألة اللفظ ، ولكن المنحرفون إلى أحد الطرفين ينكرون على الآخر . والله سبحانه أعلم .

---

(١) راجع في ترجمته تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ ، وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ والوفيات ١ : ٤٥٥ وتاريخ بغداد ٢ : ٤ ـ ٣٦ ودائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٤١٩ ـ ٤٢٦ وطبقات الحنابلة ١ : ٢٧١ ، ٢٧٩ .

(٢) راجع كتابه خلق أفعال العباد بتحقيقنا مطبعة عكاظ بجدة عام ١٩٧٩ م .

(٣) سبق الترجمة له . وراجع وفيات الأعيان ١ : ٢٥١ والأنباري ٢٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٥٧ وآداب اللغة ٢ : ١٧٠ والفهرس التمهيدي ٥٥١ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٦٠ ووقع اسمه فيها : محمد بن مسلم .

فصل

إثبات الصفات الخبرية

وأما الأفعال اللازمة ـ كالاستواء والمجيء ـ فالناس متنازعون في نفس إثباتها ، لأن هذه ليس فيها مفعول موجود يعلمونه حتى يستدلوا بثبوت المخلوق على الخلق ، وإنما عرفت بالخبر ، فالأصل فيها الخبر ، لا العقل .

ولهذا كان الذين ينفون الصفات الخبرية ينفونها ـ ممن يقول « الخلق غير المخلوق » . وممن يقول « الخلق هو المخلوق » ومن يثبت الصفات الخبرية من الطائفتين يثبتها .

والذين أثبتوا الصفات الخبرية لهم في هذه قولان : ـ

منهم من يجعلها من جنس الفعل المتعدي لجعلها أموراً حادثة في غيرها ، وهذا قول الأشعري ، وأئمة أصحابه ومن وافقهم ، كالقاضي أبي يعلى ، وابن الزاغوني ، وابن عقيل في كثير من أقواله .

فالأشعري يقول : الاستواء فعل فعله في العرش ، فصار به مستوياً على العرش ، وكذلك يقول في الإتيان ، والنزول ، ويقول : هذه الأفعال ليست من خصائص الأجسام ، بل توصف بها الأجسام والأعراض ، فيقال « جاءت الحمى ، وجاء البرد وجاء الحر » ونحو ذلك . وهذا أيضاً قول القاضي أبي

بكـر ، والقـاضي أبي يعلى ، وغيـرهمـا . وحملوا مـا روي عن السلف ، كالأوزاعي وغيره ، أنهم قالوا في النزول : يفعل الله فوق العرش بذاته ، كمـا حكاه القاضي عبد الوهاب عن القاضي أبي بكـر ، وكما حكـوه عن الأشعري وغيره ، كما ذكر في غير موضع من كتبه .

ولكن عندهم هذا من الصفات الخبرية ، وهذا قول البيهقي [(١)] وطائفـة وهو أول قولي القاضي أبي يعلى .

وكـل من قال إن الـرب لا تقوم بـه الصفات الاختيـارية ، فـإنه ينفي أن يقوم به فعل شاءه سـواء كان لازمـاً أو متعديـاً ، لكن من أثبت من هؤلاء فعلاً قديماً كمن يقول بالتكوين وبهذا فإنه يقول : ذلك القديم قام به بغير مشيئته ، كما يقولون في إرادته القديمة .

والقول الثاني : أنها كما دلت عليه أفعال تقوم بذاته بمشيئته واختيـاره ، كما قالوا مثل ذلك في الأفعال المتعدية. وهذا قول أئمة السنة ، والحـديث ، والفقه ، والتصوف ، وكثير من أصناف أهل الكلام كما تقدم .

وعلى هذا ينبني نزاعهم في تفسير قولـه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَـاءِ ﴾ [(٢)] وقوله : ﴿ هَـلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَـأْتِيَهُمْ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ ﴾ [(٣)] وقـوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَـوَىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ [(٤)] ونحـو ذلك . فمن نفى هـذه الأفعال يتـأول إتيانه بإتيان أمره أو بأسه ، والاستواء على العـرش بجعله القدرة والاستيـلاء ، أو بجعله علو القدر .

---

(١) هو أحمد بن الحسين بن علي ، أبو بكر من أئمة الحديث توفي عام ٤٥٨ وسبق الترجمة له . [وراجـع شذرات الـذهب ٣ : ٣٠٤ وطبقات الشـافعية ٣ :٣ ومعجم البلدان ٢ : ٣٤٦ وابن خلكان ١ : ٣٠ واللباب ١ : ١٦٥ ودائرة المعارف الاسلامية ٤ : ٤٢٩] .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

(٤) سـورة الأعراف آيـة رقم ٥٤ ، وسورة يـونس آية رقم ٢ وسـورة الفـرقـان آيـة رقم ٥٩ وسـورة الحديد آية رقم ٤ .

فإن الاستواء للناس فيه قولان ـ هل هو من صاق الفعل أو الذات على قولين : ـ

والقائلون بأنه صفة ذات يتأولونه بأنه قدر على العرش ، وهو ما زال قادراً ، وما زال عالي القدر ، فلهذا ظهر ضعف هذا القول من وجوه : ـ

منها قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ (١) فأخبر أنه استوى بحرف « ثم » .

ومنها أنه عطف فعلاً على فعل ، فقال : خلق ثم استوى .

ومنها أن ما ذكروه لا فرق فيه بين العرش وغيره ، وإذا قيل إن العرش أعظم المخلوقات ، فهذا لا ينفي ثبوت ذلك لغيره ، كما في قوله ﴿ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ (٢) لما ذكر ربوبيته للعرش لعظمته ، والربوبية عامة ، جاز أن يقال ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (٣) ﴿ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ (٤) ، ويقال ﴿ بِرَبِّ العَالَمِينَ ، رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (٥) . والاستواء مختص بالعرش باتفاق المسلمين مع أنه مستول مقتدر على كل شيء من السماء والأرض وما بينهما ، فلو كان استواؤه على العرش هو قدرته عليه جاز أن يقال على السماء والأرض وما بينهما ، وهذا مما احتج به طوائف منهم الأشعري . قال : في إجماع المسلمين على أن الاستواء مختص بالعرش دليل على فساد هذا القول .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ وسورة يونس آية رقم ٣ . وسورة الرعد آية رقم ٢ وسورة الفرقان آية رقم ٥٩ . وسورة السجدة آية رقم ٤ .

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٨٦ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٤ .

(٤) سورة المؤمنون آية رقم ٨٦ .

(٥) سورة الشعراء آية رقم ٤٧ ـ ٤٨ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث قال : (رب) بدون (الباء) .

وأيضاً فإنه ما زال مقتدراً عليه من حين خلقه .

ومنها كون لفظ « الاستواء » في لغة العرب يقال على القدرة أو علو القدر ممنوع عندهم ، والاستعمال الموجود في الكتاب والسنة وكلام العرب يمنع هذا ، كما قد بسط في موضعه .

وتكلم على البيت الذي يحتجون به :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق [(١)]

وأنه لو كان صحيحاً لم يكن فيه حجة ، فإنهم لم يقولوا : استوى عمر على العراق لما فتحها ، ولا استوى عثمان على خراسان ، ولا استوى رسول الله ﷺ على اليمن .

وإنما قيل هذا البيت ـ إن صح ـ في بشر بن مروان [(٢)] لما دخل العراق واستوى على كرسي ملكها ، فقيل هذا كما يقال : جلس على سرير الملك ، أو تخت الملك ، ويقال : فعد على الملك ، والمراد هذا .

وأيضاً فالآيات الكثيرة والأحاديث الكثيرة وإجماع السلف يدل على أن الله فوق العرش ، كما قد بسط في مواضع .

وأما الذين قالوا : الاستواء صفة فعل ، فهؤلاء لهم قولان هنا على ما تقدم ـ هل هو فعل بائن عنه لأن الفعل بمعنى المفعول ، أم فعل قائم به يحصل بمشيئته وقدرته .

---

(١) نعتقد والله أعلم أن صحة البيت :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

(٢) هو بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي ، أمير كان سمحاً جواداً ، ولي إمرة العراقين (البصرة والكوفة) لأخيه عبد الملك سنة ٧٤ هـ ، وهو أول أمير مات بالبصرة توفي عام ٧٥ هـ عن نيف وأربعين سنة . [راجع خزانة الأدب للبغدادي ٤ : ١١٧ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ٢٤٨ والمعارف لابن قتيبة ١٢١]

الأول : قول ابن كلاب ، ومن اتبعه كالأشعري وغيره ، وهو قول القاضي ، وابن عقيل ، وابن الزاغوني ، وغيرهم .

والثاني : قول أئمة أهل الحديث والسنة ، وكثير من طوائف الكلام ، كما تقدم .

ولهذا صار للناس فيما ذكر الله في القرآن من الاستواء والمجيء ونحو ذلك ستة أقوال :

طائفة يقولون : تجري على ظاهرها ، ويجعلون إتيانه من جنس إتيان المخلوق، ونزوله من جنس نزولهم ، وهؤلاء المشبهة الممثلة ، [و] من هؤلاء من يقول : إذا نزل خلا منه العرش ، فلم يبق فوق العرش .

وطائفة يقولون : بل النصوص على ظاهرها اللائق به ، كما في سائر ما وصف به في نفسه ، وهو ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، ويقولون : نزل نزولاً يليق بجلاله ، وكذلك يأتي إتياناً يليق بجلاله ، وهو عندهم ينزل ويأتي ولم يزل عالياً وهو فوق العرش ، كما قال حماد بن زيد (١) : هو فوق العرش يقرب من خلقه كيف شاء ، وقال اسحاق ابن راهويه (٢) : ينزل ولا يخلو منه العرش ، ونقل ذلك عن أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدد .

وتفسير النزول بفعل يقوم بذاته هو قول علماء أهل الحديث ، وهو الذي

---

(١) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي مولاهم البصري أبو إسماعيل ، شيخ العراق في عصره ، من حفاظ الحديث المجودين يعرف بالأزرق أصله من سبي سجستان ولد عام ٩٨ هـ وتوفي بالبصرة عام ١٧٩ هـ يحفظ أربعة آلاف حديث ، خرج حديثه الأئمة الستة . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢١١ وتهذيب التهذيب ٣ : ٩ وحلية الأولياء ٦ : ٢٥٧ والمناوي ١ : ١٠١ وتهذيب الأسماء ١ : ١٦٧] .

(٢) سبق الترجمة له وراجع : تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ ـ ٤١٤ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥] .

حكاه أبو عمر بن عبد البر [1] عنهم ، وهو قول عامة القدماء من أصحاب أحمد ، وقد صرح به ابن حامد وغيره .

والأول - نفي قيام الأمور الإختيارية - هو قول التميمي موافقة منه لابن كلاب ، وهو قول القاضي أبي يعلى وأتباعه .

وطائفتان يقولان : بل ينزل ، ولا يأتي ، كما تقدم ، ثم منهم من يتأول ذلك ، ومنهم من يفوض معناه .

وطائفتان واقفتان ، منهم من يقول : ما ندري ما أراد الله بهذا ومنهم من لا يزيد على تلاوة القرآن .

وعامة المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف يبطلون تأويل من تأول ذلك بما ينفي أن يكون هو المستوي الآتي ، لكن كثيراً منهم يرد التأويل الباطل ويقول : ما أعرف مراد الله بهذا . ومنهم من يقول : هذا مما نهى عن تفسيره ، أو مما يكتم تفسيره . ومنهم من يقرره كما جاءت به الأحاديث الصحيحة والآثار الكثيرة عن السلف من الصحابة والتابعين .

قال أبو محمد البغوي [2] الحسين بن مسعود الفراء الملقب بـ « محيي السنة » في تفسيره : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [3] قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف : أي ارتفع إلى السماء . وقال الفراء ، وابن كيسان [4] ،

---

(1) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع بغية الملتمس ٤٧٤ ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤٨ وآداب اللغة ٣ : ٦٦ والصلة ٦١٦ والمغرب في حلى المغرب ٢ : ٤٠٧ والديباج ٣٥٧ وسماه يوسف بن عمر بن عبد البر .

(2) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع وفيات الأعيان ١ : ١٤٥ وتهذيب بن عساكر ٤ : ٣٤٥ ودائرة المعارف الاسلامية ٤ : ٢٧ وسماه السيوطي في طبقات الحفاظ « الحسين بن محمد ابن مسعود » .

(3) سورة البقرة آية رقم ٢٩ وتكملة الآية ﴿ فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ﴾ .
وسورة فصلت آية رقم ١١ وتكملة الآية ﴿ وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

(4) هو صالح بن كيسان المدني مؤدب ابناء عمر بن عبد العزيز ، كان من فقهاء المدينة ، =

وجماعة من النحويين : أي أقبل على خلق السماء ، وقيل : قصد . وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي في تفسيره . قال : ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ أي عَمدِ إلى خلقها .

وكذلك هو يرجح قول من يفسر الإتيان بإتيان أمره ، وقول من يتأول الاستواء ، وقد ذكر ذلك في كتب أخرى ، ووافق بعض أقوال ابن عقيل . قال : ابن عقيل ، له في هذا الباب أقوال مختلفة وتصانيف يختلف فيها رأيه واجتهاده .

وقال البغوي في تفسير قوله ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ قال الكلبي ، ومقاتل : استقر ، وقال أبو عبيدة : صعد ، وأولت المعتزلة الاستواء بالإستيلاء .

وأما أهل السنة فيقولون : الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله ، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [1] كيف استوى ؟ فأطرق مالك رأسه ملياً ، وعلاه الرحضاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا ضالاً ، ثم أمر به فأخرج . قال : روي عن سفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن المبارك ، وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة : أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف .

وقال في قوله ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ**

= الجامعين بين الحديث والفقه وهو أحد الثقات في رواية الحديث . قال ابن ناصر الدين عاش أكثر من مئة سنة وتوفي عام ١٤٠ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٤ : ٣٩٩ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٧٨] .

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

الغَمَامِ ﴾ (١) : الأولى في هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها . ويكل علمها إلى الله ، ويعتقد أن الله منزه عن سمات الحدث ، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة .

قال الكلبي : هذا من المكتوم الذي لا يفسر .

« قلت » : وقد حكي عنه أنه قال في تفسير قوله ﴿ ثم استوى ﴾ : استقر ، ففسر ذاك ، وجعل هذا من المكتوم الذي لا يفسر ، لأن ذاك فيه وصفه بأنه فوق العرش ، وهذا فيه إتيانه في ظلل من الغمام . قال البغوي : وكان مكحول (٢) ، والزهري ، والأوزاعي ، ومالك ، وعبدالله بن المبارك ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، وأحمد ، وإسحاق ، يقولون فيه وفي أمثاله : أمروها كما جاءت بلا كيف ، قال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله .

وهذه الآية أغمض من آية الاستواء ، ولهذا كان أبو الفرج يميل إلى تأويل هذا وينكر قول من تأول الاستواء بالاستيلاء .

قال في تفسيره ، قال الخليل بن أحمد (٣) : ﴿ العرش ﴾ السرير ، وكل سرير للملك يسمى « عرشاً » وقلما يجمع العرش إلا في الاضطرار .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

(٢) هو مكحول بن أبي مسلم بن شاذل ، أبو عبدالله الهذلي بالولاء فقيه الشام في عصره ، من حفاظ الحديث أصله من فارس ومولده بكابل ترعرع بها وسُبي ، وصار مولى لامرأة بمصر من هذيل فنسب إليها ، واعتق وتفقه ، ورحل في طلب الحديث إلى العراق فالمدينة وطاف كثيراً من البلدان واستقر في دمشق ، وتوفي بها عام ١١٢ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ١٠١ وحسن المحاضرة ١ : ١١٩ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٢٨٩ ووفيات الأعيان ٢ : ١٢٢ وميزان الاعتدال ٣ : ١٩٨] .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية ، وراجع وفيات الأعيان ١ : ١٧٢ وإنباء الرواة ١ : ٣٤١ والسيرافي ٣٨ والحور العين ١١٢ .

« قلت » : وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : يسمى « عرشاً » لارتفاعه . « قلت » : والاشتقاق يشهد لهذا ، كقوله ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (١) . وقوله ﴿ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ (٢) ؛ وقول سعد : وهذا كافر بالعرش ، ومقعد الملك يكون أعلى من غيره ، فهذا بالنسبة إلى غيره عال عليه ، وبالنسبة إلى ما فوقه هو دونه ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة ، وسقفه عرش الرحمن » (٣) فدل على أن العرش أعلى المخلوقات ، كما بسط في مواضع أخر .

قال أبو الفرج : واعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام . قال أمية بن أبي الصلت (٤) :

مجّدوا الله ، فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٣٧ وصدر الآية ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤١ .

(٣) الحديث أخرجه الامام البخاري في كتاب الجهاد ٤ باب درجات المجاهدين في سبيل الله ، ٢٧٩٠ - عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال النبي - ﷺ وذكره ، ولفظ البخاري (وفوقه عرش الرحمن) ورواه الامام الترمذي في أبواب الجنة ٤ .

(٤) هو أمية بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف . قدم دمشق قبل الاسلام ، وكان مطلعاً على الكتب القديمة يلبس المسوح تعبداً ، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر ، ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية ، ورحل إلى البحرين فأقام ثماني سنين ظهر في أثنائها الإسلام ، وعاد إلى الطائف فسأل عن خبر محمد - ﷺ - فقيل له يزعم أنه نبي فخرج حتى قدم مكة وسمع منه آيات من القرآن ، وانصرف عنه فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيه فقال : أشهد أنه على الحق قالوا : فهل تتبعه ..؟ فقال : حتى أنظر في أمره توفي عام ٥ هـ . [راجع خزانة البغدادي ١ : ١١٩ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ١١٥ والشعر والشعراء ١٧٦ وتهذيب الأسماء ١ : ١٢٦] .

بـالبنـاء الأعلى الـذي سبق النـا س ، وسـوى فـوق السمـاء سـريـرا
شرق لا يـنـالـه بـصـر الـعـيـن تـرى دونـه الـمـلائـك صـورا

قلت : يـريد أنـه ذكره من العـرب من لم يكن مسلماً ـ أخـذه عن أهـل الكتاب ، فإن أمية ونحوه إنمـا أخذ هـذا عن أهل الكتـاب وإلا فالمشركون لم يكونوا يعرفون هذا .

قال أبو الفرج بن الجوزي ، وقال كعب [1] : إن السموات في العـرش كقنديل معلق بين السماء والأرض .

قال : وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيـدوا على قراءة الآيـة . وقد شذ قوم فقالوا : العرش بمعنى الملك ، وهو عـدول عن الحقيقة إلى التجـوز مع مخالفة الأثر ، ألم يسمعوا قولـه : ﴿ **وكان عـرشه على المـاء** ﴾ [2] أفتراه كان الملك على الماء ؟ .

قال ، وبعضهم يقول : استوى بمعنى استولى ، ويستدل بقول الشاعر :

---

(١) هو كعب بن مانـع بن ذي هجن الحميري ، أبـو إسحاق : تـابعي كان في الجـاهلية من كبـار علماء اليهود في اليمن ، وأسلم في زمن أبي بكر ، وقدم المدينة في دولـة عمر ، فـأخذ عنـه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابـرة، وأخذ هـو من الكتاب والسنـة عن الصحابـة ، وخرج إلى الشام فسكن حمص وتـوفي بها عـام ٣٢ هـ عن مئة وأربـع سنين . [راجع تـذكرة الحفاظ ١ : ٤٩ وحلية الأولياء ٥ : ٣٦٤ والاصابة ت ٧٤٩٨] .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (١) باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ **٣١٩١** حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنـا أبي ، حـدثنا الأعمش ، حـدثنا جـامع بن شـداد عن صفوان بن محـرز أنـه حـدثـه عن عمـران بن حصين ـ رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي ـ ﷺ ـ وعقلت ناقتي بالبـاب فأتـاه ناس من بني تميم فقال : أقبلوا البشرى يا بني تميم . قالوا : قد بشرتنا فأعطنا (مرتين) ثم دخـل عليه ناس من أهل اليمن فقـال : اقبلوا البشرى يـا أهل اليمن أن لم يقبلهـا بنو تميم . قـالوا : قـد قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئنا نسألك عن هذا الأمر وذكره .

ورواه الترمذي في التفسير سورة ٥ : ٣ ، ١١ ، ٩ وأحمـد بن حنبل في المسنـد ٢ : ٣١٣ ، ٥٠١ ، ٤ : ٤٣١ (حلبي) .

حتى استـوى بشـر عـلى العـراق   مـن غيـر سيـف ودم مـهـراق

وقال الشاعر أيضاً :

قـد قلمـا استـويـا بفضلهمـا علىْ   عرش الملوك جميعهم من غير زوره

قال : وهو منكر عند اللغويين . قال ابن الأعـرابي : إن العرب لا تعلم استوى بمعنى استولى ، ومن قال ذلك فقد أعظم .

قـال : وإنما يقـال « استولى فـلان على كذا » إذا كـان بعيـداً عنـه غيـر متمكن ، ثم تمكن منه ، والله سبحانه وتعالى لم يزل مستولياً على الأشياء .

والبيتان لا يعرف قائلهما ، كذا قال ابن فـارس [1] اللغوي ، ولـو صحا لم [يكن] حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستولياً ـ نعوذ بـالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة . ؟

قلت : فقـد تـأول قـولـه : ﴿ ثُمَّ اسْتَـوَىٰ إِلَى السَّمَـاءِ ﴾ [2] . وأنكـر تأويل : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ [3] .

وهو في لفظ «الإتيان» قد ذكر القولين ، فقال: قوله : ﴿ أن يـأتيهم الله في ظلل ﴾ ، كان جماعة من السلف يمسكون عن مثل هذا وقـد ذكر القـاضي أبـو يعلى عن أحمد أنـه قال : المـراد به قـدرته وأمـره ، قال : وقـد بينـه في قوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [4] .

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين ،،من أئمة اللغة والأدب ، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب بن عباد وغيرهما من أعيان البيـان ، أصله من قزوين ، وأقـام مدة في همذان ثم انتقل إلى الـري فتوفي بهـا عام ٣٩٥ هـ من تصـانيفه : مقـاييـس اللغة وجـامع التـأويـل في تفسيـر القـرآن أربـع مجلدات ، ولـه شعـر حسن [راجـع ابن خلكـان ١ : ٣٥ والأنباري ٣٩٢ وآداب اللغة ٢: ٣٠٩ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٤٧]

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٣ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٣٣ .

« قلت » : هذا الذي ذكره القاضي وغيره أن حنبلاً نقله عن أحمد في كتاب « المحنة » أنه قال ذلك في المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله « تجيء البقرة وآل عمران » (١) . قالوا : والمجيء لا يكون إلا لمخلوق ، فعارضهم أحمد بقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ (٢) ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ (٣) . وقال : المراد بقوله « تجيء البقرة وآل عمران » : ثوابهما ، كما في قوله ﴿ وجاء ربك ﴾ : أمره وقدرته .

وقد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبل ، فإنه لا ريب أنه خلاف النصوص المتواترة عن أحمد في منعه من تأويل هذا ، وتأويل النزول والاستواء ، ونحو ذلك من الأفعال .

ولهم ثلاثة أقوال ، قيل : إن هذا غلط من حنبل ـ انفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة ، مثل صالح ، وعبدالله ، والمروزي ، وغيرهم ، فإنهم لم يذكروا هذا ، وحنبل ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة ، كالخلال (٤) وصاحبه ، قال أبو إسحاق بن شاقلا : هذا غلط من حنبل لا شك فيه .

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة حدثنا معاوية يعني ابن سلام عن زيد أنه سمع أبا سلام يقول حدثني أبو أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ يقول : اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما » .

(٢) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥٨ .

(٤) هو أحمد بن محمد بن هارون أبو بكر ، الخلال ، مفسر عالم بالحديث واللغة ، من كبار الحنابلة ، من أهل بغداد كانت حلقته بجامع المهدي قال ابن أبي يعلى ، له التفاسير الدائرة ، والكتب السائرة وقال الذهبي : جامع علم أحمد ومرتبه من كتبه « تفسير الغريب » وطبقات أصحاب ابن حنبل ، والعلل ، والجامع لعلوم الامام أحمد في الحديث ، قيل لم يصنف في مذهبه مثله . نحو مئتي جزء . [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٢ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٨ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٧ ومناقب الامام أحمد ٥١٢ ومخطوطات الظاهرية ٢٦٥] .

وكذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول : « ينزل إلى السماء الدنيا »[1] أنه ينزل أمره ، لكن هذا من رواية حبيب كاتبه وهذا كذاب باتفاقهم ، وقد رويت من وجه آخر لكن الإسناد مجهول .

والقول الثاني : قال طائفة من أصحاب أحمد : هذا قاله إلزاماً للخصم على مذهبه لأنهم في يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله : « تأتي البقرة وآل عمران » أجابهم بأن معناه : يأتي ثواب البقرة وآل عمران ، كقوله ﴿ **أن يأتيهم الله** ﴾ أي أمره وقدرته ، على تأويلهم ، لا أنه يقول بذلك ، فإن مذهبه ترك التأويل .

والقول الثالث : أنهم جعلوا هذا رواية عن أحمد ، وقد يختلف كلام الأئمة في مسائل مثل هذه ، لكن الصحيح المشهور عنه رد التأويل ، وقد ذكر الروايتين ابن الزاغوني وغيره ، وذكر أن ترك التأويل هي الرواية المشهورة المعوَّل عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا . ورواية التأويل فسر ذلك بالعمد والقصد ، لم يفسره بالأمر والقدرة كما فسروا : ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ .

فعلى هذا في تأويل ذلك ـ إذا قيل به ـ وجهان . وابن الزاغوني ، والقاضي أبو يعلى ونحوهما ، وإن كانوا يقولون بإمرار المجيء والإتيان على ظاهره ، فقولهم في ذلك من جنس قول ابن كلاب ، والأشعري ، فإنه أيضاً يمنع تأويل النزول والإتيان والمجيء ، ويجعله من الصفات الخبرية ، ويقول : إن هذه الأفعال لا تستلزم الأجسام ، بل يوصف بها غير الأجسام ، وكلام ابن الزاغوني في هذا النوع وفي استواء الرب على العرش هو موافق لقول أبي الحسن نفسه .

---

(1) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التهجد ١٤ ورواه الامام مسلم في المسافرين ١٦٨ - ١٧٠ وأبو داود في السنة ١٩ والترمذي في الصلاة ٢١١ والدعوات ٧٨ وابن ماجه في الاقامة ١٨٢ والدارمي في الصلاة ١٦٨ وصاحب الموطأ في القرآن ٣٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٤١٩ ، ٤٨٧ ، ٥٠٤ (حلبي) .

هـذا قولهم في الصفـات الخبريـة الواردة في هـذه الأفعـال . وأمـا علو الرب نفسه فوق العالم فعند ابن كلاب أنه معلوم بالعقل ، كقول أكثر المثبتة ، كما ذكر ذلك الخطابي ، وابن عبد البر ، وغيرهما ، وهو قول ابن الزاغوني ، وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى ، وكان القاضي أولاً يقول بقول الأشعـري : أنه من الصفات الخبرية ، وهذا قول القاضي أبي بكر ، والبيهقي ونحوهما .

وأما أبو المعالي الجويني ، وأتباعه ، فهؤلاء خـالفوا الأشعـري وقدمـاء أصحـابه في الصفـات الخبريـة ، فلم يثبتـوهـا ، لكن منهم من نفـاهـا فتـأول الاستـواء بالاستيـلاء ، وهـذا أول قـولي أبي المعـالي ، ومنهم من تـوقف في إثباتها ونفيها ، كالرازي ، والآمدي ، وآخر قولي أبي المعالي المنع من تأويل الصفات الخبرية ، وذكر أن هذا إجماع السلف ، وأن التأويل لو كان مسوغاً أو محتوماً لكان اهتمامهم به أعظم من اهتمامهم بغيره .

فاستدل بإجماعهم على أنه لا يجوز التأويل ، وجعـل الوقف التـام على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ [1] ، ذكر ذلك في « النـظامية في الأركـان الإسلامية » .

وهذه طريقة عامـة المنتسبين إلى السنة ـ يـرون التأويـل مخالفـاً لطريقـة السلف، وقـد بسط الكـلام على هـذا في غيـر هـذا المـوضـع ، وذكـر لفظ « التأويل » وما فيه من الإجمال ، والكلام على قـوله : ﴿ **ومـا يعلم تأويله إلا الله** ﴾ وأن كلا القولين حق .

فمن قـال : لا يعلم تأويله إلا الله ، فـأراد به مـا يؤول إليـه الكـلام من الحقائق التي لا يعلمها إلا الله ، ومن قـال : إن الراسخين في العلم يعلمـون التأويل ، فالمراد به تفسير القرآن الذي بينه الرسول والصحابة .

وإنما الخلاف في لفظ « التأويل » على المعنى المـرجوح ، وأنـه حمل

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

اللفظ على الاحتمال المرجوح دون الراجح لدليل يقترن به ، فهذا اصطلاح متأخر ، وهو التأويل الذي أنكره السلف والأئمة - تأويلات أهل البدع .

وكذلك يقول أحمد في « رده على الجهمية » : الذين تأولوا القرآن على غير تأويله ، وقد تكلم أحمد على متشابه القرآن وفسره كله . ومنه تفسير متفق عليه عند السلف ، ومنه تفسير مختلف فيه . وقد ذكر الجد أبو عبدالله في تفسيره من جنس ما ذكره البغوي ، لا من جنس ما ذكره ابن الجوزي ، فقال : -

أما الإتيان المنسوب إلى الله فلا يختلف قول أئمة السلف ، كمكحول والزهري ، والأوزاعي ، وابن المبارك ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد ، وأتباعهم ، أنه يمر كما جاء ، وكذلك ما شاكل ذلك مما جاء في القرآن ، أو وردت به السنة كأحاديث النزول ، ونحوها ، وهي طريقة السلامة ومنهج أهل السنة والجماعة - يؤمنون بظاهرها ويكلون علمها إلى الله ويعتقدون أن الله منزه عن سمات الحدث ، على ذلك مضت الأمة خلفاً بعد سلف كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ (١) .

وقال ابن السائب(٢) في قوله ﴿ **أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ** ﴾(٣) : هذا

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي أبو النضر ، نسابة راوية ، عالم بالتفسير والأخبار ، وأيام العرب من أهل الكوفة ، شهد وقعة دير الجماجم مع ابن الأشعث ، وصنف كتاباً في تفسير القرآن ، وهو ضعيف الحديث . قال النسائي : حدث عنه ثقات من الناس ، ورضوه في التفسير ، وأما في الحديث ففيه مناكير ، وقيل كان سبئياً من أصحاب عبدالله ابن سبأ ، وهو أبو « هشام » صاحب كتاب الأصنام توفي عام ١٤٦ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ٤٩١ وميزان الاعتدال ٣ : ٦١] .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢١٠ .

من المكتوم الذي لا يفسر ، وذكر ما يشبه كلام الخطابي في هذا . فإن قيل « كيف يقع الإيمان بما لا يحيط من يدعي الإيمان به علماً بحقيقته ؟ » فالجواب : كما يصح الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والنار والجنة . ومعلوم أنا لا نحيط علماً بكل شيء من ذلك على جهة التفصيل ، وإنما كلفنا الإيمان بذلك في الجملة ، ألا ترى أنا لا نعرف عدة من الأنبياء وكثيراً من الملائكة ، ولا نحيط بصفاتهم ، ثم لا يقدح ذلك في إيماننا بهم ؟ وقد قال النبي ﷺ في صفة الجنة : يقول الله تعالى : أعددت لعبادي ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (١) .

« قلت » : لا ريب أنه يجب الإيمان بما أخبر به الرسول وتصديقه فيما أخبر به ، وإن كان الشخص لم يفقه بالعربية ما قال ولا فهم من الكلام شيئاً ، فضلاً عن العرب ، فلا يشترط في الإيمان المجمل العلم بمعنى كل ما أخبر به ، هذا لا ريب فيه .

فكل من اشتبه عليه آية من القرآن ولم يعرف معناها وجب عليه الإيمان بها ، وأن يكل علمها إلى الله فيقول « الله أعلم » وهذا عليه بين السلف والخلف ، فما زال كثير من الصحابة يمر بآية ولفظ لا يفهمه فيؤمن به وإن لم يفهم معناه .

لكن هل يكون في القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس ، بل ولا الرسول ، عند من يجعل التأويل هو « معنى الآية » ويقول : إنه لا يعلمه إلا

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب التوحيد ٣٥ باب قول الله تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ .

ـ ٧٤٩٨ عن همام بن منبه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه عن النبي ﷺ ـ قال : وذكره ، وفي بدء الخلق ٨ وفي تفسير سورة ٣٢ ، ١ ورواه الإمام مسلم في إيمان ٣١٢ والجنة ٢ ـ ٥ والترمذي في الجنة ١٥ وابن ماجه في الزهد ٣٩ باب صفة الجنة وفيه زيادة (قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم ٣٢ / ١٧ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ قال : وكان أبو هريرة يقرأها : ﴿ من قُرَّاتِ أعين ﴾ .

الله ، فيلزم أن يكون في القرآن كلام لا يفهمه لا الرسول ، ولا أحد من الأمة ، بل ولا جبريل ، هذا هو الذي يلزم على قول من يجعل معاني هذه الآيات لم يفهمه أحد من الناس .

وليس هذا بمنزلة ما ذكر في الملائكة ، والنبيين ، والجنة ، فإنا قد فهمنا الكلام الذي خوطبنا به ، وأنه يدل على أن هناك نعيماً لا نعلمه، وهذا خطاب مفهوم ، وفيه إخبارنا أن من المخلوقات ما لا نعلمه ، وهذا حق ، كقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (١) وقوله لما سألوه عن الروح : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٢) فهذا فيه إخبارنا بأن لله مخلوقات لا نعلمها ، أو نعلم جنسهم . ولا نعلم قدرهم ، أو نعلم بعض صفاتهم دون بعض .

وكل هذا حق ، لكن ليس فيه أن الخطاب المنزل الذي أمرنا بتدبره لا يفقه ، ولا يعلم معناه لا الرسول ولا المؤمنون ، فهذا هو المنكر الذي أنكره العلماء ، فإن الله قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٤) وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٦) .

وفرق بين ما لم يخبر به أو أخبرنا ببعض صفاته دون بعض ـ فما لم يخبر به لا يضرنا ألا نعلمه ـ وبين ما أخبرنا به ، وهو الكلام العربي الذي جعل هدى وشفاء للناس ، وقال الحسن : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن

---

(١) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٨٥ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

(٤) سورة محمد آية رقم ٢٤ .

(٥) سورة المؤمنون آية رقم ٦٨ .

(٦) سورة محمد آية رقم ١٦ .

يعلم فيما أنزلت وما عنى بها ، فكيف يكون في مثل هـذا الكلام مـا لا يفهمه أحد قط ؟ .

وفرق بين أن يقال « الرب هو الذي يأتي إتياناً يليق بجلاله » أو يقال « ما ندري ، هل هو الذي يأتي أو أمره » فكثير من لا يجزم بأحدهما ، بل يقول : أسكت ، فالسكوت أسلم .

ولا ريب أنه من لم يعلم فالسكوت له أسلم، كما قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[1] لكن هو يقول: إن الرسول وجميع الأمة كانوا كذلك ـ لا يدرون هل المراد به هذا أو هذا، ولا الرسول كان يعرف ذلك . فقائـل هذا مبـطل متكلم بما لا علم لـه به ، وكـان يسعـه أن يسكت عن هذا ـ لا يجـزم بأن الـرسول والأئمـة كلهم جهـال يجب عليهم السكوت كما يجب عليه .

ثم إن هذا خلاف الواقع ، فـأحاديث النبي ﷺ وكـلام السلف في معنى هـذه الآية ونـظائرهـا كثير مشهـور ، لكن قال علي رضي الله عنـه : « حدثـوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون . أتحبون أن يكـذب الله ورسولـه ؟ » . وقال ابن مسعود : « ما من رجل يحدث قومـاً حديثـاً لا تبلغه عقـولهم إلا كان فتنة لبعضهم » .

وإذا قال : بل كان [من] السلف من يجزم بأن المراد هو إتيانـه نفسه ، فهـذا

---

(١) الحـديث رواه البخاري في كتـاب الأدب ٣١ باب «من كان يؤمن بـالله واليـوم الآخـر فـلا يؤذ جاره» .

٦٠١٨ عن أبي حصـين عن أبي صالـح ، عن أبي هريـرة قـال : قـال رسـول الله ـ ﷺ ـ وصـدر الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخـر فلا يؤذ جـاره ، ومن كان يؤمن بـالله واليوم الآخـر فليكرم ضيفه وذكره . ورواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٧٥ ، ٧٧ ، والترمذي في البـر ٤٣ ، والقيامة . وابن ماجه في كتـاب الفتن ١٢ باب كف اللسـان في الفتنة ٣٩٧١ عن أبي حصـين ، عن أبي صالح عن أبي هريرة قـال : قال رسـول الله ـ ﷺ ـ وذكره وفيـه (أو ليسكت) بدلاً من (ليصمت) وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٤٧ ، ٤١٢ (حلبي) .

جزم بأنهم عرفوا معناها ، وبطلان القول الآخر - لم يكونـوا ساكتين حيـارى ، ولا ريب أن مقـدوره ومأمـوره مما يـأتي أيضاً ، ولكن هـو يأتي كمـا أخبر عن نفسـه إتيانـاً يليق بجلالـه . فـإذا قيـل : لا نعلم كيفيـة الاستـواء ، كـان هـذا صحيحاً ، وإذا كان الخطاب والكلام ممـا لا يفهم أحد معنـاه - لا الرسـول ، ولا جبريل ، ولا المؤمنون - لم يكن مما يتدبر ويعقـل ، بل مثـل هذا عبث ، والله منزه عن العبث .

ثم هـذا يلزمهم في الأحاديث ، مثـل قولـه : « ينزل ربنـا كـل ليلة إلى السماء »(1) أفكان الرسول يقول هذا الحديث ونحوه وهو لا يفقه مـا يقول ولا يفهم له معنى ؟ سبحان الله ! هذا بهتان عظيم ، وقدح في الـرسول ، وتسليط للملحـدين ، إذا قيل إن نفس الكـلام الذي جـاء بـه قـد كـان لا يفهم معنـاه قالوا : فغيره من العلوم العقلية أولى أن لا يفهم معناه .

والكلام إنما هو في صفات الرب ، فإذا قيل إن ما أنزل عليه من صفات الرب لم يكن هو ولا غيره يفهمه ، وهـو كلام أمي عـربي ينزل عليـه ، قيل : فالمعاني المعقولة في الأمـور الإلهية أولى أن لا يكـون يفهمها ، وحينئـذ فهذا الباب لم يكن موجوداً في رسالته ، ولا يؤخذ من جهته ، لا من جهة السمع ، ولا من جهة العقل ، قالت الملاحدة : فيؤخذ من طريق غيره .

فإذا قال لهم هؤلاء ، هذا غير ممكن لأحد ، منعوا ذلـك وقالـوا : إنما في القـرآن أن ذلـك الخـطاب لا يعلم معنـاه إلا الله ، لكن من أين لكم أن الأمور الإلهية لا تعلم بـالأدلة العقليـة التي يقصر عنهـا البيان بمجـرد الخطاب والخبر ؟ .

---

(1) الحديث رواه ابن ماجـه في كتاب إقـامة الصـلاة والسنة فيهـا ١٨٢ باب مـا جاء في أي سـاعات الليل أفضل ١٣٦٦ عن ابن شهـاب عن أبي سلمة وأبي عبـدالله الأغر عن أبي هـريرة أن رسـول الله ﷺ قـال : وذكـره ، ورواه البخـاري في التهجـد ١٤ ومسلم في المسـافـرين ١٦٨ - ١٧٠ والترمذي في الصلاة ٢١١ والدعوات ٧٨ والموطأ في القرآن ٣٠ .

والملاحدة يقولون : إن الرسل خاطبت بالتخييل ، وأهل الكلام يقولون : بالتأويل ، وهؤلاء الظاهرية يقولون : بالتجهيل ، وقد بسط الكلام على خطأ الطوائف الثلاث ، وبين أن الرسول قد أتى بغاية العلم والبيان الذي لا يمكن أحداً من البشر أن يأتي بأكمل مما جاء به ـ ﷺ تسليماً ، فأكمل ما جاء به القرآن ، والناس متفاوتون في فهم القرآن تفاوتاً عظيماً .

وقول ابن السائب : إن هذا من المكتوم الذي لا يفسر ، يقتضي أن له تفسيراً يعلمه العلماء ويكتمونه .

وهذا على وجهين : إما أن يريد أنه يكتم شيء مما بينه الرسول ﷺ عن جميع الناس فهذا من الكتمان المجرد الذي ذم الله عليه . وهذه حال أهل الكتاب . وعاب الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب . وقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾[1] .

وهذه حال أهل الكتاب في كتمان ما في كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم ، ويجعلها بعضهم متشابهاً ، وهي دلائل على نبوة محمد ﷺ ، وغير ذلك . فإن ألفاظ التوراة والإنجيل وسائر كتب الأنبياء ـ وهي بضعة وعشرون كتاباً عند أهل الكتاب ـ لا يمكنهم جحد ألفاظها ، لكن يحرفونها بالتأويل الباطل ، ويكتمون معانيها الصحيحة عن عامتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾[2] .

فمن جعل أهل القرآن كذلك ، وأمرهم أن يكونوا فيه أميين لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة ، فقد أمرهم بنظير ما ذم الله عليه أهل الكتاب . وصبيغ بن عسل التميمي إنما ضربه عمر لأنه قصد باتباع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وهؤلاء الذين عابهم الله في كتابه لأنهم جمعوا شيئين ـ سوء القصد ،

---

(١) سورة البقرة اية رقم ١٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

والجهل ، فهم لا يفهمون معناه ويريدون أن يضربوا كتاب الله بعضه ببعض ليوقعوا بذلك الشبهة والشك . وفي الصحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم » (١) .

فهذا فعل من يعارض النصوص بعضها ببعض ليوقع الفتنة ـ وهي الشك والريب ـ في القلوب ، كما روي أنه خرج على القوم وهم يتجادلون في القدر ، هؤلاء يقولون : ألم يقل الله كذا ؟ ، وهؤلاء يقولون : ألم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقأ في وجهه حب الرمان ، ثم قال : « أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ أنظروا ما أمرتم به فافعلوه » (٢) . فكل من اتبع المتشابه على هذا الوجه فهو مذموم ، وهو حال من يريد أن يشكك الناس فيما علموه لكونه وإياهم لم يفهموا ما توهموا أنه يعارضه . هذا أصل الفتنة ـ أنه يترك المعلوم لغير معلوم ـ كالسفسطة التي تورث شبهاً يقدح بها فيما علم وتيقن ، فهذه حال من يفسد قلوب الناس وعقولهم بإفساد ما فيها من العلم والعمل ـ أصل الهدى ، فإذا شككهم فيما علموه بقوا حيارى . والرسول ﷺ قد أتى بالآيات البينات الدالة على صدقه ، والقرآن فيه الآيات المحكمات

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ١ باب (منه آيات محكمات . قال مجاهد : الحلال والحرام) .

٤٥٤٧ عن القاسم بن محمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت تلا رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ـ إلى قوله ـ **أولوا الألباب** ﴾ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

ورواه أبو داود في كتاب السنة ٢ والدارمي في المقدمة ١٦

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٨٥ عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده ، قال : خرج رسول الله ﷺ ـ على أصحابه وهم يختصمون في القدر ـ وذكره في الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ١٧٨ ، ١٩٦ (حلبي) .

اللآتي هي أم الكتاب قد علم معناها ، وعلم أنها حق ، وبذلك يهتدي الخلق وينتفعون .

فمن اتبع المتشابه ابتغى الفتنة وابتغى تأويله ـ والأول قصدهم فيه فاسد ، والثاني ليسوا من أهله ، بل يتكلمون في تأويله بما يفسد معناه إذ كانوا ليسوا من الراسخين في العلم .

وإنما الراسخ في العلم الذي رسخ في العلم بمعنى المحكم ، وصار ثابتاً فيه لا يشك ولا يرتاب فيه بما يعارضه من المتشابه ، بل هو مؤمن به ، قد يعلمون تأويل المتشابه .

وأما من لم يرسخ في ذلك ، بل إذا عارضه المتشابه شك فيه فهذا يجوز أن يراد بالمتشابه ما يناقض المحكم، فلا يعلم معنى المتشابه، إذ لم يرسخ في العلم بالمحكم ، وهو يبتغي الفتنة في هذا وهذا ، فهذا يعاقب عقوبة تردعه ، كما فعل عمر بصبيغ .

وأما من قصده الهدى والحق فليس من هؤلاء ، وقد كان عمر يسأل ويسأل عن معاني الآيات الدقيقة ، وقد سأل أصحابه عن قوله : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ (١) ، فذكروا ظاهر لفظها ، ولما فسرها ابن عباس بأنها إعلام النبي ﷺ بقرب وفاته قال : « ما أعلم منها إلا ما تعلم » .

وهذا باطن الآية الموافق لظاهرها ، فإنه لما أمر بالاستغفار عند ظهور الدين ، والاستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال ، وبظهور الدين حصل مقصود الرسالة ، علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور أخر ، وفوق كل ذي علم عليم .

والاستدلال على الشيء بملزوماته، والشيء قد يكون له لازم ، وللازمه لازم ، وهلم جرّا ـ فمن الناس من يكون أفطن بمعرفة اللوازم من غيره

(١) سورة النصر آية رقم ١ .

يستدل بالملزوم على اللازم ، ومن الناس من لا يتصور اللازم ، ولوتصوره لم يعرف الملزوم ، بل يقول : يجوز أن يلزم ، ويجوز ألا يلزم ، ويحتمل ، ويحتمل ، وتردد الاحتمال هو من عدم العلم ، وإلا فالواقع هو أحد أمرين ، فحيث كان احتمال بلا ترجيح كان لعدم العلم بالواقع وخفاء دليله ، وغيره قد يعلم ذلك ويعلم دليله .

ومن ظن أن ما لا يعلمه هو لا يعلمه غيره كان من جهله ، فلا ينفي عن الناس إلا ما علم انتفاؤه عنهم ، وفوق كل ذي علم عليم أعلم منه ، حتى ينتهي الأمر إلى الله تعالى ، وهذا قد بسط في مواضع . ثم إنهم يقولون : المأثور عن السلف هو السكوت عن الخوض في تأويل ذلك ، والمصير إلى الايمان بظاهره ، والوقوف عن تفسيره ، لأنا قد نهينا أن نقول في كتاب الله برأينا ، ولم ينبهنا الله ورسوله على حقيقة معنى ذلك .

فيقال : أما كون الرجل يسكت عما لا يعلم فهذا مما يؤمر به كل أحد ، لكن هذا الكلام يقتضي أنهم لم يعلموا معنى الآية وتفسيرها وتأويلها ، وإذا كان لم يتبين لهم فمضمونه عدم علمهم بذلك ، وهو كلام شاك لا يعلم ما أريد بالآية .

ثم إذا ذكر لهم بعض التأويلات كتأويل من يفسره بإتيان أمره وقدرته أبطلوا ذلك بأن هذا يسقط فائدة التخصيص ، وهذا نفي للتأويل وإبطال له .

فإذا قالوا مع ذلك ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ [1] أثبتوا تأويلاً لا يعلمه إلا الله وهم ينفون جنس التأويل .

ونقول ما الحامل على هذا التأويل البعيد ؟، وقد أمكن بدونه أن نثبت إتياناً ومجيئاً لا يعقل كما يليق به ، كما أثبتنا ذاتاً لها حقيقة لا تعقل ، وصفات

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ وتكملة الآية ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .

من سمع وبصر وغير ذلك لا تعقل ، ولأنه إذا جاز تأويل هذا وأن نقدر مضمراً محذوفاً من قدرة أو عذاب ونحو ذلك ، فما منعكم من تأويل قوله « ترون ربكم » (١) كذلك ؟ .

وهذا كلام في إبطال التأويل وحمل للفظ على ما دل عليه ظاهره على ما يليق بجلال الله .

فإذا قيل مع هذا : إن له تأويلاً لا يعلمه إلا الله وأريد بالتأويل هذا الجنس كان تناقضاً ، كيف ينفي جنس التأويل ويثبت له تأويل لا يعلمه إلا الله .

فعلم أن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله لا يناقض حمله على ما دل عليه اللفظ ، بل هو أمر آخر يحقق هذا ويوافقه لا يناقضه ويخالفه كما قال مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول .

وإذا كان كذلك امكن أن من العلماء من يعلم من معنى الآية ما يوافق القرآن لم يعلمه غيره ، ويكون ذلك من تفسيرها ، وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم ، كمن يعلم أن المراد بالآية مجيء الله قطعاً لا شك في ذلك لكثرة ما دل عنده على ذلك ، ويعلم مع ذلك أنه العلي الأعلى يأتي إتياناً تكون المخلوقات محيطة به وهو تحتها ، فإن هذا مناقض لكونه العلي الأعلى .

والجد الأعلى أبو عبدالله رحمه الله قد جرى في تفسيره على ما ذكر من الطريقة ، وهذه عادته وعادات غيره ، وذلك كلام ابن الزاغوني فقال ، قال الشيخ علي بن عبيدالله الزاغوني (٢) :

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٧٧ - عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير بن عبدالله ، قال كنا جلوساً عند رسول الله - ﷺ - فنظر إلى القمر ليلة البدر . قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ - ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب** ﴾ . سورة ق آية رقم ٣٩ .

(٢) هو علي بن عبيدالله بن نصر بن السري أبو الحسن بن الزاغوني مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة =

وقد اختلف كلام إمامنا أحمد في هذا المجيء هل يحمل على ظاهره ، وهل يدخل التأويل ؟ على روايتين .

إحداهما : إنه يحمل على ظاهره من مجيء ذاته ، فعلى هذا يقول : لا يدخل التأويل ، إلا أنه لا يجب أن يحمل مجيئه بذاته إلا على ما يليق به ، وقد ثبت أنه لا يحمل إثبات مجيء هو زوال وانتقال يوجب فراغ مكان وشغل آخر من جهة أن هذا يعرف بالجنس في حق المحدث الذي يقصر عن استيعاب المواضع والمواطن ، لأنها أكبر منه وأعظم يفتقر مجيئه إليها إلى الانتقال عما قرب إلى ما بعد .

وذلك ممتنع في حق الباري تعالى ، لأنه لا شيء أعظم منه ، ولا يحتاج في مجيئه إلى انتقال وزوال ، لأن داعي ذلك وموجبه لا يوجد في حقه ، فأثبتنا المجيء صفة له ومنعنا ما يتوهم في حقه ما يلزم في حق المخلوقين لاختلافهما في الحاجة إلى ذلك ، ومثله قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ (١) .

ومثله الحديث المشهور الذي رواه عامة الصحابة أن النبي ﷺ قال : « ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفر فأغفر له » (٢) . فنحن نثبت وصفه بالنزول إلى سماء الدنيا بالحديث ولا نتأول ما ذكروه ولا نلحقه بنزول الآدميين الذي هو زوال وانتقال من علو إلى أسفل ، بل نسلم للنقل كما ورد وندفع التشبيه لعدم موجبه ، ونمنع من التأويل لارتفاع نسبته . قال : وهذه الرواية هي المشهورة والمعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا .

= من أهل بغداد قال ابن رجب : كان متفنناً في علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله من كتبه (تاريخ) على السنين ، (والاقناع) ، و(الواضح) وغير ذلك كثير ، توفي عام ٥٢٧ هـ [راجع الذيل على طبقات الحنابلة ١ : ٢١٦ واللباب ١ : ٤٨٩ وشذرات الذهب ٤ : ٨٠] .

(١) سورة الفجر آية رقم ٢٢ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

« قلت » : أما كون إتيانه ومجيئه ونزوله ليس مثل إتيان المخلوق ومجيئه ونزوله ، فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة ومن له عقل ، فإن الصفات والأفعال تتبع الذات المتصفة الفاعلة ، فإذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها لزم ضرورة أن تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها ، ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفة كل موصوف إلى ذاته ، ولا ريب أنه العلي الأعلى العظيم ، فهو أعلى من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، فلا يكون وإتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به أو تكون أعظم منه وأكبر ، هذا ممتنع .

وأما لفظ « الزوال » و« الانتقال » فهذا اللفظ مجمل ، ولهذا كان أهل الحديث والسنة فيه على أقوال :

فعثمان بن سعيد الدارمي [1] وغيره أنكروا على الجهمية قولهم : إنه لا يتحرك ، وذكروا أثراً أنه لا يزول ، وفسروا الزوال بالحركة ، فبين عثمان بن سعيد أن ذلك الأثر إن كان صحيحاً لم يكن حجة لهم ، لأنه في تفسير قوله : ﴿ **الحيُّ القَيُّومُ** ﴾ [2] ذكروا عن ثابت : دائم باق لا يزول عما يستحقه ، كما قال ابن اسحاق : لا يزول عن مكانته .

« قلت » : والكلبي بنفسه الذي روى هذا الحديث هو يقول : ﴿ **استوى على العرش** ﴾ : استقر ، ويقول : ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ : صعد إلى السماء .

وأما « الانتقال » فابن حامد وطائفة يقولون : ينزل بحركة وانتقال . وآخرون من أهل السنة ، كالتميمي من أصحاب أحمد ، أنكروا هذا وقالوا :

---

(١) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني أبو سعيد ، محدث هراة ، له تصانيف في الرد على الجهمية ، منها النقض على بشر المريسي وله مسند كبير توفي بهراة عام ٢٨٠ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٧٧] .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

بل ينزل بلا حركة وانتقال . وطائفة ثالثة ، كابن [1] بطة وغيره يفتون في هذا .

وقد ذكر الأقوال الثلاثة القاضي أبو يعلى في كتاب « اختلاف الروايتين والوجهين ونفي اللفظ بمجمله » [2] .

والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص ، فيثبت ما أثبت الله ورسوله باللفظ الذي أثبته ، وينفي ما نفاه الله ورسوله كما نفاه ، وهو أن يثبت النزول ، والإتيان ، والمجيء ، وينفي المثل ،والسمي ، والكفء ، والند .

وبهذا يحتج البخاري وغيره على نفي المثل . يقال : ينزل نزولاً ليس كمثله شيء ، نزل نزولاً لا يماثل نزول المخلوقين ـ نزولاً يختص به ، كما أنه في ذلك وفي سائر ما وصف به نفسه ليس كمثله شيء في ذلك ، وهو منزه أن يكون نزوله كنزول المخلوقين ، وحركتهم ، وانتقالهم ، وزوالهم مطلقاً ـ لا نزول الآدميين ولا غيرهم .

فالمخلوق إذا نزل من علو إلى سفل زال وصفه بالعلو وتبدل إلى وصفه بالسفول ، وصار غيره أعلى منه .

والرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط ، بل هو العلي الأعلى ، ولا يزال هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده ويدنو منهم ، وينزل إلى حيث شاء ، ويأتي كما شاء ، وهو في ذلك العلي الأعلى ، الكبير المتعالي ، عليّ

---

(١) هو عبيد الله بن محمد بن حمدان أبو عبدالله العكبري المعروف بابن بطة ، عالم بالحديث ، فقيه من كبار الحنابلة من أهل عكبرا مولداً ووفاة ، رحل إلى مكة والثغور والبصرة وغيرها في طلب الحديث ثم لزم بيته أربعين سنة فصنف كتبه وهي تزيد على مئة منها (الشرح والإبانة) و(السنن) و(التفرد والعزلة) توفي عام ٣٨٧ هـ [راجع ايضاح المكنون ١ : ٨ وطبقات الحنابلة ٢ : ١٤٤ ـ ١٥٣ ومختصره للنابلسي ٣٤٦ وفي كتاب أعيان الشيعة ٦ : ٥٦ ابن بطة اثنان حنبلي وهو ابن بطة بفتح الباء وشيعي وهو ابن بطة بضم الباء] .

(٢) قام بتحقيقه ودراسة عنه الشيخ عبد الكريم بن اللاحم وحصل به على درجة الدكتوراه في الفقه الحنبلي .

في دنوه ، قريب في علوه .

فهذا وإن لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهـذا ، كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

ولهـذا قيل لأبي سعيـد الخراز بم عـرفت الله ؟ . قال : « بـالجمع بين النقيضين » . وأراد أنه يجتمع لـه ما يتنـاقض في حق الخلق ، كما اجتمـع له أنه خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرهـا من الأعيان والأفعـال ، مع مـا فيها من الخبث ، وأنه عدل ، حكيم ، رحيم ، وأنـه يمكن من مكنه من عبـاده من المعـاصي مع قـدرته على منعهم ، وهـو في ذلـك حكيم عـادل ، فـإنـه أعلم الأعلمين ، وأحكم الحـاكمين ، وخيـر الفـاتحين ، يعلم مـا بين أيـديهم ومـا خلفهم .

فأن لا يحيطوا علماً بما هـو أعظم في ذلـك أولى وأحرى ، وقـد سألـوا عن الـروح . فقيل لهم : ﴿ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي ، وَمَـا أُوتِيْتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيـلاً ﴾ (١) . وفي الصحيحين أن الخضر قـال لمـوسى لمـا نقـر عصفـور في البحر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كمـا نقص هـذا العصفور من هذا البحر » (٢) .

فـالذي ينفي عنـه وينزه عنـه إما أن يكـون مناقضـاً لما علم من صفـاتـه

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٨٥.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتـاب العلم ٤٤ باب مـا يستحب للعالم إذا سئـل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله .

١٢٢ ـ حدثنا عبدالله بن محمد ، قال : حدثنا سفيان ، قال حدثنا عمرو قـال : أخبرني سعيـد ابن جبير قال : قلت لابن عباس أن نوفاً البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر . فقال كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ـ ﷺ وذكـره . وما ذكـره ابن تيمية جزء من الحديث الكبير .

ورواه البخـاري في الأنبيـاء ٢٧ والتفسيـر سـورة ١٨ ، ٢ ورواه مسلم في الفضـائـل ١٧٠ والترمذي في التفسير سورة ١٨ ، ١ .

الكاملة فهذا ينفي عنه جنسه ، كما قال : ﴿ اللهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّـومُ لَا تَـأْخُذُهُ سِنَـةٌ وَلَا نَـوْمٌ ﴾[1] . وقـال : ﴿ وَتَـوَكَّـلْ عَلَى الْحَيِّ الَّـذِي لَا يَمُـوتُ ﴾[2] . فجنس السنة والنـوم ، والموت ، ممتنـع عليـه ، لا يجـوز أن يقـال في شيء من هذا « إنـه يجوز عليـه كما يليق بشـأنـه » لأن هـذا الجنس يوجب نقصاً [في] كماله .

وكذلك لا يجـوز أن يقال : هـو يكون في السفـل ، لا في العلو ، وهو سفـول يليق بجلالـه ، فإنـه سبحـانـه العلي الأعلى لا يكـون قط إلا عـاليـاً ، والسفول نقص هو منزه عنه .

وقوله « وأنت الباطن فليس دونك شيء »[3] لا يقتضي السفـول إلا عند جاهل لا يعلم حقيقة العلو والسفول ، فيـظن أن السموات ومـا فيها قـد تكون تحت الأرض إما بالليل وإما بالنهار ، وهذا غلط ، كمن يظن أن ما في السماء من المشـرق يكون تحت مـا فيها ممـا في المغـرب . فهـذا أيضـاً غلط ، بـل السماء لا تكون قط إلا عـالية على الأرض ، وإن كـان الفلك مستديـراً محيطاً بالأرض فهو العالي على الأرض علواً حقيقياً من كـل جهة ، وهـذا مبسوط في مواضع .

والنـوع الثاني : أنـه منزه عن أن يمـاثله شيء من المخلوقات في شيء من صفـاته فـالألفاظ التي جـاء بها الكتـاب والسنـة في الإثبـات تثبت ، والتي

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٥٨ .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الـدعاء ٣٨٣١ عن الأعمش عن أبي صـالح عن أبي هـريرة قال : أتت فاطمة النبي - ﷺ - تسأله خادماً فقال لها ما عندي ما أعطيك » فرجعت فأتاها بعـد ذلك فقال « الذي سألت أحب إليك أو ما هو خير منه ؟ فقال لها علي : قولي : لا . بل ما هو خير منه ، فقالت : فقال : « قولي وذكره في حديث طويل .
ورواه مسلم في الـدعـوات ٦١ وأبـو داود في الأدب ٩٨ والتـرمـذي في الـدعـوات ١٩ ، ٦٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٨١ ، ٤٠٤ ، ٥٣٦ (حلبي) .

جاءت بالنفي تنفي ، والألفاظ المجملة كلفظ « الحركة » و« النزول » و« الانتقال » يجب أن يقال فيها : إنه منزه عن مماثلة المخلوقين من كل وجه ، لا يماثل المخلوق ـ لا في نزول ، ولا في حركة ، ولا انتقال ، ولا زوال ، ولا غير ذلك .

وأما إثبات هذا الجنس ، كلفظ « النزول » ، أو نفيه مطلقاً كلفظ « النوم » و« الموت » فقد يسلك كلاهما طائفة إلى السنة . والمثبتة يقولون . نثبت حركة ، أو حركة وانتقالاً ، أو حركة وزوالاً تليق به ، كالنزول والإتيان اللائق به .

والنفاة يقولون : بل هذا الجنس يجب نفيه .

ثم منهم من ينفي جنس ذلك في حقه بكل اعتبار ، ولا يجوز عليه أن يقوم به شيء من الأحوال المتجددة ، وهذه طريقة الكلابية ومن اتبعهم ممن ينتسب إلى السنة والحديث .

ومنهم من لا ينفي في ذلك ما دل عليه النص ، ولا ينفي هذا الجنس مطلقاً بما ذكروه من أنه لا تقوم به الحوادث لما قد علم بالآيات والسنة والعقل أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأنه يحب عبده المؤمن إذا اتبع رسوله ، إلى غير ذلك من المعاني التي دل عليها الكتاب والسنة ، بل ينفي ما ناقض صفات كماله ، وينفي مماثلة مخلوق له ، فهذان هما اللذان يجب نفيهما ، والله أعلم .

وكذلك إذا قال القائل : الله يجب تنزيهه عن سمات الحدث أو علامات الحدث ، أو كل ما أوجب نقصاً وحدوثاً فالرب منزه عنه ، فهذا كلام حق معلوم متفق عليه .

لكن الشأن فيما تقول النافية ، إنه من سمات الحدث ، وآخرون ينازعونهم ، لا سيما والكتاب والسنة تناقض قولهم ، قالت الجهمية : إن

قيام الصفات به ، أو قيام الصفات الاختيارية ، هو من سمات الحدث ، وهذا باطل عند السلف وأئمة السنة ، بل وجمهور العقلاء ، بل ما ذكروه يقتضي حدوث كل شيء ، فإنه ما من موجود إلا وله صفات تقوم به ، وتقوم به أحوال تحصل بالمشيئة والقدرة ، فإن كان هذا مستلزماً للحدوث لزم حدوث كل شيء ، وأن لا يكون في العالم شيء قديم ، وهذا قد بسط في مواضع أيضاً .

وسمات الحدث التي تستلزم الحدوث مثل افتقار إلى الغير ، فكل ما افتقر إلى غيره فإنه محدث ، كائن بعد أن لم يكن ، والرب منزه عن الحاجة إلى ما سواه بكل وجه ، ومن ظن أنه محتاج إلى العرش ، أو حملة العرش ، فهو جاهل ضال ، بل هو الغني بنفسه ، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه ، وهو الصمد الغني عن كل شيء ، وكل ما سواه يصمد إليه محتاجاً إليه - ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [1] .

ومن سمات الحدث النقائص ، كالجهل ، والعمى ، والصمم ، والبكم ، فإن كل ما كان كذلك لم يكن إلا محدثاً ، لأن القديم الأزلي منزه عن ذلك ، لأن القديم الأزلي متصف بنقيض هذه الصفات ، وصفات الكمال لازمة له ، واللازم يمتنع زواله إلا بزوال الملزوم ، والذات قديمة أزلية ، واجبة بنفسها ، غنية عما سواها ، يستحيل عليها العدم والفناء بوجه من الوجوه ، فيستحيل عدم لوازمها ، فيستحيل اتصافها بنقيض تلك اللوازم ، فلا يوصف بنقيضها إلا المحدث ، فهي من سمات الحدث المستلزمة لحدوث ما اتصف بها .

وهذا يدخل في قول القائل « كل ما استلزم حدوثاً أو نقصاً فالرب منزه عنه » . والنقص المناقض لصفات كماله مستلزم لحدوث المتصف به ، والحدوث مستلزم للنقص اللازم للمخلوق ، فإن كل مخلوق فهو يفتقر إلى

---

(1) سورة الرحمن آية رقم ٢٩ .

غيره ، كائن بعد أن لم يكن لا يعلم إلا ما علم ، ولا يقدر إلا ما أقدر ، وهو محاط به مقدور عليه .

فهذه النقائص اللازمة لكل مخلوق هي ملزومة للحدوث ، حيث كان حدوث كانت ، والحدوث أيضاً ملزوم لها ، فحيث كان محدث كانت هذه النقائص .

فقولنا « ما استلزم نقصاً أو حدوثاً فالرب منزه عنه » حق .

والحدوث والنقص اللازمة للمخلوق متلازمان ، والرب منزه عن كل منهما من جهتين : ـ من جهة امتناعه في نفسه ، ومن جهة أنه مستلزم للآخر ، وهو ممتنع في نفسه ، فكل منهما دليل ومدلول عليه باعتبارين ـ على أن الرب منزه عنه ، وعن مدلوله الذي هو لازمه .

والحاجة إلى الغير والفقر إليه مما يستلزم الحدوث والنقص اللازم للمخلوق ، وقولي « اللازم » ليعم جميع المخلوقين ، وإلا فمن النقائص ما يتصف بها بعض المخلوقين دون بعض ، فتلك ليست لازمة لكل مخلوق .

والرب منزه عنها أيضاً ، لكن إذا نزه عن النقص اللازم لكل مخلوق فعن ما يختص به بعض المخلوقين أولى وأحرى ، فإنه إذا كان مخلوق ينزه عن نقص ، فالخالق أولى بتنزيهه عنه ، وهذه طريقة « الأولى » كما دل عليها القرآن في غير موضع .

وقد ذكرنا في جواب « المسائل التدمرية » الملقب بـ « تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وبيان حقيقة الجمع بين القدر والشرع » أنه لا يجوز الاكتفاء فيما ينزه الرب عنه على عدم ورود السمع والخبر به فيقال : كل ما ورد به الخبر أثبتناه ، وما لم يرد به لم نثبته بل ننفيه ، وتكون عمدتنا في النفي على عدم الخبر .

بل هذا غلط لوجهين :

أحدهما : أن عدم الخبر هو عدم دليل معين ، والدليل لا ينعكس ، فلا يلزم إذا لم يخبر هو بالشيء أن يكون منتفياً في نفس الأمر ، ولله أسماء سمى بها نفسه واستأثر بها في علم الغيب عنده ، فكما لا يجوز الإثبات إلا بدليل ، لا يجوز النفي إلا بدليل ، ولكن إذا لم يرد به الخبر ولم يعلم ثبوته يسكت عنه فلا يتكلم في الله بلا علم .

الثاني : أن أشياء لم يرد الخبر بتنزيهه عنها ولا بأنه منزه عنها ، لكن دل الخبر على اتصافه بنقائضها فعلم انتفاؤها ، فالأصل أنه منزه عن كل ما يناقض صفات كماله ، وهذا مما دل عليه السمع والعقل . وما لم يرد به الخبر إن علم انتفاؤه نفيناه ، وإلا سكتنا عنه ، فلا نثبت إلا بعلم ، ولا ننفي إلا بعلم .

ونفي الشيء من الصفات وغيرها كنفي دليله طريقة طائفة من أهل النظر والخبر ، وهي غلط إلا إذا كان الدليل لازماً له ، فإن عدم اللازم عدم الملزوم .

وأما جنس الدليل فيجب فيه الطرد ، لا العكس ، فيلزم من وجود الدليل وجود المدلول عليه ، ولا ينعكس .

فالأقسام ثلاثة : ـ ما علم ثبوته أثبت ، وما علم انتفاؤه نفي ، وما لم يعلم نفيه ولا إثباته سكت عنه ، هذا هو الواجب ، والسكوت عن الشيء غير الجزم بنفيه أو ثبوته .

ومن لم يثبت ما أثبته إلا بالألفاظ الشرعية التي أثبتها ، وإذا تكلم بغيرها استفسر واستفصل ، فإن وافق المعنى الذي أثبته الشرع أثبته باللفظ الشرعي ، فقد اعتصم بالشرع لفظاً ومعنى ، وهذه سبيل من اعتصم بالعروة الوثقى .

لكن ينبغي أن تعرف الأدلة الشرعية إسناداً ومتناً ، فالقرآن معلوم ثبوت

ألفاظه ، فينبغي أن يعرف وجوه دلالته ، والسنة ينبغي معرفة ما ثبت منها ، وما علم أنه كذب .

فإن طائفة ممن انتسب إلى السنة ، وعظم السنة والشرع ، وظنوا أنهم اعتصموا في هذا الباب بالكتاب والسنة ، جمعوا أحاديث وردت في الصفات ، منها ما هو كذب معلوم أنه كذب ، ومنها ما هو إلى الكذب أقرب ، ومنها ما هو إلى الصحة أقرب ، ومنها متردد ، وجعلوا تلك الأحاديث عقائد ، وصنفوا مصنفات ، ومنهم من يكفر من يخالف ما دلت عليه تلك الأحاديث .

وبإزاء هؤلاء المكذبين بجنس الحديث ومن يقول عن أخبار الصحيحين وغيرها : هذه أخبار آحاد لا تفيد العلم .

وأبلغ من هؤلاء من يقول : دلالة القرآن لفظية سمعية ، والدلالة السمعية اللفظية لا تفيد اليقين ، ويجعلون العمدة على ما يدعونه من العقليات ، وهي باطلة فاسدة ، منها ما يعلم بطلانه وكذبه .

وهؤلاء أيضاً قد يكفرون من خالف ذلك ، كما فعل أولئك ، وكلا الطريقين باطل ولو لم يكفر مخالفه ، فإذا كفر مخالفه صار من أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها ، كما فعلت الخوارج وغيرهم .

وقد بسط في غير هذا الموضع أن الأدلة التي توجب العلم لا تناقض قط ، ولا يناقض الدليل العقلي الذي يفيد العلم للدليل السمعي الذي يفيد العلم قط ، كما قد بينا ذلك في كتاب « درء تعارض العقل والنقل » (١) .

وهذه الأحاديث قد ذكر بعضها القاضي أبو يعلى (٢) في كتاب « إبطال

---

(١) هذا كتاب جيد وقد قام بتحقيقه ونشره الدكتور محمد رشاد سالم الأستاذ بجامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية بالرياض .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢ : ١٩٣- ٢٣٠ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦ وشذرات الذهب ٣ : ٣٠٦ والوافي بالوفيات ٣ : ٧ .

التأويل » ، مثل ما ذكر في حديث المعراج حديثاً طويلاً عن أبي عبيدة : « أن محمداً رأى ربه » .

وطائفة ممن يقول بأنه رأى ربه بعينه يكفرون من خالفهم لما ظنوا أنه قد جاء في ذلك أحاديث صحيحة ، كما فعل أبو الحسن علي بن شكر ، فإنه سريع إلى تكفير من يخالفه فيما يدعيه من السنة ، وقد يكون مخطئاً فيه ، إما لاحتجاجه بأحاديث ضعيفة ، أو بأحاديث صحيحة لكن لا تدل على مقصوده ، وما أصاب فيه من السنة لا يجوز تكفير كل من خالف فيه ، فليس كل مخطىء كافراً لا سيما في المسائل الدقيقة التي كثر فيها نزاع الأمة ، كما قد بسط هذا في مواضع .

وكذلك أبو علي الأهوازي له مصنف في الصفات قد جمع فيه الغث والسمين .

وكذلك ما يجمعه عبد الرحمن بن منده [1] مع أنه من أكثر الناس حديثاً ، لكن يروي شيئاً كثيراً من الأحاديث الضعيفة ، ولا يميز بين الصحيح والضعيف ، وربما جمع باباً وكل أحاديثه ضعيفة ، كأحاديث أكل الطين وغيرها ، وهو يروي عن أبي علي الأهوازي .

وقد وقع ما رواه من الغرائب الموضوعة إلى حسن بن عدي فبنى على ذلك عقائد باطلة ، وادعى أن الله يرى في الدنيا عياناً ، ثم الذين يقولون بهذا

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق بن منده العبدي الأصبهاني أبو القاسم ، حافظ مؤرخ ، جليل القدر ، واسع الرواية ، له أصحاب وأتباع ، يعرفون بالعبد رحمانيه ينتمون إلى اعتقاده ، قال ابن ناصر الدين كان شديداً في السنة لكنه أفرط في تشدده حتى توهم فيه التجسيم . وصنف كتباً كثيرة ، وردوداً على أهل البدع من كتبه تاريخ أصبهان ، مولده عام ٣٨٣ ووفاته ٤٧٠ هـ بأصبهان قال الذهبي : له محاسن ، وهو في تواليفه حاطب ليل يروي الغث والثمين . وهو مصنف كتاب (المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة) [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٦٠ وطبقات الحنابلة ٢ : ٢٤٢ والنجوم الزاهرة ٥ : ١٠٥]

من أتباعه يكفرون من خالفهم ، وهـذا كما تقـدم من فعل أهـل البدع ، كمـا فعلت الخوارج .

ومن ذلك حديث عبـدالله بن خليفة المشهـور الذي يـروي عن عمر عن النبي ﷺ ، وقـد رواه أبو عبـدالله محمـد بن عبـد الـواحـد المقـدسي [1] في « مختاره » .

وطـائفة من أهـل الحديث تـرده لاضطرابـه ، كما فعـل ذلـك أبـو بكـر الاسماعيلي ، وابن الجوزي ، وغيرهم ، لكن أكثر أهل السنة قبلوه .

وفيه قال : « إن عرشه أو كرسيه وسع السموات والأرض ، وإنـه يجلس عليـه فما يفضـل منه قـدر أربـع أصـابع ، ـ أو فمـا يفضل منـه إلا قدر أربـع أصابع ـ وإنه ليئط به أطيط الرحل الجديد براكبه »[2] ولفظ « الأطيط» قـد جاء في حديث جبير بن مطعم الذي رواه أبـو داود في السنن ، وابن عساكـر عمل فيـه جزءاً ، وجعـل عمدة الـطعن في ابن اسحاق ، والحديث قـد رواه علمـاء السنة كأحمـد ، وأبي داوذ ، وغيرهما ، وليس فيه إلا مـا له شـاهد من روايـة أخرى ، ولفظ « الأطيط » قد جاء في غيره .

وحديث ابن خليفة رواه الإمام أحمد وغيره مختصراً ، وذكر أنه حدث به وكيع .

لكن كثيـر ممن رواه رووه بقولـه « إنه مـا يفضل منـه إلا أربع أصـابع .

---

(١) هـو محمد بن عبـد الواحـد بن أحمد بن عبـد الرحمن السعـدي المقدسي الأصـل الصـالحي الحنبلي أبو عبدالله ـ ضياء الدين عالم بالحديث . مؤرخ من أهل دمشق مولداً ووفـاة بنى فيها مدرسة دار الحديث الضيائية ، ووقف بها كتبـه ، ورحل إلى بغـداد ، ومصر وفـارس ، وروى عن أكثر من ٥٠٠ شيخ من كتبـه الأحكام في الحـديث لم يتمه ، ثـلاث مجلدات ، وفضائـل الأعمال والأحاديث المختارة وغير ذلك كثير توفي عام ٦٤٣ هـ. [راجع القلائد الجوهـرية في تـاريخ الصـالحية ٧٦ ، وفـوات الوفيـات ٢ : ٢٣٨ والدارس ٢ : ٩٤ وشـذرات الذهب ٥ : ٢٢٤]

(٢) الحديث رواه أبو داود في كتاب السنة ١٨ والدارمي في الرقاق ٨٠ .

فجعل العرش يفضل منه أربع أصابع ، واعتقد القاضي ، وابن الزاغوني ، ونحوهما ، صحة هذا اللفظ ، فأمروه وتكلموا على معناه بأن ذلك القدر لا يحصل عليه الاستواء ، وذكر عن ابن العايذ أنه قال : هو موضع جلوس محمد ﷺ .

والحديث الذي رواه ابن جرير الطبري [1] في تفسيره وغيره ، ولفظه : « وإنه ليجلس عليه ، فما يفضل منه قدر أربع أصابع » بالنفي . فلو لم يكن في الحديث إلا اختلاف الروايتين - هذه تنفي ما أثبتت هذه ، ولا يمكن مع ذلك الجزم بأن رسول الله ﷺ أراد الإثبات ، وأنه يفضل من العرش أربع أصابع لا يستوي عليها الرب ، وهذا معنى غريب ليس له قط شاهد في شيء من الروايات ، بل هو يقتضي أن يكون العرش أعظم من الرب وأكبر وهذا باطل ، مخالف للكتاب والسنة والعقل .

ويقتضي أيضاً أنه إنما عرف عظمة الرب بتعظيم العرش المخلوق وقد جعل العرش أعظم منه ، فما عظم الرب إلا بالمقايسة بمخلوق ، وهو أعظم من الرب ، وهذا معنى فاسد ، مخالف لما علم من الكتاب والسنة والعقل .

فإن طريقة القرآن في ذلك أن يبين عظمة الرب ، فإنه أعظم من كل ما يعلم عظمته ، فيذكر عظمة المخلوقات ويبين أن الرب أعظم منها .

كما في الحديث الآخر الذي في سنن أبي داود ، والترمذي ، وغيرهما - حديث الأطيط - لما قال الأعرابي : إنا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع بك على الله تعالى ، فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : « ويحك ، أتدري ما تقول ؟ أتدري ما الله ؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إن عرشه على سمواته هكذا » - وقال بيده مثل القبة - « وإنه

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع إرشاد الأريب ٦ : ٤٢٣ وتذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ والوفيات ١ : ٤٥٦ وطبقات السبكي ٢ : ١٣٥ - ١٤٠ ومفتاح السعادة ١ : ٢٠٥ و٤١٥ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٥] .

ليئط به أطيط الرحل الجديد براكبه »[1] .

فبين عظمة العرش ، وأنه فوق السموات مثل القبة ، ثم بين تصاغره لعظمة الله ، وأنه يئط به أطيط الرحل الجديد براكبه ، فهذا فيه تعظيم العرش وفيه أن الرب أعظم من ذلك ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني »[2] وقال : لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »[3] ومثل هذا كثير .

وهذا وغيره يدل على أن الصواب في روايته النفي ، وأنه ذكر عظمة العرش ، وأنه مع هذه العظمة فالرب مستو عليه كله لا يفضل منه قدر أربع أصابع ، وهذه غاية ما يقدر به في المساحة من أعضاء الإنسان ، كما يقدر في الميزان قدره فيقال : ما في السماء قدر كف سحاباً ، فإن الناس يقدرون الممسوح بالباع والذراع ، وأصغر ما عندهم الكف ، فإن أرادوا نفي القليل والكثير قدروا به ، فقالوا : ما في السماء قدر كف سحاباً ، كما يقولون في النفي العام ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[4] و﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾[5] ، ونحو ذلك . فبين الرسول أنه لا يفضل من العرش شيء ، ولا هذا القدر اليسير الذي هو أيسر ما يقدر به ، وهو أربع أصابع ، وهذا معنى

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث قريباً .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب النكاح ١٠٧ باب الغيرة قال ورَّاد عن المغيرة قال سعد ابن عبادة : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح وذكره .
ورواه البخاري أيضاً في الحدود ٤٠ والتوحيد ٢٠ ورواه الامام مسلم في اللعان ١٦ ، ١٧ والدارمي في النكاح ٣٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٢٤٨ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٣٢٦ (حلبي) ورواه الامام البخاري في كتاب النكاح ١٠٧ باب الغيرة ٥٢٢٢ ـ حدثنا همام عن يحيى عن أبي سلمة أن عروة بن الزبير حدثه عن أمه أسماء أنها سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « لا شيء أغير من الله » .

(٤) سورة النساء آية رقم ٤٠ .

(٥) سورة فاطر آية رقم ١٣ .

صحيح موافق للغة العرب ، وموافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، موافق لطريقة بيان الرسول ، له شواهد ، فهو الذي يجزم بأنه في الحديث .

ومن قال « ما يفضل إلا مقدار أربع أصابع » فما فهموا هذا المعنى ، فظنوا أنه استثنى ، فاستثنوا ، فغلطوا ، وإنما هو توكيد للنفي وتحقيق للنفي العام ، وإلا فأي حكمة في كون العرش يبقى منه قدر أربع أصابع خالية ، وتلك الأصابع أصابع من الناس ، والمفهوم من هذا أصابع الإنسان ، فما بال هذا القدر اليسير لم يستو الرب عليه ؟ .

والعرش صغير في عظمة الله تعالى ، وقد جاء حديث رواه ابن أبي حاتم في قوله ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ (١) لمعناه شواهد تدل على هذا . فينبغي أنا نعتبر الحديث ، فنطابق بين الكتاب والسنة ، فهذا هذا ، والله أعلم .

قال حدثنا أبو زرعة ، ثنا منجاب بن حارث ، أنبأ بشر بن عمارة ، عن أبي رزق ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ ، قال : « لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً » .

وهذا له شواهد ، مثل ما في الصحاح في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ (٢) ، قال ابن عباس : ما السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم .

ومعلوم أن العرش لا يبلغ هذا ، فإن له حملة وله حول ، قال تعالى :

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾[1] .

وهـذا قد بسط في مـوضع آخـر في « مسألـة الإحاطـة » وغيرهـا . والله أعلم .

(١) سورة غافر آية رقم ٧ .

فصل

علماء الكلام أصلوا أصولاً تناقض الحق

فالرسول ﷺ بين الأصول الموصلة إلى الحق أحسن بيان ، وبين الآيات الدالة على الخالق سبحانه ، وأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ووحدانيته ، على أحسن وجه ، كما قد بسط في مواضع .

وأما أهل البدع من أهل الكلام والفلسفة ونحوهم فهم لم يثبتوا الحق ، بل أصلوا أصولاً تناقض الحق ، فلم يكفهم أنهم لم يهتدوا ولم يدلوا على الحق حتى أصلوا أصولاً تناقض الحق ، ورأوا أنها تناقض ما جاء به الرسول ﷺ ، فقدموها على ما جاء به الرسول . ثم تارة يقولون : الرسول جاء بالتخييل ، وتارة يقولون : جاء بالتأويل ، وتارة يقولون : جاء بالتجهيل .

فالفلاسفة ومن وافقهم أحياناً يقولون : خاطب الجمهور بالتخييل ـ لم يقصد إخبارهم بالأمر على ما هو عليه ، بل أخبرهم بخلاف ما الأمر عليه ليتخيلوا ما ينفعهم ، وهذا قول من يعرف بأنه كان يعرف الحق ، كابن سينا (1) وأمثاله ، ويقولون : الذي فعله من التخييل غاية ما يمكن . ومنهم من يقول : لم يعرف الحق ، بل تخيل وخيل ، كما يقوله : الفارابي (2) وأمثاله ،

---

(1) سبق الترجمة له في كلمة وافية ويراجع : وفيات الأعيان ١ : ١٥٢ وتاريخ حكماء الإسلام ٢٧ - ٧٢ وخزانة البغدادي ٤ : ٤٦٦ ، ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٠٣ وآداب اللغة ٢ : ٣٣٦ ولسان الميزان ٢ : ٢٩١ .

(2) هو محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي ويعرف بالمعلم الثاني تركي الأصل مستعرب ولد =

ويجعلون الفيلسوف أفضل من النبي ، ويجعلون النبوة من جنس المنامات .

وأما أكثر المتكلمين فيقولون : بل لم يقصد أن يخبر إلا بالحق ، لكن بعبارات لا تدل وحدها عليه ، بل تحتاج إلى التأويل ليبعث الهمم على معرفته بالنظر والعقل ، ويبعثها على تأويل كلامه ليعظم أجرها .

والملاحدة يسلكون مسلك التأويل ويفتحون باب القرمطة ، وهؤلاء يجوزون التأويل مع الخاصة .

وأما أهل التخييل فيقولون : الخاصة قد عرفوا أن مراده التخييل للعامة ، فالتأويل ممتنع .

والفريقان يسلكون مسلك الجام العوام عن التأويل ، لكن أولئك يقولون : لها تأويل يفهمه الخاصة .

وهي طريقة الغزالي في « الإلجام » استقبح أن يقال : كذبوا للمصلحة ، وهو أيضاً لا يرى تأويل الأعمال كالقرامطة (١) ، بل تأويل الخبر عن الملائكة وعن اليوم الآخر ، وكذلك طائفة من الفلاسفة ترى التأويل في ذلك ، وهذا مخالف لطريقة أهل التخييل .

= في فاراب عام ٢٦٠ هـ انتقل إلى بغداد ومصر والشام له نحو مئة كتاب منها الفصوص ، وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، وآراء أهل المدينة الفاضلة ، والمدخل الى صناعة الموسيقى توفي عام ٣٣٩ هـ [راجع وفيات الأعيان ٢ : ٧٦ وطبقات الأطباء ٢ : ١٣٤ - ١٤٠ والبداية والنهاية ١١ : ٢٢٤ وأخبار الحكماء ١٨٢] .

(١) دعوة إسماعيلية متطرفة جداً ، ظهرت سنة ٩٠٠ هـ في واسط بين الكوفة والبصرة ، وكان زعيمها حمدان القرميطي وقد اعتنق الفكرة بعض الأعراب والانباط والزنج المستعبدين وانتهى الأمر بهؤلاء أن جعلوا كل شيء مشاعاً بين الجميع إلا السيوف .
مبادئهم : قالوا : إن الصلاة مولاة إمامهم ، وأن الحج زيارته وخدمته ، أما الصوم فهو الإمساك عن إفشاء سره وقالوا : من عرف معنى العبادة سقط عنه فرائضها ، وهذه الأفكار معتنقها مرتد عن الإسلام لأنه أنكر ما عرف من الدين بالضرورة . وهذه الفرقة اندثرت بالكامل ولم يبق لأصحابها أثر .

وقد ذكر الغزالي هذا عنهم في « الأحياء » لما ذكر إسرافهم في التأويل ، وذكره في مواضع ، كما حكى كلامه في « السبعينية » وغيرها والقسم الثالث الذين يقولون : هذا لا يعلم معناه إلا الله ، أو له تأويل يخالف ظاهره لا يعلمه إلا الله ، فهؤلاء يجعلون الرسول وغيره غير عالمين بما أنزل الله ، فلا يسوغون التأويل ، لأن العلم بالمراد عندهم ممتنع ، ولا يستجيزون القول بطريقة التخييل لما فيها من التصريح بكذب الرسول . بل يقولون : خوطبوا بما لا يفهمونه ليثابوا على تلاوته ، والإيمان بألفاظه وإن لم يفهموا معناه ، يجعلون ذلك تعبداً محضاً على رأي المجبرة الذين يجوزون التعبد بما لا نفع فيه للعامل ، بل يؤجر عليه .

والكلام على هؤلاء وفساد قولهم مذكور في مواضع ، والمقصود هنا أن الذي دعاهم إلى ذلك ظنهم أن المعقول يناقض ما أخبر به الرسول ﷺ ، أو ظاهر ما أخبر به الرسول ، وقد بسط الكلام على رد هذا في مواضع ، وبين أن العقل لا يناقض السمع ، وأن ما ناقضه فهو فاسد ، وبين بعد هذا أن العقل موافق لما جاء به الرسول ، شاهد له ، ومصدق له .

لا يقال : إنه غير معارض فقط ، بل هو موافق مصدق ، فأولئك كانوا يقولون : هو مكذب مناقض ، بين أولاً أنه لا يكذب ولا يناقض ، ثم بين ثانياً أنه مصدق موافق .

وأما هؤلاء فيبين أن كلامهم الذي يعارضون به الرسول باطل لا تعارض فيه ، ولا يكفي كونه باطلاً لا يعارض ، بل هو أيضاً مخالف لصريح العقل ، فهم كانوا يدعون أن العقل يناقض النقل .

فيبين أربع مقامات : أن العقل لا يناقضه ، ثم بين أن العقل يوافقه ، وبين أن عقلياتهم التي عارضوا بها النقل باطلة ، وبين أيضاً أن العقل الصريح يخالفهم .

ثم لا يكفي أن العقل يبطل ما عارضوا به الرسول ، بل يبين أن ما

جعلوه دليلاً على إثبات الصانع إنما يدل على نفيه ، فهم أقاموا حجة تستلزم نفي الصانع ، وإن كانوا يظنون أنهم يثبتون الصانع بها . والمقصود هنا أن كلامهم الذي زعموا أنهم أثبتوا به الصانع إنما يدل على نفي الصانع وتعطيله ، فلا يكفي فيه أنه باطل لم يدل على الحق ، بل دل على الباطل الذي يعلمون هم وسائر العقلاء أنه باطل .

ولهذا كان يقال في أصولهم « ترتيب الأصول في تكذيب الرسول » ويقال أيضاً هي « ترتيب الأصول في مخالفة الرسول والمعقول » جعلوها أصولاً للعلم بالخالق،وهي أصول تناقض العلم به،فلا يتم العلم بالخالق إلا مع اعتقاد نقيضها ، وفرق بين الأصل والدليل المستلزم للعلم بالرب وبين المناقض المعارض للعلم بالرب .

فالمتفلسفة يقولون إنهم أثبتوا واجب الوجود ، وهم لم يثبتوه ، بل كلامهم يقتضي أنه ممتنع الوجود ، والجهمية والمعتزلة ونحوهم يقولون إنهم أثبتوا القديم المحدث للحوادث ، وهم لم يثبتوه ، بل كلامهم يقتضي أنه ما ثم قديم أصلاً ، وكذلك الأشعرية والكرامية وغيرهم ممن يقول إنه أثبت العلم بالخالق ، فهم لم يثبتوه ، لكن كلامهم يقتضي أنه ماثم خالق .

وهذه الأسماء الثلاثة هي التي يظهرها هؤلاء - واجب الوجود ، والقديم ، والصانع أو الخالق ونحو ذلك .

ثم إنه من المعلوم بضرورة العقل أنه لا بد في الوجود من موجود واجب بنفسه قديم أزلي محدث للحوادث . فإذا كان هذا معلوماً بالفطرة والضرورة والبراهين اليقينية ، وكانت أصولهم التي عارضوا بها الرسول تناقض هذا ، دل على فسادها جملة وتفصيلاً .

وقد ذكرنا في مواضع أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مع كثرة دلائله وبراهينه .

ونقول هنا : لا ريب أنا نشهد الحوادث كحدوث السحاب ، والمطر ، والزرع ، والشجر ، والشمس ، وحدوث الإنسان وغيره من الحيوان وحدوث الليل والنهار ، وغير ذلك ، ومعلوم بضرورة العقل أن المحدث لا بد له من محدث ، وأنه يمتنع تسلسل المحدثات بأن يكون للمحدث محدث ، وللمحدث محدث ، إلى غير غاية ، وهذا يسمى تسلسل المؤثرات ، والعلل ، والفاعلية ، وهو ممتنع باتفاق العقلاء ، كما قد بسط في مواضع ، وذكر ما أورد عليه من الإشكالات ، حتى ذكر كلام الآمدي (١) ، والأبهري (٢) مع كلام الرازي وغيرهم .

مع أن هذا بديهي ضروري في العقول ، وتلك الخواطر من وسوسة الشيطان ، ولهذا أمر النبي ﷺ العبد إذا خطر له ذلك أن يستعيذ بالله منه ، وينتهي عنه ، فقال : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ فيقول : الله . فيقول : فمن خلق الله ؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليستعذ بالله ولينته » (٣) .

ومعلوم أن المحدث الواحد لا يحدث إلا بمحدث ، فإذا كثرت الحوادث

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية [وراجع ابن خلكان ١ : ٣٣٩ والسبكي ٥ : ١٣٩ وميزان الاعتدال ١ : ٤٣٩ وشذرات الذهب ٦ : ١٤٤]

(٢) هو محمد بن عبدالله بن محمد بن صالح ، أبو بكر التميمي الأبهري شيخ المالكية في العراق ، سكن بغداد وسئل أن يلي القضاء فامتنع له تصانيف في شرح مذهب مالك والرد على مخالفيه منها « الرد على المزني » ومن كتبه «الأصول» و« اجماع أهل المدينة » و« فضل المدينة على مكة » توفي عام ٣٧٥ هـ [راجع تاريخ بغداد ٥ : ٤٦٢ والوافي بالوفيات ٣ : ٣٠٨ واللباب ١ : ٢٠] .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣ باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه وقوله تعالى ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم ﴾ .
٧٢٩٦ ـ حدثنا ورقاء عن عبدالله بن عبد الرحمن سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ورواه أيضاً في بدء الخلق ١١ ورواه الامام مسلم في إيمان ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ورواه أبو داود في كتاب السنة ١٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٨٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٨٧ ، ٥٣٩ ، ٣ : ١٠٢ ، ٤ : ١٦٦ ، ٦ : ٢٥٧ (حلبي) .

وتسلسلت كان احتياجها إلى المحدث أولى ، وكلها محدثات ، فكلها محتاجة إلى محدث ، وذلك لا يزول إلا بمحدث لا يحتاج إلى غيره ، بل هو قديم أزلي بنفسه سبحانه وتعالى .

وإذا قيل : إن الموجود إما قديم وإما محدث ، والمحدث لا بد له من قديم ، فيلزم وجود القديم على التقديرين ، كان برهاناً صحيحاً ، وكذلك إذا قيل : إما ممكن وإما واجب ، وبين الممكن بأنه محدث كان من هذا الجنس . وأما إذا فسر الممكن بما يتناول القديم ، كما فعل ابن سينا وأتباعه كالرازي ، كان هذا باطلاً ، فإنه على هذا التقدير لا يمكن إثبات الممكن المفتقر إلى الواجب ابتداء ، والدليل لا يتم إلا بإثبات هذا ابتداء ، وإنما يمكن ذلك في أن المحدث لا بد له من محدث، فإن هذا تشهد أفراده وتعلم بالعقل كلياته .

وأما إثبات قديم أزلي ممكن فهذا مما اتفق العقلاء على امتناعه ، وابن سينا وأتباعه وافقوا على امتناعه ، كما ذكروه في المنطق تبعاً لسلفهم ، لكن تناقضوا أولاً ، فسلفهم وهم يقولون : الممكن العاصي والخاصي الذي يمكن وجوده وعدمه لا يكون إلا حادثاً ، لا يكون ضرورياً ، وكل ما كان قديماً أزلياً فهو ضروري عندهم .

وكذلك إذا قيل : الموجود إما أن يكون مخلوقاً وإما أن لا يكون مخلوقاً ، والمخلوق لا بدّ له من موجود غير مخلوق ، فثبت وجود الموجود الذي ليس بمخلوق على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : الموجود إما غني عن غيره وإما فقير إلى غيره ، والفقير المحتاج إلى غيره لا تزول حاجته وفقره إلا بغنى عن غيره ، فيلزم وجود الغني عن غيره على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : الحي إما حي بنفسه وإما حي حياته من غيره ، وما كانت حياته من غيره فذلك الغير أولى بالحياة ، فيكون حياً بنفسه ، فثبت وجود الحي بنفسه على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : العالم إما عالم بنفسه وإما عالم علمه غيره ، ومن علم غيره فهو أولى أن يكون عالماً ، وإذا لم يتعلم من غيره كان عالماً بنفسه ، فثبت وجود العالم بنفسه على التقديرين الحاصرين ، فإنه لا يمكن سوى هذين التقديرين والقسمين .

فإذا كان لا يمكن إلا أحدهما ، وعلى كل تقدير العالم بنفسه موجود ، والحي بنفسه موجود ، والغني بنفسه موجود ، والقديم الواجب بنفسه موجود ، لزم وجوده في نفس الأمر وامتناع عدمه في نفس الأمر وهو المطلوب .

وكذلك إذا قيل : القادر إما قادر بنفسه ، وإما قادر أقدره غيره ، ومن أقدر غيره فهو أولى أن يكون قادراً ، وإن لم تكن قدرته من غيره كانت قدرته من لوازم نفسه ، فثبت وجود القادر بنفسه الذي قدرته من لوازم نفسه ، وعلمه من لوازم نفسه ، وحياته من لوازم نفسه ، على كل تقدير .

وكذلك الحكيم إما أن يكون حكيماً بنفسه ، وإما أن تكون حكمته من غيره ، ومن جعل غيره حكيماً فهو أولى أن يكون حكيماً ، فيلزم وجود الحكيم بنفسه على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : الرحيم إما أن تكون رحمته من نفسه ، وإما أن يكون غيره جعله رحيماً ، ومن جعل غيره رحيماً [ف] - هو أولى أن يكون رحيماً ، وتكون رحمته من لوازم نفسه ، فثبت وجود الرحيم بنفسه الذي رحمته من لوازم نفسه على التقديرين .

وكذلك إذا قيل : الكريم المحسن إما أن يكون كرمه وإحسانه من نفسه ، وإما أن يكون من غيره ، ومن جعل غيره كريماً محسناً فهو أولى أن يكون كريماً محسناً وذلك من لوازم نفسه ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه رأى امرأة من السبي إذا رأت طفلاً أرضعته رحمة له ، فقال : « أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟ » قالوا : لا ، يا رسول الله ! فقال : « لله أرحم بعباده مِن هذه

بولدها » [١] .

فبين أن الله أرحم بعباده من أرحم الوالدات بولدها ، فإنه من جعلها رحيمة أرحم منها .

وهذا مما يدل عليه قوله : ﴿ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [٢] ، وقولنا : « الله أكبر » فإنه سبحانه أرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، وخير الفاتحين ، وخير الناصرين ، وأحسن الخالقين ، وهو نعم الوكيل ، ونعم المولى ونعم النصير .

وهذا يقتضي حمداً مطلقاً على ذلك ، وأنه كافي من توكل عليه ، وأنه يتولى عبده تولياً حسناً ، وينصره نصراً عزيزاً . وذلك يقتضي أنه أفضل وأكمل من كل ما سواه ، كما يدل على ذلك قولنا « الله أكبر » . وكذلك إذا قيل : المتكلم السميع البصير إما أن يكون متكلماً سميعاً بصيراً بنفسه وإما أن يكون غيره جعله سميعاً بصيراً متكلماً ، ومن جعل غيره متكلماً سميعاً بصيراً فهو أولى أن يكون متكلماً سميعاً بصيراً ، وإلا كان المفعول أكمل من الفاعل ، فإن هذه صفات كمال .

وكذلك يقال : العادل إما أن يكون عادلاً بنفسه ، والصادق إما أن يكون صادقاً بنفسه ، وإما أن يكون غيره جعله صادقاً عادلاً ، ومن جعل غيره صادقاً عادلاً فهو أولى أن يكون صادقاً عادلاً . فهذه كلها طرق صحيحة بينة .

فإن قيل : يعارض هذا بأن يقال : من جعل غيره ظالماً أو كاذباً ، فهو أيضاً ظالم كاذب ، وأهل السنة يقولون إنه جعل غيره كذلك وليس هو كذلك ـ سبحانه ، قيل : هذا باطل من وجهين .

أحدها : أنه ليس كل من جعل غيره على صفة ـ أي صفة كانت ـ كان

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب التوبة ، حدثني الحسن بن علي الحلواني ، ومحمد بن سهل التميمي (واللفظ لحسن) حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا أبو غسان ، حدثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب ـ أنه قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ بسبي وذكره .

(٢) سورة العلق آية رقم ٣ .

متصفاً بها ، بل من جعل غيره على صفة من صفات الكمال فهو أولى بـاتصافـه بصفة الكمال من مفعوله .

وأما صفات النقص فلا يلزم إذا جعل الجاعل غيـره ناقصـاً أن يكون هـو ناقصاً . فالقادر يقـدر أن يعجز غيـره ولا يكون عـاجزاً ، والحي يمكنـه أن يقتل غيـره ويميته ولا يكـون ميتاً ، والعـالم يمكنه أن يجهـل غيره ولا يكـون جاهـلاً ، والسميع والبصير والناطق يمكنه أن يعمي غيره ، ويصمه ، ويخرسه ، ولا يكون هو كذلك .

فلا يلزم حينئذ أن من جعل غيره ظالماً وكاذباً أن يكـون كاذبـاً وظالمـاً لأن هذه صفة نقص .

فإن قيل : الكاذب والظالم قد يلزم غيره بالصدق والعدل أحيانـاً ، قيل : هو لم يجعله صادقاً وعالماً وإنما أمره بذلـك ، وهو فعله ذلـك بنفسه ، ولم نقـل : كل من أمر غيره بشيء كان متصفاً بما أمر به غيره .

الثـاني : أن الظلم أمـر نسبي إضافي ، فمن أمـر غيـره أن يقتـل شخصـاً فقتله هذا القاتل من غير جرم يعلمه كان ظالماً ، وإن كان ذلك الآمر إنما أمره به لكونه قـد قتل أبـاه ، والمأمـور لم يفعله لذلـك ، فلو فعله بطريق النيـابة لم يكن ظالماً ، فإن كان له معه غرض فقتله ظلماً ، ولكن الآمر كان مستحقاً لقتله .

وكذلك من أمر غيره بما هو كـذب من المأمـور ، كأمـر يوسف للمؤذن أن يقول : ﴿ أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُـونَ ﴾ [1] يوسف عليـه السلام قصـد : إنكم لسارقون يوسف من أبيه ، وهو صادق في هذا ، والمأمور قصد : إنكم لسارقون الصواع ، وهو يـظن أنهم سرقـوه ـ فلم يكن متعمداً للكـذب ، وإن كان خبـره كذباً .

---

(1) سورة يوسف آية رقم ٧٠ وصدر الآية ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحـل أخيه ثم أذن مؤذن ﴾ .

والرب تعالى لا تقاس أفعاله بأفعال عباده ، فهو يخلق جميع ما يخلقه لحكمة ومصلحة ، وإن كان بعض ما خلقه فيه قبح ، كما يخلق الأعيان الخبيثة ـ كالنجاسات وكالشياطين ـ لحكمة راجحة ـ وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دلائل إثبات الرب كثيرة جداً ، وهؤلاء الذين يزعمون أن المعقول يعارض خبر الرسول ـ الذين يقولون إنهم أثبتوا واجب الوجود ، أو القديم ، أو الصانع ـ هم لم يثبتوه ، بل حججهم تقتضي نفيه وتعطيله ، فهم نافون له ، لا مثبتون له ، وحججهم باطلة في العقل ، لا صحيحة في العقل .

والمعرفة بالله ليست موقوفة على أصولهم ، بل تمام المعرفة موقوف على العلم بفساد أصولهم ، وإن سموها « أصول العلم والدين » فهي « أصول الجهل وأصول دين الشيطان لا دين الرحمن » وحقيقة كلامهم « ترتيب الأصول في مخالفة الرسول والمعقول » كما قال أصحاب النار : ﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ (١) ، فمن خالف الرسول فقد خالف السمع والعقل ـ خالف الأدلة السمعية والعقلية . أما القائلون بواجب الوجود ، فقد بينا في غير موضع أنهم لم يقيموا دليلاً على واجب الوجود .

وأن الرازي لما تبع ابن سينا لم يكن في كتبه إثبات واجب الوجود . فإنهم جعلوا وجوده موقوفاً على إثبات « الممكن » الذي يدخل فيه القديم ، فما بقي يمكن إثبات واجب الوجود على طريقهم إلا بإثبات ممكن قديم ، وهذا ممتنع في بديهة العقل واتفاق العقلاء ، فكان طريقهم موقوفاً على مقدمة طالبة في صريح العقل ، وقد اتفق العقلاء على بطلانها ، فبطل دليلهم ، ولهذا كان كلامهم في « الممكن » مضطرباً غاية الاضطراب .

ولكن أمكنهم أن يستدلوا على أن المحدث لا بد له من قديم ، وهو واجب الوجود . ولكن قد أثبتوا قديماً ليس بواجب الوجود ، فصار ما أثبتوه من

---

(١) سورة الملك آية رقم ١٠ .

القديم يناقض أن يكون هو رب العالمين ، إذ أثبتوا قديماً ينقسم إلى واجب ، وإلى غير واجب .

وأيضاً فالواجب الذي أثبتوه قالوا : إنه يمتنع اتصافه بصفة ثبوتية ، وهذا ممتنع الوجوب ، لا ممكن الوجوب ، فضلاً عن أن يكون واجب الوجود ، كما قد بسط هذا في مواضع . وبين أن الواجب الذي يدعونه يقولون إنه لا يكون صفة ولا موصوفاً البتة ، وهذا إنما يتخيل في الأذهان لا حقيقة له في الأعيان .

والواجب إذا فسر بمبدع الممكنات فهو حق ، وهو اسم للذات المتصفة بصفاتها ، وإذا فسر بالموجود بنفسه الذي لا فاعل له فالذات واجبة والصفات واجبة ، وإذا فسر بما لا فاعل له ولا محدث فالذات واجبة والصفات ليست واجبة ، وإذا فسر بما ليس صفة ولا موصوفاً فهذا باطل لا حقيقة له ، بل هو ممتنع الوجود ، لا ممكن الوجود ، ولا واجب الوجود ، وكلما أمعنوا في تجريده عن الصفات كانوا أشد إيغالاً في التعطيل ، كما قد بسط في مواضع .

وأما الذين قالوا إنهم أثبتوا القديم ، من الجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم من الأشعرية والكرامية الذين استدلوا بحدوث الأعراض ولزومها للأجسام ، وامتناع حوادث لا أول لها ، على حدوث الأجسام ، فهؤلاء لم يثبتوا الصانع لما عرف من فساد هذا الدليل حيث ادعوا امتناع كون الرب متكلماً بمشيئته أو فعالاً لما يشاء ، بل حقيقة قولهم امتناع كونه لم يزل قادراً ، وأدلتهم على هذا الامتناع قد ذكرت مستوفاة في غير هذا الموضع ، وذكر كلامهم هم في بيان بطلانها .

وأما كونهم عطلوا الخالق فلأن حقيقة قولهم أن من لم يزل متكلماً بمشيئته فهو محدث ، فيلزم أن يكون الرب محدثاً ، لا قديماً ، بل حقيقة أصلهم أن ما قامت به الصفات والأفعال فهو محدث ، وكل موجود فلا بدّ له من ذلك ، فيلزم أن يكون كل موجود محدثاً ، ولهذا صرح أئمة هذا الطريق ـ الجهمية والمعتزلة ـ بنفي صفات الرب ، وبنفي قيام الأفعال وسائر الأمور الاختيارية بذاته ، إذ هذا

موجب دليلهم ، وهذه الصفـات لازمة لـه ، ونفي اللازم يقتضي نفي الملزوم ، فكان حقيقة قولهم نفي الرب وتعطيله .

وهم يسمـون الصفات أعـراضاً ، والأفعـال ونحوهـا حوادث ، فقـالوا : الـرب ينزه عن أن تقـوم به الأعـراض والحوادث ، فـإن ذلك مستلزم أن يكـون جسماً . قالوا : وقد أقمنا الدليل على حـدوث كل جسم ، فـإن الجسم لا ينفك من الأعراض المحدثـة ولا يسبقها ، ومـا لم ينفك عن الحـوادث ولم يسبقها فهـو حادث .

وقـد قامت الأدلـة السمعية والعقليـة على مـذهب السلف ، وأن الرب لم يـزل متكلماً إذا شاء ، فيلزم عـلى قولهم أنـه لم يسبق الحوادث ولم ينفـك عنهـا . ويجب على قولهم [كونه] حادثاً .

فالأصل الذي أثبتوا بـه القديم هـو نفسه يقتضي أنـه ليس بقديم ، وأنـه ليس في الوجود قديم ، كما أن أولئك أصلهم يقتضي أنه ليس بـواجب بذاتـه ، وأنه ليس في الوجود واجب بذاته .

والطريق التي قالوا بها يثبت الصانع مناقضة لاثبات الصانع ، وإذا قالوا : لا يمكن العلم بـالصانـع إلا بها ، كـان الحق أن يقال : بـل لا يمكن تمام العلم بالصانع إلا مع العلم بفسادها .

ولهذا كان كل من أقر بصحتها قد كذب بعض ما أخبر به الرسول ممـا هو من لوازم الرب ، ونفي اللازم يقتضي نفي الملزوم .

والـذين زعموا أنهم يحتجـون به عـلى حدوث الأجسـام من جنس ما زعم أولئـك أنهم يحتجون بـه على إمكـان الأجسام ، وكـل منهـما بـاطـل ، ومقتضـاه حدوث كل موجود وإمكان كل موجود ، وأنـه ليس في الوجـود قديم ولا واجب بنفسه .

فأصولهم تناقض مطلوبهم ، وهي طريقة مضلة ،لا هادية ، لكن كـما قال

الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [1] .

وأما الذين يقولون : نثبت الصانع والخالق ، ويقولون : إنا نسلك غير هذه الطريق ، كالاستدلال بحدوث الصفات على الرب، فإن هذه تدل عليه من غير احتياج إلى ما التزمه أولئك ، والرازي قد ذكر هذه الطريق .

وأما الأشعري نفسه فلم يستدل بها . بل « في اللمع » ، و« رسالته إلى الثغر » استدل بالحوادث على حدوث ما قامت به ، كما ذكره في النطفة بناء على امتناع حوادث لا أول لها ، ثم جعل حدوث تلك الجواهر التي ذكر أنه دل على حدوثها هو الدليل على ثبوت الصانع وهذه الطريق باطلة ، كما قد بيّن .

وأما تلك فهي صحيحة ، لكن أفسدوها من جهة كونهم جعلوا الحوادث المشهود لهم حدوثها هي الأعراض فقط ، كما قد بينا هذا في مواضع . ثم يقال : هؤلاء يثبتون خالقاً لا خلق له ، وهذا ممتنع في بداية العقول ، فلم يثبتوا خالقاً .

والكرامية ، وإن كانوا يقولون : الخلق غير المخلوق ، فهم يقولون بحدوث الخلق بلا سبب يوجب حدوثه ، وهذا أيضاً ممتنع ، فما أثبتوا خالقاً .

وأيضاً فهؤلاء وهؤلاء يقولون : الموجب للتخصيص بحدوث ما حدث دون غيره هو إرادة قديمة أزلية ، فالكرامية يقولون : هي المخصص لما قام به وما خلقه ، وهؤلاء عندهم لم يقم به شيء يكون مراداً ، بل يقولون : هي المخصص لما حدث .

والطائفتان ومن وافقهم يقولون : تلك الإرادة قديمة أزلية لم يزل على نعت واحد ، ثم وجدت الحوادث بلا سبب أصلاً . ويقولون : من شأنها أن تخصص مثلاً على مثل ، ومن شأنها أن تتقدم على المراد تقدماً لا أول له ، فوصفوا

---

(1) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

الإرادة بثلاث صفات باطلة يعلم بصريح العقل أن الإرادة لا تكون هكذا ، وهي المقتضية للخلق والحدوث ، فإذا أثبتت فلا خلق ولا حدوث .

وكذلك القدرة التي أثبتوها وصفوها بما يمتنع أن يكون قدرة ، وهي شرط في الخلق ، فإذا نفوا شرط الخلق ، انتفى الخلق ، فلم يبق خالقاً ، فالذي وصفوا به الخالق يناقض كونه خالقاً ، ليس بلازم لكونها خالقاً ، وهم جعلوه لازماً . لا مناقضاً .

أما الإرادة فذكروا لها ثلاثة لوازم ، والثلاثة تناقض الإرادة . قالوا إنها تكون ولا مراد لها ، بل لم يزل كذلك ثم حدث مرادها من غير تحول حالها ، وهذا معلوم الفساد ببديهة العقل ، فإن الفاعل إذا أراد أن يفعل فالمتقدم كان عزماً على الفعل ، وقصدا له في الزمن المستقبل لم يكن إرادة للفعل في الحال ، بل إذا فعل فلا بد من إرادة الفعل في الحال ، ولهذا يقال : الماضي عزم ، والمقارن قصد ، فوجود الفعل بمجرد عزم من غير أن يتجدد قصد من الفاعل ممتنع . فكان حصول المخلوقات بهذه الإرادة ممتنعاً لو قدر إمكان حدوث الحوادث بلا سبب ، فكيف وذاك أيضاً ممتنع في نفسه ؟ فصار الامتناع من جهة الإرادة ، ومن جهة تعينت بما هو ممتنع في نفسه .

الثاني : قولهم أن الإرادة ترجح مثلاً على مثل : فهذا مكابرة ، بل لا تكون الإرادة إلا لما ترجح وجوده على عدمه عند الفاعل ، إما لعلمه بأنه أفضل ، أو لكون محبته له أقوى ، وهو إنما يترجح في العلم لكون عاقبته أفضل ، فلا يفعل أحد شيئاً بإرادته إلا لكونه يحب المراد ، أو يحب ما يؤ ول إليه المراد بحيث يكون وجود ذلك المراد أحب إليه من عدمه ، لا يكون وجوده وعدمه عنده سواء .

الثالث : أن الإرادة الجازمة يتخلف عنها مرادها مع القدرة : فهذا أيضاً باطل . بل متى حصلت القدرة التامة والإرادة الجازمة وجب وجود المقدور وحيث لا يجب فإنما هو لنقص القدرة أو لعدم الإرادة التامة . والرب تعالى ما

شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وهو يخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أموراً لم يفعلها ، كما قال : ﴿وَلَو شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ (١) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ (٣) . فبين أنه لو شاء ذلك لكان قادراً عليه ، لكنه لا يفعله لأنه لم يشأه، إذ كان عدم مشيئته أرجح في الحكمة مع كونه قادراً عليه لو شاءه .

وقد بسط الكلام على ما يذكرونه في القدرة والإرادة ـ هم وغيرهم ـ في غير هذا الموضع ، وأن من هؤلاء من يقول : إنما يقدر على الأمور المباينة له دون الأفعال القائمة بنفسه ، كما يقول ذلك المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم . ومنهم من يقول : بل يقدر على ما يقوم به من الأفعال ، وعلى ما هو باين عنه ، كما يحكى عن الكرامية . والصواب الذي دل عليه القرآن والعقل أنه يقدر على هذا وهذا قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ (٥) وقال ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ (٦) وقال ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (٧) وهذا كثير في القرآن ـ أكثر من النوع الآخر .

فإن ما قاله الكرامية والهشامية أقرب إلى العقل والنقل مما قالت

(١) سورة السجدة آية رقم ١٣ .

(٢) سورة هود آية رقم ١١٨ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣ وتكملة الآية ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ .

(٤) سورة القيامة آية رقم ٤ .

(٥) سورة القيامة آية رقم ٤٠ .

(٦) سورة يس آية رقم ٨١ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المخطوطة حيث ذكرت ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ .

(٧) سورة المؤمنون آية رقم ١٨ .

الجهمية ومن وافقهم ، وإن كان فيما حكوه عنهم خطأ من جهة نفيهم القدرة على الأمور المباينة .

والله تعالى قد أخبر أنه على كل شيء قدير ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأبي مسعود لما رآه يضرب غلامه : « لله أقدر عليك منك على هذا » . وفي القرآن : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ (١) وبسط هذا له مواضع أخر .

فجميع ما أخبر به الرسول ﷺ هو لازم في نفس الأمر ، وكل ما أثبته من صفات الرب فهو لازم ، وإذا قدر عدمه لزم عدم الملزوم ، فنفي ما أخبر به الرسول مستلزم للتعطيل . لكن من ذلك ما يظهر بالعقل مع تفاوت الناس في العقل ، ومنه ما يكفي فيه مجرد خبر الرسول ، فإن ما أخبر به الرسول فهو حق . وكل ما أثبت للرب فهو لازم الثبوت ، وما انتفى عنه فهو لازم الانتفاء فإذا قدر عدم اللازم لزم عدم الملزوم .

لكن هذا كله لازم المذهب ، وهو يدل على بطلانه ، ولازم المذهب لا يجب أن يكون مذهباً، بل أكثر الناس يقولون أقوالاً ولا يلتزمون لوازمها ، فلا يلزم إذا قال القائل ما يستلزم التعطيل أن يكون معتقداً للتعطيل ، بل يكون معتقداً للإثبات ، ولكن لا يعرف ذلك اللزوم وأيضاً فإذا كانت أصولهم التي بنوا عليها إثبات الصانع باطلة لم يلزم أن يكونوا هم غير مقرين بالصانع ، وإن كان هذا لازماً من قولهم . إذا قالوا : إنه لا يعرف إلا بهذه الطريق ، وقد ظهر فساده ، لزم أن لا يعرف ، لكن هذا اللزوم يدل على فساد هذا النفي ، ولا يلزم أن لا يكونوا هم مقرين بالصانع لما قد بيناه في غير موضع أن الإقرار بالصانع ، ومعرفته ، ومحبته ، وتوحيده فطري ، يكون ثابتاً في قلب الإنسان ، وهو يظن أنه ليس في قلبه .

ولهذا كان عامة هؤلاء مقرين بالصانع ، معترفين به ، قبل أن يسلكوا

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٤١ ـ ٤٢ .

هذه الطريق النظرية ، سواء كانت صحيحة أو باطلة، وهذا أمر يعرفونه من أنفسهم ، فعلم أنه لا يلزم من عدم سلوك هذه الطريق عدم المعرفة وقد اعترف كثير منهم بذلك ، كما قد بيناه في مواضع .

ومنهم من يقول : إن الطريق النظرية التي يسلكها زادته بصيرة وعلماً ، كما يقوله ابن حزم (1) وغيره ، وهو سلك طريقة الأعراض .

وكثير من الناس يقول : إن هذه الطريق لم تفدهم إلا شكاً وريباً وفطرة هؤلاء أصح ، فإنها طرق فاسدة .

ومنهم من يقول : لم يحصل لي بها شيء ـ لا علم ولا شك ، وذلك أنها لم تحصل له علماً ولا شَكّاً ، فلم يتبين له صحتها ولا فسادها . ومن الناس من لا يفهم مرادهم بها ، وأكثر أتباعهم لا يفهمونها ، بل يتبعونهم تقليداً وإحساناً للظن بهم .

---

(1) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الإسلام ، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه يقال لهم « الحزمية » ولد بقرطبة عام ٣٨٤ وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة من مصنفاته (الفصل في الملك والأهواء والنحل) و(جمهرة الأنساب) والناسخ والمنسوخ وغير ذلك كثير توفي عام ٤٥٦ هـ . [راجع نفح الطيب ١ : ٣٦٤ وأخبار الحكماء ١٥٦ وإرشاد الأريب ٥ : ٨٦ ـ ٩٧ ولسان الميزان ٤ : ١٩٨ وبغية الملتمس ٤٠٣ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ١٣٦ ـ ١٤٤]

فصل
لوازم القدرة والمشيئة

ومما ينبغي أن يعرف أنـا لا نقول إن الشيء لا يعـرف إلا بإثبـات جميع لوازمه ، هذا لا يقوله عاقل ، بل قد تعرف عـامة الأشيـاء وكثير من لـوازمها لا تعـرف ، وقد يعلم المسلمـون أن الرب على كـل شيء قديـر ، وأنه يفعـل ما يشاء ، وهم لا يعرفون كثيراً من لوازم القدرة والمشيئـة ، لكن أهل الاستقـامة كما لا يعرفون اللوازم فلا ينفونها ، فإن نفيها خطأ .

وأما عدم العلم بها كلها فهـذا لازم لجميع النـاس ـ فسبحان من أحـاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ومـا سواه ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** ﴾ (١) وهو سبحانه ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً** ﴾ (٢) .

ولكن المقصود بيان أن المخالفين للرسول ﷺ ـ ولو في كلمة ـ لا بد أن يكون في قولهم من الخطأ بحسب ذلك . وأن الأدلة العقلية والسمعية المنقولة عن سائر الأنبياء توافق ما جاء به الرسـول ﷺ ، وتناقض مـا يقولـه أهل البـدع المخالفون للكتاب والسنة ، وإذا قالوا : إن العقل يخالف النقـل . أخطأوا في

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ وقد جاءت محرفة في المطبوعة حيث ذكرت ﴿ **لا يحيطون** ﴾ بـدون الواو .

(٢) سورة طه آية رقم ١١٠ .

خمسة أصول : أحدها : أن العقل الصريح لا يناقضه ، الثاني : أنه يوافقه . الثالث : أن ما يدعونه من العقل المعارض ليس بصحيح - الرابع : أن ما ذكروه من المعقول المعارض هو المعارض للمعقول الصريح . الخامس : أن ما أثبتوا به الأصول كمعرفة الباري وصفاته لا يثبتها بل يناقض إثباتها .

فصل

علم الله تعالى وأخباره به

وذلك أن ما جاء به الرسول هو من علم الله ، فما أخبر به عن الله ، فالله أخبر به ، وهو سبحانه يخبر بعلمه - يمتنع أن يخبر بنقيض علمه وما أمر به فهو من حكم الله ، والله عليم حكيم .

قال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ . قال الزجاج (٣) : أنزله وفيه علمه ، وقال أبو سليمان الدمشقي : أنزله من علمه ، وهكذا ذكر غيرهما .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٣ - ١٤ .

(٣) هو ابراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق الزجاج عالم بالنحو واللغة ولد عام ٢٤١ هـ ومات عام ٣١١ ببغداد كانت له مناقشات مع ثعلب وغيره من كتبه (معاني القرآن) (الاشتقاق) و(خلق القرآن) وغير ذلك كثير . [راجع معجم الأدباء ١ : ٤٧ وآداب اللغة ٢ : ١٨١ وتاريخ بغداد ٦ : ٨٩ وابن خلكان ١ : ١١]

وهـذا المعنى مأثـور عن السلف ؛ كما روى ابن أبي حـاتم عن عـطاء بـن السـائب قال : أقـرأني أبو عبـد الرحمن القـرآن . وكان إذا أقـرأ أحدنـا القـرآن قال : قد أخذت علم الله ، فليس أحد اليوم أفضل منـك إلا بعمل ، ثم يقـرأ ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً ﴾[1] .

وكـذلك قـالوا في قـوله تعـالى : ﴿ فَاعْلَمُـوا أَنَّمَـا أُنـزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾[2]، قالوا : أنزله وفيه علمه .

« قلت » : الباء قد تكون للمصاحبـة ، كما تقـول : جاء بـأسياده وأولاده فقد أنزلـه متضمناً لعلمـه ، مستصحباً لعلمـه ، فما فيـه من الخبر هـو خبر بعلم الله ، وما فيه من الأمر فهو أمـر بعلم الله ، بخلاف الكـلام المنزل من عنـد غير الله ، فإن ذلك قد يكون كذباً وظلماً كقرآن مسيلمة ، وقد يكون صدقاً لكن إنما فيـه علم المخلوق الذي قـالـه فقط ، لم يـدل عـلى علم الله تعـالى إلا من جهـة اللزوم . وهو أن الحق يعلمه الله .

وأمـا القرآن فهـو متضمن لعلم الله ابتـداء ، فـإنمـا أنـزل بعلمـه لا بعلم غيره ، ولا هو كلام بلا علم .

وإذا كـان قـد أنـزل بعلمـه فهـو يقتضي أنـه حق من الله ، ويقتضي أن الرسول رسول من الله الـذي بين فيه علمه ، قال الزجاج : « الشاهد » المبين لما شهد به ، والله يبين ذلك ويعلم مع ذلك أنه حق .

« قلت » : قوله : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ ﴾[3] شهادتـه هو بيـانه وإظهـاره ـ دلالته وإخباره ، فالآيات البينات التي بين بها صدق الـرسول تـدل عليه ـ ومنهـا القرآن ـ هو شهادة بالقول .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .
(٢) سورة هود آية رقم ١٤ .
(٣) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

وهـو في نفسه آيـة ومعجزة تـدل على الصـدق كما تـدل سـائر الآيـات ، والآيات كلها شهـادة من الله ، كشهادة بـالقول ، وقـد تكون أبلغ . ولهـذا ذكر هذا في سورة هود لما تحداهم بالإتيـان بالمثـل فقال : ﴿ **فَـأْتُوا بِعَشْـرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَـإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَـلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ (١) فإن عجز أولئـك عن المعارضـة دل على عجـز غيرهم بـطريق الأولى ، وتبين أن جميـع الخلق عاجـزون عن معارضتـه ، وأنه آيـة بينة تـدل على الـرسـالـة وعـلى التوحيد .

وكذلك قوله : ﴿ **لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ** ﴾ (٢) . [بعـد] قولـه : ﴿ **إِنَّـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ** ـ إلى قـولـه ـ **لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَـلَى اللهِ حُجَّـةٌ بَعْـدَ الرُّسُلِ** ﴾ (٣) وقد ذكروا أن من الكفار من قال : لا نشهـد لمحمد بـالرسـالة ، فقـال تعالى : ﴿ **لَكِنِ اللهُ يَشْهَـدُ بِمَا أَنْـزَلَ إِلَيْكَ** ﴾ (٤) وأحسن من هـذا أنـه لما قال : ﴿ **لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُـلِ** ﴾ (٥) ـ نفى حجة الخلق على الخالق ـ فقال : لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادتـه بالـرسالـة ، فإنـه يشهـد بما أنـزل إليك أنـزله بعلمـه فما للخلق عـلى الله حجـة ، بـل لـه الحجـة البالغة ، وهو الذي هدى عباده بما أنزله .

وعلى ما تقدم فقوله ﴿ **أنزله بعلمه** ﴾ أي فيه علمه بمـا كان وسيكـون وما أخبر به ، وهو أيضاً مما يدل على أنه حق ، فإنه إذا أخبر بالغيب الـذي لا يعلمه إلا الله دل على أن الله أخبره به ، كقولـه : ﴿ **عَالِمُ الغَيْبِ فَـلَا يُظْهِـرُ عَلَىٰ غَيْبِـهِ**

---

(١) سورة هود آية رقم ١٣ ـ ١٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٦٣ ـ ١٦٥

(٤) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٥) سورة النساء آية رقم ١٦٥ .

أَحداً ، إلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَسُولٍ ﴾[1] ـ الآية . وقد قيل : أنزله وهو عالم به وبك ـ قال ابن جرير الطبري في آية النساء : أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه .

وذكر الزجاج في آية هود قولين : أحدهما : أنزله وهو عالم بإنزاله ، وعالم أنه حق من عنده ، الثاني : أنه أنزله بما أخبر فيه من الغيوب ، ودل على ما سيكون وما سلف .

« قلت » : هذا الوجه هو الذي تقدم .

وأما الأول فهو من جنس قول ابن جرير ، فإنه عالم به وبمن أنزل إليه ، وعالم بأنه حق ، وأن الذي أنزل عليه أهل لما اصطفاه الله له . ولكون هذا كقوله : ﴿ **وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾[2] وقول من قال ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾[3] أي على علم من الله باستحقاقي . « قلت » وهذا الوجه يدخل في معنى الأول فإنه إذا نزل الكلام بعلم الرب تضمن أن كل ما فيه فهو من علمه ، وفيه الإخبار بحاله وحال الرسول ، وهذا الوجه هو الصواب ، وعليه الأكثرون ، ومنهم من لم يذكر غيره .

والأول وإن كان معناه صحيحاً فهو جزء من هذا الوجه .

وأما كون الثاني هو المراد بالآية فغلط ، لأن كون الرب سبحانه يعلم الشيء لا يدل على أنه محمود ولا مذموم . وهو سبحانه بكل شيء عليم ، فلا يقول أحد إنه أنزله وهو لا يعلمه .

لكن قد يظن أنه أنزل بغير علمه ، أي وليس فيه علمه ، وأنه من تنزيل الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ**

---

(١) سورة الجن آية رقم ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة الدخان آية رقم ٣٢ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٧٨ .

﴿ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [1] والشياطين ، هو يرسلهم وينزلهم ، لكن الكلام الذي يأتون به ليس منزلاً منه ، ولا هو منزل بعلم الله ، بل منزل بما تقوله الشياطين من كذب وغيره .

ولهذا هو سبحانه إذا ذكر نزول القرآن قيده بأن نزوله منه كقوله : : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ ﴾ [2] ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ [3] ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ [4] . وهذا مما استدل به الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة على أن القرآن كلام الله ـ ليس بمخلوق خلقه في محل غيره ، فإنه كان يكون منزلاً من ذلك المحل لا من الله ، وقال إنه نزل بعلم الله ، وإنه من علم الله ، وعلم الله غير مخلوق .

وقال أحمد : كلام الله من الله ليس شيئاً منه ، ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . فقالوا : منه بدأ لم يبدأ من غيره ، كما تقول الجهمية . يقولون : بدأ من المحل الذي خلق فيه ، وهذا مبسوط في مواضع . والمقصود أنه إذا كان فيه علمه فهو حق ، والكلام الذي يعارضه به خلاف علم الله فهو باطل ، كالشرك الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَواتِ ولا فِي الأَرْضِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5] .

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ ـ ٢٢٢ .
(٢) سورة الزمر آية رقم ١ وتكملة الآية ﴿ العزيز الحكيم ﴾ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .
(٤) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .
(٥) سورة يونس آية رقم ١٨ .

فصل

أصول الدين تأخذ من الكتاب والسنة

وهـذا الذي ذكـرته من أنـه يجب الرجـوع في أصـول الـدين إلى الكتـاب والسنـة ، كما بينتـه من أن الكتاب بـين الأدلة العقليـة التي بهـا تعـرف المطالب الإلهية ، وبين ما يدل على صدق الرسول في كل ما يقوله هو - يظهر الحق بأدلتـه السمعية والعقلية .

وبين أن لفظ « العقل والسمـع » قد صـار لفظاً مجمـلاً ، فكل من وضـع شيئاً برأيه سماه « عقليات » والآخر يبين خطأه فيما قاله ، ويدعى العقـل أيضاً، ويذكر أشياء أخر تكون أيضاً خطأ ، كما قد بسط في مواضع .

وهو نظير من يحتج في السمع بأحاديث ضعيفة أو موضـوعة، أو نصـوص ثابتة لكن لا تدل على مطلوبه .

وكثير من أهل الكلام يجعل دلالة القرآن والأحاديث من جهة الخبر المجرد ومعلوم أن ذلك لا يوجب العلم إلا بعد العلم بصدق المخبر ، فلهذا يضـطرون إلى أن يجعلوا العلوم العقلية أصلاً ، كما يفعل أبو المعالي[١] ، وأبو حامـد [٢] ، والرازي [٣] ، وغيرهم .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وأئمة المتكلمين يعترفون بأن القرآن بين الأدلة العقلية ، كما يذكر ذلك الأشعري وغيره ، وعبد الجبار [1] بن أحمد وغيره من المعتزلة .

ثم هؤلاء قد يذكرون أدلة يجعلونها أدلة القرآن ، ولا تكون هي إياها ، كما فعل الأشعري في « اللمع » [2] وغيره ، حيث احتج بخلق الإنسان ، وذكر قوله : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ** ﴾ [3] . لكن هو يظن أن النطفة فيها جواهر باقية ، وأن نقلها في الأعراض يدل على حدوثها ، فاستدل على حدوث جواهر النطفة .

وليست هذه طريقة القرآن ، ولا جمهور العقلاء ، بل يعرفون أن النطفة حادثة بعد أن لم تكن ، مستحيلة عن دم الإنسان ، وهي مستحيلة إلى المضغة ، وأن الله يخلق هذا الجوهر الثاني من المادة الأولى بالاستحالة ويعدم المادة الأولى - لا تبقى جواهرها بأعيانها دائماً ، كما تقدم .

فالنظار - في القرآن ثلاث درجات ، منهم من يعرض عن دلائله العقلية ، ومنهم من يقر بها لكن يغلط في فهمها ، ومنهم من يعرفها على وجهها ، كما أنهم ثلاث طبقات في دلالته الخبرية ، منهم من يقول لم يدل على الصفات الخبرية ، ومنهم من يستدل به على غير ما دل عليه ومنهم من يستدل به على ما دل عليه . والأشعري وأمثاله برزخ بين السلف والجهمية ، أخذوا من هؤلاء كلاماً صحيحاً ، ومن هؤلاء أصولاً عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة . فمن الناس

---

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني أبو الحسين قاض أصولي ، كان شيخ المعتزلة في عصره وهم يقلبونه قاضي القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره ، ولي القضاء بالري ومات بها عام ٤١٥ هـ .
له تصانيف كثيرة منها (تنزيه القرآن عن المطاعن) والمجموع في المحيط بالتكليف ، وشرح الأصول الخمسة ، والمغني في أبواب التوحيد والعدل وغير ذلك كثير . [راجع الرسالة المستطرفة ١٢٠ والسبكي ٣ : ١١٦ ولسان الميزان ٣ : ٣٨٦ وتاريخ بغداد ١١ : ١١٣] .

(٢) قام بتحقيقه الشيخ حموده غرابة أحد علماء الأزهر وقام بطبعه مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر .

(٣) سورة الواقعة آية رقم ٥٨ - ٥٩ .

من مـال إليه من الجهـة السلفية ، ومن النـاس من مال إليـه من الجهة البـدعية الجهمية كأبي المعالي وأتباعه ، ومنهم من سلك مسلكهم كأئمـة أصحابهم ، كـما قد بسط في مواضع . إذا المقصود هنا أن جعل القـرآن إمامـاً يؤتم به في أصـول الـدين وفروعـه هـو دين الإسـلام ، وهـو طـريقـة الصحـابـة ، والتـابعـين لهم بـإحسان ، وأئمـة المسلمين ، فلم يكن هؤلاء يقبلون من أحـد قط أن يعـارض القـرآن بمعقول أو رأي يقـدمه عـلى القرآن ، ولكن إذا عـرض للإنسـان إشكال سـأل حتى يتبين لـه الصواب . ولهـذا صنف الإمام أحمـد كتابـاً في « الـرد عـلى الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله » [(١)] .

ولهـذا كان الأئمـة الأربعة وغيـرهم يرجعـون في التـوحيـد والصفـات إلى القرآن والرسول ـ لا إلى رأي أحد ، ولا معقوله ، ولا قياسه .

قـال الأوزاعي [(٢)] : كنا ـ والتـابعـون متـوافـرون ـ نقـول : إن الله فـوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث .

وقال الشافعي في خطبة « الرسالة » [(٣)] الحمد لله الـذي هو كـما وصف به نفسه ، وفوق ما يصفه به خلقه .

وقال مالـك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهـول ، والإيمان بـه واجب ، والسؤال عنه بدعـة ، وكان يكـره ما أحـدث من الكلام ، وروي عنـه وعن أبي يوسف [(٤)] : من طلب الدين بالكلام تزندق .

---

(١) قمنا بتحقيق هذا الكتاب والتقديم له وقامت بطبعه دار اللواء بالرياض .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) قام بتحقيقه وتخريج أحاديثه فضيلة الشيخ أحمد محمود شاكر .

(٤) هـو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري الكـوفي البغدادي أبـو يوسف صـاحب الامـام أبي حنيفـة وتلميذه ، وأول من نشـر مذهبـه توفي عـام ١٨٢ . [راجع مفتـاح السعـادة ٢ : ١٠٠ - =

وقال الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في الأسواق ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام ، وقال : لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما كنت أظنه ، ولأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له [من] أن يبتلى بالكلام .

وقد بسط تفسير كلامه وكلام غيره في مواضع ، وبين أن مرادهم بالكلام هو كلام الجهمية الذي نفوا به الصفات ، وزعموا أنهم يثبتون به حدوث العالم ، وهي طريقة الأعراض .

وقال أحمد أيضاً : علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح ، وكلام عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون [1] مبسوط في هذا . وذكر أصحاب أبي حنيفة ، عن أبي يوسف ، عن أبي حنيفة قال : لا ينبغي لأحد أن ينطق في الله بشيء من رأيه ولكنه يصفه بما وصف به نفسه .

وقال أبو حنيفة : أتانا من خراسان ضيفان . كلاهما ضالان : الجهمية والمشبهة .

وعن أبي عصمة قال : سألت أبا حنيفة : من أهل الجماعة ؟ قال : من فضل أبا بكر وعمر ، وأحب علياً وعثمان ، ولم يحرم نبيذ الجر ، ولم يكفر أحداً بذنب ، ورأى المسح على الخفين ، وآمن بالقدر خيره وشره من الله ، ولم ينطق في الله بشيء .

وروى خالد بن صبيح ، عن أبي حنيفة قال : الجماعة سبعة أشياء : أن

---

١٠٧ وابن النديم ٢٠٣ وأخبار القضاة لوكيع ٣ : ٢٥٤ ، والنجوم الزاهرة ٢ : ١٠٧ والبداية والنهاية ١٠ : ١٨٠ والجواهر المضيئة ٢ : ٢٢٠ وتاريخ بغداد ١٤ : ٢٤٢ وابن خلكان ٢ : ٣٠٣]

(١) هو عبد العزيز بن عبدالله بن أبي سلمة التيمي ، مولاهم المدني أبو عبدالله فقيه ، من حفاظ الحديث الثقات ، له تصانيف كان وقوراً عاقلاً ثقة ، أصله من أصبهان نزل المدينة ثم قصد بغداد فتوفي فيها عام ١٦٤ هـ وصلى عليه الخليفة المهدي وهو يعد من فقهاء المدينة . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٠٦ وتهذيب ٦ : ٣٤٣ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤٣٦] .

يفضل أبا بكر وعمر ، وأن يحب عثمان وعلياً ، وأن يصلي على من مات من أهل القبلة بذنب ، وأن لا ينطق في الله شيئاً .

قلت : قوله في هاتين الروايتين « لا ينطق في الله شيئاً » قد بينه في رواية أبي يوسف وهو « أن لا ينطق في الله بشيء من رأيه ، ولكنه يصفه بما وصف به نفسه » .

فهذا ذم من الأئمة لكل من يتكلم في صفات الرب بغير ما أخبر به الرسول ، فكيف بالذين يجعلون الكتاب والسنة لا يفيد علماً ، ويقدمون رأيهم على ذلك ، مع فساده من وجوه كثيرة ؟ !

وروى هشام ، عن محمد ، عن أبي حنيفة وأبي يوسف ، وهو قول محمد قالوا : السنة التي عليها أمر الناس أن لا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، ويخرج من الإسلام ، ولا يشك في الدين ـ يقول الرجل : لا أدري أمؤمن أنا أو كافر ، ولا يقول بالقدر ، ولا يخرج على المسلمين بالسيف ، ويقدم من يقدم من أصحاب النبي ﷺ ويفضل من فضل .

وذكروا عن أبي يوسف أنه قال : مذهب أهل الجماعة عندنا ، وما أدركنا عليه جماعة أهل الفقه ممن لم يأخذ من البدع والأهواء ، أن لا يشتم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا يذكر فيهم عيباً ، ولا يذكر ما شجر بينهم فيحرف القلوب عنهم ، وأن لا يشك بأنهم مؤمنون ، ولا يكفر أحداً من أهل القبلة ممن يقر بالإسلام ويؤمن بالقرآن ، ولا يخرجه من الإيمان بمعصية إن كانت فيه ، ولا يقول بقول أهل القدر ، ولا يخاصم في الدين ، فإنها من أعظم البدع .

فهذا قول أهل السنة والجماعة ، ولا ينبغي لأحد أن يقول في هذا كيف ولم ؟. ولا ينبغي أن يخبر السائل عن هذا إلا بالنهي له عن المسألة وترك المجالسة والمشي معه إن عاد ، ولا ينبغي لأحد من أهل السنة والجماعة أن يخالط أحداً من أهل الأهواء حتى يصاحبه ويكون خاصته ، مخافة أن يستزله

أو يستزل غيره بصحبة هذا . قال : والخصومة في الدين بدعة ، وما ينقض أهل الأهواء بعضهم على بعض بدعة محدثة ، لو كانت فضلاً لسبق إليها أصحاب رسول الله ﷺ واتباعهم ، فهم كانوا عليها أقوى ولها أبصر ، وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [1] ، ولم يأمره بالجدال ، ولو شاء لأنزل حججاً وقال له : قل كذا وكذا . وقال أبو يوسف : دعوا قول أصحاب الخصومات وأهل البدع في الأهواء من المرجئة ، والرافضة ، والزيدية [2] ، والمشبهة ، والشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمعتزلة ، والجهمية .

قالوا : وروي عن محمد . قال : أبو بكر وعمر أفضل من علي . قلت ما ذكر أبو يوسف في أمر الجدال هو يشبه كلام كثير من أئمة السنة - يشبه كلام الإمام أحمد وغيره ، وفيه بسط وتفصيل ليس هذا موضعه .

ولهذا كان بشير بن الوليد صاحب أبي يوسف يحب أحمد ، ويميل إليه ، فإن أبا يوسف كان أميل إلى الحديث من غيره . والله أعلم وأحكم .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٢٠ .

(٢) فرقة من فرق الشيعة فنسبها يعود إلى زيد بن علي بن الحسين وهي أقرب الفرق الشيعية إلى السنة .
فالإمامة عندهم تكون عن طريق الخيار في نسل العلويين والفاطميين ، وأن إمامة علي تمت عن طريق الوصف لا عن طريق التشخيص الثابت منهم لا يتبرأون من أبي بكر وعمر بن الخطاب ولا يطعنون في خلافتهما ، فهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وقد تأثروا إلى حد كبير في عقائدهم بمدرسة المعتزلة وأتباع الزيدية يوجدون في اليمن الجنوبية والشمالية وجنوب الجزيرة العربية .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

خصائص السور القصار

السور القصار في أواخر المصحف متناسبة ، فسورة « اقرأ » هي أول ما نزل من القرآن ، ولهذا افتتحت بالأمر بالقراءة ، وختمت بالأمر بالسجود ، ووسطت بالصلاة التي أفضل أقوالها وأولها بعد التحريم هو القراءة ، وأفضل أفعالها وآخرها قبل التحليل هو السجود ، ولهذا لما أمر بأن يقرأ أنزل عليه بعدها المدثر ، لأجل التبليغ فقيل له : ﴿ **قُمْ فَأَنْذِرْ** ﴾ [١] فبالأولى صار نبياً ، وبالثانية صار رسولاً ، ولهذا خوطب بالمتدثر ، وهو المتدفىء من برد الرعب والفزع الحاصل بعظمة ما دهمه لما رجع إلى خديجة ترجف بوادره ، وقال دثروني دثروني [٢] ، فكأنه نهي عن الاستدفاء وأمر بالقيام للإنذار ، كما خوطب في « المزمل » وهو المتلفف للنوم لما أمر بالقيام إلى الصلاة ، فلما

---

(١) سورة المدثر آية رقم ٢ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٧٤ سورة المدثر ١ باب ٤٩٢٢، ٢ باب ﴿ **قم فانذر** ﴾ ٣ باب وربك فكبر ٤٩٢٤ حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حرب ، حدثنا يحيى ، قال : سألت أبا سلمة أي القرآن أنزل أول . . . ؟ فقال : ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ فقلت (أنبئت أنه ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبدالله : أي القرآن أنزل أول . . ؟ فقال : ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ فقلت أنبئت أنه ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ فقال : لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ـ ﷺ قال رسول الله ـ ﷺ ـ جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض ، فأتيت خديجة فقلت : وذكره .

أمر في هذه السورة بالقراءة ذكر في التي تليها نزول القرآن ليلة القدر ، وذكر فيها ﴿ تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ [1] ، وفي « المعارج » عروج الملائكة والروح ، وفي « النبأ » قيام الملائكة والروح ، فذكر الصعود والنزول والقيام ، ثم في التي تليها تلاوته على المنذرين حيث قال : ﴿ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً ، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [2] .

فهذه السور الثلاث منتظمة للقرآن أمراً به وذكراً لنزوله ولتلاوة الرسول له على المنذرين ، ثم سورة « الزلزلة » و« العاديات » و« القارعة » و« إلتكاثر » متضمنة لذكر اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب ، وكل واحد من القرآن واليوم الآخر قيل هو النبأ العظيم .

ثم سورة « العصر » و« الهمزة » و« الفيل » و« لايلاف » و« أرأيت » و« الكوثر » و« الكافرون » و« النصر » و«تبت» متضمنة لذكر الأعمال حسنها وسيئها ، وإن كان لكل سورة خاصة .

وأما سورة « الإخلاص » و« المعوذتان » ففي الإخلاص الثناء على الله ، وفي المعوذتين دعاء العبد ربه ليعيذه ، والثناء مقرون بالدعاء ، كما قرن بينهما في أم القرآن المقسومة بين الرب والعبد : نصفها ثناء للرب ، ونصفها دعاء للعبد ، والمناسبة في ذلك ظاهرة ، فإن أول الإيمان بالرسول : الإيمان بما جاء به من الرسالة وهو القرآن ، ثم الإيمان بمقصود ذلك وغايته وهو ما ينتهي الأمر إليه من النعيم والعذاب ، وهو الجزاء ، ثم معرفة طريق المقصود وسببه وهو الأعمال : خيرها ليفعل ، وشرها ليترك .

ثم ختم المصحف بحقيقة الإيمان وهو ذكر الله ودعاؤه ، كما بنيت عليه أم القرآن ، فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق . والمنطق قسمان : خبر وإنشاء ، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبراً عن الله ، كنصف الفاتحة ،

---

(١) سورة القدر آية رقم ٤ .

(٢) سورة البينة آية رقم ٢ ـ ٣ .

وسورة الإخلاص .

وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب وأنفعه وأوجبه ما كان طلباً من الله ، كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين .

فهرست الجزء السادس
من
كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
سورة الفرقان	٣
فصل الكبائر وقوى الإنسان الثلاث	٣
فصل في خصائص البشر	٦
فصل في أنواع الفضائل	٧
فصل في تقسيم الأمم	٩
فصل في القوة الشهوية والغضبية	١١
فصل	١٢
سورة النمل	١٦
سورة الأحزاب	١٨
فصل في ألفاظ الطلاق واختلاف العلماء فيها	٢٤
سورة الزمر	٢٨
فصل في أنواع السماع	٣١
فصل في مصادر المياه في الأرض	٣٩
فصل في قبول توبة العاصين وأصحاب الذنوب	٤٠
سورة الشورى	٥٨
سورة الزخرف	٦٢

الموضوع ———— الصفحة

سورة الأحقاف ٦٤
سورة قٓ ٦٧
سورة المجادلة ٦٩
سورة الطلاق ٧٢
فصل ٧٦
سورة التحريم ٧٩
سورة الملك ٨٢
سورة القلم ٨٣
فصل في هول يوم القيامة ٩٤
سورة التكوير ٩٩
سورة الأعلى ١٠١
فصل أقوال الفرق في صفات الله تعالى ١٠٨
فصل في صفات الله تعالى ١١٦
فصل ١٢٤
فصل في الأعلى والعظيم ١٢٩
فصل ١٤٢
فصل ١٤٤
فصل ١٤٧
فصل هداية الله إلى خلقه ١٥٣
فصل الله تعالى قدَّر المقادير لخلقه ١٥٧
فصل في تقدير أرزاق البهائم والحيوانات ١٦٦
فصل ١٧٠
فصل ١٨٥
فصل ١٨٩
فصل في الخشية والتذكر ١٩٢
فصل في الإنابة والتذكر ١٩٨

الموضوع ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــ الصفحة

فصل ٢٠٣
فصل أهل النار لا يموتون ولا يحيون ٢٠٩
فصل التزكية ذكرت في كتب الله السابقة ٢١٢
فصل أصل الدين بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ٢١٨
فصل أهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبته الله لنفسه ٢٢٣
سورة الغاشية ٢٣٠
سورة البلد ٢٣٤
سورة الشمس ٢٣٨
فصل في الرد على المكذبين بالقدر ٢٥٣
سورة العلق ٢٦٠
فصل في الإستدلال على وجود الخالق تعالى ٢٧٣
فصل الأعراض دليل الحدوث عند المتكلمين ٢٧٩
فصل في أطوار الخلق والبعث ٢٨٣
فصل الإنسان بين خلقه وتكريم الله له ٢٩٥
فصل من خصائص الرسالة الهداية والرحمة ٣١٣
فصل في حقيقة الأكرم ٣١٧
فصل القرآن الكريم خطاب للبشرية كلها ٣٢٣
فصل نسيان الإنسان لربه نسيان لنفسه ٣٤٣
فصل الخالق لا يكون إلا قادراً ٣٤٨
فصل وسائل إثبات صفات الكمال لله تعالى ٣٥١
فصل ٣٥٨
فصل ٣٦٣
فصل ٣٦٥
فصل إثبات الصفات الخبرية ٣٨٢
فصل علماء الكلام أصلوا أصولاً تناقض الحق ٤٢٢
فصل لوازم القدرة والمشيئة ٤٣٩

الموضوع	الصفحة

فصل علم الله تعالى وأخباره به ٤٤١
فصل أصول الدين تأخذ من الكتاب والسنة ٤٤٦
خصائص السور القصار ٤٥٢
الفهرست ٤٥٥